روايات الهلال

خيري شلبي



صهاريج اللؤلؤ

العدد ٦٤٥ - سبتمبر ٢٠٠٢ - رجب ١٤٢٣هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتيرا التحرير
محمود قاسم
مؤمن حسين

●

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ٢٥٠ ,١ دينار- السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - دبى/ أبو ظبى ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٥٠ درهما - فلسطين ٤ دولار - سويسرا ٧ فرنكات

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

صهاريج اللؤلؤ

(دراما موسيقية)

بقلم

خيرى شلبى



دار الهلال

الغلاف للفنان :
جمال هلال

«الحركة الأولى»
وتر مشدود

(١)

للصبح فى شارع أحمد ماهر - أكبر وأهم شارع تجارى فى مدينة طنطا - نكهة شديدة الخصوبة والحميمية يحبها عبد البصير الصوفانى منذ فجر صباه ، بل يعشقها عشقه لآلة الكمان : رائحة المياه التى نثرتها عربات الرش يتشربها الأسفلت الرمادى يتحول بها إلى مرآة مصقولة تعكس وجه السماء المجللة بوقار المشيب ؛ الفول المدمس والحمص المطبوخ والخبز الساخن الطازج ، البخور النفاذ القادم من مسجد السيد أحمد البدوى ؛ الأبخرة المتصاعدة من المزارع المتاخمة المحيطة بالمدينة ، الصابون المعطر المصحوب بزنيط الأطفال فى الملجأ القريب وقد استيقظوا وبدأوا فى غسل وجوههم ؛ الأقمشة الجديدة فى محلات مجاورة ؛ الهريسة الغارقة فى السمن البلدى السايح فوق عربات يد على نواصى الحارات المتفرعة من الشارع ، مياه الحموم العطنة التى تندلق فجأة فى الحوارى الضيقة لتسرح بين شقوق البلاطات العريضة نحو بالوعات أعدها الاحتلال الإنجليزى وعنى بها كما عنى بنظافة الشارع وتجديد رصفه ؛ المازوت المحترق له فى الخياشيم رغم الزخم والزناخة وقع لذيذ وهو يتصاعد فى وشيش آتيا من محطة السكة الحديد بمبناها الأبيض البديع المحاط بسور حديدى . كل تلك الروائح يبعثرها فجأة صوت صفير القطارات الداخلة إلى المحطة والخارجة منها يذكر الآذان أن فرصة السفر قائمة على الدوام ميسورة على طول الخط . سرعان ما يمتلىء الشارع بناس من مختلف الأشكال والألوان والأحجام ؛ الكل ماض فى حيوية وسرعة وهرولة ؛ البعض يبسبس بختام الصلاة وترديد الأدعية الصباحية ؛ والبعض الآخر صامت منهمك فى السير لا يلوى على شىء .

فى مثل هذه الساعة من صباح كل يوم ، حيث تعلن ساعة المحطة عن تمام الثامنة ، لابد أن يكون عبد البصير قد أتى من بيتهم فى حارة المليجى المتفرعة من هذا الشارع ، يخب فى جلبابه البوبلين الأبيض النظيف ذى الياقة والأساور،

بجسمه النحيف ، وقوامه المربوع ، الذى يشى بأن طوله فى قابل السنين لن يزيد كثيرا ، وبوجهه الأسمر القمحى ذى الرأس الكبير، غليظ الملامح ، واسع الفم كبير الأسنان ، فى عينه حول خفيف يلمع كلما أغرق فى الضحك ، بصوت خشن جعجاع متفتت الإيقاع ؛ الصلابة فى ملامحه توحى بأنه قوى الشكيمة حاد التصميم ؛ إلا أن كثيرا من الإرهاق فى هذه الملامح يعطيه عمراً أزيد من سنواته العشر ، فكأنه رجل عجوز فى حجم طفل .

مفتاح المحل فى يده ؛ فلأنه تمرد على المدرسة ولم يطق الانخراط فى نظام ، أو احتمال شخطة مدرس ، أو تمقيق العين فى قراءة كتاب ، فقد أصبح منوطا به الاستيقاظ مبكرا كل يوم ليفتح المحل ويبقى فيه إلى أن يستيقظ أبوه الحاج مصطفى الصوفانى من النوم قرب الضحى العالى ، فيتناول فطوره وقهوته ، ثم يخطف رجله إلى المحل .

الصبى الذى كان يدوخ البيت كله أثناء إيقاظه للذهاب إلى المدرسة أصبح يستيقظ من تلقاء نفسه . وملامح وجهه التى كانت تتجمد من فرط الضيق والاكتئاب فى طريقه إلى المدرسة أصبحت منبسطة فى مرح كبير مفعم بالتفاؤل والحب فى طريقه إلى المحل . هو يحب هذه المهمة ، بل لعله تمرد على المدرسة لكى تؤول به الحال إلى هذه المهمة التى أصبح يؤديها بشكل أدهش الجميع . ولو أن أباه فهم سر ولع الصبى الشقى بهذه المهمة فلربما حال بينه وبينها إلى الأبد ، لأنها كانت ضد ما خططه لمستقبل الصبى ، أو على الأقل ما كان يرجوه له فى هذا المستقبل .

يصل الصبى إلى المحل فيفتحه كمن يفتح باب مخدعه الشخصى أو محرابه الخاص . المحل مميز عن بقية المحلات المجاورة والمقابلة ، لم يتغير شكله العتيق وإن احتفظ بأناقته ونظافته ؛ أَنِفَ الحاج مصطفى من منظر الأبواب الصاج التى ترتفع وتهبط فى جرار ، احتفظ بالباب الخشبى المزخرف ذى الدرفتين يغلق - بعد سنكرة الكالون بالمفتاح - بدرفيل حديدى وقفل كبير .

يفتح الباب على مصراعيه ، يزحزح البترينة الزجاجية المستطيلة واقفة ، عن

المكتب الشبيه ببنك صغير واطىء ؛ يثبتها فى مكانها المعتاد لصق الباب فتحتل نصف فتحته؛ ينظف الزجاج بالفوطة الزفزة حتى يلمع جيدا ؛ يفتح بابها الجرار، يعدل وضع آلتى العود فوق الرف العلوى ، بحيث يكون أحدهما فى اتجاه الشارع بأوتاره والآخر معكوس يظهر للشارع ظهر صندوقه الشبيه بجبة الكمثرى المصنوع من خشب الجوز اللامع المخطط بالطول فكأنه حزمة من الخطوط منبعجة ومربوطة من أعلاها فى ذراع معقوف ملىء بالأصابع الممسكة بالأوتار . ثم يعدل آلتى الكمان على الرف السفلى بنفس النظام ، ثم يغلق باب البترينة ويتجه إلى الدواليب الزجاجية المصممة على مقاس الحوائط والمليئة بآلات موسيقية معظمها أعواد وكمان وقانون ورق وطبلة ، وعلب صغيرة فيها مجاميع أوتار لمختلف الآلات. ينظف زجاج هذه الدواليب بالفوطة الزفرة ، بعدها يمسك بالمقشة فيكنس الأرض المغطاة بالخشب اللامع . وإذ ينتهى من كل ذلك يبدأ قلبه فى الخفقان ؛ يتلذذ بتأجيل ما يود فعله حتى يجيئه القهوجى بصينية الشاى وفوقها شريحة خبز محشوة بالفول والحمص ، وأخرى محشوة بالطعمية الساخنة .

* * *

الحاج مصطفى الصوفانى أشهر صانع لآلتى العود والكمان فى مصر كلها تلك مهنته ، ورثها أبا عن جد . يقال إن جده البعيد جدا ، الذى انحدر من قبيلة مغربية الأصل وفدت مع المعز لدين الله الفاطمى ، والذى استوطن مدينة طنطا فى رحاب شيخه الأثير السيد أحمد البدوى ، كان موسيقيا فى الأساس يعزف على آلة العود فى فرقة صييت شهير من حاشية البدوى ، وكان خبيراً فى إصلاح الآلة، فامتدت الخبرة فى نسله ، فما أن وصلت إلى الحاج مصطفى حتى أصبحت مهنة غاية فى الدقة والإتقان ، ولأن الحاج مصطفى كان هو الآخر موسيقيا فى الأساس لا يكف عن السفر ، فإنه كان يتفنن فى صناعة الآلة كأنه سيعزف عليها بنفسه ، فاكتسب شهرة عظيمة بين الأوساط الموسيقية بمختلف مستوياتها وأنواعها ، وأصبح كل عازف ماهر يعزو حسن أداء آلته إلى كونها من صنع الحاج مصطفى الصوفانى .

وإذا كانت الآلة الوترية الخشبية يعلو سعرها كلما ازدادت قدما وعتاقة ؛ حيث يتداخل خشب الصندوق فى بعضه ويتصلب فيكسب الصوت رنينا صافيا عميقا ؛ فإن الآلــة تخرج من بين يدى الحاج مصطفى جديدة قديمة فى نفس الآن . فإن حدث أى عطل أو خلل فى أيـــة آلـــة فى يد أى عازف فى أى فرقة فإن أول نصيحة يتلقاها من الأقدمين : عليك بالحاج مصطفى فى طنطا . لابد للحاج أن يكشف عن سبب للعطل لم يخطر ببـال العـازف ، وربما لا يخطر على بال أى صانع آخر .

خبير هو فى تشريح الآلة ؛ فى استنطاقها بأصابع ذهبية لا مثيل لمرونتها بين العازفين المحترفين . العازف وهو يتسلم منه الآلة يلذ له أن يستمع إلى نصائح الحاج مصطفى فى كيفية التعامل معها ، فكأنه استمع إلى محاضرة قيمة فى أصول العزف . لم يكن الحاج مصطفى يبخل بعلمه على أحد من زبائنه الدائمين ؛ لكنه إلى ذلك لم يكن ليترك خبرته هذه تضيع هدراً بالمجان . افتتح معهدا لتعليم الموسيقى استأجر له شقة واسعة فى شارع النحاس ، بينها وبين مقر الورشة خطوات قليلة . أصبح يقسم وقته بالتساوى ؛ بعد الغداء ونومة القيلولة القصيرة يمر على الورشة ليوجه الصنايعية ويتابع منجزاتهم لمدة ساعتين ؛ يعود بعدها إلى المحل ليتسلم ما عساه يكون قد ورد إلى المحل من آلات للتصليح فيرسلها إلى الورشة بالتعليمات المطلوبة ؛ يمكث فى المحل حتى السابعة مساء ؛ ثم يتجه إلى المعهد يستقبل تلاميذه القادمين من كل مكان ، فيعهد ببعضهم إلى ثلاثة من المدربين يتعاونون معه ، وينفرد هو بالبعض الآخر ، هم أولئك الذين تعلموا العزف بالفعل ولم يعد ينقصهم سوى التمرس والمران واستكشاف عوالم النغم والمقامات وكيفية التنقل بينها فى يسر وسلاسة ؛ تلك مادة يسميها بـ «فقه النغم» . ساعتان فقط هما مدة الدرس ؛ بعدهما يعود إلى المحل فيبقى فيه حتى منتصف الليل يستقبل زواره الخصوصيين من الموسيقيين المحترفين قادمين إليه من بلاد مختلفة قاصدين التقاط هذه الحصة الليلية الرائقة .

أكثر الفنانين حبا للحاج مصطفى وإدمانا لزيارته ابن طنطا الحميم المطرب الملحن محمد [illegible]وزى ؛ فكل بضعة أسابيع يفاجأ به داخلا عليه ؛ إما لإصلاح

عوده ، أو لطلب عود جديد . والحاج مصطفى دائم البحث عن الأعواد القديمة التالفة ، يشتريها كخردة ، يحولها إلى تحف ثمينة يحتفظ بها فى أماكن خفية ليهديها لأحبائه أمثال محمد فوزى أو محمد القصبجى أو السنباطى أو فريد الأطرش أو غيرهم من فرسان النغم الذين يقدرون جودة الآلة وخصوصيتها .

اللحظات الحميمة عند الصبى هى تلك التى يتجمع فيها عند أبيه رهط من الفنانين المشهورين ، ويدور الحوار بينهم حول طرائف العزف ونوعية الأوتار وأصالة الخشب . آلة الكمان تنتقل بينهم لتجريبها ؛ تصير شيئا مبهرا ، هذا الصندوق الرقيق الصغير ذو الضلوع البارزة كيف يتحول بين أيديهم إلى عالم من الأنغام لا تحده حدود ؛ أنغام تطوف به فى رحلات ساحرة لا يود لها أن تنتهى . كل نغمة تخرج من أصابعهم ، وكل كلمة تخرج من أفواههم تستقر فى أذن الصبى تنحفر فى رأسه . عيونه النهمة تتابع حركات الأصابع اليسرى فوق الأوتار ؛ واليد اليمنى ممسكة بالقوس الذى يلثم الأوتار فى صعوده وهبوطه فتتفجر الحياة فى أنغام . بات الصبى يحفظ الأوتار والنغمات والمقامات عن ظهر قلب ، أصبحت أصابع يسراه تتحرك فى الهواء مع كل نغم يسمعه كأنه يترك بصماته على الأنغام .

ما يدهش الصبى أن أباه الذى يفيض بخبرته على كل زواره سواء طلبوها أو لم يطلبوها ، قد حرم هذه الخبرة على أبنائه ، وبالأخص على هذا الولد ، لما يلمحه فيه من ميل نحو الموسيقى . أحيانا ينتبه فجأة على ابنه يستمع بشغف هائل أو يتابع حركة العازف ، فيعلو وجهه الغضب ، وفى الحال يخترع له شيئا يشغله عن المتابعة . فإذا ما أسرع الصبى بإنهاء الشغل والعودة إلى المتابعة صرفه إلى البيت : روح نام أنت يا عبده عشان تعرف تصحى بدرى . فيمشى الصبى على مضض ، يكاد ينفجر من الغيظ . إلى أن جاءته مهمة البقاء فى المحل على الطبطاب ، فوجدها فرصة عظيمة للانفراد بآلة الكمان .

* * *

ها هو ذا ينتهى من الأكل وشرب الشاى . بشغف عظيم يسحب آلة الكمان المدخرة تحت البنك فى علبتها الجلدية الأنيقة فى انتظار صاحب النصيب الذى ينبغى أن يدفع فيها - كما يقول الحاج مصطفى - مهراً غاليا قبل أن يمسك قوسها . لم يعد الصبى يندهش من كونه استطاع تجميع الأنغام فى سياق منطقى متآلف ، تماما كأنه استطاع أن يكتب باللغة الفصحى فى أسلوب منمق متسق تتضافر فيه الجملة مع الجملة فى تصاعد نحو ذروة تؤدى إلى معنى . إنما الذى يشغله الآن هو محاولة استعادة التقاسيم الساحرة التى سبق أن استمع إليها من أبيه ومن زواره فرسان النغم . كم يود لو يعزفها بنصها ، إن أنغامها تكاد تكون على طرف القوس . وهو موقن من أنها كامنة فى صدره وأن هذه الأوتار تعرفها ولا تريد أن تبوح له بها لأنه بعد صغيرلا يعرف كيف يركبها . لكنه لن يكف عن مطارحتها الهوى ، لسوف يشهر قوسه يغمده فى أحشائها حتى نخاع النخاع يهز كل شعرة فيها هزة النشوة . إنه يشعر أن فى قلبه بركان من الانفعالات لابد أن يزلزل هذه الأوتار .

على أن الوقت سرعان ما يمضى ، وموعد قدوم أبيه شبح مسلط على رقبته . فلو فاجأه أبوه متلبسا بالعزف فلن يتركه إلا بعد أن يدمر هذه الكمان فوق رأسه. عقدة أبيه فى الحياة أن يتصل أحد من أبنائه بهذا العالم ، لا يريد لأحد منهم أن يتعلم الموسيقى !! لماذا ؟ لا أحد يدرى !! كل ما يدرونه أن الأب يفقد أعصابه ، يركبه الجنون والهياج إذا أبدى أحد أبنائه مجرد الرغبة فى تعلم العزف على إحدى الآلات !!

هذا ما زرع السخط والحقد فى قلب الصبى على أبيه . هذا هو الشىء الوحيد الذى لا يعجبه فى أبيه . إنه ليعجب غاية العجب من أبيه الذى تختفى رقته فجأة ، فيتحول إلى كائن شرس حينما تفاتحه أم عبده على استحياء فى هواية ابنها للموسيقى ، ينتفض متغيرا فى الحال :

- «لا أحب أن أسمع هذه السيرة مرة ثانية !! موته عندى أحسن!!» .

تقول محاولة ضبط أعصابها :

- «يوه ! علام هذا كله ؟!» .

يشوه فى وجهها بأصابعه الطويلة :

- «هذا ما أقوله فلا تسألينى لماذا !!» .

لكنه فى ساعة الرواقة يمكن أن يتكلم فى التفاصيل ؛ كأن يقول مثلا :

- «الفن فى بلادنا مستقبله غير مضمون !! الفنان الذى يصل لابد أن يبيع شرفه وضميره وكل حاجة محترمة فى حياته !! بلادنا هذه بلاد العوالم ! لا ينفع فيها سوى القواد والراقصة والخباص والحرامى !! أنا رجل حاج ! أصلى وأصوم ! لا أقبل أن يطلع من صلبى واحد فسدان !! ليس كل من يقع فى غواية الموسيقى يصير رياض السنباطى ولا أم كلثوم ولا عبد الوهاب !! هؤلاء حالات استثنائية لا تتكرر بسهولة !! أنت نفسك يا امرأة شفت بعينيك ابن الجيران كيف تعب وماذا فعل لكى يصل ويصبح مشهوراً !! ولولا أنه موهوب جداً ! وله ظروفه الخاصة ما كان أصبح شيئاً ! حتى أخته الكبيرة حاول منعها من طريق الفن فلم يقدر ! وظل بعيدا عنها غضبان عليها لحد ما عملت نفسها بمجهودها وربنا هيأ لها من يأخذ بيدها!!» .

كان يقصد بابن الجيران هذا المطرب الكبير محمود فهمى ، الذى بات ملء السمع والبصر . ذلك أن البيت المواجه لبيتهم هو بيت أسرة محمود فهمى ؛ أبوه عمدة إحدى القرى المجاورة ، تزوج من امرأة ثانية فى المدينة واستأجر لها هذا البيت . امرأة غاية فى الجمال ، طول بعرض ، شقراء واسعة العينين كالجنية ، غزيرة الشعر والحلاوة ، كل ملمح فى وجهها مشرق فاتن ، أنجبت منه بنتين : بهيجة وسها . ومن الواضح أن الأب فهمى الحلوانى من عشاق الغناء ولذلك فالطيور على أشكالها تقع ، وإلا ما تزوج من هذه السيدة التى تموت عشقا فى الغناء والموسيقى ، وإذا كانت ظلت مجرد هاوية ذواقة فإن ابنتيها احترفتا الغناء منذ وقت مبكر ، تيمنا بأخيهما من أبيهما .

عبد البصير ينتظر حلول المساء بفارغ الصبر ، ليجلس على الكنبة الملتصقة بالشباك فى الحجرة المطلة على الحارة فى مواجهة بيت آل فهمى . الشباك

مواجه للشباك وكلاهما مفتوح ؛ وحجرة صالون الجيران تغص كل ليلة بالزوار المطربشين الملطوشـين بلوثة الفن ، شيوخ معممين ، أفندية ، نساء فاتنات ، آلات موسـيقية ؛ تماما كأنهم فى حفل كبيـر يلعبون فيه دور الفنانين والجمهور معا . الفقرات تتتابع طوال السهرة فى سخاء يفيض بالتجليات التى لا تتحقق إلا فى مثل هـذه الجلسات الحميمة بين جمهور كله من العشاق المتيمين بالفن : فاصل من العزف على القانون ؛ تقاسيم على الكمان ، على العود ، على الناى ، الرق أيضا له تقاسيم منفردة ؛ فاصل من التواشيح للشيخ فلان ، أدوار وطقاطيق وموشحات أندلسية ؛ مواويل وغناء بلدى ؛ تصل السهرة إلى وجد مشبوب ، لا بأس أن تقوم إحداهن فتتحزم بشال أحد الحضور وتنخرط فى رقص يحيى العظام وهى رميم .

* * *

كم ود الصبى لو كان مقيما وسط سامر الأنس هذا مشاركا فيه . إن البهجة الطاغية المجنونة تشيله عن الأرض . كل الجيران مثله يشاركون فى البهجة من شرفاتهم ونوافذهم . ولقد يتسلل شخص فى الضوء الكابى لفانوس الحارة ، ربما طفل أو فتاة ، ليغيب فى شقة الأنس قليلا ثم يخرج منتعشا فرحا ؛ لقد بعثه أحد الجيران ليطلب من الجوق أغنية أو تقاسيم آلة معينة . يسمع الصبى فى مكمنه رد الست أم بهيجة بصوتها الريان المجلجل بشخللة الذهب :

– « من عينى يا حبيبى ! كله جاى ! قل لجدتك لو طلبت عبده الحامولى نبعث من يجىء به !!» .

تصدح الأنغام والأصوات فى انطلاقة وحرية تكاد تصل إلى حد الجنون ، فإن خفت صوت الانطلاق فقد يحتج الجيران. يعرف الصبى ضربة مفتاح أبيه فى كالون الباب ، يستوى فى الحال ممددا على الكنبة متصنعا الإغراق فى النوم . فهو يعرف أن أباه بمجرد دخوله يتجه فورا إلى هذه الحجرة يخترقها إلى الشباك لكى يغلقه إذا كان مفتوحا ، ولكن فى هدوء شديد حتى لا يسبب حرجاً للسامرين، وحتى لا يبدو كأنه يحتج على أفراحهم وهو الرجل المحب للموسيقى. لا ينسى وهو

خارج أن يلكز الصبى فى جنبه بحركة من يعرف أنه يتصنع النوم ، قائلا : «قوم يا ولد نام جوه !» ؛ ثم يمضى إلى حجرة نومه المجاورة فيخلع ثيابه ويرتدى الجلباب ويتوجه إلى مائدة العشاء . ولأن الصبى لابد أن يمر عليه فى الردهة فى طريقه إلى الحجرة التى ينام فيها مع إخوته الخمسة فإنه تعلم كيف يمشى مغمض العينين دهشانا كأنه كان بالفعل فى نوم عميق ، مع أن رأسه قد تخونه لحظتها فتتمايل طربا مع النغم الذى ابتعد قليلا فصار أكثر صفاء واحتمالا .

(٢)

من ذا الذى يستطيع إيقاف تدفق الإلهام إذا انبرى واتسق مع لحظته العبقرية المجهولة التى لا يعرف أحد متى تجىء ولا كيف ؟! فجأة وجد الفتى نفسه فى قلب هذه اللحظة دون أن يدرى : اتصلت أنامله بالأوتار بحركة القوس العروق بالأعصاب فجرى الدم السحرى فيما بينهما . القوس يصافح الأوتار يلثمها من قريب ومن بعيد ، وأنامل يسراه صاعدة هابطة على رقبة الكمان بسرعة الطائر تمهد للقوس سككا داخل عروق الأوتار . الوتر الواحد يصير مجموعة أوتار بمجرد أن يلمسه الأصبع فى جزء آخر منه . حقا إن المران هو صلب المهارة ، أساس الإبداع . التقاسيم الدسمة البارعة التى طالما سمعها من العازفين المحترفين المهرة ها هى ذى تجىء على أوتاره بنصها ، بل يزيد عليها الكثير من الزخارف يصل بها إلى قفلات أخرى أكثر إشباعا لأحاسيسه المتفجرة . مهارته إذن تحققت فى الانتقال من مقام إلى مقام فى سرعة الضوء . ما يجعل الإحساس يلهث وراء النغم فيلتقطه إيقاع النقلة التالية فى حنوٍ شديد قبل أن يهوى من حالق .

لا يعرف الفتى من أين تجيئه هذه الأنغام التى يشعر بجدتها وطزاجتها . انفتحت جميع مسامه على الأوتار بحيث لا يعرف متى يتوقف ولا كيف ؛ فالنغم يمتط ويطرح أنغاما متناسقة كباقات الورد . لكن الجو أظلم فجأة بظل قاتم أخذ يزداد كثافة شيئا فشيئا ، فسرى فى مفاصله شعور شتائى أحس معه بالبرودة

رغم حر أغسطس الخانق ورغم العرق المتصبب من جبينه . خيل إليه أن الشمس غابت وراء سحاب عابر ، فرفع رأسه قليلا ، محدقا فى الضوء ، ففوجىء بهم الموت واقفا قبالته . كان أبوه قد دخل منذ برهة فوقف مسمرا فى مكانه ينتفض من الغضب . أما الفتى فقد تجمد ؛ لكن صدره تفسخ ، صار القوس بعيدا عن الأوتار ، فيما أنمل بنصره لا يزال يضغط على الوتر الخامس ، وبقايا صيحة الوتر المقطومة يكتمل تدفقها فى صدره .

لم ينتبه الأب إلى حلاوة ما سمعه من عزف ؛ فتدفقت الصواعق الشـ ـة على صفحة وجهه الشاحب فيما جعل يردد .

– «ما شاء الله ! أهـذه هى الوصـية التى لقنتها لك ؟! تهزأ بأوامرى يا كلب ؟!» .

وتقدم نحوه ؛ نزع الكمان برفق من تحت ذقنه ، وباليد الأخرى نزع القوس ، وضعهما معا على البنك ، وبغلظة أمسك بالفتى من خناقه فأوقفه ، بكل ما فيه من قوة هوى بكفه على صدغه . مال الولد ، كاد رأسه يصطدم بالبنك من عنف الصفعة ؛ لولا أن الكف اليسرى تلقفت صدغه الآخر بصفعة أعنف ، ثم أصابه الجنون ، ظل يهوى عليه ركلا وتشليتا وتبكيسا ؛ والولد . لا ينطق ، بل يتزحزح شيئا فشيئا حتى اقترب من الباب فأطلق للريح ساقيه ؛ وكان يشعر أن للعقاب بقية ، ربما أعنف ؛ لكنه كان تحت خدر شعور لذيد نابع من يقينه بأنه قد تعلم ما كان يود أن يتعلمه . كان رغم الألم والشعور بالمهانة يشعر أنه من الآن قد أصبح شيئا آخر قد امتلك كنزا لا تساويه كل كنوز الفراعنة .

* * *

روعت الأم حينما وقع بصرها على ابنها وما وضح عليه من هوان ، من انتفاخ فى مواضع من وجهه ، وكدمات زرقاء تحت عينيه كأن عصابة شريرة كانت تنوى قتله ، إلى بحيرة من الدمع السخين ينثال على خديه فى صمت . عرفت فى الحال أن هذا من فعل أبيه ؛ فابنها الذى تعرفه ليس يقبل احتمال هذا من أحد . أصابها الكدر ، انهمرت دموعها ، صارت كالمحاصرة لا تعرف منفذا تدخل منه

لإصلاح العلاقة بين هذا الولد بالذات وأبيه . تعرف أن موقف الأب غامض لا سبيل إلى الاقتناع به ؛ فإذا كان الأب نفسه يعشق الموسيقى ويعلمها للناس ويصنع لهم آلاتها ؛ فكيف به يلوم ابنه إذا ورث عنه عشق النغم ؟! هل فى مقدورها أو مقدور أحد أن يمنع ابنها عن حب النغم ؟! هل تستطيع أن تمحو ملامح الأب عن وجه ابنها ؟! ما ذنب الولد إذا كان مولودا هكذا ؟ هل نسى أبوه تلك الليالى الجميلة وهو يهيئها نفسيا فى قلب الفراش بالعزف على آلة العود أو آلة الكمان ؟! هل نسى أنه كان يأتيها فى الفراش على نغم ، فيظل النغم راكبا عليهما معا حتى ساعة متأخرة من ليل الساهرين فى الحجرة المقابلة ؟! هل نسى أن تلك الأنغام التى طالما صبها فى أذنيها وفى رحمها معا هى التى أزالت الحواجز بينهما وقربت قلبها من قلبه ؟! كيف إذن يتنكر لبذرته يكاد يقتل الولد من الضرب بكل هذه القسوة ؟! يجب أن يعرف أنه المسئول عن فشل الولد فى المدرسة منذ أن حرم عليه الإمساك بأية آلة إلا لعرضها على الزبائن أو الإتيان بها من الورشة ، لقد غرس الولد فى الورشة منذ تعلم المشى ، لم يترك له فرصة يذاكر فيها دروسه ، فمن المدرسة إلى الورشة ، ومن الورشة إلى البيت ، ومن البيت إلى المدرسة ، إنه هو الذى كبرها فى دماغ الولد منذ أول مرة نبه عليه فيها بألا يتعلم الموسيقى . ومالها هذه المهنة يارب ؟ أليست هى مصدر رزقنا ؟ أليست تدخل السرور والبهجة على الناس تقيم لهم الأفراح ؟ مالنا نحن إذا كان بعض أهلها غير محترمين فى نظر الناس فيسمونهم بالآلاتية أو العوالم ؟ هل أصابعك مثل بعضها ؟ وماذا لو تعلم الولد الموسيقى ؟ هل كل من يتعلمها يصبح من بتوع المزيكة ؟ لماذا تصبح أم بهيجة عقدة نفسه ؟ تفتح بيتها لطوائف من الناس من كل لون بعضهم شكله يقرف الكلب تتركهم يدهسون بيتها غير مراعية خاطر بناتها اللائى يتمتعن بجمال الحوريات!! هذا صحيح ولكن مالنا نحن ؟ يتصور أن ابنه يمكن أن يفعل هذا فى بيته ؟ من أدراه أن الولد لن يكون عازفا كبيرا مشهورا محترماً ؟!

لا تملك الأم سوى أن تهذى بهذه الكلمات فى غضب تجاهد فى كتمانه حتى لا يسمع صوتها أحد خارج الباب ، فى صوت ينفضه البكاء نفضا أليما وحتى إذا تعبت من البكاء والهذيان ربتت على كتف ابنها قائلة :

- «أمـرك لله يا بنى ! لك رب يسـمى الكريم ! هـذا هـو الله وهذه هى حكمته !!» .

ثم تمضى متبخترة كالأوزة نحو المطبخ تعصر له كوبا من الليمون يهدىء نفسه المضطربة الجريحة .

* * *

جاء العقاب كما توقع بالضبط : لا شأن لك بالمحل بعد اليوم ومن صبيحة ربنا تتوجه إلى الورشة لتساعد الصنايعية فهذه على الأقل مهنة إن تعلمتها نجوت من الفقر ، صحيح أن مستقبل هذه المهنة فى بلادنا غير مضمون لكنها مهنة محترمة ، فأن يكون صانعا ماهراً للآلات خير من أن يقال إن ابن الحاج مصطفى الصوفانى يشتغل آلاتيا مع العوالم . ثم يضيف الأب الثائر فى ثقة عجيبة :

- «طبعا لابد أن يكون مصيرك مع العوالم لأنك لم تحصل على شهادة تؤهلك لأن تكون موسيقيا محترما ! ولست موهوبِ الصوت لتكون مطربا ملحنا كمحمد فوزى ورياض السنباطى !! صحيح أن بعضهم مثلك لا يحمل شهادة ولكن هذا الزمن قد مضى ولن يعود !! هؤلاء ناس خدمتهم ظروفهم والظروف دائما غير مضمونة !! قم يا روح أمك نم لتصحو مبكرا تذهب إلى الورشة !!» .

أصبحت الورشة قدره وملاذه فى نفس الآن . فى شهور قليلة أصبح من أنبغ الصنايعية فى كل وحدات الآلة ، وبالأخص فى عملية تركيب الأوتار وشدها وضبطها . قال الصنايعية القدامى إن لأصابع الولد «نفس» كنفس المرأة الشاطرة فى الطبخ ؛ فكل آلة قام بشد أوتارها لم تحتج من أبيه لمراجعة تذكر . لحظة المراجعة يسأل الأب فى إعجاب :

- « من الذى ركب هذه الأوتار؟» .

يقول الفتى

- «أنا!» .

يعتقل الأب إعجابه ، يكتفى بالغمغمة التى تعنى الرضا . وقد اعتاء عبد البصير ألا ينتظر كلمة تشجيع واحدة من أبيه . لم يعد يشغله سوى مراقبة يد أبيه حين تقترب من جيبه ؛ عندها يرقص قلبه فرحا بالبقشيش الذى سيغمره به عند انصرافه ؛ زيادة على اليومية البسيطة التى قررها له مع أنه يستحق أجر صنايعى ماهر لاسيما وأنه أصبح قادراً على تركيب الآلة كلها من ألفها إلى يائها، ناهيك عن قدرته على استخدام منشار خرط الخشب ، وتنعيم الخشب وزخرفته بالدوائر المثقوبة فى وجه آلة العود بالذات ، كل تلك الأعمال كان يمارسها بمزاج رائق وحب استطلاع كبير . كان يشعر كأن فى الخشب روحا كروح الإنسان تستجيب لتحسساته بل تكاد تتسامر معه تبثه أسرارها الخفية .

الأسرار التى تكشفت له من خلال تصنيع الآلة جعلته يشعر تجاه هذه المهنة بإجلال كبير . أسرار لم يكن ليتاح له معرفتها من ممارسة العزف إلا بعد سنين طويلة من التجارب المضنية . أما الآن فقد أصبح قادرا على تقويم الآلة ومعرفة مدى أصالتها بمجرد الإمساك بها ، على تمييز الفروق الدقيقة بين أنوا ع خشبها رغم اختفاء لونه .

لم يبتعد عن عالمه الأثير كما أراد له أبوه ، بل انغمس فيه حتى النخا ع؛ لاسيما وقد عهد إليه أبوه بإصلاح آلات الكمان الواردة إلى الورشة سواء من التجار أو من العازفين ؛ يرمم الصندوق يصلبه حتى ولو كان هشيما ، يعيد خرط عنق جديد ويلحمه فى الصندوق بكفاءة عالية ، يغير الأوتار ؛ فكان عليه بالضرورة أن يجرب الآلة بعد صياغتها ليطمئن على مهارته . فى العادة يكون التجريب فاصلا من العزف ربما استغرق نصف ساعة يشفى غليله فيها ، كأنه ينتقم من عدو لدود يحول بينه وبين العزف وها هو ذا ينكل به شر تنكيل بالإمعان فى العزف وفى المعننة . أبداً ما كان ليصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والتجلى لو أنه استمر فى المحل، فلقد وجد هنا جمهورا من السميعة القراريين يهتفون به أن

أحد، ويصفقون له بانبهار ؛ إنه جمهور الصنايعية الذين بهرتهم موهبته الفذة بالقياس إلى عمره الذى لا يزيد على أربعة عشر عاما . وقد قام بينهم حلف صامت على أن يكتموا أمــر هــذا العزف عن أبيه ، بل يتطوع أحد الصبيان بمراقبة الشارع من طرف خفى لإعلان خبر وصــول الأب فى موعده الذى اعتاد أن يخلفه من حين لحين .

* * *

فى صبيحة كل يوم يصطبح بالموسيقى . ففى الثامنة من صباح كل يوم تطوف فرقة موسيقى ملجأ الأيتام بالشوارع . لابد أن يخرج هو ليتفرج عليها وهى تعزف الأناشيد الحماسية والأغنيات الوطنية ، العازفون صبيان فى مثل سنه أو أكبر قليلا ، تشكيلة تجمع بين الطفولة والصبا والشباب . وهو يشعر نحوهم بتعاطف كبير ، بل يشعر أنه يكاد يكون مثلهم مجهول الأب والأم ؛ يقشعر بدنه من فرط السعادة إذ يكتشف أن الموسيقى جمعت بينه وبينهم فى أخوة حميمة ، وأنه يود لو ينضم إلى طابورهم ، ويبيت معهم داخل عنابرهم ، ففى هذه العنابر وحدها يحقق ما يريد دون أن يرعبه أحد أو يحبس حريته أحد .

بعد الظهر بقليل تمر فرقة موسيقى المطافىء متجهة إلى كشك الموسيقى . فى المدينة أكثر من كشك للموسيقى ، فى الحدائق العامة والمتنزهات . عزف متواصل للموسيقى الغربية والشرقية معا . جميع رواد الحدائق والمتنزهات يتلقون هذا الفضل العميم بامتنان عظيم ؛ يجلسون جماعات أو فرادى فى حالة إنصات عميق حتى وهم يتبادلون الحديث الهامس لا تغفل آذانهم عن المعزوف ؛ فالموسيقى غذاء يومى يتنفسه الناس مع الهواء النقى .

فى كل أسبوع يمر استعراض شرطة المحافظة بجميع فصائلها وأقسامها ، تتقدمها فرقة موسيقى الشرطة وهى طائفة كبيرة من العازفين على الكاسات والطبول والطرمبيت والقرب والآلات النحاسية ذات الأبواق . منظر طالما بهر عبد البصير . على أن أكثر ما بهره وملك عليه لبه هو عالم القسس والرهبان والكنائس بكل ما يتصل بها من جمعيات خيرية للإنفاق عليها .

طنطا بلد شيخ العرب السيد أحمد البدوى بمهرجان مولده السنوى الضخم، تضم عددا كبيراً من الكنائس تتبع مختلف الملل والمذاهب ، أرثوذوكسية وبروتستنتية وغير ذلك . لكل كنيسة جمعية خيرية من أتباعها ، تضم إلى جانب الأقباط عددا لا يستهان به من الأجانب : طليان وإنجليز وفرنسيس وألمان وروس وأمريكان وأفارقة ،. كلهم - وياللعجب حقا - خبراء فى الموسيقى . هكذا يبدون لعبد البصير المنبهر حينما يتناقشون فيها مع أبيه . وكلهم - يا لشديد العجب - من أصدقاء أبيه الحميمين . فأبوه الحاج ، شيخ الطريق الدرويش ، لا يجد غضاضة فى أن يترك صحابه فى القعدة عنده ليخطف صلاة العصر جماعة فى مسجد البدوى ؛ يعود بعدها ليكمل المناقشة معهم ؛ بل إن بعضهم من القسس ذوى العمائم السوداء كان ينظر فى ساعته فجأة لينبه الحاج مصطفى إلى أن صلاة العشاء قد وجبت فعليه أن يؤجل الكلام فى هذه النقطة أو تلك حتى يعود من الصلاة . فحينما يعود تصافحه جميع أصواتهم فى ورع وتقوى: حرماً يا حاج، فيقول : جمعاً إن شاء الله ، فيعلق واحد منهم : اللهم تقبل منا جميعا .

تدور المناقشات فى أمور غريبة يحتدم فيها الحوار احتداما شديداً ، يتعمق ، فتكثر المعلومات بصورة مبهرة ، حول مخترع المقام الفلانى ، هل هو فلان العربى ، أم علان الطليانى ؟ ومن الذى قام بتطوير آلة العود ؟ وفى سنة كم أضيفت إليه التعديلات الفلانية ؟ ومن هو أول عازف على آلة الكمان من المطربين والعرب ؟ ومتى دخلت الآلات الغربية فى التخت الشرقى وعلى يد من ؟ وهل أضر ذلك بالموسيقى الشرقية أم أفادها ؟ ومن الذى بدأ التطوير الحقيقى فى الأغنية العربية؟ هل هو محمد القصبجى أم محمد عبد الوهاب أم السنباطى أم سيد درويش أم ذلك الشاب الطنطاوى الأصيل محمد فوزى ؟ هل صحيح أن القصبجى قال بلسانه فى حديث صحفى أنه علم تلميذه عبد الوهاب لكن التلميذ تفوق على كل الأساتذة ؟ هل يتطور عبد الوهاب فى كل ساعة من ساعات عمره كما يقول عشاقه ؟ هل تطوره إبداع ذاتى أصيل أم اقتباس من الموسيقى الغربية ؟ ما حدود الاقتباس ومتى يتحول إلى سرقة ؟ داوود حسنى سيد الملحنين المعاصرين

هل أخذ حظه من التقدير أم أنه ظلم ؟ هل الشيخ زكريا أحمد تلميذ سيد درويش أم تلميذ الشيخ على محمود ؟ أم تراه ذروة لدور المشايخ فى الفن الغنائى ؟ ما مدى استفادة عبد الوهاب والسنباطى من الغناء الدينى ؟ السنباطى عملاق أى نعم ، والشيخ زكريا أحمد ضخم الحجم ما فى ذلك شك ، والشيخ على محمود هو الأب الشرعى لجميع الملحنين والمغنين هذا صحيح ، لكن مدارس التجديد الحقيقية فى تاريخ الأغنية ثلاثة فهل تعرفونها ؟ هى القصبجى وعبد الوهاب وابن طنطا محمد فوزى ؛ تلك حقيقة ثابتة لكنها لا تنفى عملقة الآخرين وأهميتهم فى طريق التطوير .. الخ .. الخ .

أطرف من هذه المناقشات ، مناقشات طائفة أخرى من رواد المحل أصدقاء الحاج مصطفى ، طائفة معظم رجالها من الباشوات والبكوات المتيمين بالموسيقى . كل واحد منهم فى بيته آلة بيانو كجزء لا يتجزأ من أثاث البيت ، وآلة جرامفون ، وعدد من الأسطوانات يقدر بالآلاف . بعضهم فى قصره غرفة خاصة للاستماع ، يؤمها الصحاب والأحباب فى ساعات طويلة من الوجد ، حيث تتطوح الطرابيش وتدق العصى الأبنوس وجه الأرض فى نشوة وطرب ، وتعلو صيحات الإعجاب والافتتان . بعضهم أيضا لديه أذن موسيقية غاية فى الحساسية والدقة ، لدية قدرة على أداء الجملة الموسيقية بصوته دون أن يخطىء فى حرف .

مناقشاتهم تختلف عن مناقشات الطائفة السابقة ، فهى تخلو من الأسلوب العلمى والمصطلحات ؛ إنما هى تعكس آراء انطباعية ووجهات نظر تذوقية لا تخلو من فهم عميق لفن الموسيقى ، ولا تخلو من اجتهاد دءوب فى الإلمام بتاريخها وتاريخ عباقرتها فى العالم ، إلا أنها مناقشات كثيرا ما تأخذ طابعا غوغائيا طريفا قد يصل إلى حد العراك بالألسن والتراشق بالتهم الغليظة حول معلومات واستنتاجات تبدأ بأن يمعن أحدهم فى مدح السيمفونية الفلانية وما تثيره فيه من مشاعر وأفكار وأخيلة ، فيعقب آخر بامتداح سيمفونية الدانوب الأزرق ، وفى حمية الانفعال والحماسة يدندن جملة أو جملتين من هذه السيمفونية ؛ فإذا بأحدهم يستوقفه فى هزء وسخرية : حيلك يا باشا ! هذه الجملة ليست من

الدانوب الأزرق ! لقد اختلط عليك الأمر ويبدو أنك تسمع بأذنك السفلية !! فيرد هذا صائحا بانفعال حاد :

– «أنت آخر من يتكلم فى الموسيقى ! أنت بالكثير تتذوق طبلة المسحراتى وشغل الموالدية أما الموسيقى ذات الفكر والفن فإنها لا تنفعك من غير مؤاخذة !!».

فيحتد صاحبنا :

– «أنا أسمع الموسيقى الكلاسيك من قبل أن تولد يا باشا !! وأبى من قبلى ! والموسيقى مثل الطعام فى بيتنا ليل نهار ! لو دخلت أية حجرة فى بيتنا تسمع فيها الموسيقى ! الموسيقى مخزنة فى حجرات بيتنا من قديم الأزل !!» .

– «ولكن أخلاقك غير موسيقية مع الأسف ! وإلا فهل من الأخلاق أن تقاطعنى وتتهمنى بالتخريف؟!» .

– «إنما أردت أن أصحح معلوماتك فحسب

– «تراهن ؟!» .

– «أراهن ! إذا اتضح أن الجملة التى قلتها لنا الآن من الدانوب الأزرق يحق لى أن أدوس بالحذاء على رقبتك !! وإن كنت أنت صادقا يحق لك أن تفعل نفس الفعل معى!!» .

– «اتفقنا ! نرسل هذا الولد يأتى لنا بالأسطوانة أما الجرامفون فموجود هنا!!» .

والحاج مصطفى يفقد القدرة على تهدئة الموقف، فهو يعرف جيدا أن الموقف لن يحسم إلا بمجىء الأسطوانتين . ولقد يحدث هذا بالفعل ، تنطلق الكارتة أو السيارة الفورد إلى أحد القصور لتعود بعد دقائق بالأسطوانتين . يقوم الذى ادعى بترديد الجملة من جديد ، فيقوم الحاج مصطفى بكتابتها على النوتة الموسيقية ثم يقرأها على الجميع بحروفها الهجائية الصوتية : صول فاصول .. الخ ، ثم يدير اسطوانة الدانوب الأزرق ، ليتضح أن الجملة ليست منها. هنا يقوم الهيجان واللغط ، وتترى الألفاظ القاسية بغير حساب ، لكن المنهزم يتشبث بآخر سهم فى جعبة الأمل :

- «انتظـــروا من فضلكم ! هـــو يقـــول إن هـــذه الجملة من السيـمفـونيـة الخامسة ! ولكى تكتمل شروط الرهان لابد أن نسمع هذه السيمفونية ! صح يا باشوات؟!» .

يقولون جميعا مع هز رءوسهم المنكسة فى استمتاع :

- «صح !» .

فالواقع أنهم راغبون فى الاستماع فحسب ، الاستماع هو الهدف النهائى من كل هذا الزئيط . يستمعون إلى السيمفونية الخامسة فيتضح أن الجملة المزعومة ليست منها أيضا . حينئذ تتفجر الضحكات الصـــاعقة التى تهزأ بالإثنين . ويقف المنهزم الثانى قـــائلا وهو يمسح عرق الخجل بمدنيل حريرى أزرق :

- «واحـدة بواحـدة يا باشـا ! لا تدوس على رقـبـتى ولا أدوس على رقـبـتك !! نسمع الدانوب الأزرق مرة ثانية على رواقة !!» .

فتدار الأسطوانة مرة ومرات .

لرجال الجمعيات الخيرية الكنسية نشاط هائل فى الموسيقى ؛ فثمة احتفالات عديدة تقيمها الكنائس كل عام : عيد القيامة ، عيد الميلاد ، عيد العذراء ، عيد العيد ، المهم أن حفلة موسيقية مبهرة لابد أن تقام فى الكنيسة الفلانية أو الكنيسة العلانية . الحفل فى العادة تسبقه فترة حماسة دعائية ، تتردد خلالها الأخبار المفرحة فى المحل : لسوف تدعو الجمعية هذا العام أشهر عازف بيانو إيطالى ، أشهر عازف كمان فى العالم ؛ أكبر مؤلف موسيقى معاصر ، أضخم فرقة أوبرالية فى أوروبا .. الخ .. الخ .

يظن الصبى أن هذه الأخبار محض أساطير وفشر خيالى ، لكنه يفاجأ قبل الحفل بأيام أن بطاقات الدعوة قد تم طبعها ووضع على رأسها هذا الاسم أو ذاك من الأسماء الضخمة .

الحاج مصطفى لا يتحرج من دخول الكنيسة عندئذ ، بل لا يتحرج من اختيار ركن قصى فيها لاستقبال القبلة وإقامة الصلاة ولو على سبيل المجاملة والتحية لبيت الله . يحضر الحفلات الموسيقية كلها من البدء حتى الختام ، وعبد البصير -

سراً – فى أعقابه . تمسى هذه الحفلات زاداً للحديث فى الدكان يستمر شهوراً طويلة . عبد البصير يستمع ويشاهد ويتأمل حركات العازفين وكيفية تعاملهم مع الآلات الموسيقية .

فى هـــذه الحـفــلات الحافــلة العظيـمــــة عـــرف الكثـيـر من المعلومـات ، إكتشف الكثير من الحقائق والأسرار . عرف معنى السماعى والبشرف والسوناتا واللونجا والتحميلة والسيمفونية . أدهشته سرعة إيقاع العزف ، حركة الأقواس فـوق الأوتار . أذهلته الفروق الهـائلة بين عـزف العرب وعـزف الأجـانب ، بين هذه الموسيقى والمــوسيقى التى تربى عليها . استوقفته فروق كثيرة وأسئلة كثـيرة فمـلأه كل ذلك متعة ومعرفة وتطلعا ، فتح عينيه على آفاق أبعد وأرحب ، أنعش خـيـالـه ، زرع فى قلبـه فى وجــــدانه فى عـقله بذوراً كـان يشـعـر لهـا كل يوم باخضرار جديد .

* * *

المليم فوق المليم ، القرش إلى القرش ، خمسة فعشرة فعشرين جنيها هى كل ما استطاع ادخاره من مصروفه وبقشيشاته . فى الساعة المخصصة لغدائه انطلق إلى حى قحافة ويده فى جيب جلبابه قابضة على المبلغ . توقف أمام بيت عـتيق كـان ذات يوم بعـيـد على شىء من العز والأبهة . طرق البـاب سـائلا عن إبراهيم افندى غطاس ، القـانونجى . هو فى الأصل سـاعـاتى وله محل لإصـلاح الساعات فى نفس الحى ، لكنه يفتحه على مزاجه .

إبراهيم افندى غطاس عـازف مـاهر على آلة القـانون ، سـوقـه فى الأفـراح رائجة. كل ليلة فى حى أو فى بلد ، مع العوالم والآلاتية ، وجوده فى الفرقة يرفع من سعرها ومن شأنها أيضا ، فقد يقطع نصف السـهرة يشنف آذان المدعوين بالتقسيم على القانون . فيستر بذلك عوار الفرقة . الكل يناديه : إبراهيم أفندى ، وهو الوحيد بين جميع الآلاتية فى منطقة الغربية إذا قيل ابراهيم افندى فالمقصود دائما ابراهيم افندى غطاس لا غيره . أصحاب الأفراح يطلبونه بالإسم ليتحول به

منظر الفرقة - أيا كان مستواها - إلى تخت شرقى محترم يضفى على الفرح عزا وأبهة .

له عين واحدة سليمة ، والأخرى مجرد بحيرة زرقاء داكنة لا معالم لها ، لكن ذلك لم يقلل من جمال وجهه الأبيض المستطيل بشعره القصير المنسق بسوالف طويلة ، وقوامه الفارع المهيب ، وبذلته السموكنج الأزلية الأنيقة التى لم يغيرها طول عمره ولا تزال جديدة متماسكة ، والببيون الأسود المعتقل بين حردتى الياقة البيضاء المنشاة ، وأساور القميص بأزرارها المذهبة ، والخاتم الذهبى فى بنصره الطويل يلمع فصه الياقوتى وهو يحرك راحتيه فوق أوتار آلة القانون .

أصابعه تدغدغ أوتار القانون فى مواضع شديدة الحساسية يقف لأنغامها شعر رأس المستمع ، وقد يفقد وقاره فى صيحة إعجاب عالية . معروف أنه علم نفسه بنفسه ، فهو خريج الملجأ العتيق فى طنطا ، زامل فيه عيالا أصبحوا من أكابر الموسيقيين كمحمد حسن الشجاعى ، تلقى مبادىء علم الموسيقى فحسب ، وتكفل هو بالباقى ، وكان لا ينى يردد فى خجل فخور أمام موجات الإعجاب :

- «الشجاعى كان زميلى يوما بيوم ! لكنها الظروف ! إن المرء فى هذه الحياة خاضع لحظه وظروفه مهما اجتهد !» .

وكان صديقا للحاج مصطفى الصوفانى ، الذى يحترمه ويقدم له الكرسى كلما زاره فى العصارى لمجرد الجلوس معه :

- «اقعد يا ابراهيم افندى ! ما برنامجك الليلة ؟» .

ولابد أن يرد عليه قائلا :

- «عندنا فرح فى قطور ! عندنا حفلة طهور فى الشين !» .

ولابد أن يقول الحاج مصطفى :

- «ربنا يزيد أفراحك وأفراحنا !» .

فيرد إبراهيم أفندى فى ابتهال :

- «يارب !» .

ثم يدور الحوار بينهما حول النحاس باشا ومحاصرة القوات الإنجليزية للقصر الملكى ، وحول محمد عبد الوهاب الذى سيموت فى طلب البكوية دون أن ينالها ، وأم كلثوم التى ضربت منيرة المهدية وأسمهان ونادرة وفتحية أحمد مطربة القطرين . أحاديث لا تنتهى بينهما ، لا رابط بينها سوى تيار الحب ونغمة العشق الدافئة .

كل ذلك كان ماثلا أمام عبد البصير وهو واقف بباب إبراهيم افندى غطاس ينتظر الإذن بالدخول . جاءه صوته من حجرة النوم الجوانية : ادخل يا عبده . فدخل عبده يتعثر فى أوان وحلل ، متجها إلى سرير نحاسى بعمدان وناموسية مرفوعة . فلما اعتادت عينه ظلام الحجرة ميز على السرير وجه إبراهيم افندى ، الذى اعتدل فى رقدته مسندا ظهره للمخدة ، يرتدى جلبابا من الزفير المقلم وطاقية من نفس القماشة . سحبت يده علبة السجائر المعدن ممتاز المبططة فأشعل سيجارة وصاح فى طلب الشاى ، ومال برأسه نحو عبد البصير :

– «خطوة عزيزة يا ابن الحبيب ! خيرا إن شاء الله !» .

صارت عينه الشبيهة بالبحيرة الزرقاء ، المجاورة لعبد البصير ، تتماوج فى حيرة وارتباك ، لكن عينه السليمة كانت ثاقبة حينما سلطها على وجه عبد البصير يحاول أن يستشف بها معنى هذه الزيارة غير المتوقعة خاصة أن عبد البصير يعلم أنه ليس من عادته الصحو فى مثل هذه الساعة المبكرة . أدرك عبد البصير هذا فأخرج النقود من جيبه وقدمها له :

– «تحويشة عمرى يا عم ابراهيم افندى!» .

ذعر الرجل من هول المبلغ . ظن لأول وهلة أن الفتى جاء يخطب ابنته أستير الشبيهة بالوردة النضرة ، متحديا الحاجز الدينى ، ولكن كيف يكون الأمر هكذا؟ ..

– «ما الأمر يا عبده ؟!» .

– «خدمة بسيطة يا عم ابراهيم افندى ! لا يقدر أحد على تقديمها إلا غيرك!!» .

- «وهل أنا أخدم بالفلوس يا ولدى ؟!» .

- «ما قصدت هذا ! الحكاية وما فيها أن أبى عنده كمنجة أثرية ثمينة ! أريدك أن تشتريها لى !» .

ضحك إبراهيم افندى ضحكة عالية أفزعت الدواجن المتناثرة فى حوش البيت .

- «أنا الذى أشتريها لك من أبيك ؟! يا لها من نكتة !» .

- «سأشرح لك ! ..» .

وحكى له مجمل القصة ، بكل خلفياتها وأبعادها ، وكيف أن إبراهيم افندى عليه أن يشترى هذه الكمنجة من أبيه على اسم أحد أصدقائه المهمين ، ثم يسلمها له فى السر ، ليخفيها فى مكان بعيد عن البيت ، فى بيت خالته مثلا ، ليعزف عليها وقتما يشاء . إلا أن إبراهيم افندى توقف عند كلمة عابرة قالها عبد البصير وشعر هو أنها أصابته فى منطقة موجعة ، فاعتدل جالسا فى حركة احتجاج :

- «ولكن كيف يكون العوالم سبة فى جبين الزمن ؟! كيف يعتقد الحاج مصطفى هذا الاعتقاد ؟! لا حق له أبدا فى هذا !!» .

اعتذر عبد البصير :

- «ليس كل العوالم يا عم ابراهيم افندى !!» .

زام الرجل فى نبرة تأمل هادئة ، ثم قال مداعبا :

- «وهل تنوى أن تشتغل بهذه الكمنجة مع العوالم

- «لا طبعا ! سأعزف عليها لمزاجى الخاص !!» .

- «وتظن أن أباك يرضى يبيع هذه الحتة الثمينة بعشرين جنيها فقط ؟!» .

- «لك أنت يرضى ! إنه لا يؤخر لك طلبا ! وهذه هى الخدمة التى تقدمها لى ! أنا أولى بها من غيرى !» .

- «اطمئن ! سأفوت عليه بعد العصر وربنا يسهل !»

ودس المبلغ تحت المخدة . فى الحال وقف عبد البصير مستأذنا فى العودة إلى الورشة بسرعة ، مؤجلا شرب الشاى ليوم مجيئه لاستلام الكمان . قال هذا وهو

يعلم أن طلب الشاى الذى هتف به إبراهيم أفندى كان مجرد صيحة فحسب كجزء من طقس الضيافة لابد من تأديته حتى ولو لم يتم .

الكلمة التى نغصت قلب إبراهيم أفندى غطاس وشغلت باله قول عبد البصير إن أباه يأنف من اشتغال ابنه بين العوالم والآلاتية فكيف يكون هذا هو رأى الحاج مصطفى – صديقه الحميم – فى الفئة التى ينتمى هو إليها ؟! الحاج إذن يحتقره فى نفسه باعتباره من فئة الآلاتية هذه . تجسد أمام عينيه وجه الحاج مصطفى رصينا بريئا محترما عاشقا للموسيقى ولأهلها . فكر أن الولد ربما يكون قد أضاف هذه العبارة من عنده ، لكنه تذكر أن الولد قالها عفو الخاطر على سجيته، أى أنها أفلتت منه وإذن فهو لم يختلقها . ثم خطر له أن العملية من أساسها دليل كاف على صدق الولد ، فأن يلجأ إليه ليشترى له الكمان من أبيه فى السر على اسم شخص آخر معناه أن صديقه الحاج مصطفى يحرم على ابنه الاتصال بالموسيقى حتى لا تكون مهنة له فيما بعد .

شوح إبراهيم افندى بذراعه يطرد ذبابة ملحاحة ، وقال لنفسه إن كل واحد حر فى تربية أولاده ؛ لكنه مع ذلك شعر بالمرارة فى حلقه ، كاد يغضب بالفعل من صديق عمره . طافت بشفتيه ابتسامة صبيانية ساخرة ، تمتم فى أثرها : طيب يا حاج مصطفى ! ها هو ذا الولد سيصبح غصبا عنك موسيقيا ! وأنت الذى سيبيع له الكمان ولابد أن تبيعها له ! إن الممنوع مرغوب فما بالك لو كان الممنوع حلالاً طيبا أنعم الله به على عباده ؟ كيف فاتتك هذه النكتة يا حاج مصطفى وأنت الرجل الداير المحنك ؟!

ثم اندس تحت الغطاء كأنه يهرب من شىء سيوغر صدره ضد صديقه الحميم .

* * *

فى مساء نفس اليوم كان إبراهيم افندى غطاس بكامل بذلته السموكن يمسى على الحاج مصطفى الصوفانى فى دكانه :

– «ليلتك سعيدة يا حاج !» .

- «أسعد الله مساءك !» .

وهب واقفا فى استقباله كالعادة ، مسلما عليه بحرارة لا مجال للشك فى صدقها ، نفض له مقعدة الكرسى بالمنفضة الريش ، نادى على الجرسون طلب منه مضاعفة فنجان القهوة . أشعل سيجارتين قدم واحدة لصديقه قال من خلال سحائب الدخان الغزيرة المتدفقة من منخريه الكبيرين :

- «لا حفلات الليلة ؟!» .

- «على فيض الكريم !» .

- «كله على الله !» .

وفيما يرشفان القهوة تلصصت عين إبراهيم افندى تحت البنك ، تلكأت عند صندوق كمان على غاية من دقة الصنع والنعومة ، فاطمأن إلى أن الكمان المرجوة لا تزال موجودة فى هذا الصندوق . ثم قال بعد برهة وجيزة :

- «لى صديق عزيز كالحاج مصطفى كلفنى بخدمة وعنده عشم كبير فى صداقتى لك !» .

- «أنا تحت أمرك وأمره !» .

- «بالمناسبة هو عازف كمان عجوز فى فرقة من فرق القاهرة ! يبحث عن آلة أصيلة ! وقصدنى فى هذه المهمة ! وعشمى أن ترفع رأسى !» .

ثم راقب عين الحاج مصطفى وهى تتجه تلقائيا إلى ذلك الصندوق الأنيق المركون تحت البنك . قال الحاج مصطفى :

- «مستعد هو لدفع ما أطلبه فى هديةٍ ثمينة تبقى معه العمر كله ؟!» .

- «رقبتى سدادة نيابة عنه لأن ظروفه تعبانة قليلا بسبب عدم وجود آلة تناسبه !!» .

نهض الحاج مصطفى واتجه نحو البنك ، سحب من تحته الصندوق الأنيق ذا الطابع الأثرى . فتحه برفق ، رفع آلة الكمان ، سطعت هيبتها ناصعة ؛ كان لها ظل مهيب ، فى خرطة الصندوق ، فى الرقبة ، فى مفاتيح الأوتار ، فى القوس ، كانت كالعروس المجلوة ليلة زفافها . من منظرها كاد إبراهيم افندى يستخسرها

فى الولد ، إذ هى تليق بعازف حريف فى فرقة أم كلثوم مثلا ، لا بولد يتعلم عليها وقد يبهدلها ؛ لكنه ما لبث حتى تمتم لنفسه : نصيبه . ثم تلقى الآلة فى صدره وصار يتفحصها بإمعان وانبهار ، يداعب أوتارها بأنامله المدربة ، يطرب لصوتها العميق الرنين ذى الترددات العالية . قال وهو يحيطها بساعديه فى حنو :

– «كم تطلب فيها يا حاج مصطفى ؟!» .

– «لك أنت لا لغيرك هات ثلاثين جنيها ! إلا مليم واحد يفتح الله !» .

حقيقة الأمر أن إبراهيم افندى غطاس كان يتوقع ملبغا أكبر ، فأدرك فى الحال أن صديقه يعزه حقا . إلا أن الحاج مصطفى أضاف بلهجة مليئة بالدهاء إلى حد أنها بدت غاية فى البراءة :

– «أقسم بشباك النبى الذى زرته أنك لو قلت لصاحبك هذا أنك دفعت فيها خمسين أو ستين أو حتى مائة فلن يراجعك !! هذا إذا كان بالفعل يفهم فى هذه الجواهر ! وما دمت قد قلت إنه عجوز فى فرقة محترفة فلابد إذن أنه يفهم ! إن مجرد كونه كلمك أنت لتتوسط له عندى دليل على أنه ولد دقرم يعرف أماكن الآلات الأصيلة !!» .

العبارة الأولى قرصت إبراهيم افندى غطاس قرصة عابرة لكنها موجعة ، جعلته يهمل الاستماع لبقية الكلام . ولم يصبر على الرد ، فاضطر إلى القول فى لطف خبيث :

– «لست أنوى أن أبيعها له فلست سمسار آلات إنما أنا ألقط رزقى من إصلاح آلات أكثر دقة هى الساعات ! وأما الفن فهواية ! ما ذهبت إلى فرح إلا وكان هدفى وشاغلى هو إمتاع نفسى باللعب على آلة القانون التى أموت فى عشقها وأستمتع باستمتاع المستمعين بلعبى يساوى فى نظرى كنوز الأرض كلها !! ولعلك لا تعرف أن الحسنة التى تجىء من وراء ذلك لا أمد يدى أبدا لتلقيها إنما هى توضع مطوية فى جيبى فلا أعدها إلا عندما أبدأ فى الصرف منها !! بالمناسبة ما رأيك فى طائفة الآلاتية يا حاج مصطفى ؟!» .

جميع ألوان الانفعالات المدهوشة الغامضة تواترت على صفحة وجه الحاج

مصطفى ، محاولا استكناه سر هذا الكلام الغريب الذى يقوله صديقه . أخيرا أراح نفسه من الحيرة وقال :

- «أولا أنا لا أقصد ما سرح إليه بالك !! إنما قصدت أن أبين لك قيمة التحفة التى بين يديك ! ثانيا كل مهنة فيها كفوها ! من هذا ومن ذاك ! أصابعك ليست مثل بعضها يا إبراهيم افندى ! وأى فرقة يكون فيها فنان مثلك لابد أن أحترمها بالطبع ! أظنك تعرف أننى أميز بين الفنان الحقيقى ولا بس المزيكة !! لكن قل لى أنت : ما مناسبة هذا السؤال الآن ؟!» .

أسقط فى يد إبراهيم افندى غطاس ؛ فلم يجد سوى الضحكة العالية الرنانة يدارى بها شعوره بالحرج ، ختمها بقوله :

- «لست فى حاجة لأن أعرفك ! المهم الآن أن نصل إلى سعر الخلاصة فى هذه العروس !! ماذا يكون موقفك إذا علمت أننى سأدفع من جيبى ؟! وأننى لابد أن أجامل صاحبى هذا لأنه يستأهل الخدمة من ناحية ويمكن أن يفتح لنا سككا فى القاهرة من ناحية أخرى !!» .

مد الحاج مصطفى يده بحركة تعنى : هات الكمنجة ، فبهت إبراهيم افندى لبرهة وهو يقدمها له فى حركة من يقول : هاك بضاعتك فلسنا لصوصا ، ثم فرك يديه فى قليل من الحرج ، وبطرف عينه السليمة راقب الحاج مصطفى ؛ الذى فرش للكمان قطعة من القطيفة القرمزية ، ثم أنامها فى مرقدها المنحوت فى قلب علبتها ، ثم وضع فوقها قطعة أخرى من نفس القطيفة ، وشبك القوس فى مرقده فى غطاء الصندوق ؛ أغلق الصندوق بحرص وعناية : تراك ترك . ثم إذا به يزيح الصندوق نحو إبراهيم أفندى قائلا فى جدية :

- «خلاص يا إبراهيم افندى ! خذها وقد وصل ثمنها !! اعتبرها هدية منى لك !!»

ارتعش صوت ابراهيم افندى من فرط الشعور بالامتنان ، وقال كأنه على وشك البكاء :

- «كذا ؟! هى إذن أغلى مما توقعت ! وعلى كل حال ! سبحانك يا رب ! هى

ليست ذاهبة بعيدا ! من القلب للقلب رسول فعلا ! ولكن اسمح لى مادام الأمر هكذا أن أدفع فيها ثمنا رمزيا لا يساوى ثمن قوسها وحده ولكننا اتفقنا على أنها هدية !!» .

وشفع هذه العبارة الأخيرة بورقتين من فئة العشرة جنيهات حمراء كبيرة . قدمهما مفرودتين . فنظر فيهما الحاج مصطفى لبرهة فى قليل من الأسف ، لكنه ما لبث حتى هز رأسه بحركة من يقول : سمعا وطاعة . تناول الورقتين ، دسهما فى جيبه :

– «حلال على صاحبك ! ليست خسارة فيك !!» .

قال إبراهيم افندى وهو يقدم نحوه علبة سجائره :

– «صدقنى إنه يستأهلها ويستأهلها ! اقتنعت الآن أنها مكتوبة له ! فسبحان الله مقسم الأرزاق!!» .

وكان يود لو يضيف : ها أنت ذا بنفسك تسهم فى تنفيذ القدر الذى لا مفر منه لإبنك ! أردت منعه عن الكمان ولكن الله يخدر أعصابك حتى تسلم فيها من أجله بتراب الفلوس ! تمكر بالله والله خير الماكرين ! إذا كان الله قد زرع فى قلب الولد حب الكمان فيكف بك تنزعه ؟! آه لو عرف ابن آدم منا حجمه فترك ما لله لله . إلا أن إبراهيم افندى غطاس خشى أن يزلف لسانه بكلمة تفسد المقدور على شدة يقينه من تمام مشيئة الله ؛ فلزم الصمت برهة طويلة فبدا كأنه غارق فى خجل الشعور بالامتنان . على أن إبراهيم افندى غطاس ما لبث حتى شعر بامتنان عظيم وبهجة أعظم لنجاح مهمته ، لمجرد شعوره بأنه كان واسطة لتنفيذ مشيئة إلهية مقدورة ؛ وإن هذا لشرف كبير له . وهكذا أمضى بقية السهرة مع الحاج مصطفى يضحكان من الأعماق على نوادر يجيد إبراهيم افندى حكايتها عن عالم الآلاتية وعوالم الأفراح والراقصات العجائز اللائى يتحولن إلى قوادات قاسيات . ثم مسح دموع الضحك قائلا :

– «هى طائفة وسخة ما فى ذلك شك ! ربنا يتوب علينا منها !!» .

وحمل آلة الكمان ومضى يتعجب من تصاريف الزمن .

(٣)

فغر عبد البصير فاهه، شهق، ثم انعقد لسانه من الدهشة. كان يتوقع آلة جديدة الصنع من الآلات الكثيرة المعروضة فى المحل، ولكن أن تجيئه هذه الكمان بالذات فهذا ضرب من جنون المصادفة، وشئ من اثنين إما أن يكون إبراهيم افندى قد اتفق مع الحاج مصطفى على بقية من المهر الثمين يدفعها بالتقسيط، وإما أن يكون الحاج قد سلب وعيه حتى يبيع هذه بعشرين جنيها فقط، لقد شاهد بنفسه أباه ذات ليلة يكتب بحثا عن تاريخ هذه الآلة يوم اشترى صندوقها مكسور العنق وبلا أوتار من بائع الروبابيكيا بعدة شلنات. كان الحاج ليلتها منهمكا فى استعراض كتالوجات وكتب على صفحاتها أنواع وأشكال من صناديق آلة الكمان، الفروق بينها دقيقة جدا ولاتكاد تلحظ للعين العابرة، لكن الكلام المكتوب تحت كل صندوق يملأ صفحات حافلة بالتواريخ وأسماء الصناع وما أضافه كل منهم إلى هذا الصندوق السحرى من مميزات لها تأثير قوى على الأنغام كما أنها تضفى على الأوتار إمكانية أوسع وأرحب وأكثر إثارة واستجابة لأدق نأمة فى خلجات الحس، يذكر أن أباه ليلتها انتهى إلى تسنين الصندوق فكتب له شهادة ميلاد تقريبية، ثم اشتغل فيها بنفسه حتى سواها هكذا، واستلقط لها هذه العلبة الأثرية ليضعها فيها كالجوهرة .

راقب إبراهيم افندى وجه عبد البصير بابتهاج كبير، لقد أيقن من فرحة الولد أنه يفهم قيمة الآلة التى بين يديه جيدا، ومن ثم فإنها ستعيش معه سنوات طويلة تزداد فيها قيمتها ارتفاعا. المهم الآن – قال فى نفسه – هو أصابع الولد، يريد أن يراها كيف تتحرك كيف تمسك بالقوس كان إبراهيم افندى غطاس مشوقا للاطمئنان على مصير هذه الآلة الأثرية الثمينة فإذا انبهاره بالولد يفوق انبهاره بالآلة وانخرط فى المشاهدة والاستماع.

بمعلمنية وحرفنة عجوزة أمسكت أنامل عبد البصير برقبة الأوتار. صرخت الأوتار، فجرت فى قلب إبراهيم افندى براكين النغم الذى راح يتدفق بغزارة يكاد يرسم على صفحة الأثير أشكالا جمالية مجسدة تكاد تراها عين الخيال ملونة

بأزهى الألوان، تكاد الكمان تغنى بكلمات منطوقة . ثم إن عبد البصير نفسه اختفى من ناظرى إبراهيم افندى وبقيت الكمان ككتلة جمر ملتهبة بين سحائب من الأنغام تحتوى على كل شئ، تقاسيم غضة طازجة مفعمة بروح الفتوة. فلما انتهى عبد البصير من العزف بقى إبراهيم افندى برهة طويلة لاينتبه إلى أن العزف قد توقف، فالأصداء كانت لاتزال تتردد توقظ فى قلبه أبهج الذكريات فى دفتر الأحلام والطموحات الشبابية الوردية الحميمة، قال كأنه يرتل تعويذة قدسية:

- «فتح الله عليك يا ابنى .. فتح الله عليك .. أنت مفاجأة! أنت فعلا تستأهل هذه التحفة الثمينة ، الرب أرسلها إليك خصيصا ، يشاء السميع العليم أن أباك الذى يريد أن يحرمك ويحرمنا من هذه الموهبة الناضجة هو نفسه الذى يوضبها لك ويجهزها بكل خبرته وحرفته، فاللهم لا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم!!»

الدموع الساخنة راحت تنثال على خدى عبد البصير، الذى امتلأ جسمه مؤخرا واكتسب مظهر الرجل الرصين. ثم تبسم قائلا :

- «لكن براوة عليك يا عم ابراهيم افندى أنا لن أنسى لك هذا الجميل فأنت أتيت لى بحبيبتى وجمعت شملى عليها!!»

- والله يا إبنى أنا مالى فضل، أبوك غمزنى بكلمة نابية خرجت غصبا عنه ! فأراد أن يصالحنى شاعرا بغلطته فتهور فى الكرم، كل ذلك لكى يجمعك الله على حبيبتك الغالية ! وأقول لك الآن بعد أن استمعت إلى عزفك إنك فى مستوى المحترفين، خل بالك من نفسك وإياك والغرور فالإنسان يتعلم طول عمره ويموت جاهلا!!

- «على آخر جهدى»

- «إن أذن الله فأنا يمكن أن أدعوك معى لحفلات مخصوصة فى السر، ويمكن أن تختار لك إسم شهرة تعرف به وتترك لأبيك اسمه ولكن قل يا رب!!»

- «يارب !»

قالها عبد البصير وهو يتأبط عروسه التى هبطت عليه من السماء مد يده ليسلم على إبراهيم افندى . احتضنه الرجل وقبله ودعا له بالتوفيق.

خرج عبد البصير طائر الخطوات لا تكاد الدنيا تسعه من شدة الفرح، قاصدا بيت خالته فى شارع الشيخة صباح، ليخبئ الكمان عندها فى صندوق ملابسها كما وعدته لحين يطلبها، بل أذنت له أن يحتل حجرة نومها لأى وقت يشاء حين يريد التدريب.

* * *

ليس فى مدينة طنطا كلها شخص له أدنى اتصال بالموسيقى إلا ويعرف عبدالبصير الصوفانى، من المحترفين إلى الهواة إلى المعلمين فى المدارس والملجأ. فكلهم قد تردد على المحل والورشة . وكان طبيعيا أن يمشى فى أى شارع فى المدينة فيصادف واحدا من هؤلاء . فمن الطبيعى أن يسأل كل منهما الآخر عن أخباره، ولابد أن تجئ سيرة الموسيقى. يكتمل الحديث بينهما على المقهى. كل الأحاديث ربما وصلت إلى حد الملل بعد وقت يقصر أو يطول إلا حديث الفن بين هواته الذين يحلمون بالشهرة والاحتراف، هو أكثر الأحاديث حميمية وأكثرها مودة وحرارة.

تلقى عبد البصير أكثر من دعوة لحضور حفل عيد ميلاد، خطوبة، شبكة. من الجميل - والمتوقع بالطبع لدى صاحب الدعوة - أن يصطحب عبد البصير آلة الكمان معه . بات من المألوف أن يتلقى عبارات المديح والإعجاب بغزارة. طربت أذنه للتصفيق الحار. دغدغت مشاعره بكبرياء نجومية مبكرة. فى أشهر قليلة صار مشهورا فى أكثر من بيت فى كل شارع وحارة من شوارع وحوارى طنطا البديعة المفتونة بالغناء والموسيقى طول عمرها. تكونت له طبقة من المعجبين المتحمسين، معظمها من الطلبة، ومدرسى الموسيقى، وبعض كبار الموظفين المثقفين الذين قرنوا مهارته فى العزف بمهارة عزيز الشوان وأنور منسى.

بدأت حفلات السمر فى المدارس والمنتديات تدعوه لإحياء بعض فقراتها، يكرمونه بكتابة اسمه بالخط الكبير على لافتة يعلقونها فى مدخل المكان. وكان هذا

أكثر ما يزعجه متوقعا أن يمضى شرير من حفدة إبليس بواحدة من هذه اللافتات إلى أبيه، فتكون الطامة الكبرى، فإنه لايزال يعتز باسمه ولا يحب تغييره بسهولة كأنه إن غيره ذهب الإعجاب إلى شخص آخر. وقد اعتاد أن يرد عليك إذا طلبته الليلة لحفل:

– «بس وحياة والدك ! لا داعى للافتات ! أنا هاوى ولست أبحث عن الشهرة!!»

فلا تزيدك هذه العبارة إلا حماسة للإمعان فى تقديره جزاء وفاقد لهذا التواضع، أليس يكفى أنه لا يقبل مد يده لأخذ أية نقود؟!

* * *

إبراهيم افندى غطاس فتح له جبهة لا يستهان بها بين عشاق الفن فى طنطا وضواحيها، من مشاهير كبار الأثرياء، وكبار التجار، المغرمين كلهم بليالى الأنس الدائمة، ومن أعيان الضواحى من ملاك الأراضى الزراعية الشاسعة وفيهم الباشوات والبكوات والعمد ومشايخ البلاد وكلهم عشاق مغنى وطرب ولهم لياليهم الخاصة يقيمونها فى مخادع لهم داخل سرايات وفيلات وسط الحقول فى قلب الحدائق فى أماكن نائية، بمناسبة وبغير مناسبة، أساس هذا الولع بالموسيقى والغناء ما زرعته الفرق الصوفية العديدة – العاشقة لرحاب السيد البدوى – من حب للموسيقى، إذ ان الموسيقى عمود رئيسى فى نشاط الطرق الصوفية تستعين على توصيل المريد إلى حالة الوجد الصافية، وقد لايعرف الكثيرون أن الطرق الصوفية بجميع فرقها لعبت الدور الأعظم فى تمصير الموسيقى وتطويرها وتقريبها من الوجدان الشعبى، حتى بات فى كل قرية أعداد هائلة من المنشدين والصييتة والمغنين والمقرئين والمبتهلين وعازفى الرباب والأرغول والدفوف والمزمار البلدى والناى والأرغول والسلامية والدربكة والعفاطة والصاجات والكاسات والطبل البلدى.

أصبحت الرغبة فى الفرفشة والتطهر بالموسيقى والغناء عادة متأصلة فى ريف الغربية الخصيب وشعبها الحضارى الرقيق. بعد هذه الرغبة الدائمة ما أسهل

استقطاب المناسبات : قراءة فاتحة، سفر إلى الحج، عودة من الحج، شراء قطعة جديدة من الأرض، بيت جديد وجب افتتاحه، طهور، حصول على لقب، ترقية، نجاح ابن فى المدرسة، تخرجه، حصول على حكم بالبراءة أو بالأحقية فى شئ. سرعان ما تذبح الذبائح يخبز الفطير بأنواعه، تحتل الفرقة الموسيقية أشرف موقع فى القعدة ، تتلقى صنوف الترحيب والمجاملات والتدليل، وهى فى العادة فرقة مختارة بعناية، أرفع مستوى من الآتية عوالم الفرح وراقصات الزفة وخلابيص المزيكة ، معظم عازفيها أفندية محترمون فعلا لا مظهرا فحسب، ملابسهم نظيفة مكوية بالغة الأناقة، لا تصدر عنهم ألفاظ أو حركات نابية، متعففون متحفظون خاصة على موائد العشاء، وهم بين مدرس للموسيقى وطالب جامعى من الهواة ومن بقايا الفرق المحترفة القديمة التى أخنى عليها الدهر فتفككت وتعصبت ضد الاتجاهات العصرية السطحية. لا بأس من وجود راقصة ومغنية.

تلك هى الحفلات الخاصة لأثرياء وأعيان الغربية من عشاق النغم. فى مثل هذه الرحلات إلى الضواحى البعيدة والبلدان الريفية كانت سعادة عبد البصير تصل إلى ذروتها، حيث يجلس تحت شجرة فى بستان، أو فى شرفة سراية المضيف، أمامه شاى وقهوة وفاكهة ولفائف تبغ عامرة بالسبهللة، يستمع إلى غناء الفلاحين فى عز الشقاء والعرق تحت وهج الشمس الحارقة، غناء الفلاحات لأطفالهن، حداء الصبايا وموكبهن العائد فى الأصيل يحملن بلاليص المياه مائلة على رءوسهن كأشرعة السفن يخيل إليك أنها لابد واقعة على الأرض إذ هى واقفة على جزء يسير من جنب قاعها لكنها أبدا لا تميل لا تهتز رغم أن أجساد الصبايا تتلعبط تحتها كالبلطى وأيديهن تلوح مشاركة فى التعبير مع الغناء، عن الولد أبو طاقية، عن بدلة الحبيب المقلمة، عن الزند العفى، عن العنب، القطن، القمح ، الارز، شجر التوت، عن ليلة الحنة، ليلة الدخلة، الصباحية .. الخ.

غناء غناء غناء، فى كل خطوة، كل بقعة، بل كل بلوى. ولد غائص بساقيه فى مسطاح الترعة وهو جالس يحرك يد الطنبور بزنديه على ايقاع أغنيات شبيهة بحركة دوران الطنبور وصبه للماء فى قناة صغيرة. للماء نفسه أغنياته المتعددة

الإيقاعات والأرتام والنغمات، فخريره من الجدول يختلف عن غنج الطنبور عن جعجعة الشادوف المتقطعة عن نعير السواقى عن تلاطم الموج. للجمل أغنيات ممطوطة تقطع عباراتها هزة للأمام فردة إلى الخلف تشبه إيقاع خطو الجمل. حبذا ولد على حمار لكع، يرقع بالموال من حنجرة منطلقة جمالها فى خشونة نبرتها فهى خشونة انفعال صدق وليست نشازا فى النغم. حبذا استغاثة الفجر فى المسجد القريب من قعدة كهذه. حبذا امرأة عجوز تخلو بنفسها فى حوش الدار تدندن بأغنيات العديد تنعى أسيادا أكلتهم الأرض وأعزاء لم يعزوا على خالقهم وزمنا جميلا مضى وابنا غائبا.

ما أجمل أن يحاول عبد البصير ترجمة كل هذا الذى يفتنه بأوتار كمانه. لا قيمة لهذه الآلة فى يديه مالم تنطق بكل هذه الأنغام الدافئة الغنية الأصيلة. هذه الآلة الغربية التى طالما رطنت أوتارها باللاوندى فى المذياع المحتشم، والحفلات ذات الياقات المنشاة، آن الأوان لتعليمها اللغة العربية التى لا تعرفها كتب الدروس والمطالعة، لغة هذه الأغنيات التى تشعل فى القلب نيران الأسى والبهجة والجمال: آه من عبقرية لحن صعيدى يخرج من شغاف القلب يهدر بالشوق العارم مناديا فى لهفة حارة: يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد، لهف قلبى على حسب وداد قلبى يابوى رح أقول للزين سلامات، يا بهية وخبرينى ع اللى قتل ياسين.. آه لو أن الكمان تزوجت الرباب وأخذت منه شعوره الفياض بالغربة، الشعور الجبلى الصحراوى الساخن. كم يشعر بقدرة الكمان على استيعاب مشاعر الرباب ذات النبرة الملحمية النائحة. يكاد يوقن أن عشق الكمان له بات أكبر من عشقه للكمان، هى التى تناديه باشتياق، تسلمه نفسها طائعة طيعة. لسوف يبقى مخلصا لها أبد الدهر، سوف يذيب دمه فى أوصالها، سيضمن أنها لن تخونه، لن تخفى عنه شيئا من أسرارها، سيبثها كل أشواقه، أحزانه، آلامه، آماله، همومه، وإنه لواثق أن صدرها العريض سيحتويه بكامل كيانه. لكن صورة أبيه اعتادت أن تعبر مخيلته فى مثل هذه اللحظات التى يختلى فيها بنفسه مع كمانه، واعتاد أن يتحفز فى مواجهة أبيه مكشرا منتفضا بمس سريع من الحمى، والشرر الأحمر يتقد فى عينيه.

(٤)

لاحظ الحاج مصطفى الصوفانى أن ابنه لم يعد يظهر كثيراً فى البيت، بل لا يكاد يراه فى البيت إلا نائماً. فمواعيد الحاج لا تتغير مطلقا: حينما تدق ساعة الحائط العتيقة فى ردهة شقته - تلك الساعة التى استلقطها له إبراهيم أفندى قطايس بتراب الفلوس - منتصف الليل، يكون هو جالسا بالجلباب البوبلين الخفيف إلى ترابيزة السفرة يتناول عشاءه، المكون من قطعة لحم مشوية مع قطعة جبن أبيض ومغرفة من الأرز المحمر ونصف رغيف، وحينما يؤذن مسجد السيد أحمد البدوى لصلاة الفجر يكون هو قد طرح العباءة على كتفيه وارتدى الشبشب الجلدى فى قدميه واخترق الحارة متوجها إلى مسجد البدوى. فى طريق العودة إلى المنزل ينتهى من ترديد أوراد لابد أن يختتم بها صلاة الفجر كل يوم، هى غالبا عهد السيد البدوى الذي حفظه منذ الطفولة. ثم يستأنف النوم حتى يسمع ساعة الحائط تدق نفس دقات المنتصف، يشرب كوب الشاى بالحليب إلى جوار طبق من الفول المدمس المهروس فى الزبدة. يرتدى كامل ثيابه، لا ينسى رباط العنق تحت السترة التى لابد أن يخلعها فى المحل يعلقها على مشجب خلف الباب، يبقى بالقميص والبنطلون ذى الحمالات المطاطية المبططة فى شريحتين على صدره وعلامة إكس على ظهرة، مشمرا كمى القميص، ليتحرك بحريته فى المحل، بقامته المديدة الضخمة، وشعره الكثيف الأشيب الذى يضفى على وجهه شكل الفنانين الأجانب فى عصر النهضة الأوروبى، صارم الملامح قاسى السمت، غليظ الشفتين المضمومتين دائماً فى إصرار وعزم، مقطب الجبين على الدوام، لوزى العينين، حاد البصر قوى التحديق فى الأشياء وفى اللاشئ أحيانا، رخيم الصوت حاسم النبرة كخطيب سياسى معتزل، طويل الذراعين طويل الأصابع، بارز الصدر عريض الكتفين، يكلم أولاده وصبيانه بالإشارة، ربما بتلويحة أصبع سريعة، ربما بنظرة، لا يحب كثرة الكلام فى العمل، لا ولا الفصال عند البيع والشراء، بكذا يعنى بكذا، كلمة واحد لا يتراجع عنها مطلقا، قد يتساهل بمزاجه فى لحظات نادرة مع الأحبة. آحد أبنائه لابد أن يكون

موجودا معه طول النهار، لأنه لابد أن يصلى العصر والمغرب والعشاء جماعة فى المسجد البدوى. ومن المسجد بعد صلاة العصر يروح على البيت ليتناول الغداء ويغفو بضع دقائق، يخرج منها إلى المسجد البدوى لصلاة المغرب، ومنه إلى المعهد لتدريب طلابه على العزف ومحاضرتهم فى تشريح الآلات الموسيقية، ثم يقفل عائدا إلى المحل، فيصرف ابنه ويمكث فيه حتى منتصف الليل. ليس من المهم أن يبيع أو يشترى، المهم عنده أن يبقى المحل مفتوحا، غارقا فى بحر من الضوء البهيج.

إن زاره ضيوف فأهلا بهم، وإن لم يزره أحد فما أحلى أن ينفرد بنفسه، يتصفح بعض المجلات الفنية والثقافية التى يحرص على شرائها كالهلال والثقافة والرسالة والصباح وروزاليوسف، أو يقرأ فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، أو يكتب بعض الأفكار فى دفتر عتيق. هى فى الغالب أفكار خاصة بمشروعه الأزلى الذي يتشاحن بسببه مع وزارة المعارف العمومية، لا يكف عن إعادة تقديم مشروعه للوزير كل عام بتعديلات جديدة وإضافات تيسر تنفيذه . حلمه الكبير أن تقوم وزارة المعارف بزرع فن الموسيقي فى تلاميذ المدارس منذ نعومة أظافرهم، لا لكى تخرج المدارس فى النهاية موسيقيين محترفين بل مواطنين صالحين يتذوقون الموسيقى، فهى فى رأيه بوابة الحضارة الحقيقية والتقدم المرموق، لأن المواطن حين يتذوق الموسيقي جيداً يسهل عليه أن يتذوق معنى الوطن ومعنى الحياة، تستضاء روحه بنور الفن، وليس غير الموسيقى دلالة على الفن الرفيع الصرف، أعظم بها من مرب يقتل بذرة الشر فى الإنسان يخلق منه كائنا حساسا راقيا، إننا يا سيادة الوزير فى حاجة إلي تربية موسيقية قبل التربية البدنية والخلقية لأنه لا سبيل لهاتين المهمتين بغير الأولى، لابد يا سيادة الوزير أن يكون لكل فرقة دراسية فريق موسيقى كامل تتوافر له الآلات الوترية والنحاسية والخشبية، ومن الفرقاء يُنتخب لكل مدرسة فريق كبير يمثلها فى حفلات سمر دائمة فى نطاق المدرسة الواحدة كل أسبوع مثلا، ثم فى نطاق مدارس المنطقة فى مهرجان شهرى، ثم فى نطاق القطر كله فى مهرجان نصف سنوى

تتمثل فيه كل المدارس، إن حياة التلاميذ والطلاب لابد أن تمتلئ بالموسيقى من الحضانة إلى الجامعة وإلا امتلأت بالخراب الروحى والخزعبلات، وليس ثمة مشكلة خاصة بتمويل الآلات ولبس الفرقاء فإن رسوما ضئيلة أو اشتراكات يمكن إضافتها على أولياء الأمور، إلى جانب دعم من الوزارة كفيل بحل هذه المشكلة التافهة بالقياس إلى حجم الفائدة، أما أن نكتفى بتدريس الموسيقى حصة عابرة كل أسبوع ينساها التلاميذ بمجرد عودتهم إلى بيوتهم فهذا هو التهريج بعينه.

صحيح أن وزارة المعارف العمومية - ومن بعدها وزارة التربية والتعليم- لم تأخذ مشروعه بالجدية الواجبة وإن داومت الرد عليه واستمرت المراسلات بينهما قائمة، إلا أنه على شئ كبير من الثقة فى أن يجئ يوم تكتشف فيه الوزارة أهمية مشروعه، فأبداً لن تستمر البلاد على حالها، ومن المؤكد أن الأحوال ستتقدم بشكل أو بآخر.

ما أكثر ما نام مشروعه فى أعماق الدرج السفلى وعلاه التراب شهورا طويلة. ولكن ما أكثر ما استيقظ فكأنه يبزغ فى ذهنه من جديد لأول مرة، فما يلبث حتى يتذكر لوامع أفكاره وحكمة مقترحاته وسديد آرائه التى تطالعه فى سطور المشروع، فيخيل إليه أن شخصا آخر غيره هو الذى كتبها فى لحظة تجل نادرة. يتوقف عند آرائه فى فلسفة التربية الموسيقية وضرورتها بالنسبة للشعوب الناهضة، وكيف أن الشعب الذي يحس الموسيقى ويتذوقها لابد أن يتموسق كل شئ فى حياته: نظام البيوت، نظافة الشوارع، اتساق المدن، ازدهار الحدائق، اتصال الأفكار، حرارة المشاعر: إن الموسيقى كفن زمنى يوقظ فى الإنسان الإحساس بالزمن، بقيمة أن تمتلئ كل برهة بشئ منغوم منظم للإحساس وللعمل، والنغم نقيض للفوضى، وعدو للفراغ.

أشد ما يضايق الحاج مصطفى الصوفانى هو أن طلاب معهده لا يستوعبون هذا الكلام عندما يجد نفسه قد انجلى فراح يحاضرهم به كى يضئ نفوسهم. لكنه دائماً أبدا يشعر بالصدمة قوية بعد دقائق معدودة، حين يرى أنهم قد بدأوا فى التثاؤب والتململ، وبدأت ملامح الضجر تنتشر كالجدرى على صفحات

وجوههم الملولة بطبعها. وكان يعرف السبب، فالواقع أن الذين وفدوا على معهده معظمهم يتوق إلى تعلم شئ وحيد: العزف على الآلة كصنعة للارتزاق أو التباهى على الأقران أو مسايرة الطبقات الغنية، ندر بينهم من لديه إحساس عميق بالموسيقى كفن حضارى، حتى الموهوبون منهم ذوقهم مبتذل، فكل القطع التى يغرمون بالتدريب عليها فى منازلهم من الفن الساقط المنحط، من أغنيات العوالم الشائعة. إنهم معذورون فى الحقيقة لأنهم نتاج طائفة العوالم والآلاتية، فلا أحد يقدر على تدمير الأذواق والإضرار بفن الموسيقى مثل هذه الطائفة أه كم يكرهها ويمقتها. ويوم يهل عليه واحد منهم لشراء أو إصلاح آلة فإنه يعامله أسوأ معاملة، لا يخفى احتقاره الشديد له، بل ينهره بقسوة على أقل بادرة جهل تصدر عنه، يسفه من آرائه ويضن عليه بالرأى الصحيح. إلا أنه يأنف أن تخرج من تحت يده آلة غير متقنة على أكمل وجه، وعندئذ يسلمها لصاحبها- إن كان من هؤلاء- ولسان حاله يكاد ينطق : حار و نار فى جتتك! فأنت لن تفهم قيمة ما فعلته يدى!!

(٥)

مضى الحاج مصطفى الصوفانى إلي منزله ذات ليلة وهو مستغرق فى تفاصيل مشروعه الذى استيقظ فجأة كالعادة فجعل يفكر فى إضافات جديدة تحيله إلى مشروع قومى بمعنى الكلمة. كان يفكر هذه الليلة فى مسئول جديد يخاطبه، أو جريدة تتولى عرض مشروعه على الرأى العام. فما أن وضع قدمه على أول الحارة حتى صافحته الموسيقى المنبعثة من شقة أم بهيجة، وبيوت الحارة كلها تسبح فى ضوء الفوانيس السابح فى بحر من النغم الشجى عالى الحرارة والحرفنة. كانت موسيقى محضة، ميز طبيعة بنائها النغمى، إنها «تحميلة» من مقام النهاوند، كل آلة تصول فيها على حدة شوطا طويل النفس: القانون والناى والكمان والعود والرق. هذه التقاسيم على آلة القانون غريبة على طنطا، هذه الأصابع ليست أصابع إبراهيم أفندى غطاس أشهر وأهم عازف قانون فى البلد، وليس فى البلد غيره يقدر على مثل هذه التقاسيم التى تحتاج لموهبة واقتدار. لابد إذن أن بهيجة وأمها لديهما ضيوف من القاهرة أو الإسكندرية أو ربما من تونس

أو سوريا، أو لبنان. إن لهجة الأوتار في هذه المعزوفة ذات الطابع التركي تشبه اللهجات العربية ذات اللسان المعووج بلكنات بدوية. إنه يستطيع تمييز العزف المصري الصميم كما يستطيع الفرد العادي تمييز النطق المصري من النطق الشامي أو المغربي أو السوداني، أليست الموسيقى السودانية من الموسيقات التي تدركها الأذن لأول وهلة ؟ .. كذلك الموسيقى التركية والإيرانية ناهيك عن موسيقى الغرب، فكل نغم يحمل بالضرورة إيقاع وجدان قومه وإيقاع حياتهم وطبيعة مناخ بلادهم.

طرب الحاج مصطفى لهذه المعزوفة طربا عميقا، صار يتابع الأنغام يتوقع القفلات المناسبة فلا يخطئ حدسه. وحينما دخل البيت توجه من فوره إلي حجرة الجلوس المطلة على شباك أم بهيجة وكان هدفه مزدوجا: أن يضبط إبنه عبدالبصير متلبسا بالاستماع متظاهرا بالنوم، وأن يتابع المعزوفة فلا يضيع من أذنه شئ منها. لم يجد ابنه على الكنبة. أضاء وفتش بعينيه في أنحاء الحجرة فلم يجد له أثرا، فشعر بقليل من غصة في حلقه إذ إنه منذ شهور طويلة جدا لم يعد يرى ابنه في هذه الحجرة على هذه الكنبة ينصت ويتصنع النوم، فأين تراه يذهب هذا الولد؟! لكنه خرج متجها إلي حجرة النوم الملاصقة لها والمطلة أيضاً على نفس الحارة بشباك لا ينفتح مطلقا. تلكأ في خلع ثيابه وقد ارتبطت أذنه بنهر متدفق من العزف على آلة الكمان التي تسلمت دفة البوح من آلة القانون، فكأن المشاعر التي هيجها القانون ونثر بذورها الناضجة في سياق المعزوفة تأخذ وضعها الآن مستريحة على صدر الكمان تتأصل تتفتح أكمامها. ترى من يكون هذا العازف الجبار؟! لا أقل من أنور منسي، أو موهوب أعلى منه حسا وذوبانا في بحور الأوتار. لله درك يا أم بهيجة، لديك قدرة فذة على استقطاب الفنانين من كل مكان، كأن لك مندوبين في جميع بلدان الفن يكتشفون لك الدرر الثمينة، رحم الله زوجك الذواقة فلولا هذه الميزة فيك -مثلما فيه- ما ضحى بزوجته أم أولاده ولا بمنصب العمودية وجاء يسكن معك في هذا البيت، لقد تغاضى عن أشياء كثيرة في طبعك وسلوكك ودافع عنك بحرارة حينما اتهمك أهله بأنك محض عالمة تائبة،

قال –وقد صدق– إنك من بيت طيب وكانت أمنيتك أن تصيرى مغنية محترمة كأم كلثوم لكن أبوك الصييت –كأب أم كلثوم أيضا– منعك من هذا الأمل على عكس ما فعل أبو أم كلثوم، لكنه سمح لك بإشباع هوايتك فى مجالسك الخاصة، المشكلة أن بناتك الآن لا مانع لديهن من الاشتغال مع العوالم، لولا أن أخاهن الذى لمع وأصبح من مشاهير الطرب والتلحين يمكن أن يقتلهن لو فعلن، صحيح أنه من أم أخرى غيرك لكنه نعم الأخ، لا يكف عن زيارتكن ورعايتكن بكل ما يستطيع.

على سفرة العشاء قال الحاج مصطفي لام عبده :

– «إبنك يسهر خارج البيت كثيرا وهذا شئ لا يطمئن فى هذه السن الحرجة!!»

كانت أم عبده جالسة أمامه على الكرسى، بجسدها المفتول كتمثال من آلهة الجمال عند الإغريق، وقد لفت الطرحة البيضاء حول رأسها وعنقها، فبدا وجهها كفانوس أحمر الضوء. لوحت بذراعها البض الممتلئ، قالت:

– «أنا واثقة من تربية ابنى! هو لا يسهر إلا مع بعض صحابه من أبناء الناس الطيبين! وهو يقابلك كل يوم فى صلاة الفجر فى المسجد الأحمدى!»...

فواصل الأكل دون أن يعلق.

فى فجر تلك الليلة مسح فراغات المسجد بعينيه، فلمح ابنه ساجدا فى ركن بعيد، تحيطه هالة من الورع الحقيقى، اطمأن باله، تسلل خارجا بتأبط حذاءه، وفمه مشغول بترديد نص العهد الأحمدى الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من صلاة فجره.

(٦)

يرى عبدالبصير أباه كل ليلة فى صلاة الفجر من ركنه القصى فى زاوية بعيدة، لكنه لا يجرؤ على الذهاب إلى البيت إلا فى الضحى، حيث يطمئن إلى أن أباه قد استغرق فى النوم. إنه يهرب من مواجهة أبيه ما أمكن، يتجنب النظر فى عينيه منذ ذلك اليوم الذى ضربه فيه بقسوة شديدة، يعرف أنه لابد سيسأله: أين كنت يا ولد حتى هذه الساعة؟ ولن يستطيع الرد، المشكلة أنه لابد أن يذهب إلى

الورشة كل يوم، ولابد أن يسرق ثلاث ساعات على الأقل للنوم قبل الذهاب إلى الورشة. على كل حال فمن محاسن الحاج مصطفي أنه لا يكلم ابنه فى الورشة أمام الصنايعية، لاسيما وأن ابنه يشوف شغله فى الورشة على أكمل وجه، فهو يحب المهنة.

غير أنه لاحظ فى الشهور الأخيرة أن الحاج مصطفي يتجنب النظر إليه ما أمكن، بل يتجنب الحديث معه، كما لاحظ أن وجهه يكفهر دائماً كلما وقعت العين صدفة على العين. شئ من الجفوة كان يتكلس بينهما. لقد تعب عبدالبصير من محاولة تفسير هذه الجفوة الغامضة، لكنه استراح لتفسير بدا معقولا : فمن الواضح أن الرجل مدرك أن ابنه لن ينسى هذه الإهانة التى لقيها منه يوم ضربه بقسوة لأول مرة فى حياته إلا أنه فيما يبدو لا يريد أن يصالحه، أغلب ظن عبدالبصير أن الرجل يصر على الاستمرار فى هذه الجفوة فلربما اقتنع ابنه بأن رضاء الأب عنه مرهون بنسيانه لآلة الكمان نسيانا تاما. ولكن لا، إن الأمر لابد أن يكون أعمق من هذا، وإلا فما السر فى أن الحاج قد خفض مصروف ابنه إلي أقصى حد؟ صحيح أن حالة البيع فى المحل راكدة، والدخل يكفى بالكاد مصاريف البيت والورشة، ولكن كيف ينسى الحاج أن ابنه بات ركنا أساسا فى الورشة ومن ثم يستحق أجرا مجزيا كأكبر الصنايعية؟! أتراه قد علم أن ابنه أصبح من مدخنى السجائر بشراهة فأراد أن يعاقبة بشكل عملى ؟ .. أم تراه قد عرف أنه مستمر فى اللعب على آلة الكمان؟!

خفق قلب عبدالبصير عند هذه الخاطرة . مثلت أمام عينيه تلك الليلة الرائعة التى غامر فيها بالسهر فى منزل أم بهيجة عازفا على الكمان ضمن تخت تم تأليفه فى التو واللحظة بصدفة محضة. كانت ليلة ولا كل الليالى، تجلى فيها، نزلت عليه فيوضات ربانية مذهلة، قام الجميع من فرط الوجد فقبلوه على وجنتيه بإعجاب شديد ومنهم من هو من نجوم القاهرة اللوامع. أيكون الحاج قد علم بوجوده فى هذه السهرة؟ ولكن كيف؟ لقد أحيط الأمر بكتمان وسرية شديدين حيث سبقته آلة الكمان مع مخصوص ثم تسلل هو متنكرا فى زى عمدة قروى يلتف بعباءة ويتعمم

بشال فوق الطاقية، ونبهت أم بهيجة على جميع الحاضرين بعدم ذكر اسمه طوال السهرة كما أخفت خبره عن الجيران المقربين الذين يتبرعون للسهرة بمأكولات ومشروبات وفاكهة. وعند انتهاء السهرة خرج إلي المسجد الأحمدى مباشرة، وفى الصباح بعثت أم بهيجة بالكمان إلى بيت خالته. فأى سر ياترى يكون وراء هذه الجفوة التى تتزايد باستمرار؟

(٧)

كان يمشى فى شارع أحمد ماهر قادما من شارع الحلو بعد سهرة ملآنة بالود والتجلى فى بيت أحد تجار الحمص المشهورين فى طنطا . كان يحتفل بعيد ميلاد ابنه الوحيد ووريث ثروته الضخمة. كان عبدالبصير هو نجم الحفل بغير منازع، لدرجة أن أهل البيت بعد انصراف المدعوين استبقوه مع نفر قليل جداً، فظل حتى الثالثة صباحا فى تقاسيم حرة بلا شطآن، ولاعب الرق يسنده بالواحدة. عزف جميع الأغنيات المشهورة فكادت الأوتار تنطق الكلمات فى وضوح تام، وانطلقت الزغاريد التى كانت مكبوتة فى أول الحفل، فهدهدته ، ملأته بالبهجة والثقة فى النفس. عند انصرافه دس يده فى جيبه ليخرج المنديل، ففوجئ بأن صاحب الحفل قد دس له فى الخفاء ورقة بخمسة جنيهات كاملة على سبيل البقشيش، شعر لملمس الورقة المالية بدفء عظيم: أخيرا بدأ يكسب من فنه فيالها من متعة فائقة أن يمتع نفسه بالتدريب على العزف وفى نفس الوقت يقبض أموالاً سخية مجزية.

انتهى الليل ، من خلع ملابسه الثقيلة الدكناء، بقى بالملابس الداخلية الخفيفة ذات اللون التريكوازى الزاهر. عند ذاك كان عبد البصير يحوم حول البيت، حيث تركت أمه شراعة الباب متحررة من الترباس الداخلى، فما عليه إلا أن يدفع شريحة الشراعة الزجاجية ثم يسرب أصابعه الطويلة من بين الشبكة الحديدية ليجذب رأس الأكرة برفق شديد حتى لا تحدث صوتا، ثم يتسلل داخلا إلي الحجرة الجوانية التى ينام فيها مع إخوته، فيخلع ثيابه ويندس فى الفراش ليغطس فى الحال فى بحر النوم العميق.

قال لنفسه وهو يندس فى الفراش. لابد أن تنزل السوق، نعم، لا مفر من الاحتراف بأى حال من الأحوال، أنت فى أشد الحاجة إلى النقود، وقد ثبت الليلة أنك قادر على كسبها بشرف واحترام وكرامة، يكفى أنك لم تساوم كالآلاتية. ثم أضاف بمرارة: ستشتغل مع العوالم والآلاتية لا محالة، لكن لا بأس طالما أن مكانتك بينهم ستكون محفوظة، فلقد أصبحت مشهورا فى طنطا وضواحيها كعازف كمان متميز ذي مستوى خاص يندر وجوده فى مثل هذا الاقليم البعيد عن الأضواء، هكذا شهد لك محترفون من القاهرة أم المحترفين، قالوا إن وجودك فى أى فرقة فى طنطا سيرفع من قيمتها ومستواها أيضاً، وفارق السعر لابد أن يكون لك أنت بالطبع، لسوف تتقاضى أكبر أجر على أسوأ الأوضاع، عليك إذن أن تكلم إبراهيم أفندى غطاس فى هذا الأمر صراحة فهو الوحيد الذى يمكن أن يحفظ لك تميزك بين الآلاتية، كما أنه الوحيد الذى تقبل أن تشاركه عزف المقطوعات التراثية العتيقة المركبة.

إلا أنه وهو يسحب الغطاء على رأسه، جاءته كحة أبيه بنبرة ذات معنى، كأنما يريد أبوه إشعاره بأنه يراقبه جيداً ويعرف مواعيد أوبته. لحظتئذ قرر تأجيل مقابلة إبراهيم أفندى غطاس يوما أو يومين، فلربما غير رأيه وفكر فى الرحيل نهائيا إلى القاهرة مثلما فعل من قبله ابن بلدته محمد فوزي، وكما فعل ابن زوج بهيجة، فمن يدرى؟ فلربما.. وربما.. وربما.

(٨)

شرب إبراهيم أفندى غطاس قهوته، استمع جيدا إلى كل التعديلات الجديدة التى أدخلها مصطفى على مشروعه التربوى الموسيقى، امتدحها بشدة وحماسة كبيرين، تمنى على الله أن تكون وزارة المعارف العمومية – خاصة فى عهد الدكتور طه حسين المتنور –فى مستوى فهم قيمة هذا المشروع وخطورته التربوية.

عندئذ شعر الحاج مصطفى بالرضاء التام عن نفسه كأن مشروعه قد تم تنفيذه بالفعل. طوي الأوراق ، دسها فى الدرج ، مرر يده فوق أزرار الصديرى الصدفية ذات الوبرة القطيفية الحمراء، ثم طلب قهوة أخرى، وأشعل سيجارتين، له

ولإبراهيم أفندى، نفث الدخان فى كثير من اللذة والاستمتاع:

– «يا أخى الولية أم بهيجة ارتفع مستوى ضيوفها فجأة!!»

اتنفش إبراهيم أفندى غطاس وضوعف حجمه، لقد أدرك بفطرته أن الليلة التى سهرها عندها مع عبدالبصير هى المقصودة بالإعجاب. داعبته سعادة فائقة لاكتشافه أن الحاج مصطفى قد سمع طرفا من تلك السهرة حيث توهج هو فى العزف على القانون كما لم يتوهج فى حياته، كما اشتعل عبدالبصير اشتعالا مذهلا. قال غروره له إن اشتعاله كان السبب الأكبر فى إذكاء روح الوهج فى جميع العازفين. عند ذاك اعتدل فى قعدته مواجها الحاج مصطفى بكثير من التحدى:

– «أنت إذن سمعت تلك الليلة الجبارة؟! كان محمد فوزى نفسه حاضرا وكنا نحتفل به!!».

صدم الحاج مصطفى أول صدمة بخبر وجود محمد فوزى فى المدينة تلك الليلة دون أن يمر عليه كالعادة. قطب حاجبيه وزام. ولعل إبراهيم أفندى شعر بهذه الصدمة فأردف شارحا:

– «كانت زيارة سريعة ولم يكن مزاجه طيبا فأرادت الست أن تسرى عنه! ولأنها تعرف رأيك فيها فلم تشأ دعوتك!!».

حاول الحاج مصطفى قدر الطاقة أن يتشبث بنبرة المرح، إذ قال باسما:

– «تريد إفهامى أن الذى كان يعزف على القانون هو أنت؟!»

لم يتقبل إبراهيم أفندى هذا التعريض بكفاءته، تأكد لديه فى الحال أن الحاج مصطفى –الذى يحتقر جميع طائفة الآلاتية– يضعه ضمن هذه الطائفة بوضوح لارجعة فيه. ابتلع الغصة مؤقتا ، قرر تأجيل الرد على هذه الغمزة، ثم قال بهدوء:

– «سمعت التحميلة كلها؟!»

– «نعم! فقد بدأت التحميلة وأنا على عتبة الحارة فسلمتها أذنى حتى النهاية قل لى: هل كان معكم أنور منسى أو الشوان؟ أو أى عازف كمان من القاهرة؟!»

– «ما رأيك فيه بالمناسبة؟!»

– «شئ بديع جداً ! ما شاء الله! مستوى لم أسمع مثله من قبل! رأيى أن البلاد مليئة بالمواهب! إن ما سمعته من تلك التحميلة كان طعما جديداً حقا! إحساسا جديدا! أقصد آلة الكمان بالذات لقد حيرتنى طول الليل فأنا أعرف العازفين من عزفهم!!»

– «أعجبك إذن هذا العازف؟!»

– «أخذنى أخذاً!!»

اعتدل إبراهيم أفندى غطاس، ووضع ساقا على ساق، بحث عن علبة سجائره المبططة ماركة البستانى، قدمها مفتوحة للحاج مصطفى، وتهيأ لإلقاء القنبلة:

– «أتعرف من هذا الفنان الذى كان يعزف على الكمان؟!»

– «قلت لك إنه حيرنى فكيف أعرفه؟!»

– «إنه ينام تحت سقفك كل يوم!! نعم يا راجل يا طيب!! ففى بيتك فنان خطير من صلبك! هو فى نظرى أهم شئ صنعته أنت فى حياتك كلها! أهم من مشروعك التربوى ومن ورشتك ومن معهدك! إنه الدليل العملى الوحيد الذى سيبقى لك!!»

انتفض الحاج، انتفخ وجهه كقط شرس يتأهب للانقضاض على فريسة مراوغة:

– «تقصد من فى بيتى؟!»

– «إنه إبنك عبد البصير! باسم الله ما شاء الله يحرك مشاعر الحجر! لو كان فى القاهرة لما تنازلت عنه أم كلثوم!!»

غاضت الدماء فى وجه مصطفى، هبط انفعاله من قمة الغضب إلى سفح الشعور بالهوان، بالخديعة، بأنه يجب أن يهدأ ليفكر جيدا فى كيفية التصرف. قال كأنه يتمنى أن يكتشف كذب إبراهيم أفندى:

– «ولكن آلة الكمان نفسها عتيقة وأصيلة ولا توجد إلا فى حوزة محترف قديم ملهم فى الآلات!!»

بلهجة من يقرر حقيقة مفروغا منها أجاب:

– «فى هذه الملاحظة أنت فارس! شهدت لك! الآلة التى عزف عليها ابنك أصيلة

فعلا! وكيف لا تكون اصيلة وهي من صنع رجل عبقرى مثلك؟!».

زام الحاج مصطفى بصوت عميق رخيم أودع فيه كل شعوره بالغضب والعتاب. لحظتئذ أدرك إبراهيم أفندى غطاس أن الرجل قد فهم حقيقة الملعوب الذى قام هو به ليلة أشترى منه الكمان الأثرى. مسح الحاج مصطفى بكفيه على وجهه، تمتم بكلمات مبهمة، لعلها صلوات يتقى بها شر غضبة عارمة يدبرها إبليس اللعين. الواقع أنه حول اتجاه كفيه ليمسح بهما على وجهه بدلا من أن يصفع إبراهيم أفندى على وجهه صفعة حادة تلقى به أرضا .

بقى صامتا لبرهة طويلة كأنه فقد القدرة على النطق . حار كيف يتصرف إزاء ثلاث صدمات كل منها أعنف من الأخرى. مجئ محمد فوزى إلى طنطا دون أن يمر عليه كالعادة ليشعره بأنه لايزال حيا قويا مؤثراً فى عالم الفن وإن كان بعيدا عن العاصمة. الصدمة الثانية اكتشافه أن ابنه ضرب بأوامره عرض الأفق ونفذ ما فى رأسه فهو إذن لم يحسن تربيته وفوق ذلك ما هو إلا طرطور فى بيته لا قيمة وجوده فى الحياة. الصدمة الثالثة اكتشافه أن صديقه الحميم إبراهيم أفندى طاس قد خدعه خدعة لا تغتفر، أفسد عليه ابنه، اشترى له الآلة التى يضربه بها فى مقتل!!

راح العرق يتصبب بغزارة على وجهه. فك عقدة رباط العنق، فتح أزرار القميص العليا، ثم أزرار الصديرى كلها. سحب علبة سجائره أشعل واحدة دون أن يعزم على صديقه وإن كان قد استدرك فأزاح العلبة نحوه بعصبية دون أن ينطق بحرف.

لكن إبراهيم أفندى تغاضى عن هذه الإهانة فى استمتاع شديد، ثم أشعل سيجارة من علبته الخاصة، نفث الدخان فى زفرة ذات معنى. أدرك أنه نجح في رد الإهانة إلي صديقه الغريب المعقد. إلا أنه أحس بضرورة التأكيد على رد الإهانة ولكن فى صيغة استرضاء:

- «يا حاج مصطفى لابد أن تقتنع أن طائفة العوالم ناس لهم احترامهم!! إنهم على الأقل حقل يتخرج فيه الكثيرون من الموهوبين! ثم إن استمرارهم هو

السبب الأقوى لاستمرار محل كمحلك هذا مفتوحا!! فإذا انقرضت طائفة العوالم فقل على الموسيقى يا رحمن يا رحيم!! صحيح أنك تطلب المستوى الرفيع ولكن نصف العمى ولا العمى كله!! شئ آخر لا حق لك فيه: أن تقتل موهبة خلقها الله فى شخص مع أنك رجل مؤمن وشيخ طريقة!! واسمح لى أن أقول لك إنك تتناقض مع نفسك تماما حين تنادى بتعميم التربية الموسيقية كهدف قومى ثم تحاربها فى أبنائك!! هذا أمر غير لائق بك! ولا هو من شرع الله!!»

هنا وصل الغضب بالحاج مصطفى إلى ذروته، فانتفض واقفا يشوح بذراعيه فى وجه إبراهيم أفندى بغلظة، صائحا بصوته التخين العميق القرار:

– «خلاص يا إبراهيم أفندى! وفر نصائحك الثمينة! كفى! لحد هنا وكفى! وعن إذنك! سأغلق المحل!!»

بهت إبراهيم أفندى . نزع ساعته من جيب الصديرى، نظر فيها بسرعة، وجدها تشير إلى العاشرة مساء:

– «تطردنى إذن يا حاج؟!»

وارتعشت الابتسامة الخجولة على شفتيه النحيلتين.

– «فسرها كما تشاء ، المهم أنى سأقفل المحل الآن!!»

وشرع بالفعل فى إغلاق الأدراج، وتزرير القميص والصديرى ، فجمع إبراهيم أفندى نفسه، مضى يتعثر فى غضبه المكتوم، موقنا أنه لن يخطو عتبة هذا المحل مرة أخرى، حتى لو اضطر لاعتزال الموسيقى.

(٩)

جمال الست أم عبده يضرب به المثل فى طنطا: القوام الفارع المشوق، المليء بالبروزات المخروطية كإله للجنس يشعر أمامها أى فحل مهما كانت قوته بأنه طفل عابث لا قبل له بإشباع هذا الجسد المحشو بالطغيان الأنثوى. رقبة كرقبة أبى الهول تستطيل بين الهرمين فارعة هى الأخرى بنحر مضىء، ووجه أبيض بغلالة أرجوانية غنية كالقطيفة الأصيلة، وعينين خضراوين واسعتين لا يصمد أمام بريقهما أعتى الجبابرة، ورأس صغير غزير الشعر أسوده بصورة غير طبيعية، إلا

أنه رأس يحتوى عقلا أصغر من عقل الطفل الأحمق. رغم اتساع مساحة صدرها ونهدته فإنه ضيق على الدوام يتفجر بالغضب لأقل احتكاك عصبى. برمة طول الوقت، متشككة، متوترة، لا أحد يعرف إن كان هذا طبعها ورثته عن أصلها التركى البعيد أم أنها اكتسبته بطول عشرتها للحاج مصطفى الصوفانى. لكن الجيران يعرفون أن الحاج مصطفى هو الذى طير مخها، أحرق أسلاك أعصابها بتياراته الكهربائية العالية الصاعقة. لقد هد حيلها، أنجبت له ستة أولاد، أربعة ذكور وبنتين، كلهم ورثوا لون بشرة أبيهم السمراء وملامحه المكتنزة، فليس لجمالها الطاغى ثمة من أثر على أى من أولادها.

وهذا - في تفسير المشايخ العلماء من أصدقاء الحاج مصطفى ورفاقه فى الطريقة الأحمدية -دليل على أن الست- الحق لله- تحبه أكثر من نفسها، والأهم من ذلك أنها ماعون نظيف شريف طاهر حفظ بذرته ورد إليه بضاعته سليمة مصانة من الزيف والغش.

هم أصدقاء خلص، أهل شفافية، وورع وتقوى. لم يبح لهم الحاج مصطفى بما يساوره من شكوك، وما يعتوره من آلام مبرحة منشؤها العلاقة المعقدة بينه وبين زوجته زينب هانم. هو محب للدردشة مع الخلصاء إلا فيما يختص ببيته. إلا أنهم لم يكونوا فى حاجة لبوحه وإفضائه كى يعرفوا همومه الشخصية، يكفيهم أن يروه فى الحضرة الأسبوعية مكفهر المزاج باستمرار بسبب «شوية مشاكل فى البيت».

ثم إنه فى لحظات الصفاء يحلو له الحديث عن طبائع النسوان، وكيف أنهن لا يؤمن لهن جانب مطلقا إذ إنهن يتنفسن الخيانة، وأن الرجل إذا لم يكن صنديدا قويا فى كل شئ، الشكيمة والفحولة والمال، فإن المرأة تمرغ كرامته فى التراب.. الخ.

كان الشيخ سند -أحبهم إلى قلبه- هو الوحيد الذى يزوره فى البيت أحيانا، فى المناسبات الضرورية، كأن يتخلف الحاج مصطفى عن الحضرة الأسبوعية مرة بسبب وعكة صحية. فيما عداه لا أحد من الرجال -أو جنس الذكور- يسمح له بدخول البيت فى غيابه أو حضوره على السواء. الشيخ سند رغم ورعه الشديد

فإنه أرقم، دقيق الملاحظة ، يجيد عملية الربط بين ما يرى وما يسمع. هو إلى ذلك مفلوت اللسان أحيانا، لا مانع لديه من التصريح لبقية الصحاب ببعض استنتاجاته، لا من قبيل النم أو التشنيع بل من قبيل استعطاف القلوب على صاحبهم ومحاولة إيجاد مخرج له.

الست زينب هانم كانت بارعة في استلقاطه لبرهة عابرة، فتشكو له -بالتلميح المرح- سوء معاملة الحاج لها، فمرة كسر لها ذراعها، ومرة بطحها فى رأسها، ومرة شرح جسدها بكرباج سودانى مسقى بالزيت. كل ذلك- وتومئ بيدها حول رأسها فى حركة ذات دلالة واضحة -نتيجة أوهام معششة فى رأسه. يستعيذ الشيخ سند بالله من الشيطان الرجيم، يدعو لهما بصفاء المياه وراحة البال، يدرك الشيخ سند، بشكل ما، أن صاحبه ربما كان غير محق فى هذه القسوة، فصوت الست فى أذنيه لا ينبئ عن أى لوع أو تلوين ثم إنه لم يرها إلا من وراء حجاب لا يكشف عن شئ من وجهها.

كل النصائح التى تلقاها الحاج من صحابه كانت هى الأخرى من وراء حجاب، معممة، فى صيغة حديث عمومى لا يتعلق بأحد بعينه، فمثلما كان الحاج مصطفى يبثهم شكوكه على أنها تخص ناسا يعرفهم، فإن الردود هى الأخرى كانت تجئ دائما متعلقة بشخص مجهول، من قبيل: إن صاحبك هذا مخطئ فى كذا وكيت.. الخ.

الواقع أن هؤلاء الصحاب أعضاء الطريقة الأحمدية نجحوا فى التخفيف من غلوائه بعض الشئ وإن لم يدخلوا التطامن عليه تماما.

الوحيد الذي كان يشعر بغلواء أبيه ومأساة أمه هو ابنه عبد البصير، نظرا لحساسيته الشديدة التى تمنحه غنى فى العاطفة، والتى جعلته يرتبط بأمه أكثر من ارتباطه بأبيه، فهى التى تشجعه فى هوايته للكمان، وتغدق عليه مما تبقى فى يدها من مصروف ضئيل، وتحنو عليه إذا توعك، وتطيب خاطره إذا اشتكى من قسوة أبيه عليه فى الشغل. بل إن سر إصرار أبيه على منعه من الارتباط بهواية الموسيقى مصدره إصرار أمه على أن يتعلم الموسيقى. إن أبوه فى الواقع ليس

لديه مانع من أن ينبغ أحد أبنائه في الموسيقي التي يعشقها ويسعى لتعميم تعليمها، ولكن أن تأمر الأم ابنها وأن يمتثل الابن لإرادتها هى فذلك ما يطعن الحاج مصطفى فى صميم كبريائه. الإرادة فى نظره للرجل حتى ولو كان مخطئا، وأن تملى المرأة إرادتها عليه فذلك ما ينبغي أن يحاربه حتى ولو كان ضد مصلحة أبنائه جميعا!!

جميع إخوته كانوا يخلدون إلى النوم مبكرا إلا هو يظل ساهر أغلب الليل يستمع إلى الموسيقى المنبعثة من شقة أم بهيجة أو التى تهدر فى داخله. وإذ يضطر إلي دخول الفراش بعد مجئ أبيه كان يبقى يقظا لمدة طويلة يستمع خلالها إلي مشاحنات ومشاجرات تتضح أحيانا وتغمض فى معظم الأحايين. مشاحنات أشبه بالاستجواب بل المحاكمة، لا يسمع خلالها سوى صوت أمه يجيب على أسئلة لم يسمعها، ويكذب وقائع لم يتبينها، ويردد القسم على المصحف بأن شيئا من هذا لم يحدث، وصوت دفاعها يتطور يزداد علوا وضيقا شيئاً فشيئا، تعقبه لطمات على الخدين. وفى النهاية يعلو صوت أبيه بأقذع الألفاظ وأقسى التهم.

كثيراً ما كان باب الحجرة ينفتح فجأة بعصبية، ويضاء النور، فيفتح عبدالبصير عينيه، فيرى أمه تبحث فى حجرتهم عن شئ لعله المصحف أو البخارى، أو لتصحى ابنتها الصغيرة من النوم وتسحبها من يدها متوجهة بها إلى حجرة نوم الأب، ويسمعها تقول لأخته:

– «أنا كنت فين النهارده ساعة أدان الضهر؟!»

فتتلعثم البنت فى ثغاء طفولى:

– «كنت .. كنت .. فى البيت!»

– «باعمل إيه؟!»

– «كنت .. كنت.. بتنقى رز.. وبعدين .. تخيطى الشرابات! وتخشى المطبخ تطبخى!!».

– «قولى لأبيك!!»

ثم تسحبها عائدة بها إلي الحجرة لتنيمها فى سريرها وتحكم حولها الغطاء.

يرى عبدالبصير وجهها منتفخا مهانا، شعرها منكوشا، بعض خرابيش فى رقبتها.

من العادات التى لاحظ عبده أن أباه قد كف عنها، عادة التفتيش فى دولاب أمه، بحجة البحث عن شئ تائه منه، فلابد أن يكون هذا الشئ المزعوم أدق من الإبرة وإلا ما اقتضى التقليب فى محتويات بعض العلب، وفى المكحلة، وفض كل لفة ورق ثم التدقيق فى محتوياتها أو سطورها. كذلك كف عن عادة مداهمة البيت فى أوقات غريبة، والدخول على أطراف أصابع القدم والتدقيق فى عينى الأم وفى ملامحها حيث يبدو عليه الضيق الشديد إذا رأى في وجهها نضارة أو فى تصفيف شعرها عناية، كأنه يريد أن يكتشف بصمة الخيانة على هذا الوجه النضر باستمرار.

كف أبوه منذ سنوات قليلة عن مثل هذه العادات بعد أن كبر الأولاد فصاروا رجالا وعرائس، وبعد أن تأكد أن دمه وملامحه يجريان فى عروق أولاده بوضوح جلى. إلا أنه فى الشهور الأخيرة قد بدأ يساوره الشك من جديد، لكن صوت أمه كان قد عرف كيف يعلو، وردودها كيف تكون رادعة باترة، مشبعة بالقسوة والتطاول أحيانا، بل أصبح صوتها هو الأعلى، يصادر صوت أبيه قبل أن ينطق، يحذره من شغل العيال أو التمادى في أمور المصغرة، إذ المفروض أن عقل الرجال يكبر حين يكبرون لا يزداد خيبة وخبالا.

(١٠)

أغلق الدكان بالفعل إثر انصراف إبراهيم أفندى غطاس، وكانت هذه أول مرة فى حياته يضطر لإغلاق المحل قبل موعده بساعتين على الأقل، لكن كلام إبراهيم أفندى قد عصف بكل عقله، أقنعه بأن «هذه المرأة» التى دلست عليه وأخفت عنه نشاط ابنها ودارت على سهره المتواصل فى الحفلات مع العوالم، لابد أنها فعلت ذلك فى أمور أخرى كثيرة أشد وأخطر، فالتى تفعل هذا لا تتورع عن فعل ما هو أفدح، هذه مثل تلك، بل هذه لا تنفصل عن تلك.

مضى يدب فى شارع أحمد ماهر، ومنه إلى شارع الحلو، فشارع الشيخة

صباح حيث صلي فى مسجدها ركعتين التماسا للهدوء ولمساعدتها له فى هذه المحنة. جلس على مقهى فى ميدان المحطة. كان يبحث عن مكان شديد الصخب ينغمس فيه لبعض الوقت، لكن شوارع طنطا الهادئة فى مثل هذه اللحظات من الليل كانت تزيده استغراقا فى نفسه، فيشعر بشرايينه تكاد تنفجر وبأطرافه تكاد تشل. استراح قليلا فى مقهى المحطة، ثم زلزله صفير القطارات من أعماقه، فارتفع قلبه إلي علو شاهق ثم حلق فى الفراغ قليلا ثم هوى مرتطما بالأرض فى عنف. أفاق من الدوخة على صوت يتردد فى صدره: لقد عجزت عن تربية ابنك! عجزت عن السيطرة على زوجتك المارقة لقد انخدعت ويعلم الله فى أى شئ آخر قد خدعت أيها المغفل! قد كانت شكوكك فى محلها إذن!! قلبك كان دليلك! لقد بدأ الخداع يحكم شباكه حولك منذ أن كففت عن المراقبة والمحاسبة وتضييق الخناق!!

ارتفع صوت وشيش القطار وهو يتحرك ويتخبط كثيرا ثم ينتظم إيقاعه مع سرعة الانطلاق وقد ملأ الفضاء كله بسحب الدخان ورائحه المازوت المحترق الأقرب إلى رائحة الشحوم والحمضيات . احتجب الضوء عن ناظرية، التبس عليه دخان السيجار بدخان المازوت، يحلق فى الضوء الرمادى المعتكر. رأى الخنجر فى يمينه يقطر دما، وجسداً أنثويا عملاقا طافح الأنوثة منطرحا على الأرض ممزع الضلوع يطفح دما قانيا، وشابا سمهرى القوام يترنح وهو يلفظ آخر أنفاسه وقد تكسر فوق رأسه صندوق الكمان، وجميع الآلات الموسيقية انتحرت، ألقت بنفسها من فوق الرفوف إلى الخلاء هشيما يلمه بائع الروبابيكيا، وبوابات سجن تفتح أمام كارثة مدوية تنقل أبناءها الصحف، ثم إن الهدير قد ارتفع فجأة بدخول قطار جديد إلى المحطة. ثم مالبثت بوابة السجن حتى انجلت عن بوابة المحطة التى راحت تدلق أفواجا من البشر تائهين منبهرين يتصادمون ثم يذوبون فى الميدان الذى يوزعهم فى كل اتجاه.

الساعة المواجهة له فى ميدان المحطة كالقدر. أشرفت على الثالثة صباحا، وحر أغسطس الخانق انكسرت حدته بنسمة عابرة أعادته إلى الحياة، فطلب فنجانا من القهوة صار يقرأ بعض آيات قرآنية فى سره، ختمها ببعض أوراد

وتسبيحات واستخارات. ثم نهض أخيراً، توجه إلي المسجد الأحمدى ملبيا نداء الفجر. فما أن ختم الصلاة حتى شعر كأنه قد خرج لتوه من بوابة السجن بعد حكم بالمؤبد، أو لعله قد انعتق من حبل المشنقة بعفو إلهى.

فى المسافة القليلة بين المسجد الأحمدى والبيت كان قد توصل - بهداية من الله طبعا- إلى حل يريحه من هذا العذاب راحة تامة ونهائية، مقتنعا تمام الاقتناع بحكمة أهل زمان «شيل ده عن ده.. يرتاح ده من ده»..

دخل البيت فوجد الست هانم فى انتظاره ساهرة يفريها القلق على غيابه. كانت بالفعل مرتاعة، مخطوفة اللون، غاضت الدماء فى وجهها. تأهبت لتسأله عن سر تأخيره، لعله خير . لكنه تقدم داخلا لا يلوى على شئ. وبدلا من دخوله مباشرة إلى حجرة نومه كالعادة ليخلع ثيابه، جلس على أول كرسى صادفه، ثم ارتكن بمرفقيه على ترابيزة السفرة وراح يغرز سهام نظراته فى وجهها الشاحب المرتاع، وثمة صوت فى أعماقه يهتف به قائلا:

إياك أن تتردد! فشحوب وجهها واضطرابها دليلان على شعورها بالخطيئة والخطأ.

تقدمت منه وجلة، حارة، خائفة، متمتمة:

- «مالك يا حاج؟ فيه إيه؟!»

مد ذراعه نحوها آمرا منذرا :

- «قفي مكانك! إياك والاقتراب منى!!»

فتسمرت فى مكانها كقنبلة ألقى بها فى الأرض فنزلت ساكتة دون أن تنفجر. بكل برود وحسم باتر أمرها قائلا:

- « لمى هدومك وأشياءك كلها !! » .

- «ماذا قلت؟!»

- «أنت طالق! طالق! طالق!!»

تركها تتخبط فى ذهولها، ومضى إلي حجرة النوم، فارتمى على السرير بثيابه وحذائه، ثم مالبث أن استغرق فى نوم عميق داهم ثقيل.

(١١)

الحياة فى البيت أصبحت مستحيلة. فمنذ أن رحلت أمه عنه يخيم عليه ظل من الكآبة واليتم والشقاء. أخذت الأم كل شئ معها: حجرة نوم الأب كلها، حجرة السفرة، الأنتريه، نحاس المطبخ. لم تترك سوى حجرة العيال، والعيال، والنكد المتواصل فى كل ركن فى البيت.

أخته الكبرى زاهية تكفلت بشئون المطبخ . أخته وهيبة نشطت فى غسل الثياب ومسح البلاط. مضت الحياة بالحاج مصطفى على نفس الوتيرة بنفس المواعيد، وفى آخر الليل ينام على كنبة اشتراها مؤقتا، لكن البيت فقد روحه وأنسه ونوره.

شهور طويلة طويلة مضت كزحف السلحفاة. وكل يوم يمر يطلع عبدالبصير على حجم الخراب الذى حل ببيتهم بعد رحيل أمه التى كانت تحبه وتحنو عليه. كانت هى الشجرة الوحيدة فى هذا الهجير. كانوا جميعا - هو وإخوته - يتصورون أن الحالة مؤقتة، وأنها لن تلبث حتى تتغير باسترداد أمهم أو باعتيادهم غيابها.

كل ما هنالك أن الأب هو الذى تغير بالفعل، أصبح هادئ الأعصاب على الدوام، زالت عصبيته، زاد ورعه، بات يكثر من الصلاة حتى فى غير أوقاتها، صار يحنو عليهم لكنه لم يستطع ملء جزء يسير من الفراغ الذى ضرب أطنابه فى حياتهم، خاصة بعد اقتناعهم بإصرار أبيهم على أن غيبة أمهم لا رجعة فيها بأى حال من الأحوال.

اجتمع الأخوة فى ليلة على أسرة النوم، اتفقوا على أن يقوم أخوهم الأكبر بمفاتحة الأب فى أن يسمح لهم بزيارة أمهم من حين لآخر. لكنهم فى الصباح فوجئوا بأن ثورة قامت فى البلاد شغلت الدنيا بأكملها . أصبح الجميع يتكلم فى الثورة. أصبحت الثورة زادهم اليومى، لاسيما وقد بهرتهم بجليل الأعمال المتوالية فى إيقاع سريع : طرد الملك من البلاد، إعلان الجمهورية، إلغاء الألقاب، تصفية الإقطاع، إنهاء الاحتلال الإنجليزى، الإصلاح الزراعى مجانية التعليم فى جميع مراحله.. إلخ.

فوجئ الأولاد بأن سنين قد مرت وحادث الثورة هو الحديث المتجدد فى حياة كل فرد، حيث انبعثت الأمال والأمنيات الكامنة فى كل الصدور مشرقة زاهية قابلة للتحقق، المستحيل أصبح ممكنا فى كل شئ. فوجئ الأولاد بأنهم قد اعتادوا الحياة بغير أمهم، وأن الحاج مصطفي قد ارتد شابا فتيا يهتم بأناقته وصحته. كأنما دبت الحياة فى مشروعه الأزلى العتيد، فبدأ يخاطب حكومة الثورة بشأنه ، مستخدما عبارات الاشتراكية والكفاية والعدل وتجمع قوى الشعب العاملة. ثم إنه استجاب بسرعة للمحاولات التى بذلها صحابه للصلح بينه وبين إبراهيم أفندى غطاس، الذى ما لبث أن أستأنف احتلال كرسيه المعتاد بجوار المكتب يستمع إلى الصيغ الجديدة لمشروع الحاج مصطفى الصوفانى، ويضيف اليه بعض المقترحات للنهوض بفن الموسيقى وتعميمه عن طريق المؤسسات الشعبية والنوادي الاجتماعية والجمعيات الخيرية إضافة إلى المدارس بالطبع. إلا أن الحاج مصطفى الصوفانى ظل يشعر بغصة فى حلقه كلما تطرق الحديث إلى ذكر العوالم والآلاتية، أو نبوغ ابنه فى العزف على الكمان، إذ يقطب جبينه ويغير مجرى الحديث فى الحال، ولابد أن يسرب عبارة أو عبارتين يفهم منهما إبراهيم أفندى غطاس أن الحاج مصطفى الصوفانى لم ولن يغفر له تلك الخدعة بأى حال. غير أنه استجاب بأريحية لاقتراحه الذى نقله إليه عبدالبصير للحاج، فوافق على أن يزور الأولاد أمهم من حين إلي حين.

فرحة ما تمت، ففى الأسبوع الذى تهيأ فيه الأولاد لزيارة أمهم يوم الجمعة القادم، فوجئوا بخبر نزل عليهم جميعا كالصاعقة. لقد تزوجت أمهم منذ شهور طويلة مضت. لم يحتمل أهلها فلتان أعصابها الدائم، واكتئابها الحاد.

خالهم كان يدرك خلة أخته عميق الإدراك، يعرف أن جبلتها الأمومة، وأن بطنها من الخصوبة الحادة بحيث لا تقدر على الحياة بغير جنين يملؤها على الدوام، فسعى لتزويج أخته من رجل فاضل يعمل موظفا مرموقا فى مصلحة السكك الحديدية يبلغ من العمر أربعين عاما قضاها أعزب يشتاق للولد ولا يجد من تملأ دماغه من بنات الناس فى قريته المجاورة لطنطا، فما أن شاهد زينب

هانم فى دار أخيها أثناء زيارة تم تدبيرها بعناية، حتى فقد وعيه وتهاوى أمامها فأنهى إجراءات الزواج فى ثلاثة أسابيع. ولم يكتمل الشهر الثانى على زواجه حتى تلقى نبأ الحمل فى سعادة بالغة.

الزوج طيب القلب ودود، استجاب لنداء قلب زوجته حين طلبت رؤية أولادها. أرسل مخصوصا محترما من رؤسائه فى المصلحة إلى الحاج مصطفى الصوفانى يستأذنه فى هذا الطلب الشرعى. عندئذ أحس الحاج مصطفى بكيانه يتصدع، كاد يتطاير مزقا، وقد شعر المخصوص بمحنته، وكان لطيفا لبقا فصار يتحدث فى أمور القسمة والنصيب وإرادة الله، حتى تأكد من هدوء بال الحاج مصطفى، وحصل منه على وعد بأن يزور الأولاد أمهم يوم الجمعة القادم إن أحيانا الله وأعطانا عمرا .

أبلغ الحاج مصطفى أولاده النبأ، فى قليل من التشفى، وكثير من الحزن الغامض . وقد فوجئ -لدهشته- أن الخبر الذى نزل على أولاده كالصاعقة فجمد ملامحهم لبرهة طويلة، سرعان ما آب إلى ضرب من البرود واللآمبالاة، حيث فترت حماسة الأولاد للزيارة. بدأ كل منهم يهمل أمر الهدية التى حوش لها من مصروفه القليل. إلا عبدالبصير، لم تفتر حماسته ولم يسترح إلا بعد أن زار أمه بالفعل فى بيتها الجديد، حيث حمل إليها هدايا إخوته وسلامهم وحرارة شوقهم وعشر قبلات من كل واحد منهم، وسعادتهم بقدوم أخ جديد لهم من غير أبيهم.

إنما الخبر الذى جمدهم تماما وبث القلق العارم فى نفوسهم حدث ذات ليلة انحفرت تفاصيلها فى وجدانهم: لقد فوجئوا بحجرة نوم جديدة تدخل عليهم، والعمال يقومون بتركيبها فى بهجة وزأطة، ثم تلتها حجرة أخرى هى الأنتريه. جعلوا يتابعون الموقف ببلاهة وجمود حتى دخل عليهم الحاج مصطفى قرب منتصف الليل وفى ذراعه سيدة نصف شابة، جميلة حقا، مصحوبة برهط من النساء والرجال يزأطون ويزغردن . بعد انصرافهم جمع الحاج مصطفى أولاده وقال لهم بحزم وهدوء شديدين:

- «هذه هى زوجتى الجديدة! ستكون لكم أما ثانية! فعليكم احترامها كأمكم !

ومن يتسبب منكم فى إقلاق راحتها أو راحتى أو فى أى شغب فهو الجانى على نفسه!!».

ثم اقتادها إلى حجرة النوم فى رزانة ورصانة كما يقتاد الأب ابنته الكبرى للقاء عريسها، بعد أن أمرهم باللجوء إلى مخادعهم، وإطفاء كافة الأنوار. ثم دلف داخلا وأغلق الباب من الداخل بالترباس.

(١٢)

أخذ العنوان من إبراهيم أفندى غطاس، وركب القطار إلى بلدة قُطور، ومنها إلى قلين. فإذا هى قرية تأخذ شكل المدينة على استحياء؛ ببضعة قصور مبنية فى الخلاء لمجموعة من العائلات الإقطاعية الشهيرة هناك: القلينى ومنصور والديب والدبيبهى وغيرهم.

سأل عن بيت المغنية هنيات شعبان فإذا هى هناك أشهر من المدينة نفسها؛ وإذا هو أمام سيدة فى ريعان الصبا، بيضاء شاهقة البياض، موفورة الصحة، بشوشة الوجه، لبقة، جهيرة الصوت مجلجلته، قوية الشخصية. كانت هذه أول مرة يراها رغم أنه سمع عنها كثيرا، فهى مشهورة فى البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها؛ يدعوها الأثرياء والأعيان لإحياء الأفراح والموالد والليالى المفترجة. معظم غنائها دينى؛ لكنها فى سبيل الانتشار وملاحقة التطور الذى أحدثه ظهور الراديو فى الغناء بدأت تغنى بعض الأغنيات العاطفية المتزنة. لم تفعل أكثر من أنها غيرت الكلام بكلام جديد ركبته على الألحان الدينية الموروثة فبقيت الألحان كما هى بحذافيرها غير أنها اكتسبت على الكلام الجديد مزيدا من الإشراق والتألق؛ فكلها ألحان تفيض بعاطفة جياشة سخنة، لأنها فى الأصل موضوعة فى حب النبى عليه الصلاة والسلام. تمثل ذكاء هنيات شعبان فى انتخابها مجموعة ألحان قديمة مما يزخر به الفولكلور الدينى العربى، البارعة موسيقيا، المشبوبة بحب النبى، ومدحه، والسفر إلى الحجاز. منها موشحات أندلسية مجهولة المؤلف. ومنها ألحان ابتدعها ونشرها الشيخ على محمود بين الصبيّة فى القرى.

ذكاؤها الفنى مسنود بذكاء اجتماعى؛ يتجلى فى إعطاء كل حفل ما يناسبه

من التواشيح والأدوار، أو الطقاطيق، أو المواويل الجمراء، أو المدح النبوى الخالص. حفل الزواج يختلف عن حفل الطهور عن حفل ليلة النصف من شعبان عن الاحتفال بعودة أحد الحجاج عن حفلات الذكر في موالد البدوى، والدسوقى والحسين والسيدة زينب.

صوتها فى القوة الناتجة عن التدريب منذ الصغر ينتسب إلى فصيلة صوت أم كلثوم، وفى الخامة إلى كل من ليلى مراد وأسمهان معا؛ مع انطلاقة شرحة تشبه انطلاقة الأرض الزراعية فى امتداد الأفق. إذا توهجت جلجل صوتها بكل ما فى ليل القرى من هسهسات النسيم وحفيف الأشجار وجأر النواعير وخرير الجداول. كانت تطرب الجمهور حقا؛ وكانت كريمة معطاءة؛ تسهر مغنية حتى مطلع الفجر دون تعب من الوقوف على قدميها أمام الميكروفون. هى إلى ذلك تفرض على الجميع احترامها، حظيت بلقب الحاجَّة قبل زيارة النبى بوقت طويل. تفرض كذلك الأجر الذى ترضاه فلا يناقشها فيه أحد، بل ربما أضاف إليه بعد انتهاء الحفل حينما يتبين أن ليلته قد أحييت بالفعل بصورة رائعة لم يكن يتوقعها.

الجمهور كان يتفاءل بها يعتبرها مباركة. وقد حرصت هى أن تكون لها فرقتها الموسيقية الخاصة: عواد ونایاتى وطبال ورقاق وأرغولجى وقانونجى وثلاث أو أربع كمانات لابد أن يكون من بين عازفيها صوليست متمرس على التقاسيم لكى يسلطنها.

جلست على الكنبة البلدى لافة رأسها ورقبتها بالطرحة البيضاء، عاقدة ذراعيها على صدرها، مائلة برأسها مطرقة، مستغرقة فى الإنصات بعمق وتمعن لهذا الشاب الذى انخرط فى العزف أمامها ليريها إمكانياته لعلها تضمه إلى فرقتها. ذهلت هنيات شعبان من مستواه المبهر على صغر سنه؛ سلطت عليه عينيها السوداوين المخضلتين بدمع التأثر الشديد. فما أن انتهى من عزفه والتقت نظرته بنظرتها حتى هزت رأسها قائلة فى امتنان:

- «صحيح ابن الوز عوام! الله يفتح عليك! .. إبراهيم أفندى عنده حق لما

قال إنه سيبعث لى هدية! أنت فعلا هدية! إنما الشغل معى يحتاج لصبر! فشغلى كما تعلم مواسم ! عندى هذا الأسبوع مثلا ثلاث حفلات! واحدة فى بلدة شباس عمير! والثانية فى بلدة صندلا ! والثالثة فى بلدة ميت الديبة! وبعد شهر عندى سبع حفلات فى بلدة سنهور المدينة والرحمانية ودسوق والبكاتوش! وربنا يبعث! إن شاء الله أراك هنا بكرة! زرقك ورزقى على الله! أهلا بك! وصيتى أن تجىء مبكرا لتعمل بروفة على المقطوعات التى سأغنيها! سلم لى على أبيك وعلى إبراهيم الندى!»

تفاءلت به؛ أحبته حبا عميقا. أصبحت يطيب لها أن تقدمه لجمهورها قائلة:

- «أحب أن أقدم لكم عازف الكمنجة الموهوب الأستاذ عبدالبصير الصوفانى فى فاصل من التقاسيم! إن شاء الله أنا متأكدة أنه يعجبكم!!».

وتجلس على مقربة لتريح صوتها وقدميها قليلا، وفى نفس الوقت تمتع أذنيها بأنغام هذا الشاب المعجزة، الذى تحس أنه يفتح وعيها على مناطق جديدة تجربها بصوتها؛ فتكاد تجن من حلاوتها وطيب مذاقها. وفى آخر الليل وهى توزع الأنصبة على العازفين تغمزه فى السر بنفحة مجزية لكى تشجعه على الاستمرار معها بنفس مفتوحة؛ فلقد أدركت إلى أى حد هو يضفى على فرقتها غنى ولمعانا وعصرية؛ كما أن جمهورها الذى يرتحل وراءها قد بات يطلب «شوية على الكمنجة» من الأستاذ عبده.

انشغل أبوه عنه وعن كل إخوته بزوجته الجديدة، وبمشروعه الذى بدأ يتلقى بشأنه ردوداً مشجعة من حكومة الثورة تنبىء عن اهتمام شديد به لكنها لا تتخذ أى خطوات نحو التنفيذ. وهذا فى حد ذاته أنعش مزاج الحاج مصطفى الصوفانى وجعله طول الوقت مشغولا باستكناه أفكار جديدة تسهل تنفيذ مشروعه.

قام بينه وبين ابنه عبدالبصير نوع من الاتفاق الصامت على أن يترك كل منهما الآخر فى حاله؛ فلا عبدالبصير يطلب منه مصروفا، ولا الحاج مصطفى

يهتم بغيابه أو حضوره، حتى بدا كأنه رمى طوبته نهائيا؛ لا سيما وأن زوجته الجديدة الشابة قد نشطت فأنجبت له ولدا فرح به كأنه ينجب لأول مرة فى حياته، ربما لأنه كان دليلا على أنه لم يفقد فتوته بعد.

استطاعت فرقة هنيات شعبان أن تُعيش عبدالبصير فى قليل من الرغد، وأن تنشر اسمه فى كل القرى وبين جميع الفرق، ومتعهدى الحفلات. أصبح مألوفا أن يميل على أذنه الشيخ طلعت العواد الضرير فى فرقة هنيات شعبان، ليهمس فى أذنه بأن المتعهد فلان الفلانى يطلبه لحفلة فى البلد الفلانى يوم كذا، وأنه سيعطيه ما يشاء من الأجر، فيوافق فى الحال. شيئا فشيئا أصبح يعمل فى جميع الفرق الشغالة بجميع مستوياتها وألوانها.

الحفلات المتواصلة جمعت بينه وبين ثلاثة أكفاء : الشيخ طلعت الشبكشى، والشيخ عطية البلبيسى، والشيخ عبدالحليم مشهور. دائما أبدا كان يفاجأ بهم فى كل حفل. أما الشيخ طلعت والشيخ عطية فإنهما مصيبتان كبيرتان فى حفظ التراث. كل منهما مخزن حى متحرك يحوى فى ذاكرته العجيبة كنوزاً لمحمد عثمان وداوود حسنى والشيخ أبو العلا محمد والشيخ محمد المسلوب وعبدالحى حلمى وعبده الحامولى والشيخ على محمود وسلامة حجازى والمغنى الشعبى عبده الدمرداش وقرينه محمد العربى والشيخ زكريا أحمد وسيد درويش وغيرهم، إلى جانب الكثير من القدود الحلبية والمواويل المصرية الحمراء والخضراء. وأما عبدالحليم مشهور فكان أصغر منهما سنا، وقليل المحفوظات، ويتعشم أن تكون رفقته لهذين الشيخين طريقا لحفظ ما يحفظون، لا سيما وأنه الوحيد الذى يملك حنجرة قوية قادرة على الأداء فى سرادق كبير وبلا ميكروفون. صحيح أنها حنجرة سمجة بعض الشىء، تفتقر إلى الإحساس، لكنها تؤدى بسلامة وقوة.

كان لثلاثتهم - إلى كونهم قنطرة على التراث الموسيقى العربى العتيق - فضل التسرية والترفيه عن عبد البصير فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة بين القرى والدساكر.

(١٣)

موعده مع الشيخ طلعت كان موعد قطار الخامسة على رصيف المحطة، حيث يركبان من طنطا إلى بلدة تبعد بثلاث محطات. ومن المحطة يمشيان قليلا إلى بلدة ملحقة بهذه البلدة بنيت حديثا، يسكنها رهط من الأهالى الذين علموا أولادهم فى جامعات الثورة بالمجان، فأصبح لزاما عليهم السكنى فى بيوت تليق بأولاد المدارس والجامعات الذين أصبحوا - بمجرد لبسهم للبذلات - أفندية وأساتذة. اقتطعوا من أراضيهم الزراعية مساحات لا يستهان بها، أقاموا فوقها بيوتا بالطوب الأحمر مسقوفة بالحديد المسلح، بعضها من طابقين وثلاثة، على طرز متنافرة، متشاكلة فى آن. هى تقليد بدائى ساذج لقصور الإقطاعيين قبل الثورة، ليس فيها من ذلك سوى شرفات عريضة وشبابيك ذات شيش وزجاج مدهونة باللون الأخضر، أما الحيطان فمدهونة بألوان فاقعة، ولم تخل الأسقف من أحمال الحطب والقش وأقراص الجلة. وهكذا انقسمت البلدة بلدتين: الأولى وهى العتيقة وكلها مبنية باللبن والثانية وهى الجديدة تكتم على أنفاسها. أصبح يتعين على كل قادم إلى البلدة لغرض فيها أن يحدد: القبلية أو البحرية؟

هذا ما لم يكن يعرفه الشيخ طلعت وعبدالبصير. كل ما هنالك أن المتعهد الذى اتفق مع الشيخ طلعت أعطاه العنوان على البلدة مكتفيا بأن اسم العائلة صاحبة الحفل غنية مشهورة وأهلها من الأكابر. كان الحفل بمناسبة عودة عميدها من الحجاز. وفى الطريق قال الشيخ طلعت لعبد البصير إنه أصر على أن يكون عبدالبصير على رأس التخت، وأن المقاول اشترط على أصحاب الحفل أن يضعوا ذلك فى اعتبارهم عند تقدير الأجر، وأنه فوجىء بترحيبهم. والواقع أن ثمة حلفا وديا قد نشأ بين العميان الثلاثة وبين عبدالبصير، أن يفرض كل منهم زملاءه عند اتفاقه على أى حفل. والشيخ طلعت بالذات لم يكن يأنس لأحد من الآلاتية قدر إئتناسه بعبد البصير، إذ هو الوحيد الذى لا يضيق به ولا يجأر من عبئه، بل يتكفل بسحبه على الدوام، يتأبط ذراعه فى الطريق، يساعده فى تهيئة القعدة له على المنصة، يكون أسرع من يستجيب إذا قال الشيخ شيئا، بل كثيرا ما يتكفل

هو يحمل عوده نيابة عنه إضافة إلى كمانه. لم يكن الشيخ لينسى هذه الأريحية، فيعمد طوال الطريق إلى الترفيه عن عبدالبصير قدر الإمكان. هو أبرع من يحكى النكات القبيحة الخارجة، موهوب فى تقليد أصوات الحيوانات وخاصة نهيق الحمير وصياح الديوك عند الفجر ، يطلق الأول عند استهجانه للشيء والثانية عند استنكاره له، كما أنه نمّام لا يشق له غبار، لا تعرف كيف حصل على كل هذه الأخبار والتشنيعات التى يعجز عن ملاحظتها المبصرون، خاصة أخبار الشواذ الذين يغرمون بالانحشار فى المركبات وفى أى زحام.

يستخف عبدالبصير ظله، يحنو عليه، لا يدقق معه فى أى شيء، لا يحاسبه على أى قول مهما بلغت فيه درجة الفشر والمعر فهو يعرف أن كل ما يقوله محض تأليف من خصوبة الخيال التى يتمتع بها معظم العميان. لا يستاء منه إلا فى شيء واحد فقط : قسوته على عبدالحليم مشهور الذى يكاد يكون فى مقام ابنه. وقد عجز عبدالبصير عن تفسير سر هذه القسوة التى تنم عن حقد دفين على الولد بصورة مرعبة، هل لأن الولد قوى الحنجرة بارع الأداء للعُرَب الحريفة فى حين يقترب صوت الشيخ طلعت من صوت الحمار بل ربما كان الأخير أجمل؟! هل لأن معظم الناس يعطفون على الولد بشكل ظاهر مبالغ فيه أحيانا؟! الله أعلم، ولكن قلب عبدالبصير انقرص مرة حين تمادى الشيخ طلعت فى مزاحه مع الولد فسحب كتفه متحسسا إياها قائلا: خذ دى، ثم هوى بقبضته - بكل قوته الشريرة - فوق كتف الولد، فأنّ الولد أنّه واحدة عميقة، ثم انقطع تنفسه فى الحال فعجز حتى عن البكاء. اغتاظ عبدالبصير وبكل ضيق نتر ذراع الشيخ طلعت من تحت إبطه فى عنف صائحا: «لأ بقى ياشيخ قرد! حرام على دينك!»، ثم راح يدلك كتف الولد ويربت على ذقنه ليرد إليه نفسه المستلب. ليلتها ظل الولد مكبوسا منطفئا يكتم الألم، فظل عبد البصير كسير القلب موجوعه طول الليل.

كان أعضاء الفرقة قد تكاتبوا العنوان وسبقوا إلى البلدة كل بآلته، واثقين أن عبدالبصير هو خير دليل للشيخ طلعت ، وأنه لابد سيلحق بهم على طبلية العشاء قبل أن يقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم. وإلى أن تقابل عبدالبصير مع الشيخ

طلعت على المحطة، وحتى استلامهما الطريق الموصل للبلدة كان عبدالبصير لايزال غير قادر على تصور المحنة التى يصر الشيخ طلعت أن يضعهم فيها هذه الليلة بصلابة مخه وانتهازيته . ذلك أن أصحاب الحفل كانوا فى الأصل يطلبون هنيات شعبان، فالتقاهم المتعهد وأبلغهم أن الحاجة هنيات - عقبال عندكم - قد اعتمدوها فى الإذاعة، وأنها مقيمة فى القاهرة منذ أسبوع تحفظ لحنا للملحن الكبير أحمد صدقى أسمه يأهل البيت ياسندى كما نشرت الصحف، ولن تعود قبل تسجيله بفرقة موسيقى الإذاعة، أمال ياعم، وأمامها من عشرة أيام إلى شهر. هكذا أوحى الشيخ للمتعهد. فلما قالوا للمتعهد: تصرف ، لجأ للشيخ طلعت باعتباره عوادا فى فرقة الحاجة هنيات:

- «دبرنا ياسى الشيخ ! ألا تعرف صَيِّتا محترما يحيى الحفل بدلاً من الحاجة؟»

صاح على الفور :

- «أعرف طبعا ! كيف لا أعرف؟ هذا كلام يارجل؟ أعرف أكبر صييت فى العبّ كله! الشيخ طلعت المهدى الشبوكشى!!»

واندهش المتعهد:

- «هو أنت إذن؟!»

- «عليك نور ! أنا معلم هنيات شعبان! وبينى وبينها عهد ألاّ أغنى إلا فى حالة غيابها!!»

- «على خيرة الله!».

- «على خيرة الله!»

تم الاتفاق. وقد سُرّ المتعهد عندما تبين أن التكاليف أقل مما قدر لها، فسلمه العربون والعنوان.

عبد البصير الذي طبعت روحه على المزاح والأريحية والصفاء لم يستطع استيعاب هذا الموقف رغم أنه وافق على المشاركة بكمانه فى التخت المصاحب للشيخ طلعت. ذلك أن الشيخ طلعت فى الواقع لم يسبق له الغناء مطلقا وسط

جمهور، إنما دوره مقصور على التحفيظ والعزف على العود. وحتى عند التحفيظ يخونه صوته القبيح الفظ فيتحشرج ويقصر عن إكمال الجملة فيكملها عزفا على العود.

فى الطريق الزراعى إلى البلدة قال عبدالبصير للشيخ طلعت فيما يتأبط ذراعه:

- «جهزت نفسك للعلقة التى ستأكلها الليلة؟!»

صاح الشيخ طلعت مفجرا ضحكته الهازلة:

- «إن شاء الله ميستورة ، صل أنت على النبى وقل يارب ثم اتركها لله!»

- «لكنك ياشيخ طلعت لست مغنيا! ولا صييتا! وهم يطلبون صييتا كالشيخ على محمود! هنيات شعبان! محمود أحمد عبدالهادى! فما الذى ستفعله فى ليلتك المهيبة هذه ؟!»

ضحك الشيخ طلعت ضحكة صاعقة :

- «الذى لا تعرفه ياسى عبده أفندى أننى سأتحفكم الليلة بما لم تعرفوه! عليكم فحسب أن تصحصحوا ورائى ! سأشير لكم على النغمة فى كل دخلة! وما عليكم إلا أن تقسموا لازمة طويلة من هذه النغمة حتى أتسلطن وبعدها يحلها الحلال!!»

كان عبد البصير يعرف أن هذا محض ادعاء، فالشيخ طلعت لم يتجه للموسيقى من صغره، لأنه قد عمى على كبر، وحينما أراد أن يتعلم العزف على العود كسبوبة يشحذ بها على المقاهى تصادف أن لجأ إلى عواد يحفظ الكثير من التراث فدربه عليه فالتحق بعالم الآلاتية فى مقهاهم الشهير بطنطا. قهوة الحللى، فمرمطوه فى سوق العوالم. وكان يضيق أحيانا بلقب الشيخ لأنه يطلق فى البلاد على كل ضرير وهو يحب نسيان أنه ضرير، لكنه مع ذلك كان كثيرا ما يفرح باللقب لأنه مفتاح القلوب.

لم يجد عبد البصير مفرا من إطلاق الخاطر الحبيس فى صدره، ففاجأه بلهجة مريرة مازحة فى آن:

- «ولكن صوتك ياشيخ طلعت! صوتك..»

فقاطعه الشيخ طلعت بثقة الأدعياء العتاة !

- «هل الشيخ زكريا أحمد حسن الصوت ؟! مع ذلك يعبىء الأسطوانات فتباع بالآلاف ! وهو مشهور هنا ! المسألة ليست حلاوة الصوت والجعر على الفاضى والمليان!!»

نفد صبر عبد البصير، فزغده:

- «وهل أنت مثل الشيخ زكريا بذمتك؟! الشيخ زكريا فنان كبير متمرس على الأداء وعبقرى فى التلحين! كما أن إحساسه مرهف! حسّه حلو! والناس تعجب بحسه لا بصوته! ولأنه صاحب اللحن فإنه بصوته الأجش هذا يجىء بعُرّب العُرَب ويكاد قلبه يتكلم فى صوته! إن صوته فى الواقع هو صوت أم كلثوم لكنه كالأوانى البللورية مدفون فى كومة من القش لحمايته من الانكسار! وأنت حينما تسمعه ترى القش يتناثر بعيدا فلا يبقى أمامك سوى البللور الصافى !! إسمح لى ياشيخ طلعت أنت خرمت وجاوزت حدك !!»

ولم يلتفت إلى رد الشيخ طلعت، لأنه غرق فى الهم فجأة وخفق قلبه بشدة، إذ تذكر أن أهل هذه البلدة قوم فى غاية الشراسة والعنف، فمعظمهم من البدو والمستوطنين الذين لا خبرة ولا صبر لهم على الزراعة فاشتغلوا بالتجارة والإقراض بالربا وأعمال النجارة. إلا أنهم والحق يقال سميعة من الدرجة الأولى، أهل طرب وأنس لا يستقيم مع شراستهم وعنفهم الشديدين، حيث لا كلام لهم إلا بالأيدى والقبضات وربما النبابيت غير أن هذه الأخيرة لا تطلع بسهولة. يتميزون بقدرة هائلة على المزاح الهازل يفرغون فيه عنفهم فيجىء مزاحاً أقسى من القتل.

رأى عبد البصير أنه لابد من الإفصاح للشيخ طلعت عن هذه الجبلة حتى لا يستهين:

- «أتعرف طباع أهل هذه البلدة ياشيخ طلعت؟!»

- «طبعا طبعا! وهل أنا غريب عن المنطقة ؟!»

- «أقصد تعرفها جيدا؟!»

- « أظن طبعا !!»

ثم أضاف بعد برهة وهو يضغط بذراعه إبط عبد البصير:

- «يا أخى خلِ تكالك على الله!!»

انتبه عبد البصير إلى أنهما يخترقان شارع داير الناحية منذ وقت طويل، ولا أثر لسرادق أو تباشير حفل فى الأفق. إنه يعرف معنى الحفل فى هذه القرى: البلدة كلها تشغى بالحركة والزأططة منذ أذان المغرب وتباشير الحفل تكون ظاهرة فى كل مكان، من صوت ميكروفون يوشّ ويصخب، ومن أنوار مبهرة، وناس تلتقى الآلاتية فى الشوارع ليدلونهم على مكان السرادق. كل هذا لاشىء منه فى البلدة التى يمشيان فيها. اضطر عبد البصير للسؤال بعد أن أخرج ورقة العنوان المدون فيها اسم عائلة الهراوى فحسب. تكفل أكثر من واحد بتصحيح مسارهما: إن العنوان المقصود ليس فى البلدة القبلية بل فى البحرية. وبين البلدتين ترعة عريضة كالرياح عميقة الغور تهدر فيها أمواج الفيضان حتى الحافة. ولكى يصلا إلىَ البلدة البحرية يلزمهما ركوبة لأن المشوار من هنا إلى الكوبرى الذى يجب أن يعبراه إلى البلدة البحرية طويل جدا. وقد يستغرق ساعتين على الأقل. معنى ذلك أن يصلا إلى الحفل قرب منتصف الليل، لأن المسافة التى يمشيانها إلى الكوبرى سيرجعانها ثانية على الضفة الأخرى، إضافة إلى مسافة فى عمق المزارع توصلهما إلى المساكن التى تبدو من هنا غاطسة فى الأفق تحت ظلال الأشجار والحطب وقش الأرز.

وقف عبدالبصير حائرا متشائما منقبض الصدر. فكر فى الرجوع، لكنه ليس من النوع الذى يبادر باليأس حتى ولو كانت كل الدلائل مشئومة، ثم إنه لن يخلص بسهولة من لزقة الشيخ طلعت. أخذ يروح ويجىء على الشاطىء وذهنه يتقافز بسرعة هائلة نحو أفكار مجنونة ومقترحات خرقاء، فحتى لو كان يجيد السباحة فالشيخ طلعت لا يجيدها، وآلتا العود والكمان عبء إضافى. لكن الفكرة لمعت فى عينيه حينما التقطت نظراته ماسورة تخينة تعبر الترعة رابطة بين الضفتين. سحب الشيخ طلعت ووقف أمامها يدرس فكرته، ثم نقلها للشيخ طلعت، فرحب بها على الفور. قال عبده :

- «إذن فتعال نجرب على الأرض أولا! أنا سأمسك العود فى يد والكمنجة فى اليد الأخرى! وأنقل قدما بقدم! وأنت فى كعبى ! تضع قدمك فى الموضع الذى غادرته قدمى! وأصابع يدك تلامس ظهرى! تلامسها فحسب ! إياك إياك أن تمسك بى وإلا وقعنا سويا فى الغريق!! على أقل من مهلنا! واحفظ توازنك بكل قوة!!»

- «اتكل على الله لا تخف!!»

جربا على الأرض مسافة يقرب طولها من طول الماسورة، فنجحت التجربة، فواصل عبدالبصير السير حتى دخل بالفعل فوق الماسورة، والشيخ طلعت من خلفه، أصابعه تلامس ظهره مجرد ملامسة، وقدمه العريضة المفرطحة تزحف خلف قدم عبدالبصير الذى راح يجاهد ويناضل كى يحفظ توازنه مستخدما ثقل آلتى العود والكمان. داخ فى منتصف الماسورة، لكنه استعان بالله وبسورة يس وآية الكرسى، فجاءه الإلهام بحيلة موفقة، همس للشيخ طلعت فى هدوء شديد:

- «قف مكانك ثابتا ثم افعل مثلما أفعل! تهبط بجسمك شيئا فشيئا حى تجلس على قرافيصك متحسسا بيديك جسم الماسورة ثم تركبها كما تركب الحمار! هكذا .. ثم ترتكز بكفيك عليها وتزحف هكذا ! ماشى؟!»

- «اتكل على الله!»

.. غير منتبه إلى أن عبدالبصير قد ركب الماسورة بالفعل مستخدما علبة الكمان الخارجية فى الاستناد عليها لا للزحف بل للقفز فوق الماسورة مسافات واسعة. قفزة فالثانية فالرابعة صار على الشاطىء تحت شجرة جميز وارفة. الأرض كانت تدور به، ريقه ناشف من شدة الاضطراب، فارتمى على الأرض تحت الشجرة مسندا ظهره إلى جذعها التخين. آخر نظرة حانت منه إلى الماسورة كان الشيخ طلعت لا يزال يزحف ببطء السلحفاة فى بداية النصف الثانى من الماسورة، بعدها ارتخت جفونه وغاب فى الحال فى نوم عميق رأى فيه الحفل قائما وسط حقل من الحلفاء الشائكة، وجميع المدعوين ذوى رءوس كرءوس الإبل تأكل فى هذه الحلفاء فيما تتطلع بعيون زائغة فى الآلاتية الجالسين على المنصة تحت ضوء الكلوبات المبهر، وكان هو غائصا حتى الركبتين فى جذور الحلفاء النابتة فوق

المنصة نفسها، يحاول نقل قدميه بصعوبة بالغة ليصل إلى المنصة التى بدت قريبة بعيدة فى آن، وثمة صوت يناديه بأقصى ما فى صاحبه من عزم: ياسى عبده ! ياغبد البصير أفندى! ياصوفانى بيه!، فى حين راح هو يتلفت حواليه بحثا عن مصدر الصوت الذى يناديه فلا يراه، فيحاول أن يشير بذراعه لعل صاحب النداء يراه فيسرع إلى نجدته، لكنه لا يستطيع تحريك ذراعيه، يحاول الصراخ ليرد على النداء فلا يجد صوته، والنداء مستمر مع ذلك فى إلحاح ورجاء واستعطاف حتى بدأت الدموع تبلل الصوت فى بكاء حار، حينئذ بدأ يتعرف على حقيقة الصوت، يعرف أنه صوت الشيخ طلعت على وجه التحديد، فإذا به ينتفض مرة واحدة، يفتح عينيه، يفاجأ بنفسه جالسا تحت شجرة الجميز، والشيخ طلعت واقف على الشاطىء قرب الماسورة يتأبط حذاءه وينادى بأعلى صوت: ياسى عبده. فصاح وهو ينتفض قائما :

- «أيوه ياشيخ طلعت ! أشهد أن لا إله إلا الله! خير ! اللهم أجعله خير!»

- «نشفت قلبى يارجل ! أين كنت؟!»

- «تصور أن عينى غفلت تحت الشجرة؟! ربنا يستر! هيا بنا! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!»

ثم ساعد الشيخ طلعت على لبس حذائه، وسحبه ومضى على طريق ضيق محفوف بأشجار الجزورين فى مدخل البلدة. فما أن توغلا فيه حتى ظهرت تباشير الحفل واضحة، وخرخشة الميكروفون تردد: ألو ألوه.. أ.. لوه .. واحد اتنين تلاته آ.. لوه .. محلات الحاج محمد الصردى للفراشة تحييكم وتقول لكم نحن فى الخدمة على الدوام وكل عام وأنتم بخير!!». بعد خطوات قليلة ظهر من اقتادهما إلى سرادق الفرح قائلا إن الركائب لاتزال تنتظرهما عند محطة القطار فلماذا لم يركباها؟! فتعجبا من ذلك لأن عبدالبصير لمح الركائب بالفعل لكنه تجاوزها ومضى بجهالة إلى الطريق الزراعى. تلقاهما من أدخلهما على طبلية العشاء، وكانت الفرقة قد بدأت بالكاد فى تحريك الملاعق نحو الأطباق.

صلوا العشاء جميعا فى المندرة، ثم خرجوا فاصطفوا على منصة أعدها لهم

متعهد الفراشة، عبارة عن أربع دكك عريضة فوق أربع أعرض، فرشت عليها سجادة. في مواجهتها اصطفت الكراسي الخيزران ثلاثة ثلاثة بالطول، تفصل بينها ممرات، حتى منتصف السرادق. أما بقية السرادق فملآنة بالدكك لأهل البلدة وراء الضيوف الأغراب. وخارج السرادق أحمال قش وأكوام ردم ودكك أتى بها الناس من بيوتهم.

الفرقة مكونة من عواد وقانونجي وناياتي وطبال ورقاق وثلاث كمانات وأرغول. فرقة لا بأس بها تملأ العين وتليق بصييت محترم كمحمود أحمد عبدالهادي. بدأت الفرقة بقيادة عبدالبصير فعزفت تحميله مشهورة مما يذاع في الراديو خلال فقرات البرنامج اليومي. ثم انفرد عبدالبصير بالتقاسيم الحرة لوقت طويل تداعت خلاله التصقيقات وصيحات الإعجاب والتهليل المتفائل: كمان والنبي! إيه الحلاوة دي ! ياسلام سلم.. إلخ .. بعد استراحة قصيرة جدا أومأ عبدالبصير إلى الطبال الذي كان مغرما بتقليد مذيعي الراديو، فترك هذا طبلته مقلوبة على كرسيه وتقدم نحو الميكروفون فأمسكه ونفخ فيه – عادة سخيفة متأصلة – فبدا كأنه يبصق في وجوه القوم، ثم قال: والآن سيداتي وسادتي – مع أنه لم يكن في الحفل سيدات على الإطلاق – نقدم لكم الصييت الشهير، البلبل المغرد اللامع: الشيخ طلعت الشبوكشي . فدوى تصفيق شديد استمر لبرهة طويلة يخفت ثم يشتد إلى أن خفت تماما واضمحل في الأرض الزراعية المتاخمة. وعاد الطبال فسحب الشيخ طلعت من ركنه، أجلسه أمام الميكروفون، خفض الميكروفون إلى مستوى فم الشيخ، أمسك بيده ووضعها على حامل الميكروفون ليحدد مكانه منه، ثم عاد إلى كرسيه ممسكا بالطبلة صار يبرم جلدها فوق ركبته ليسخنه ثم يرنه بطرف أصبعه ثم يعود فيبرم الجلد حتى انشد الجلد تماما وانضبط رنينه.

التفت الشيخ طلعت من فوق كتفه متهامسا مع عبدا' صير، فدوزنت الفرقة أوتارها ثم أخذت وضع الاستعداد حتى أتاها الإذن من عبدالبصير بواسطة قوسه. ثم انبرت الفرقة تعزف لحن الشيخ على محمود. «يانسيم الصبا مرحبا مرحبا». فتة ل الحضور خيرا، وصفقوا مهللين. أنهت الفرقة عزف المقدمة كلها

وتمهلت تمهد للشيخ دخلته، لكنه لم يدخل. فاستأنفت الفرقة عزف المقدمة من جديد حتى أتمتها، ففوجئت بأصبع الشيخ طلعت يدور حول مؤخرته مشيرا لهم أن يستأنفوا التكرار. فكرروا المقدمة للمرة الثالثة ثم الرابعة، فالخامسة، لكن الشيخ طلعت لم ينطق . سال العرق الغزير على وجه الآلاتية، بدأ الحرج يخنق أصابعهم فوق الآلات. فما كان من أحد عازفي الكمان - الذين دأبوا على معاملة الشيخ طلعت ببذاءة تنم عن احتقار.. إلا أن زغده خلسة بطرف قوسه فدخل فى مؤخرة الشيخ طلعت عن غير قصد. كانت حركة مباغتة انتفض لها الشيخ طلعت مذعورا، ممسكا بمؤخرته متلفتا حواليه مطلقا صيحة بذيئة. انفجرت الضحكات فى جميع أنحاء السرادق، عم الهرج، كاد يستمر لولا أن عبدالبصير أسرع بعدل الشيخ طلعت فى قعدته معتذرا للجمهور. استأنفت الفرقة العزف بجدية مبالغ فيها.

أخيرا نطق الشيخ طلعت، ليته ما نطق. كان طوال قعدته يواصل الاستماع لعله يتذكر أداء الشيخ على محمود وكيف يمط الحروف الموسيقية إلى أقصى ما فى صوته من مرونة الكاوتشوك ممزوجة بنعومة الحرير وشخللة الذهب. أراد المأفون أن يقلده، فإذا بالميكروفون يجسد فى الأسماع نهيق حمار لا يمكن احتماله. هذا هو الجواب فى صوته، فلما هبط إلى القرار جسد نعير جاموسة فى حالة ولادة. كل ذلك وهو يقصد أن يقول حرف يا.. فقط. فما كاد ينهى كلمة: نسيم، حتى كان السرادق كله قد انقلب إلى حالة من الفوضى العارمة: وصفير ماجن وقهقهات وتعليقات بذيئة.

لحظتئذ انخرط عبدالبصير فى قراءة آية الكرسى وعدية يس طالبا من الله أن تفوت الليلة على خير فلا يصيبهم الأذى. إنه يعرف جيدا ما الذى يمكن أن يفعله هؤلاء القوم بالمغنى الذى لا يعجبهم، لا أحد فى الدنيا يستطيع إيقافهم عن الاستمرار فى المزاح العنيف متى بدأ. ها هى ذى البشائر قد بدأت بالفعل.

صعد أحدهم إلى المنصة بقفزة سريعة. تلاه آخر، فآخر. ثم صارت المنصة كجبلاية القرود يتقافز فوقها الولدان سمر الوجوه بملامح عدوانية صلبة. وضع

أحدهم يده على كتف الشيخ طلعت قائلا كمن يخاطب طفلا شقيا صفيقا:

- «ماشغلتك بالضبط ياشيخ قرد؟!»

صعَّر الشيخ طلعت خده نحو الصوت قائلا:

- «هه ؟! أنا صييت ! قل له ياسى عبده!!»

فعاجلته الصفعة على قفاه، انكفأ منها رأسه مصطدما بالميكروفون الذى لايزال متشبثا به بين يديه..

- «صييت .. أم تربى؟! أنت لا تنفع حتى تربيا!!»

وتقدم آخر نحو الشيخ طلعت بلهجة من يرد عنه العدوان:

- «أهذه عملة تعملها فينا يارجل ياطيب؟! ليلة كهذه تكلفت الشيء الفلانى! وناس جاءت لتتفرج وتنبسط ! تجيء أنت ياأعمى العين لتنكد على بلد بحالها؟! وتأخذ نقودا أيضا؟!»

وكان بين الجملة والجملة يشد شعرة من ذقن الشيخ طلعت ينتفها، فيصرخ الشيخ طلعت يجأر من أعماقه:

- «حرام عليك ! لا يصح هذا مع رجل محترم!!»

- «أنت لم تر شيئا بعد!! أنت ليلتك أسود من قرون الخروب! يانصاب ياحرامى».

ثم صاح فيمن حوله:

- «هاتوا النعش يا أولاد !!»

وبالفعل ظهر بجوار المنصة أربعة ولدان يحملون النعش كأنهم جهزوه من قبل. وفيما كان الشيخ طلعت يمد رقبته منصتا لهدير من جاءوا بالنعش فعلا، وقبل أن يعلن هو احتجاجه رأى نفسه محمولا كعرق الخشب، حيث تقدم أحدهم من كتفيه بحبل متين، فشد وثاقه حول ذراعيه ورجليه. أرقدوه فى النعش باستمتاع جنونى. حمل الأولاد النعش وشقوا به الصفوف إلى الخلاء، ومن خلفهم موكب هائل من الأطفال والولدان والشيوخ، وثمة من يجعر صائحا: «العجل وقع!»، فيرد عليه

الأولاد: «فى الحتة دى!». «العجل وقع!»، «فى الحتة دى!»، صار الموكب يبتعد ويرج شوارع البلدة رجا. ثم إن المنصة انتهكت، تفرق الآلاتية كل فى سبيل نافدا بجلده.

وفيما كان الموكب يبعثر ضجيجه المرح فى أعطاف البلدة، كان ثمة شبح كالزعزوع الأسود يترنح فوق الماسورة إياها محتضنا آلة الكمان بيد، وعود الشيخ طلعت باليد الأخرى، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. استلم الطريق الزراعى مهرولا نحو المحطة وهو يردد فرحا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

(١٤)

تجمعت الفرقة كلها - حسبما اتفقوا سلفا - فى منزل العريس فى بلدة صناديد، لكى تحملهم الركائب إلى منزل العروس فى بلدة جنزور. صحيح أن فرح الشبكة يقام على نفقة أهل العروس، ولكن لا مانع من أن يساهم العريس فى اختيار الفرقة، أو يتفق هو معها نيابة عن أصهاره خاصة إذا لم تكن لهم خبرة فى مثل هذه الأمور. وهذا ما فعله عريس صناديد، إذ خطف رجله إلى طنطا على مبعدة بضعة كيلو مترات، وعلى مقهى الجمهورية القريب من المسجد الأحمدى التف حوله أكثر من متعهد حفلات، لكنه استراح لذلك الذى قال له:

- «أنا آتيك بفرقة أبهة فيها عبدالبصير الصوفانى الكمنجاتى وفيها راقصتين لهلوبتين ومطربين ونوبتجى ملحلح!»

قام المتعهد من فوره فبيّت على عبدالبصير، الذى اتصل بدوره بالعميان الثلاثة: الشيخ طلعت للعزف على العود، والشيخ عطية والشيخ عبدالحليم لتبادل الغناء. ومن جانبه اتصل المتعهد براقصة يعرفها وطلب منها أن تأتى بزميلة تريحها، فاقترحت عليه صديقتها نعيمة وصديقها المنولوجست أنور شفيق، فمنه منولوجست يملأ الفرح صياحا وتنكيتا وفرفشة، ومنه نوبتجى يجمع النقطة.

فى اليوم الموعود جاءت ركائب حملت عبدالبصير والمشايخ الثلاثة إلى صناديد، ولحقت بهم سيارة أجرة متهالكة تحمل الراقصتين والمنولوجست وبقية الآلاتية. تناولوا الغداء فى بيت العريس، وهو بيت واسع ببوابة مفتوحة على الدوام

لا تغلق ليلا أو نهاراً حتى فى غياب أصحاب الدار، فالبوابة مفتوحة على أرضهم الزراعية وهم إما فى الدار أو فى الغيط على مرمى حجر، كما أن الدار أمان.

بعد الغداء مباشرة انتقلت العائلة كلها إلى جنزور، بقيت البوابة - من لخمتهم - مفتوحة توصل مباشرة إلى الزريبة فى انتظار من يكون قد تأخر فى العودة من الغيط. أما القاعات الداخلية كلها فقد أغلقت بالضبة والمفتاح.. ولم يبق فى الدار سوى جدة عجوز مكومة على قبة الفرن فى الدويرة المتاخمة للزريبة.

سيارة الأجرة التى بقيت معهم حملت الراقصتين وبقية الفرقة ومضت إلى جنزور. وركب عبده ورفاقه العميان كل واحد على ركوبة، ومضى الموكب فى زئيط مبهج يشق قلب صناديد متجها إلى الطريق الزراعى.

تسابقت الركائب لتلحق بالسيارة، إلا ركوبة الشيخ عطية استهزأت به فتكاسلت. وكانت عجوزا مثله تماما، دنيئة، تشمشم فى الأرض باستمرار. وكان هو ثقيلا عليها جدا، إذ هو ضخم الجثة مثل فيل أبيض الوجه غائر العينين عريض الجبهة حليق اللحية عارى الرأس، يرتدى البذلة والببيون، غليظ الخدين موفور الصحة يبك الدم من ملامح وجهه التى مع ذلك تستقطب شفقتك إذ هى تشى - صدقا أو كذبا - بأنه عزيز قوم ذل، وأنه ابن ناس لا يستحق البهدلة. هو كذلك شديد الطيبة، أبيض القلب، صبور جدا كحجر صلد لا يتأثر بأى مؤثرات خارجية، باسم الثغر على الدوام، مصعر الخد مشرع الأذن كأنه دائم الإنصات لصوت خفى مجهول فى الأفق. من حين لآخر ينكس رأسه قليلا فى تفكير كأنه يتمعن فيما استمع إليه لكنه ما يلبث حتى يرفع الرأس مائلا به كمن يؤهل خده لصفعة. هو إلى ذلك جميل الصوت جدا، صوته مزيج من الذكورة والأنوثة فى جلجلة تأسر القلوب خاصة حين يغنى أغانى أم كلثوم القديمة، أو بعض الموشحات الأندلسية. وإذا تجلى فى حفل فقد يكون نكبة على من معه من المغنين، فلسوف يستمسك به الجمهور يظل يستعيده حتى الصباح، ولسوف يستجيب إلى ما لا نهاية ناسيا حقوق غيره فى الغناء مثله، وستنفتح مخازنه النغمية السرية فيفاجىء حتى زملاءه بكل مبهر طازج شهى شجى. متمرس ماهر بارع فى اختيار الألحان التى يتنقل

بينها بحيث تجيء كلها فى فلك واحد متشعب التفريعات ينسلت من نغمة إلى أخرى فى حسن تصرف ومرونة صوتية نادرة. من هنا يكرهه الشيخ طلعت كره العمى ويدبر لحفلات من ورائه. هو دائما يشكل عصب الفرقة فى أى حفل يحضره، هو النمرة الرئيسية ولهذا فإن الفرقة دائما تدخره لآخر الليل، تتيح لبقية النمر فرصة الظهور وأداء الواجب، وفى نفس الوقت تهيىء فرصة التوهج وسط زيطة الجمهور بعد انصراف الغوغاء واستكنان الأعيان المتذوقين الذين جهزوا أدمغتهم للاستماع جيدا مقابل ما سيغدقونه على الفرقة من نقوط سخى. حينئذٍ يشبعهم الشيخ عطية بالليالى والمواويل التى يفصل بها بين الموشحات والأدوار والطقاطيق.

وصل الجميع إلى جنزور بعد صلاة العشاء. أدخلوا الفرقة إلي السفرة حيث تناولوا عشاءهم. نظام السفرة عندهم ستة فستة، كل ست رجال يتحلقون مائدة مستديرة من الرخام، والسفرجى واقف على رأسهم، يضع سلطانية الشربة الكبيرة وينتظر حتى ينتهوا من شربها بالملاعق، ثم يرفعها ويضع طبقا كبيرا من الخضار باللحم وحواليه تلال الأرغفة. فإذا انتهوا منه رفعه ووضع طبقا به محشيات من جميع الأنواع تحف بها صدور وأفخاذ الدجاج والحمام. بعده قارب الأرز الساخن وفوقه ضلع اللحم المسلوق يغطيه كله. بعده تنزل أطباق الحلوى وتبدأ بالجلاش ثم البقلاوة ثم المهلبية، وفى الختام طبق الفاكهة بنت الموسم الراهن. ثم ينصرفون ليحل محلهم ستة آخرون. وهكذا إلى أن ينتهى الجميع ويبقى السفرجى ومساعدوه فى حالة عمل حتى وقت متأخر من الليل تبعا لوصول آخر المدعوين من البلاد المجاورة، ودائما أبدا هناك فائض احتياطى لضيوف لم يكونوا فى الحسبان.

سُفرة الليلة كانت دسمة وسخية، لأن الفرح فى الواقع كان مزدوجا: شبكة البنت ودُخلة الإبن فى فرح واحد، تجلس العروس المشبوكة فى الكوشة مع العروس المزفوفة إلى الدار. شبعت الفرقة وامتلأت. جاء من اقتادها إلى ركن بعيد فى حوش الدار بجوار النصبة المعدَّة للطباخ، حيث ارتصت الكراسى ودارت

الجوزة بأبخرة الحشيش الأخضر الطازج. شربوا جميعا، حتى الراقصتان أظهرتا خبرة عميقة فى الشرب.

كان السرادق منصوبا فى باحة كبيرة أمام الدار، وقد امتلأ عن آخره بالمدعوين من أهل البلدة والأغراب، وثمة مغن من أهل البلدة حسن الصوت يغنى موال حسن ونعيمة. تلك عادة شائعة فى أفراح قرانا كلها: فمهما بلغ وزن المغنى من أهل البلدة فإنه يبقى دائما مساعدا للمغنى الأجنبى حتى ولو كان أرفع منه شأنا وأكثر موهبة، لعل هذا من أصول المثل الشعبى السيار «شاعر البلد لا يسليها!»، وهو نفسه المأثور الفصيح: «زامر الحى لا يطرب!». حتى المدعوون على يقينهم من أن ابن بلدتهم جميل الصوت جدا، يستمعون إليه من باب الواجب تغلبا على القلق الذى يأكلهم فى انتظار ظهور الفرقة الواردة من بلدة أخرى خاصة إذا كانت هذه البلدة هى طنطا بلد الفن والجمال والمدنية شىء لله يابدوى.

فى حوالى منتصف الجزء الأول من الليل كانت أدمغة الفرقة قد توازنت واعتدلت بما فيه الكفاية. نهضوا جميعا واتجهوا إلى المنصة فاتخذوا أماكنهم فوق كراسيها. استقبلهم المغنى المحلى بموال قصير رحب فيه بهم فى بلدته كضيوف أعزاء وكفخر للفن ولأهل طنطا، أظهر خلاله مقدرته الكبيرة على الارتجال والتأليف والتلحين لعل فيهم من يحاول الاستفادة بخدماته مستقبلا، حيث ضمّن مواله أسماءهم جميعا واحدا واحدا، كل اسم مقرون بصفة صاحبه وعمله ومدى شهرته فيه، ثم وضع توقيعه باسمه الكامل فى نهاية الموال كجزء من سبيكة النظم. ثم إنه تقدم منهم فسلم عليهم واحدا واحدا، فشكروه وأثنوا على جمال صوته، وسحب هو كرسيا فجلس عليه خلف الطبال متوقعا أن الحاجة إليه ربما تكررت لسبب من الأسباب فيكون جاهزا عند الطلب. إلا أن جلوسه هكذا أقلق بعض الآلاتية وخاصة المنولوجست الذى كان سفروتا خفيف الظل خفيف الحركة كأنه حزمة من السست مبرومة فى بذلة أنيقة محزقة تبرز تفاصيل جسده ، يتكلم بالعين والحاجب، مستطيل الوجه نحيف الملامح مصفوط الصدغين كمريض بالسل، أخضر العينين مرهقهما من فرط السهر والمخدرات. بنظرة سريعة أوحى

للمتعهد أن جلوس هذا الرجل بينهم ربما يدل على أنه ينوى مشاركتهم فى محصول النقوط آخر الليل. فما كان من المتعهد إلا أن أعاد ترتيب الكراسى وتوسيع المسافات بينها حتى وجد الرجل نفسه مرغما على زحزحة كرسيه شيئا فشيئا، لكن المتعهد بصنعة لطافة سحب كرسيه ووضعه فى مواجهة المنصة قائلا فى لطف وود:

- «اتفضل حضرتك هنا هنا!! المنولوجست يجب أن يتحرك فى مساحة واسعة: أصله راكبه عفريت عدم المؤاخذة!!»

بدأ برنامج الفرقة بالمنولوجست والراقصة الكبيرة فأشاعا فى السرادق جوا من المرح الراقص البهيج، لعب فيه الطبال والرقاق دورا بارزا، فارتفعت الزغاريد، انهالت النقوط على الفرقة على سبيل التشجيع لإغرائها بالتوهج وإظهار أحلى ما عندها.

دخل الحفل منطقة الوهج الكامل، حدث التلاحم بين الجمهور والفرقة إذ راح الجميع يرقص وعبدالبصير يقود الفرقة فى عنقود متصل من الألحان الراقصة الحريفة، بمصاحبة صوت الراقصة الثانية التى كانت على شىء من حلاوة الصوت. تلت ذلك موجة من النقوط السخى، كف الجمهور بعدها عن النقوط وبدأ يطالب بحقه فى الغناء من المطرب الأساسى الذى سمع عنه الجميع قبل مجىء الفرقة:

عندئذ فحسب، انتبه عبدالبصير إلى أنه لم ير الشيخ عطية منذ لحظة خروجهم من صناديد، غاض الدم فى وجهه، جف ريقه، صاح كالملسوع بالنار:

- «الله !! الشيخ عطية ياجماعة!! الشيخ عطية!!»

انتبهت الفرقة كلها، ساد التوتر بينهم، راحوا يصيحون فى وجوه بعضهم البعض فى ذعر: الشيخ عطية !! الشيخ عطية!! صاح ناس من أهل الفرح مذعورين:

- ماله ؟!»

قال عبدالبصير :

- «ما جاء حتى الآن!! مصيبة ! تكون الحمارة وقعت به فى المصرف؟! خطفهما أحد ؟! إنها غلطتنا ! هذه نتيجة أى لهوجة!!»

ثم هبَّ واقفا وقد توجس وارتعب. وجد نفسه يكيس الكمان ويقف حائرا:

- «استر يارب! كيف نسيناه كل هذا الوقت وهو النمرة الأساسية فى الفرقة؟! ما نحن إلا أنذال!! الشيخ عطية لابد أن يأتى من تحت طقاطيق الأرض ! فأنا المسئول عنه أخذته من وسط عياله فالذنب ذنبى! ماذا أقول لعياله؟!»

ذهب العريس الصناديدى إلى زريبة أصهاره، عَدَّ الركائب فاكتشف غياب الحمارة التى يركبها الشيخ عطية. توجس، إنه يعرف حمارته، حمارة شقية يركبها ضرير، إنها تمكر بالمبصرين وتعذبهم، رائحة الحمير الذكور تخرجها عن طورها فتركبها العفاريت تضرب الهواء بقدميها الخلفيتين ولابد أن يقع راكبها، قال العريس لنفسه: هذه هى غلطتى فالشيخ عطية بالذات كان يجب أن يركب السيارة.

سمع عبدالبصير هذا القول فضوعف ذعره، سحب كمانه تحت إبطه وتقدم مهرولا:

- «معى إذن للبحث عن الشيخ عطية!»

بهدوء أعصاب قال العريس:

- «خليك أنت شف شغلك وأنا سأتكفل بالبحث عن الشيخ عطية حتى آتيك به!»

- «شغل ؟!! شغل ماذا يارجل ياطيب؟! كيف أشتغل وأعصابى بايظة؟! دماغى مشغول! نحن لا نعرف ماذا جرى له؟!»

- «أنا المسئول عنه فلا تقلق!!»

- «خذنى معك ! لابد أن آتى معك! وجودى هنا كعدمه! وعندما نجد الشيخ عطية نمتعكم حتى الصباح!!»

سحبه العريس وقد توتر كلاهما إلى أقصى حد. نبه عبدالبصير على الفرقة أن تستمر فى عملها كأن شيئا لم يكن، ومضى حيث كان سائق السيارة جالسا فى

حوش الدار يحشش، سحبه برفق:

- «عد بنا من الطريق الذى جئنا من نبحث عن الشيخ عطية!!»

وقف السائق قائلا:

- «آخر مرة شفته فيها فى مرآة السيارة العاكسة كانت الحمارة حرنانة تلف به حول نفسها تريد أن تبرك!!»

شخط فيه العريس بحدة :

- «وكيف سكت ياأسطى ؟! كان الواجب أن تنبهنا!!»

- «ربنا يستر! نسيت والله من ساعتها! هيا بنا!!»

ركبوا السيارة وانطلقوا . السائق أضاء النور العالى. كل من العريس وعبدالبصير يرسلان البصر فى كل اتجاه، وكلما صادفهم فى الطريق ناس أوقفوا السيارة وسألوهم :

- «ألم تروا حمارة يركبها ضرير أبيض الوجه عارى الرأس تخين؟!»

الجواب على طول الخط :

- «لا والله!!»

فلما انتهى الطريق دون أن يعثروا له على أثر، ورأوا صناديد ساكنة صامتة مطفأة الفوانيس إذ إن جميع أهلها كانوا مدعوين فى الفرح فى جنزور، شعر عبدالبصير بشبح المصيبة يقترب، قال:

- «على طنطا يا أسطى!»

أكمل السائق السير دون اعتراض. دخلوا أقسام الشرطة، دوروا على المستشفيات. أخيرا خطفوا أرجلهم إلى بلدة الشيخ عطية القريبة من جنزور . كان عبدالبصير يخشي أن يثير ذعر أولاد الشيخ عطية، فتفتق ذهنه عن حيلة سرعان ما نفذها: بعث السائق إلي منزل الشيخ عطية، أوصاه أن يطرق الشباك المطل على الشارع، فترد الزوجة: من ؟ فيقول السائق أنا فلان الفلانى - أى إسم مستعار - جئت أطلب الشيخ لإحياء ليلة حيث إن المغنى الذى اتفقنا معه لم يجيء.

ذهب السائق بالفعل ثم عاد بعد قليل كاسف البال:

– «تقول زوجته إن الشيخ عطية فى فرح فى جنزور!!»

عندئذ كاد عبده يشق الهدوم، بل إنه بكى بالفعل وصار يردد فى تأثر عميق:

– «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم ألهمنا الصواب!!»

لحظتئذ شق الإلهام طريقا مضيئا فى ذهن العريس، فإذا هو يطرقع بأصبعيه قائلا:

– «بس ! أنا تقريبا فهمت الملعوب ! أقطع ذراعى إن لم يكن ما خطر ببالى صحيحا! إرجع بنا إلى البلد ياأسطى!!»

لحظتها صاح المؤذن فى جميع أنحاء الفضاء: الله أكبر . فصاح عبدالبصير فى تفاؤل: الله أعظم والعزة لله.

حينما دخلت السيارة بلدة صناديد كان الصباح قد فتح لهم ذراعيه، فدخلوا تحت عباءته إلى الدار. البوابة كانت مفتوحة. تقدم العريس شاقا طريقه إلى الزريبة مباشرة. ما أن دخلها حتى صاح من أعماق الفرحة «الله الله الله ! ما شاء الله!» . اندفع كل من عبدالبصير والسائق إلى الزريبة، ليفاجأ بأغرب منظر لا يتوقعه أحد منهم : الحمارة واقفة أمام مذودها تأكل التبن فى فروغ بال، والشيخ عطية راكب فوقها، متشبث بيديه برقبتها، مصعراً خده شاهرا أذنه كالمعتاد كأنه ينصت لصوت مجهول، كأنه يؤهل خده الأيسر لمن يصفعه. كان الملعوب الذى توقعه العريس واضحا جليا: لقد استهانت الحمارة براكبها الغريب العاجز فاستدارت عائدة به إلى الدار، لامن شاف ولا من درى.

(١٥)

قالت هنيات شعبان لأعضاء الفرقة إنهم يجب أن يسبقوها إلى قرية ميت غزال القريبة جدا من طنطا، وهى بلدة مشهورة جدا فى العب كله لأنها بلدة الشيخ مصطفى إسماعيل القارئ الشهير، صحيح أن للشيخ مصطفى إسماعيل مكتبا فى طنطا ولكن معظم الناس يذهبون إلى البلدة نفسها لضمان الاتفاق مع الشيخ نفسه بدلاً من أخيه الذى يدير المكتب ويتحكم فى تدبير المواعيد.

كانت هنيات شعبان متعاقدة على إحياء ليلة فى هذه البلدة بمناسبة المولد النبوى الشريف، يقيمها - سنويا - جماعة من أعيان البلدة لهم وزنهم - ولهذا فقد حرصت هنيات على اختيار العازفين بدقة، وأغدقت عليهم مثلما أغدق عليها أصحاب الليلة. نبهت على جميع أعضاء الفرقة يوم الاتفاق أن يناموا جيداً ويأخذوا كفايتهم من الراحة حتى يتألقوا بصورة تشرفها، وعليهم أن يكونوا متذكرين أنهم فى بلدة كل أهلها سميعة من الدرجة الأولى يتذوقون الغناء الدينى كالمحترفين وأكثر، فعلى أعضاء الفرقة إذن أن يغفروا لها إرهاقها لهم طوال الأيام الثلاثة الماضية فى تدريبات متواصلة.

نقلتهم سيارتان من سيارات الأجرة إلى ميت غزال ، فوصلوا بعد صلاة العصر بقليل، حيث استقبلهم أصحاب الليلة فى دوار كبير، وقدموا لهم العشاء من أطايب العجل المذبوح صبيحة اليوم. كذلك قدموا لهم الحلوى للأكل، وفى علب إضافية لأولادهم. وكانت سيارة خاصة قد سافرت إلى بلدة قلين لتأتى بهنيات شعبان على مهلها، فوصلت مع أذان المغرب، وشعرت بالاطمئنان والرضا حينما لقيتهم فى الدوار يقودهم عبدالبصير فى تدريبات سريعة كالمراجعة قبل لحظات من الامتحان ، لزوم التسخين.

لكن الذى أكربها قليلا وعكر مزاجها بعض الشيء أنها لم تجد سرادقا منصوبا، ذلك أن البلدة والبلاد المجاورة كلها كانت معزومة بالكامل فلزم أن يكون الخلاء كله سرادقا. ودرءاً لمشاعر الإحباط قالت لنفسها لعل الحفل سيقام داخل مكان مغلق، فى حديقة منزل مثلا، أو فناء مدرسة. ثم إنها تناولت عشاءها وشربت الشاى والجنزبيل، وأقامت صلاة العشاء بمفردها، وبقيت فى انتظار الدعوة للخروج إلى الحفل، يصل إلى سمعها لغط شديد يتزايد خارج المنزل. لاحظت أن الكلوبات منتشرة بصورة هائلة. مالت على شيخ قصير القامة يجلس بجوارها وسألته عن المكان الذى سيقام فيه الحفل، فأشار بذراعه خلف ظهره يعنى فى الباحة أمام الدار. فنكست رأسها لتستوعب الصدمة، إذ ليس من المعقول أن أسرة كهذه من الأعيان المستنيرين لا تعرف أصول إقامة الحفلات، ألم يدركوا أن

فرقة موسيقية كبيرة ستكون وراءها على منصة عالية؟ كيف ستقف هى على الأرض مع فرقتها ؟! ثم إنها لم تسمع حتى الآن خرخشة ميكروفون ، فلابد إذن أنها ستكون ليلة بائسة لا تليق بنجمة كالحاجة هنيات شعبان التى أصبحت مغنية فى الإذاعة.

حينما دخل عليها من يقول : تفضلى ياحاجة هنيات، بقيت جالسة فى مكانها بكثير من البرود وعدم الحماسة، توجه إليه نظرات حيرى. فلما كرر عليها كلمة: تفضلى، وجدت نفسها تعتقل انفعالها ببسمة تهكم قارصة:

– «قل لى أنت أولا: هل المكان مناسب؟!»

شوح بذراعيه فى تأكيد :

– «كل شىء تمام! تفضلى شوفى بنفسك!!»

ارتكزت بيديها على المسند ونهضت واقفة ، لبست حذاءها أحكمت الطرحة البيضاء حول رأسها، شدت العباءة السوداء المشغولة بالقصب حول جسمها. مضت بخطوات بطيئة متمهلة. خرجت من الغرفة إلى الفناء، مرت على الدوار الذى يجلس فيه الموسيقيون . كان خاليا، فعرفت أن الفرقة اتخذت أماكنها. دلفت من عتبة باب الشارع غارقة فى بحر صاخب من الضوء، عشرات الكلوبات تبعث وشيشا، معلقة فوق عمدان ومتدلية من بعض الأسقف المحيطة. الساحة الكبيرة أمام الدار قد فُرشت كلها بقش الأرز على طول مساحة لا تقل عن نصف كيلو متر، بعرض ثلاثين أو أربعين مترا. وكانت الدار مقامة على شاطىء ترعة عريضة، والمساحة المفروشة بالقش محازية للترعة وتتصل بساحة أعرض هى جرن القرية. قلبت هنيات نظرها فى المساحة المفروشة بالقش فرأت منصة خشبية عالية كالمسرح أقيمت لصق جدار الدار على شاطىء الترعة، وقد جلس فوقها الموسيقيون على كراسيهم، ظهورهم للترعة ووجوههم فى اتجاه الجرن. وعلى جانبى المساحة المفروشة بالقش رُصت أعداد كبيرة من الدكك الخشبية خصصت لكبار أهل الدار وكبار ضيوفهم الأجلاء، الذين اتخذوا أماكنهم بعد صلاة العشاء فازدانت منطقة المنصة بالعباءات والعمم والطرابيش. أما المساحة المفروشة بالقش

فقد امتلأت عن آخرها بأعداد هائلة من البشر تربعوا على الأرض فى مجموعات متناسقة بحيث تتمكن جميع العيون من رؤية المنصة. وعلى امتداد البصر كانت شوارع القرية لاتزال تدلق فى الساحة أعداداً متزايدة مترادفة حتى ظهر كأن فى نهاية البصر سدوداً واقفة مكونة من الأجساد، ناهيك عن مئات من المتربعين فى الأسطح المتاخمة تتوسطهم ركيات النار وعدد الشاى والجوزة. ثمة رجال أشداء يحتاطون بالساحة كلها لفرض النظام والهدوء. أما الأطفال والصبيان فأعدادهم تفوق الحصر، تفرغ لهم رهط من الرجال بالعصى يطاردونهم منعا للصخب والدوشة وحتى لا تتسبب شقاوتهم فى إسقاط كلوب من الكلوبات المصلوبة على أعمدة. والأطفال مع ذلك يزأطون يثيرون صخبا لا يمكن احتماله أو إيقافه إلا طغيان صوت الميكروفون الذى تعددت سماعاته فى جميع الاتجاهات معلقة على الأسطح مرتفعة الصوت إلى أقصى حد، وتكتكة الموتور الذى يديرها تكاد تضيع وسط صخب الأطفال على شاطىء الترعة خلف المنصة مباشرة. وكانت هذه السماعات العالية الصوت الممسكة بجميع الاتجاهات هى بمثابة بطاقة دعوة مسموعة موجهة لجميع أنحاء القرى المجاورة كى يتفضل أهلها بتشريف الليلة بالحضور أو بالاستماع وهم فى بيوتهم .

تعلمت هنيات ذوق التعامل مع الميكروفون منذ اعتمادها فى الإذاعة، تدربت على الاحتفاظ بالمسافة المناسبة بينها وبين الميكروفون، ومتى تقترب منه ومتى تبتعد عنه، ولذلك أصبحت أذنها تتأذى من خشونة المتحدثين فى الميكروفون. صعد إلى المنصة رجل وقور ضخم الجثة، أمسك بالميكروفون ونفخ فيه تلقائيا نفس النفخة التى يحولها الميكروفون إلى بصقة، ثم أعلن ترحيبه بالحاجة هنيات، وكل عام وأنتم بخير جميعا بمناسبة المولد النبوى الشريف، ثم وجه التحية لكل أعيان الناحية، ثم نزل.

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف لحنا، سرعان ما تعرف عليه الحاضرون جميعا لأنه مشهور جدا عندهم إذ إن فرقة المزمار البلدى تجيد عزفه وغناءه فى كل القرى، أحلى من مغنيته الأصلية لورد كاش ذلك هو لحن: آمنت بالله. صار

الحاضرون جميعا يشاركون هنيات شعبان فى تطويح رأسها بنشوة فيما هى تترنم: نور جمالك آية.. آمنت بالـ.. ا .. ا..ه.. آمنت بالله. بعد دوى التصفيق والتهليل عزفت الفرقة لحن رياض السنباطى: إله الكون سامحنى أنا حيران جلال الخوف يقربنى من الحرمان وأنا إنسان ياربى أنا إنسان، صوت هنيات يتوهج فى هذا اللحن أفضل كثيرا من صوت السنباطى، لقد عزفت المقدمة بصوتها مع الآلات فبهرت الناس بعضلات صوتها وقدرتها على الارتفاع والانخفاض بسلاسة على سلم الآهات المتدرجة المتنوعة النغم كما تتضمنها عبقرية اللحن الأصيل.

سخنت هنيات شعبان فغنت لحنها الإذاعى الشهير الذى لحنه لها - ضمن برنامج إذاعى - الملحن الكبير أحمد صدقى: ياأهل البيت ياسندى. ومنه انتقلت إلى طائفة من موشحات الشيخ على محمود، فتوهجت البلدة كلها فى نشوة لا مثيل لها. دوت فى السماء تهليلات الوجد والانجذاب. ثم انداحت التهليلات فى الأفق البعيد. وتمخض الصمت المفاجىء عن صوت الآلات وهى تمهد لسلطنة يشرق لها صوت هنيات مترنماً بياليل ياعين، تخرج من سفح الشعور الأزلى للأنثى العربية المقهورة بالسجن الأبدى فى قفص الحريم، عالية إلى مستوى الشعور بالنشوة لامتلاك هذا القدر من قوة التأثير فى كل هؤلاء المستمعين ، منخفضة إلى مستوى الشعور بالضعف الأنثوى المسكر للرجال. طالت الليالى وتنوعت درجاتها وألوانها، لتدخل إلى موال الشيخ محمود صبح الشهير: سلطان جمالك على أهل الغرام حاكم. راح صوتها المجلجل الصافى، الواضح الهوية، ينوح ويتلوى فى الأفئدة يزلزلها، وقد استسلم الجميع لخدر النشوة فاستخسروا تضييع برهة واحدة فى أى تصفيق حتى لا يقطعوا تدفق الشلال الشعورى الهادر فى هذه الحنجرة الفلاحية المبهجة.

وفيما هى تضع كفها بجوار أذنها غائبة فى نشوة المقامات التى تتعشقها، وفيما الجميع غارق فى الوجد حتى الأذنين، فوجئوا بأن هنيات شعبان قد طارت فى الهواء كحدأة مذعورة ، حلقت فى الهواء برهة ثم اختفت فى الخلفية المظلمة، مخلفة صوت ارتطام هائل. وإن هى الإبرهة وجيزة حتى كان الموسيقيون كلهم قد

تطايروا فى الهواء كخرق تلعب بها الريح. صكت الآذان والأفئدة أصوات ارتطام الآلات والأجساد بالأرض الصلبة، وأصوات صرخات عاوية.

دب الفزع فى الجميع، وقفوا مذهولين، عمت الفوضى، ارتفع الصراخ والجعير فى كل ناحية. فلما شرع الرجال القريبون من المنصة يستوعبون المشهد المفزع، فوجئوا بأن المنصة نفسها قد اختفت، وحلت محلها عربتان من عربات الكارو، كل منها مائلة على حافتها فى اتجاه متعاكس، وليس ثمة من أثر لمن كانوا على المنصة منذ برهة.

بقلوب هلعة راح الرجال يبحثون عن الحاجة هنيات وفرقتها. جىء بالكلوبات إلى الخلفية المظلمة. رأوا هنيات شعبان على وشك الغرق فى الترعة، تطبش وتصيح رافعة رأسها وذراعيها تستغيث بآخر ما بقى فى صدرها من نفس. أما الموسيقيون فكانوا فى أوضاع بشعة أثارت مع ذلك ضحك الأطفال المجرمين، فثمة من انطرح على ظهره رافعا ساقيه والآلة فوق صدره، ومنهم من رفع ذراعيه بالقوس والكمان لا يعنيه أمر جسده قدر عنايته بأمر الكمان، ومنهم من راح يعوى بشدة محاولا سحب قدمه من تحت صخرة ثقيلة، ومنهم من برك على وجهه فتحطمت آلته، ومنهم من شج رأسه وفقد النطق.

فى لمح البصر تم انتشال هنيات شعبان وإدخالها إلى الدار تصرخ مطالبة بمن يبحث لها عن فرعها الذهبى. تم حمل المصابين إلى المندرة. جرى ناس إلى منزل الشيخ إبراهيم - جد الشيخ مصطفى إسماعيل - ليتكلم فى التليفون طالبا عربة الإسعاف من طنطا. جىء بحلاق الصحة، وبالمجبراتى. انقلبت الدار إلى مخيم يعوى فيه المصابون. كل ذلك والرجال يتبادلون اللوم والاتهامات فى جعير صارخ. كانت المصيبة تتلخص فى أنهم أتوا بعربتين من عربات الكارو، ضموهما إلى بعضهما، وحفظوا لكل عربة توازنها بقطع من الأحجار والصخور الثقيلة، وجربوا متانة المنصة فوجدوها فى غاية الثبات قبل أن يفرشوها بالسجادة ويضعوا فوقها الكراسى، لكن ما ذنبهم إذا كان أطفال البلدة شياطين تستحق الحرق بالنار؟ لقد فعلوا ما فى وسعهم لطرد الأطفال لكنهم اندمجوا فى الاستماع

فانتهز الأطفال الفرصة وصاروا يزحزحون قطع الأحجار من أماكنها حتى انفصلت العربتان عن بعضهما فانقلبتا.

قبيل الفجر كانت أشياء كثيرة تحدث فى لحظة واحدة: شبان حاصروا منطقة المنصة وعثروا على فرع الحاجة هنيات منقسما إلى قطعتين، شبان آخرون حاصروا الأطفال وعرفوا من هو بالضبط الذى فعل هذه الفعلة الشنيعة، سيارة الإسعاف تصلصل بأجراسها المقبضة خارجة من ميت غزال تحمل الفرقة الموسيقية إلى مستشفى طنطا العام، ومن خلفها ركائب من الخيل تحمل لفيفا من أعيان البلدة لتسوية الأمر إذا ما أصرت الحكومة على فتح محضر. ولحظة أن وصلوا جميعا إلى المستشفى كانت البلدة تشهد مذبحة دامية لم يسبق لها مثيل فى تاريخها، مات فيها كثيرمن الرجال والأطفال، إلا الطفل الذى فعل الفعلة فقد كان يتيما لطيما غادر البلدة بعد فعلته إلى غير رجعة.

(١٦)

الفرح كان فى بلدة اسمها العَجُوزِيْن، تبعد عن مدينة طنطا بمسافة طويلة وتدخل فى أعمال محافظة الفؤادية - كفر الشيخ - فى خارطة جوانية تقع بين مدينتى دسوق وقلين. أهلها كلهم فلاحون، معظمهم من ذوى الأملاك الأثرياء، المدينة بالنسبة لهم هى طنطا، فيما عداها ليس فى البر كله من مدن مثلها، ليس فحسب لأنها مسكن البدوى، وإنما لجمالها ونظافة شوارعها المرصوفة كالبللور، وعماراتها البديعة المتساوية القامات مع اختلاف فى الأشكال والألوان والمشربيات، حمصها وحلاوتها السمسمية والعنبرية وهريستها توصف لشفاء العليل إذ هى بركة من رحاب القطب الكبير.

رغم أن مدينة دسوق الجميلة على مقربة منهم، وهى الأخرى حافلة ومبروكة بأبى العينين ، فإن أهل بلدة العجوزين لا يختفون بالسفر حقا إلا إذا كانت الوجهة طنطا، بل إن كلمة: مسافر مقرونة فى الأذهان دائما بطنطا. إذا قال أحد لأحد: أنا مسافر إن شاء الله غداً، رد عليه فى الحال قائلاً : شى الله يابدوى. أما دسوق فإنها فى نظرهم لا تعتبر سفرا، فالمسافة إليها فركة كعب، وكل يوم والثانى

هناك ناس يذهبون إليها لعرض أنفسهم على الحكماء فى المستشفى، أو لدخول السينما، أو للتقديم لأولادهم فى المدرسة الابتدائية والثانوية، أو لشراء البضائع الاستهلاكية . والذاهب إلى دسوق يقول: ورائى مشوار قصير، فيقول من سمعه: شى الله يابو العينين.

أعيان البلدة يجهزون لعرائسهم إما من دمياط أو طنطا، لكنهم جميعا إذا فكروا فى إقامة الأفراح فإن الوفود تذهب إلى طنطا، يتوجهون مباشرة إلى قهوة الحللى إن كانوا على قد حالهم، فهذه القهوة مقر لأهل الفن بجميع مستوياتهم ويمكن لأى عجول منهم أن يؤلف فرقة لابأس بها فى بحر ساعة على الأكثر تكون متوجهة إلى مقر الفرح. أما إذا كانوا على درجة من الوعى والميسرة فإنهم يتوجهون إلى مكتب المتعهد فى شارع البورصة. فإذا كانوا أكثر ثراء توجهوا إلى متعهد ميدان الساعة لأنه واسع الاتصالات كبير الخبرة لا يتعامل إلا مع ذوى الأسماء اللامعة فى سوق الفن، من سامية جمال إلى هدى شمس الدين، ومن محمد فوزى إلى أحمد حسبو، ثم إنه يأخذ الفرح من بابه فى مقاولة واحدة تشمل الفراشة والمسرح والميكروفونات وما سوف يقدم للمعازيم من أكل وشرب، واسمه أبو ريحان، ومكتبه كالمتحف مزدان بصور جميع الفنانين اللامعين بالحجم الطبيعى والألوان. وأبو ريحان نفسه رجل أريب مدقدق، يعرف كيف يكتشف الفنانين الجدد المبشرين بمستقبل، فيلمعهم فى الأفراح فى مقابل أن يشاركوا بنمرهم بأجور رمزية.

أصحاب الفرح كانوا من أكابر الأثرياء فى منطقة الغربية كلها، أطيان وماشية وعمدية وعضوية فى البرلمان ومشيخة وأبهة. الفرح كان - شأن معظم أفراح الفلاحين - مزدوجا، لكنه أغرب ازدواج فى التاريخ: ولد وحيد أبويه يتزوج هو وأبوه فى ليلة واحدة!! ذلك أن الأب - الذى كان هو الآخر وحيد أبويه - عقمت زوجته بعد إنجابها هذا الولد حيث أصيبت بمرض خبيث فأجريت لها عملية جراحية استأصلت الرحم. الإبن ليلة الدخلة كان عمره دون العشرين بخمس سنوات - نفس السن التى تزوج فيها أبوه من أمه - وكان عمر الأب - ليلة الدخلة

الثانية – لا يتجاوز الثلاثين عاما، أى أنه فى عز شبابه. ولأن زوجته – أم الولد – بنت عمه وبنت خالته فى نفس الوقت، وتحبه، وتتمنى له أن يملأ الدار عيالا ترث هذه الثروة الطائلة، وأن يستمتع بشبابه، فقد رضيت عن طيب خاطر أن يتزوج بل هى التى دفعته إلى الزواج وانتخبت له عروسا جميلة هى بنت خالتها أيضا. وكانت عروس الأب أكبر من عروس الإبن بثلاث سنوات فقط.

سافر العريس الكبير بدوى السيد – على اسم البدوى – إلى موطن سميه وقطبه، فاتجه مباشرة إلى ميدان الساعة واقتحم مكتب إبى ريحان وقال له بالفم المليان:

– «معك من ألف لعشرة آلاف جنيه! هات لى أكبر فرقة فى البر كله! أكبر مغن فى الإذاعة فلسنا نفرح كل يوم والفلوس عندى لا تجد من يصرفها!! فما نفعها إذن إن لم نفرح بها ؟!»

وبعد أن دفع العربون الكبير، وطمأن المتعهد على أن الخير الذى ستجنيه الفرقة من نقوط أهل البلدة سيكون أجرا ثانياً مضاعفا، اتخذ طريقه إلى مطبعة التوفيق فى شارع طه الحكيم فاتفق على طبع دعوات بماء الذهب عليها رسم التاج الملكى، ثم قفل عائدا إلى بلدة العجوزين.

يوم الفرح جاءت عربات الفراشة فأقيم سرادق فى أكبر جرن فى البلد، امتلأ بالثريات الكهربائية الملعلطة. فى عمق السرادق منصة المسرح، من خلفها حجرة كبيرة من نفس القماش محكمة الإغلاق لكى تغير الراقصات فيها ثيابهن.

على محطة القطار كانت الركائب والحناطير والكارتات التى تجرها الخيول فى انتظار فرقة أخرى هى فرقة المزمار البلدى، حيث أقلتها حتى مدخل البلدة. تلك هى فرقة الريس «صاوى» صاحب المزمار البلدى الذى سيتولى زفة العفش والشوار من بيتى العروسين إلى بيت العريسين. أعضاء هذه الفرقة يلبسون الجلابيب والطرابيش وهم حوالى ستة أشخاص: الريس واثنان بالمزمار البلدى، وعازف أرغول، وطبال بطبلة كبيرة معلقة فى الكتف، وخلبوص متحرك يتولى جمع النقطة و.. شو ..و بش ياحبايب، سرعان ما التحمت الفرقة بموكب الشوار، وهو

موكب مكون من عدد كبير من الجمال تحمل الدواليب والأسرّة والتسريحات والمراتب والألحفة والنحاس والكنب وبقج الملابس وخزين التموين المسمى بالعشاء. حتى يرى كل فرد فى البلدة نوع العفش والشوار وعدد قطعه ومدى أبهته ومدى كرم أب العروس فى عشاء ابنته، كل ذلك إمعانا فى تعزيز مركز العروسين . قد يستمر الموكب ساعات طويلة حيث يلف شارع داير الناحية كله، تتقدمه فرقة المزمار البلدى، تحف بها - ويه - الزغاريد من كل حدب وصوب. يتوقف كل بضع خطوات أمام أبواب الدور المطلة على الشارع، ليتلقى الشربات والنفوط من أصحاب هذه الدور، وترد فرقة المزمار البلدى بعزف السلام الملكى، تعقبه معزوفة: آمنت بالله، وأغنية: والنبى ياجميل ودينى على منى وجبل عرفات. تتسع الحلقة، ينزل فيها شبان يلعبون التحطيب فى حركات راقصة مع المزيكة، وقد تنزل الخيول بفرسانها لترقص هى الأخرى بطرب وابتهاج.

لما انتهى الريس صاوى من زفة العفش ذهب لاستقبال فرقة السهرة. مضى بها هى الأخرى فى موكب حافل إلى الدوار الكبير حيث تناولوا جميعا عشاءهم الدسم، وشربوا من الحشيش والأفيون ما وزن الأدمغة وسخنها، فعاد الريس صاوى إلى بلدته مشيعا بالخيرات فوق الركايب.

صعدت فرقة أبى ريحان إلى خشبة المسرح، مدفوعة بقدر كبير من الانتشاء، والتفاؤل الكبير بليلة من ليالى العمر. وقد كانت هكذا بالفعل: أربع راقصات سمهريات القوام يتفجرن بالأنوثة والحيوية بخصور رفيعة ومؤخرات مبرومة مرنة كالخيزران. تشخلعن واحدة فواحدة، ثم اثنتين اثنتين، ثم اشتعل بهن الوجد على كمان عبدالبصير الصوفانى مع قانون إبراهيم افندى غطاس ودربكّة النُن اللهلوبة مع الدفوف والصاجات. أدى المنولوجست حسان شرارة نمرة طويلة استغرقت ساعة كاملة، غنى الجمهور معه بنشوة راقصة : «جار الشادوف اللى فى داير الناحية.. شفت الحليوه أبو جلابية لمونى.. نظر لى نظرة من عيونه الصاحية.. روحت دارنا أقول لهم غطونى». جمع النوبتجى من النقوط السخية ما ملأ كل جيوب إبراهيم أفندى غطاس. وغنت المطربة سامية السحلى - التى وصفها

النوبتجى عند التقديم بأنها مطربة الإذاعة والسينما - أغنيات كثيرة: البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلى، يابو العيون السود، ياحليله ياحليله أهو وحده جانى الليلة، أسمر ملك قلبى. كان صوتها من عائلة صوت أسمهان تشوبه نبرة سوقية موالدية لم تجد من التدريب والدراسة ما يشذبها ويمحوها. ولم تكن تكمل الأغنية حتى نهايتها، يكفيها منها المقطع الجميل المشعلل، ترتفع به إلى موال أخضر تظهر فيه خصائصها كموالدية أصيلة لا علاقة لها بالإذاعة، ثم تهبط من الموال إلى أغنية أخرى. الحق أنها شعللت السرادق بالفعل، استنفرت الزغاريد بكثرة صياحها فى طلبها: زغرودة ياحبايب. حتى إذا تقدم الليل دارت الجوزة على الفرقة دورات كثيرة خاطفة، مع أطباق من حلوى سدّ الحنك، والمهلبية، كل ذلك وهم فى شغلهم لا يهدأون إلا فى هسّات بسيطة لا يكاد يلحظها الجمهور. ثم ران الصمت برهة وجيزة، قطعها أحد المدعوين صاعداً إلى خشبة المسرح ليفتتح دورة جديدة من النقوط، سرعان ما انتعشت ، حتى انتفخت اجناب ابراهيم افندى ببطانة سميكة من الفلوس المتكورة تكاد تعوق حركة ذراعيه وأصابعه فوق خدود أوتار القانون لولا أن قانون ابراهيم افندى غطاس يعرف شفرة أصابعه فيستجيب لأقل لمسة عابرة. ثم هدأت موجة النقوط واضمحلت، فارتفع صوت احد أقارب العريسين :

«أظن قد حان وقت النمرة الكبيرة الآن !!

حينئذ شد ابراهيم افندى اوتاره. جاويه عبد البصير. قدم كل منهما فاصلا من العزف المنفرد يشاركه الآخر مع بقية العازفين . ارتفع مزاج السلطنة الشجية لدقائق طويلة ثم حلت برهة صمت ، تقدم بعدها النوبتجى ممسكا بالميكروفون !

- «والآن سيداتى سادتى نقدم لكم نجم الحفل مطرب الإذاعة والسينما والاسطوانات ! محمد افندى عبد الوهاب» !

ضج السرادق كله بالصراخ والهتاف والتهليل والصفير لوقت طويل حتى زلزلت البلدة كلها، صارت الاسطح من جميع الجهات ترشق السرادق بالزغاريد

كـالمنجنيق . فـى حين وقف على خـشـبـة المسـرح أفندى غـاية فى الاناقـة : بذلة سموكن ، بابيون حول الرقبة طربوش على الرأس. نفس منظر محمد عبد الوهاب فى فيلم الوردة البيضاء ، بإضافة نظارة طبية سميكة العدسات جيء له بكرسى، نزع آلة العود من جرابها الازرق القطيفى، لعبت ريشته على الأوتار دوزنتها بحرفنة واضحة ؟ ثم بدأ يعزف مقدمة أغنية .. يا وابور قول لى رايح على فين . دوى التصفيق ولكن بغير صياح . ثم انطلق صوته مغنيا، كان قريب الشبه بصوت عبد الوهاب ، لكن تشويه عجمـة صوتية من لكنة فريد الأطـرش والتطجين البلدى . غنى عدة أغنيات لعبد الوهاب وكارم محمود وعبد العـزيز محمود . ثم احنى رأسه ردا على تحية الجمهور، وابتعد عن الميكـروفون عائدا إلى قعدته السابقة يمسح عرقه.

فيما كان ابراهيم افندى يتشاور همسا مع عبدالبصير حول تقديم فاصل جديد من الرقص بمصاحبة النوبتجى المغرم بتقليد محمد عبد الوهاب ، صاح صائح كان يقف خلف رءوسهم على خشبة المسرح ، فى صيحته احتجاج بانفعال مكبوت :

«متى تجيء النمرة الكبيرة إذن يا أسيادنا ؟!»

نظروا اليه مبهوتين . وقف له المتعهد :

– أى نمرة كبيرة ؟ماذا كان يفعل هذا الفنان إذن ؟ إننا نتأهب للختام !! »

– « ختام ؟! ختام ماذا يا حضرة » ؟!

دققوا فيه النظر . اتضح أنه العريس الكبير شخصيا

سأل إبراهيم افندى فى أدب شديد :

– « نقصد إيه حضرتك بالنمرة الكبيرة » ؟!

قال العريس مشوحا :

– «الأستاذ محمد عبد الوهاب !!»

قال ابراهيم افندى :

– «فمن الذى كان يغنى إذن؟!»

أحمر وجه العريس، انتفخت ملامحه بدماء الغضب اليائس تماما من التفاهم:

- «لا!! تظنوننا بهائم عدم المؤاخذة؟! الذى سمعناه الآن محمد عبدالوهاب التقليد .. نحن عدم المؤاخذة اتفقنا على محمد عبدالوهاب الأصلى» .

بهت إبراهيم افندى غطاس. تصلب الجميع فى أماكنهم من فرط الذهول، ظنوه مجنونا بلاشك. لكن الجد كان واضحا على سمته، والعقل الحكيم يعتقل الغضب فى وجهه، اعتدل إبراهيم افندى كى يواجهه، وقسم نظرته المندهشة بينه وبين المتعهد الواقف على مقربة لاويا شفتيه اشمئناطا :

- «حضرتك اتفقت مع المتعهد على محمد عبدالوهاب الأصلى؟!»

قال العريس بجدية هائلة :

- «طبعا .. فلماذا سافرت إلى طنطا إذن؟»

قال إبراهيم أفندى :

- «محمد عبد الوهاب شخصيا» !

شوح العريس وقد تطايرت فى لعابه بوادر انفجار :

- «وإيه يعنى محمد عبدالوهاب ؟! ما نقدر على مهره ؟!»

أحس عبد البصير أنهم قد تورطوا فى مأزق شديد الغرابة والغموض، فتدخل فى الحديث بلطف :

- «إبراهيم افندى لا يقصد !!»

قاطعة العريس غاضبا بصوت أعلى :

- «شف يا أستاذ إن كنتم تظنون انكم افندية قادرون على الضحك على الفلاحين لهذه الدرجة فأنتم فى منتهى الهبالة نحن نذهب بكم إلى البحر ونعود بكم عطشانين !!»

قال عبد البصير الصوفانى :

- «أنتم أحسن ناس ، وأذكى ناس ومن يضحك عليكم لم يخلق بعد ! كل ما فى الأمر . أننا نستفهم من حضرتك لأننا بالفعل لا نعرف أى شىء عن الموضوع الذى تتكلم فيه حضرتك !! إنما نحن فنانون ! جاءنا طلب من المتعهد : نريدكم فى

حفل فى البلد الفلانية ! أهلا ومرحبا ! جئنا نخدم لا ذنب لنا فى أى شيء فإذا كان هناك سوء تفاهم بينك وبين المتعهد فمن حسن الحظ أنه أمامك يمكن التفاهم معه بالعقل بالراحة، مؤكد هناك سوء تفاهم لأن محمد عبد الوهاب الأصلى لا يحضر الافراح ولا أحد يملك ثمنه مع احترامى لكم، إنه رجل كبير جدا !! إنه رئيس جمهورية الفن! الناس تذهب اليه ولا يذهب هو إلى الناس !!

لحظتئذ كان المتعهد لا يزال واقفا لائذا بالصمت من هول المفاجأة التى لم تكن لتخطر له ببال، فحينما اتفق مع العريس على محمد عبد الوهاب ايقن بدون أدنى شك أن العريس يقصد محمد عبد الوهاب الطنطاوى، ولذلك اندهش يوم الاتفاق لأنها اول مرة يتلقى طلبا صريحا به، لكنه لم يكن يخطر بباله أن الرجل يطلب محمد عبد الوهاب الكبير . وهو الآن حائر لا يدرى ماذا يفعل فى هذه الورطة التى يأبى سوء الحظ إلا أن يختتم بها هذه الليلة السعيدة ..

امتلأت خشبة المسرح بلابسى الجلابيب واللاسات والطواقى والمراكيب ، أحاطوا بالفرقة ، حتى بدت الفرق ككومة من الصراصير تحت حلقة من العماليق، إلا أنهم كانواجميعا صامتين، يتابعون الحوار فى حيدة ، لكن ملامح الغضب واضحة فى وجوههم وحركاتهم العصبية المتوجسة : قال العريس للمتعهد :

- «يا أستاذ هذا نصب واحتيال ! أنا متفق معك على أن تأتى لى بمحمد عبدالوهاب وتأخذ من ألف جنيه لعشرة آلالف ! وحينما قلت عبد الوهاب فليس هناك سوى محمد عبد الوهاب واحد ! وبناء عليه طبعت الكروت وكتبت فيها أن محمد عبد الوهاب سوف يحيى الفرح ! يعنى أنا الآن اشتريت سمنة بلدى وحضرتك بعتنى سمنة اصطناعى ! فماذا يكون هذا ؟!»

قال عبد البصير لنفسه دون صوت : غش طبعا ! نصب وقلة ضمير. ثم سأل العريس :

- «دفعت كم للمتعهد نظير عبدالوهاب؟»

قال العزيس :

- خمسة آلاف جنيه لعبد الوهاب وحده !!

صرخ عبد البصير رغما عنه :

- يا خبر اسود !! تشترى الترماى ؟!

ورمق المتعهد بنظرة احتقار صارخة . فأشاح المتعهد بوجهه بعيدا فى خجل وارتباك . وهز العريس يده منبها على من حوله من الرجال :

- «لا أحد منهم يتحرك من هنا حتى أعود !!»

ثم اختفى :

كان ضوء النهار قد بدأ يتسلل من خلل رقاع السرادق ، فبدأ العازفون فى تكييس آلاتهم ، وجلسوا صامتين منكسى الرؤوس كأنهم فى مأتم .. ظلوا هكذا وقتا طويلا جدا ، مملا دخنوا السجائر بكثرة، تنهدوا أكثر فى تشاؤم وقرف . بدأوا يتحدثون مع بعض الملتفين حولهم حديثا وديا تتخلله أسئلة عن الركائب التى ستوصلهم الى المحطة. لكن الردود المضغمة التى تلقوها خالية من الحماسة، أقنعتهم بأنهم - تقريبا - مأسورون لوقت معين .

سطعت الشمس واقتحمت السرادق الذى صار خاويا على عروشه. دخل عليهم بعض الخفراء لابسى اللبد الميرى تلمع فوقها النحاسة الصفراء، والبنادق معلقة فى اكتفاهم ، قالوا للفرقة فى قليل من الأدب : تفضلوا معنا . نهضوا يحملون آلاتهم ، مضوا فى صف طويل تخيم عليه التعاسة ، يتقدمهم الخفراء، اخترقوا شارع داير الناحية ، الى بيت مميز الشكل سرعان ما اتضح انه دوار العمدة - وهو ابن عم العريس لزم - فدخلوا . أجلسوهم على الكنب البلدى. بعد قليل دخل العمدة من باب داخلى ، يرتدى الجبة والقفطان والعمة ويتسلح بملامح وجه صلبة حادة . ولم يلق السلام، بل اتخذ طريقه صامتا الى مكتب منزو فى الركن البعيد، عليه آلة التليفون . جلس ، أشار صامتا بأصبعه الى المكتب صائحا بلهجة باترة آمرة :

- «قبل كل شىء ! جميع النقطة التى وصلتكم توضع هنا أمامى على داير مليم! ماذا وإلا سأفتشكم وآخذ كل مافى محافظكم !!».

سقطت قلوبهم فى أرجلهم ، اصفرت وجوههم فيما يرمقون ابراهيم افندى

غطاس بنظرة أسيفة تعيسة قانية . قال ابراهيم افندى بكل بساطة وأريحية غير متوقعة :

- «حاضر ! بكل سرور » .

ثم قام متجها الى المكتب ، نفض على سطحه جيبه الأيمن ، ثم جيبه الأيسر، ثم فتح ازرار القميص ، ومد يده فخلع السترة رماها على الكنبة ، ونزع ازرار القميص كلها من عراويها، صار يغترف النقود ويلقى بها على المكتب ، ويبحث فى بكية السروال عن ربع جنيه يكون قد اختبأ أو انحشر ، ثم دار حول نفسه أمام العمدة يريه أن قميصه الشفاف لم يعد يحتفظ بمليم واحد، ثم عدل وضع الأزرار، ارتدى سترته، رجع الى مكانه فى وقار شديد ، جلس، اشعل سيجارة راح ينفث دخانها فى زفرة حادة .

نظر العمدة فى كومة الفلوس الكبيرة مرتاعا :

- «يا أولاد الكا .. لب !! أنتم فعلا لا تستحقون هذا الخير كله !! ».

فتح درج المكتب .. بكفيه العريضتين صار يزيح كومة النقود الى الدرج حتى امتلأ الدرج عن آخره، أغلقه بالمفتاح . نظرات الفرقة تجمدت فوق سطح المكتب فى حسرة قاتلة . معظمهم - فيما عدا ابراهيم افندى غطاس وعبد البصير الصوفانى - كان يقاوم ليحبس دموعه .

وقف العمدة آمرا :

- تعالوا ورائى !!

مضى بهم خارجا الى الساحة المتاخمة للدوار ، حيث كان فى انتظاره سيارتان ماركة فورد القديمة جدا .. أشار لهم فى كثير من التبكيت الماسخ :

- «ستركبون الفورد !!»

انحشروا حشرا فى السيارتين بآلاتهم . ركب العمدة وابن عمه العريس كل منهما بجوار احد السائقين .

- «على طنطا يا أسطى !!»

تسلق كل رفرف خفير ببندقية . عند أذان العصر كانوا قد دخلوا طنطا

متجهين الى قسم الشرطة . وكان من الواضح أن العمدة تكلم مع القسم فى الهاتف ، لأن ضابط المباحث والمأمور كانا فى انتظارهم ، حيث استقبلاهم بفتح المحضر مستخدمين ألفاظا خشنة سوقية. تكفل كل من ابراهيم أفندى وعبد البصير بشرح طبيعة الموقف وأبعاده ، وبأنهم وقعوا تحت عدوان لا ذنب لهم فيه . لم يتورع عبد البصير عن اتهام العمدة بالقسوة والنذالة اذ انه سلبهم حقهم وعرقهم طول الليل، وكيف انهم أمتعوا الناس فكان جزاؤهم الضرب بالصرمة فى أخر الليل .

كلماته الحارة الصادقة ، الغاضبة، استطاعت ان تستميل ضابط المباحث، فراح يرشق العمدة بنظرات تحتية تفيض بالاحتقار والاشمئزاز ثم سأل المتعهد :

– «هل اتفق معك هذا الرجل على أن تأتى له بمحمد عبد الوهاب ليغنى في فرحه ؟! » .

– «حصل !! »

– «وهل أخذت منه خمسة الاف جنيه ؟! » .

– «حصل !! » .

– «فلماذا لم تنفذ الاتفاق ؟! » .

– نفذت يا سعادة البيه !! » .

– «كيف؟! » .

– « تعال يا أستاذ محمد ! » .

تقدم المدعو بمحمد عبد الوهاب . سأله المتعهد

– «ما شغلتك يا عم ؟! » . .

– «مطرب وملحن ! هذا مكتوب فى بطاقتى الشخصية !!» .

– « وما اسمك ؟! » .

– «محمد عبد الوهاب !! » .

– ابرز بطاقتك الشخصية لحضرة الضابط !! »

- « ها هى ذى !! » .

تناولها الضابط، تفحصها بعناية ، الاسم محمد محمد عبد الوهاب ، العمل مطرب وملحن فى سرعة أخرج محمد عبد الوهاب من جيب سترته لفة ورق متخمة، فردها ، فإذا هى مجموعة أفيشات مطبوعة بالألوان بصورته كدعاية له فى بعض الحفلات الرسمية التى تقيمها محافظة طنطا . تفحصها الضابط مبتسما، ثم قال للمتعهد:

- «يقول العريس إنه اتفق معك على محمد عبد الوهاب الأصلى الكبير !! »

- « وهل هذا يعقل يا سعادة البيه ؟! محمد عبد الوهاب بجلالة قدره يجىء لفرح فى قرية مع العوالم ؟ لو لم يكن فى بلدنا محمد عبد الوهاب اخر ! ومشهور عندنا لراجعت العريس فى طلبه !! » .

- «لكن المبلغ كبير ! وكان المفروض ان تتشكك !! ».

- «ولكنه لا يصل إلى سعر عبد الوهاب إذا افترضنا أنه سيوافق من الاصل!! ثم إن التجارة شطارة !! والعريس بنفسه قال يشجعنى إن عنده فلوس لاتجد من يصرفها وأن على أن أطلب ما أشاء فطلبت خمسة آلاف فوافق !! ».

شوح العمدة فى احتجاج :

- « هذا نصب واحتيال !! » .

اغتاظ الضابط من شخطة العمدة فى وجهه دون اعتبار للياقة او ادب . وجد نفسه يقول له فى حده :

- شف يا عمدة ! القانون لا يحمى المغفلين ! ليس أمامى ما يشكل قضية !! من يريد محمد عبد الوهاب شخصيا يتفق مع متعهد في طنطا ؟! من يقول بهذا؟! وأنت الآن تعتبر معتديا على هؤلاء ، سطوت على أموالهم ونزعتها بالقوة !! وهى عرقهم ! رزقهم ولا حق لك فيها حتى لو اختلفت مع المتعهد ! وإننى مضطر الآن للقبض عليك وتبليغ النيابة إلا إذا سافرنا معا وفتحنا الدرج وأعدنا الفلوس لأصحابها !! فماذا قلت ؟! » .

انذهل العمدة، شوح فى توتر :
- « تقبض على ؟! كيف تقبض على وأنا الشاكى ؟ ! ثم إننى عمدة ولى حصانتى !! » .
أهمله الضابط ونظر الى الفرقة :
- «هل تتقدمون الآن بشكوى ضد العمدة ؟!
صاحوا جميعا :
- «نعم ! ونصر على إبلاغ النيابة ! » .
ضغط الضابط على زر جرس . دخل المخبر . صاح فيه الضابط :
- «خذ العمدة وابن عمه إلى الحجز حتى أعرضهما على النيابة غدا ! والآن فلنفتح محضرا جديدا للعمدة وللفرقة ! » .
تقدم المخبر وتأبط ذراع العمدة فقال العريس :
- « خلاص يا سعادة البيه ! عوضى على الله ! تعالوا خذوا فلوسكم !! »
نظر الضابط الى العمدة مستطلعا رأيه. فصمت العمدة منكسا وجهه فى الأرض. صاح الضابط فى المخبر .
- «جهزوا لنا عربة البوكس ! سأسافر أنا وضابط وقوة من العسكر ! نأخذ معنا المتعهد وابراهيم افندى وعبد البصير ليدلونا على درج المكتب !! » .
قال ابراهيم افندى :
- «أنا عددت الفلوس بالمليم !! ».
ذهبت الفرقة إلى مكتب المتعهد لتنتظر نصيبها من الغنيمة ، وانطلقت سيارة الشرطة ومن خلفها السيارتان الفورد ، عائدة إلى بلدة العجوزين فى مدخل المساء.

(١٧)

مولد السيد البدوى أحب شىء الي جميع ابناء الغربية بوجه عام، وأبناء مدينة طنطا بوجه خاص ، وعبد البصير الصوفانى بوجه أخص. إنه عيدهم الحقيقى فى طنطا ، موسمهم السنوى الذى فيه تنتعش تجارتهم وجميع أحوالهم . ليس ثمة من لا يجد رزقا وفيرا فى أسبوع المولد، حتى الذين لا تجارة لهم ولا حرفة ولا

عمل يتلقون الهبات والحسنات من كل قادم إلى طنطا . ما أكثر من يشدون الرحال إلى البدوى من جميع أنحاء القطر المصرى، تصل ذروة الزحام فى الليلة الكبيرة، حينئذ تصبح الطرق المؤدية إلى طنطا والمتفرعة منها الي جميع البلدان والقرى كأعشاش الزنابير تشغى بالحركة والضجيج ، آلاف السيارات من جميع الاشكال والألوان والأحجام والماركات ، مئات القوافل من جمال وحمير وخيول ، عربات الكارو، الكارتات والحناطير، الراجلون يحملون الصرر والاربطة والاقفاص والأسبتة ، عائلات عائلات ، فرادى وجماعات، كلهم من محاسيب البدوى ودراويشه ، اسم البدوى يتردد بينهم طوال الطريق بلهجات متعددة، تجمعها كلها نبرة ود ، فيها الكثير من العشم ، والحميمية ، يخاطبون بها البدوى فى كل لحظة كنفر منهم ، يجالسهم بل يمشى معهم الآن فى الطريق ، يستنفرونه ضد اعدائهم او حظوظهم النكدة يستنهضون همته فى قضاء حوائجهم المرصودة المتلبكة ، يطلبون وساطته فى أمور كثيرة معلقة على فيض الكريم ، منهم المربوط الذى كاد له احد الاشرار بعمل سحرى منقوش على قحف قرموط ألقى به فى البحر ليظل هو مربوطا عن زوجته كلما قاربها، ومنهم من اوشكت ابنته على سن اليأس دون أن يدور عليها عريس، ومنهم من تتوالى مرات رسوب ابنه فى الدراسة ، ومن له إبن مريض، زوجته ممسوسة ، بقرة مسروقة، طفلة ضائعة ، حاجات ومحتاجات لا تنتهى مطلوب من البدوى أن يساهم فى حلها، يطلع ينزل لابد من الوفاء بها.

غير أنهم جميعا يدركون أن السيد البدوى رجل عقر، صاحب عكوسات لا حصر لها، إنه يضرب به المثل فى العكوسات والنحوس ، ذلك أنه - فى اعتقادهم - من مكمنه تحت قبة ضريحه فى المسجد الأحمدى يعرف لاشك ان فلان الفلانى أو علان الترتانى جاءه لغرض فى نفسه لابدافع الحب الخالص والزيارة للزيارة ، فيغتاظ منه، فيضع العكوسات والنحوس في طريقه : تتعطل السيارة التى يركبها لأسباب تافهة لا تخطر على البال، تنفق دابته، تضيع نقوده ، زوادته ، تفوته جميع القطارات ، يغلبه النوم فتفوته المحطة فيتعذب في العودة ، تصيبه وعكة صحية فى منتصف الطريق فلا يحصل ولا يوصل . حينئذ يزفر

الواحد منهم فينطلق من اعماقه الشخص الآخر الذى يخفيه اثناء الزيارة تحت ثياب الورع والتقوى ، لكنه يكتفى بأن ينظر فى اتجاه طنطا صائحا : «عملتها يا أبو الرع ؟! » . وقد يحاول مع ذلك إصلاح العطل واستئناف المسيرة ، وقد يأخذها من قصيره ويقفل عائدا الى بلدته .

إلا أن معظمهم يخزى الشيطان فيعترف بسوء نيته بل قد يبحث فى نفسه عن سيئة ارتكبها فى حق البدوى او فى حق اى أحد، ولربما التمسها فيمن يرافقونه، على الأقل يوقن ان احدهم لابد يكون جنبا يلزمه ان يتطهر من النجاسة . فى العادة يستسمحون البدوى ويصبرون على مواصلة السير للحاق ولو باللحظة الأخيرة فى الليلة الكبيرة. منهم من يصر على طنطا ولو طال السفر، فيطلع عليه النهار التالى لليلة الكبيرة وهو على الطريق، فيلتقى وفود النازحين، اصحاب الخدمات من رجال الطرق الصوفية، اهل الفن الذين ينصبون التياترات والسيركات والسوامر، أرباب الالعاب النارية، سقاة العصائر والمرطبات ، الباعة الجائلون، تجار الحمص والحلاوة وحب العزيز ، تجار الاقفاص والأسبتة والمأكولات الجاهزة السريعة . كل هؤلاء وأولئك ينشطون بمجرد انقضاء الليلة فى فك وتستيف وتربيط وتحميل ، ليدركوا أماكنهم بسرعة فى مولد ابى العينين فى دسوق .

لابد من طنطا وإن طال السفر وأحاطته النحوس والعكوسات. فالخارج من داره على ذمة المولد لابد أن يعود لأولاده بحمص وحلاوة وحب العزيز وإلا فإنه لم يذهب الى المولد حتى لو كان قد ذهب بالفعل، ما فائدة السفر إن لم يجيء المسافر بدليل البركة من جوار الضريح المبارك ينعم بها بين الأهل والأصدقاء ؟

لوكاندات طنطا بجميع مستوياتها تمتلىء عن آخرها بحاملى القفف والزكائب واللحى الطويلة والخرق المرقعة. الشوارع كلها تزدان بأفرع السبح الملونة ، وأفرع الخرز والشيلان والعباءات والطرابيش والطراطير والطواقى، وفروشات الحمص والحلاوة وعربات الهريسة . حتى محلات المانيفاتورة الكبيرة تحشد على الارصفة بضائعها المعروضة للبيع . الحناطير والسيارات وعربات الكارو تجلجل تصلصل

تزمر فى جميع أنحاء المدينة . جماعات لا حصر لها من جميع ألوان البشر من جميع الأعمار يمشون فى الشوارع بلا وجهة محددة، فأى وجهة ستقودهم فى النهاية إلى الضريح والمسجد يحومون حوله .

فى ساحة المسجد تصب الحركة وتتفرع الى مالا نهاية. نداءات الباعة تختلط بصيحات الدراويش الهيمانة المتوجدنة بضجيج الميكروفونات فوق أعمدة السرادقات وشرفات بعض المنازل القريبة التى تؤجر للخدمات الصوفية، تبث القرآن الكريم وغناء المغنين وشخلعة رقص الغوازى ، بصفير القطارات المستمر المتكاتف الدخان، بأصوات الذاكرين والمنشدين ، بأصوات المستغيثين يبحثون عن ذويهم الضائعين التائهين .

تلك هى «الملقة» أى الساحة التى يتلاقى فيها جميع الزائرين ، ويقام فيها المولد ، ينصب أهل الفن مسارحهم وسيركاتهم، وأصحاب الخدمات خدماتهم ، وأصحاب الألعاب منصاتهم : التنشين ودفع الطارة وترابيزات البخت والملاهى ولعب الثلاث الورقات، باعة الأشربة الملونة، بدوارقهم الزجاجية المكرشة تسبح فى مياهها كتل الثلج ..

ذلك أحب مكان يتجول فيه عبد البصير طوال ليالى المولد . فإذا كان أبناء جميع القرى يدخرون طوال العام من مصروفهم لكى يذهبوا الى مولد البدوى والدسوقى ، فإن ابناء طنطا كذلك يدخرون ما يحقق لهم التجول فى «الملقة» والاستمتاع بألعابها وكل معروضاتها ومسارحها الطريفة المسلية.

يحب عبد البصير أن يبدأ جولته دائما بسرادقات الغناء والتمثيل الهزلى، يدمن الفرجة على الصور الكبيرة المعلقة فى براويز على أبواب السرادقات تحتلها أسماء أصحابها مقرونة بألقاب وأوصاف لم ينلها محمد عبد الوهاب وأم كلثوم فى عز مجدهما، من قبيل : بلبل مصر ، كروان الإذاعة ، صاحبة الصوت الملائكى، اجمل راقصات السينما.. الخ . أما الصور نفسها فشكلها طريف: الشعور المصففة بعناية تلمع بفعل الصابون والفازلين، السوالف الطويلة كمقاصيص النساء، والشوارب المحففة، العيون المكحولة المفنجلة فى وقاحة . بقدر استنكاره

ونفوره من هذه الصور والأوصاف التى تدعى النجومية الكاذبة وتعلن عن نفسها بفجاجه ، كان يشعر مع ذلك أنه ينتمى إلى عالمهم بصورة او بأخرى . إنهم جميعا غرباء حتى فى بلدانهم ، اسلسوا قيادهم لشيطان الفن الذى لم ولن يرحمهم؛ دوخهم، كتب عليهم الغربة ومغادرة الأهل والخلان من أجل إشباع ذلك الشيطان المريد، لتصفيق الجماهير وقع السحر فى نفوسهم ، تكفيهم كلمة اعجاب واحدة تجرى كالبلسم الشافى على جراحاتهم الكثيرة الغائرة تجعل الواحد منهم يشعر ان اغترابه لم يضع هباء . هم جميعا - الموهوب والموهوم تصهرهم بوتقة واحدة :

كان يشعر عبد البصير أنه مثلهم وإن استعلى عليهم بجودة عزفه وسطوع موهبته ، فهذه الفروق الدقيقة بين الموهوب والموهوم لا قيمة لها أحيانا فى هذه المعمعة ، بل ربما كان الموهوم فى أحيان كثيرة يمثل احتياجا ضروريا لبعض الفرق اكثر من الموهوب الاصيل . ليس على العملة الجيدة وحدها تقوم الاسواق بمختلف انواعها، بل إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق دائما. إنه عالم كبير حافل بالغموض والاسرار .

استحسن برنامج احد السرادقات فدخله كان يرافقه لفيف من اصدقائه الشبان من أبناء شارع الحلو، ابناء كبار التجار والحرفيين الموسرين. من أول نمرة فى البرنامج أدرك عبد البصير أنه لم يخطىء التقدير، فمستوى العازفين جيد بالفعل ، لا نشاز ولا هرجلة ولا هزل، ثمة انضباط واحترام للمستمع ، اما المطرب فجميل الصوت فعلا، والارجح انه من طنطا نفسها، واغنيته اجمل، إذ تقول كلماتها : أنا اصلى من طنطا .. حطة يابطة يا دقن القطة ياللى السمك ف بحرك بيلعب نطة. بعد المطرب ظهر منولوجست وصفه مقدم البرنامج بأنه جامعي، لم يكن رديئا على أى حال ، بل اضحك الجميع بنكات كثيرة جديدة بالفعل، يرتدى بدلة انيقة بصفين من الازرار سترتها مقفلة على رباط عنق وياقة منشاة، فلما شرع يرقص تناقضت حركاته المبتذلة مع وقاره الظاهرى فأضحك الجميع بشدة. بعده ظهر مقدم البرنامج ليقدم - كما اسماها - مطربة السهرة، نجمة حفلنا الساهر، مطربة الاذاعة والسينما ذات الصوت الملائكى الناعم «سعدية المليجى» ..

ضحك عبد البصير ورفاقه من هذه الاوصاف ضحكا صاعقا يفيض بالسخرية والاستعلاء . ما كاد يمسح دموع الضحك حتى تفجر الضوء فى ناظريه فجأة: قنديل يتهادى مقبلا من الكالوس . تسمر عبد البصير فى كرسيه لبرهه ثم اعتدل شاخصا ، تشبثت عيناه بالقنديل البشري المبهر. هذا ملاك نازل من السماء، وجه كالفطيرة ينعكس على أديمه ضوء القمر ، ملامح دقيقة بارزة ، أنف مستطيل مهيب شامخ ينسرب من بين حاجبين كثيفين يظللان عينين واسعتين سوداوين نفاذتين على عوالم سحرية مثيرة للخيال ، شعر أشقر تكوم فوق مقدمة الرأس كتاج ملكى ربانى، وتنطرح جدائله السخية على كتفيها تغطيهما حتى منتصف ظهرها، الكتفان العريضان خلفية متينة لصدر ناهد نافر مشقوق بالطول إلى هرمين شامخين، الخصر رفيع نحيل تكاد تحيط به اليد الواحدة، لكنه ينساب هابطا إلى بروز يتكور من الخلف فى نصف دائرة كطبق مقعر مقلوب على وجهه، ومن الأمام فى فخذين انسيابيين ينتهيان بساقين مبرومتين متناسقتين سبحان النحات الأعظم . من الذقن الشبيهة بحبة الجوافة ذات غمازة فى المنتصف، إلى الرقبة المستطيلة فوق نحر كبلاط القصور الملكية، إلى بطن كالخريطة، إلى الفخذين إلى الساقين إلى الكعبين المستديرين كريالين من الفضة فوق كعبى الحذاء اللميع المرتفعين يا أرض احفظى ما عليك.

صارت عين عبد البصير معلقة بالقنديل الساطع. دبت فى أحشائه النيران لأول مرة فى حياته. لم يحدث أن خفق قلبه هكذا وارتفعت ضرباته تدق فى أذنيه بشدة. بحق الله كيف تأتى لأميرة كهذه أن تلتحق بمثل هذا العالم الموبوء؟! حقها قصر من القصور الملكية الزاهرة تتربع على عرشه. ليس فى الأرض كلها رجل مهما بلغ ثراؤه أو جاهه لا يتمنى أن تكون هذه الحورية ملك يمينه ولو دفع فيها عمره. كيف عميت عنها العيون ؟!هل عميت عنها العيون حقا؟! ماالذى جعلها تتنازل عن مفاتيح الجنة فى سبيل أن تبهدل نفسها هكذا فى الموالد باسم الفن؟! أتراها فنانة حقا؟! وأى فن هذا الذى يمكن أن يعوضها هذه الخسارة الفادحة التى تضحى بها من أجله؟! لابد أن وراءها سر مهول مثير للخيال.

لأول مرة فى حياته يشعر عبد البصير الصوفانى أنه يضرع إلى الله فى طلب شخصى حميم ويخشى أن يرده الله فيزلزله. كل شىء فى حياته الماضية تركه لله يصرفه كما يشاء. الآن فحسب يتمنى أن تكون أبواب السماء مفتوحة لتصل ضراعته الحارة إلى الله سبحانه: يارب لست أطلب من الحياة كلها ومنك سوى هذه، هذه فحسب، سعدية المليجى .. أرجوك وأضرع إليك يارب وأنت قادر على كل شىء أن تكتبها لى! لتبق طول العمر زوجة وخليلة أما وأختا ومصيرا مفتوحا تنير لى طريقى تفتح قلبى على حب الحياة وعشق الجمال والإبداع الإلهى السامى، يارب! يارب! .

بعد برهة قصيرة دخلت نسخة طبق الأصل منها، لكن الفروق الكثيرة بينهما مالبثت أن اتضحت بعد قليل. إنهما شقيقتان تغنيان معا «دويتو»، شبيهتان فى الإشعاع عن بعد فحسب أما تفاصيل الوجه والجسد والجاذبية فلا وجه للمقارنة بينهما. بقى أن يعرف إن كانت فنانة بالفعل أم أنها كغيرها من فتيات الريف الجميلات تجرى وراء وهم كبير تحرق فى كهفه شبابها وسعادتها وبراءتها ؟!.

عزفت الفرقة الموسيقية لحن كمال الطويل للمطربة صباح: مال الهوى يامه. وبدأت سعدية المليجى تغنى، وتكتفى أختها بالرد عليها بدلا من الكورس. عجبا، صوتها نسخة طبق الأصل من صوت صباح بل هو أكثر جلجلة، أكثر بهجة. صوت ناعم باسم بشوش ، منطلق صداح . هو صوت صباح أضيفت اليه أطيار من عصافير وحمائم وقبرات وكروان. صوتها فرقة صوتية كاملة منصهرة فى هدير واحد. هى إذن موهبة بكل وضوح وتجل، وذات شخصية قوية مسيطرة تفرض احترامها . فى سلوكها وتعاملها مع الميكروفون والفرقة الموسيقية سلوك النجمات الكبيرات. تذكر عبد البصير أن مقدم البرنامج قال من بين ما قال إنها فخر محافظة الشرقية. هى إذن من أصل فلاحى شرقاوى أصيل، ترى أى تجربة أتاحت لها أن تتصرف هكذا فى الأداء كالمطربات الراقيات المحترمات؟! لو قدر له أن يمتلك هذه الغادة الحورية فسيبدآن معا قصة كفاح مشرقة وصولا إلى نجومية

حقيقية. آه لو أنها فى يده إذن لكسر بها الدنيا، سوف لا تمضى شهور قليلة إلا وتصبح ألمع نجوم الأفلام الاستعراضية. بحق الله كيف لم تصل هى إلى هذا الحلم حتى الآن رغم أنها كفء له ؟! أتراها لا تعرف الطريق ؟ المؤكد أنها من النوع الذى يتمسك بشرفه لا تحب الوصول على حساب الشرف. إنها إذن لجديرة بأن يوقف عليها عمره كله كى يوصلها حتى لو اقتضاه ذلك الاستغناء عن العزف على آلته الحبيبة كى يتفرغ لها هى. إنها الأمنية الوحيدة التى يمكن أن يضحى بالكمان فى سبيلها .

انتهت أغنية مال الهوى ياامه، يا أعز من عينى قلبى لقلبك مال، من أغنيات ليلى مراد، ثم أغنية نجاح سلام :يا شمعدان حارتنا يا منور حينا، ثم شاركت أختها فى استعراض بساط الريح لفريد الأطرش.

حين لوحت بذراعها للجمهور فى حركة وداع ضج السرادق بتصفيق وصفير وهياج يطالب ببقائها. لم يقو عبد البصير على السيطرة على نفسه، وجد نفسه يقف ملهبا كفيه بالتصفيق الحار، فوقف رفاقه أيضا. كانت هى قد تابعتهم فى جلستهم فى الصف الأول فلاحظت باستمتاع شديد تفانيهم فى التصفيق والتشجيع بعبارات الاستحسان المتواصلة، حتى شعرت كأنها تغنى لهم وحدهم، بالتحديد لهذا الشاب الأسمر الخشن ذى الحول الخفيف فى عينيه، فقد لفت نظرها بتعليقاته وعبارات استحسانه التى دلت على أنه من أهل المهنة، حيث استخدم أسماء النغمات والعرب والموازير. فوجىء عبد البصير بأنه قد صعد إلى خشبة المسرح ومن خلفه شلته، سلم عليها بحرارة واحترام، أثنى على جمال صوتها ودقة أدائها، ثم قدم إليها النقوط جنيها كاملا، وأومأ لرفاقه ففعلوا مثله، فاقتدى بهم الكثيرون من جماهير الصفوف الأولى بأنصاف وأرباع جنيهات كان لوقعها فعل السحر فى خشبة المسرح حيث انتعشت الفرقة واستأنفت عزفها فاستعادت سعدية المليجى وقفتها. غنت أغنية شادية:حبينا بعضنا، كشفت عن أبعاد جديدة فى صوتها، عن جانب الخفة والشقاوة. ثم غنت يا دبلة الخطوبة وسوق على مهلك. ومضت مشيعة بالتصفيق الحار.

في الليلة التالية كان عبد البصير ورفاقه يحتلون أهم المقاعد في الصف الأول. كرروا بهجة الليلة الماضية ونقوطها السخي، شجعوا الجمهور على هذه الأريحية. قبل انصراف سعدية المليجي عن خشبة المسرح أومأت لعبد البصير ورفاقه في امتنان خاص مصحوب بنظرة ساحرة من عينيها كأنها تقول لهم :أراكم غدا إن شاء الله. وفعلا، باتت هذه المقاعد في الصف الأول محجوزة لعبد البصير ورفاقه بقية الليالي.

يوم سفرها حرص عبد البصير ورفاقه على توديعها حتى لحظة المغادرة. كل ذلك دون أن يعني عبد البصير بتعريفها اسمه، كما أنها لم تسأله. إلا أنها حين رنت إليه بعينيها قائلة إنها لأن لأهلها إحساس بالفن ولأنها تعتبر بلد الفن يطلع منها الكثيرون من الفنانين الكبار والأصلاء أمثال محمد فوزي وشقيقته هدى سلطان ومحمد حسن الشجاعي، شعر بازدياد الخفقان في قلبه. ثم إذا بها تسأله فيما لم يكن يتوقعه على الإطلاق :

– «وهل تعرف عبد البصير الصوفاني ؟!»

تدفقت صفائح الدم الأحمر في صفحة وجهه، تجمدت عروقه وسرى في كل شرايينه جيش هائل من النمل البارد. غمز بعينيه لرفاقه أن يصمتوا . فعل ذلك في لذة كبيرة عجيبة، ثم ابتسم قلبه على شفتيه:

– «تعرفينه أنت ؟!»

هزت رأسها باسمة :

– «بودي لو أعرفه ! سمعت عنه كثيرا في كل الفرق التي اشتغلت معها ! يقولون إنه عازف كمان ساحر مثل عزيز الشوان وأنور منسي! من هذه القماشة يعني !!»

أحس أنه في وقفته هذه أمامها أصغر من الصورة التي تحملها له في رأسها. لذ له أن يموه عليها مستفيدا من عدم معرفتها لشخصه . وجد نفسه يقول لها :

«مصيرك تعرفينه ! على رأي المثل :طالما أنت طبال وأنا زمار سنتقابل على باب الدار !!»

- «لكن هل تعرفه ؟!»
- «طبعا! إنه من أعز أصدقائى !»
- «لهذا تفهم فى الموسيقى ؟!»
- «بالضبط !!»
- «هل هو كبير أم صغير فى السن ؟! »
- «هو من دورى !سوف أعرفك عليه قريبا !!»

مدت يدها الرخصة البيضاء كأنها مصنوعة من الحلوى، كاد يرفعها إلى فمه ليطبع عليها قبلة متبتلة، لكنه اعتقل رغبته، اكتفى باحتوائها فى قبضته الكبيرة بعض برهة، ثم تركها كأنه يعتذر . وحينما تمعنت فى كف يده التى كان يلوح بها لاحظت أنها يد غير طبيعية، فالإبهام مكسور فى انحاءة دائمة، وبقية الأصابع طويلة بصورة لافتة للنظر، إلا أنها حولت وجهها إلى الطريق عبر زجاج السيارة وهى تشعر بالرضاء التام عن شبان مدينة طنطا الحلوين ..

(١٨)

أبدا لم يعد هو نفسه ذلك الشخص الذى كانه قبل اللقاء، باتت سعدية المليجى تقاسمه الفراش. أصبح يخاف عليها من الوسط الذى تعمل فيه، يشعر بالغيرة ممن يجالسونها ويخالطونها ، بل يغار عليها حتى من الثوب الذى يلامس جسدها. لقد أخطأ خطأ كبيرا حينما لم يعرفها بنفسه، كان يجب على الاقل ان يحصل منها على عنوانها. طول عمره يسمع عن الحب وهمومه وأوجاعه ، ويا طالما سخر من المحبين المجانين . الآن يشعر بإشفاق على كل المحبين . هذا إذن هو الحب الذى سمع عنه ولم يكن قد جربه من قبل . آه كم هو مشتاق لرؤيتها، رؤيتها فحسب . إنه مستعد للسفر إليها لو فى الشلال إذا ضمن أنها هناك. هل يسأل عنها المتعهدين الذين لاشك لديهم عنوانها؟! لسوف يطلبها فى عمل، نعم لم لا ؟ حقا، لماذا لا يحاول فرضها على كل حفل يشترك فيه ؟ ولكن لا ، إن صورته التى رآها فى عينيها كانت ارفع من ذلك. لقد رأى فى عينيها صورة الفنان المثال ، ألم

تقرنه بعزيز الشوان وأنور منسي وهو في عمر أبنائهما أو ربما أحفادهما؟! الآن يشعر انه اشد احتقارا لعالم العوالم والآلاتية من أى وقت مضى، ابوه الحاج مصطفى الصوفاني يستيقظ الآن فى نفسه صارخا .يا بتاع العوالم والآلاتية يا حقير ياواطي، نعم، يجب ان يمتنع عن الشغل مع هؤلاء الحثالة ، لا عوالم ولا مشايخ بعد اليوم . ولكن كيف يعيش ؟ كيف يحتمل نضوب القرش فى يديه بعد أن جرب متعة سيولته ؟! لا داعى إذن للمبالغة والتطرف، فليقف فى المنتصف ، عليه أن يتخير مستوى الحفلات التى يشارك فيها بكمانه حتى لا يبتذل ، عليه ان يستمسك بصورته التى رآها مجسدة فى عينى سعدية المليجى ، هذه الصورة لا يجب أن يخدشها أبدا بأى حال من الأحوال . لو كان يعلم ان الشوق إليها سيكون حادا هكذا ولما يمض اسبوع واحد على غيابها ، لطالبها بخط سيرها حتى يلاحقها متى استبد به الشوق هكذا . رياه ماذا يفعل ؟ الليل طويل، شوارع طنطا محدودة ، لقد سئم من صلاة العصر فى الأحمدى ، والمغرب فى الشيخة صباح، والعشاء فى عطيف ، فمتى يصلى فى الحسين والسيدة زينب والسيدة عائشة والسيدة نفيسة ؟! سئم التجوال فى شارع الحلو، وشارع أحمد ماهر، وشارع طه الحكيم ، وميدان الساعة، وقهوة الحللى، سئم المزارع والترع، سئم البيت بزوجة ابيه المتسلطة السليطة التى تضرب اخوته بقسوة تثير أعصابه ونقمته على ابيه ، سئم الورشة والدكان، ومحلة مرحوم التى يقطنها لفيف من أصدقائه، وقحافة التى تمده بالتعميرة الطازجة ، حتى التعميرة نفسها لم تعد تبهجه، يشرب مهما يشرب ، يلف علبة سجائر كاملة بأجود الحشيش فلا تحرك فى خياله شعرة واحدة .

أبدا لم يكن من قبل يشعر أنه وحيد هكذا رغم كثرة الأصدقاء والمشجعين عمره ما أحس بالغربة فى طنطا هكذا، فما الذى جرى له ؟ أين تراه يمضى الآن متأبطا صندوق آلة الكمان ؟ من يراه يتصوره ذاهبا الى حفل او فرح، اما هو شخصيا فلا يعرف له الان وجهة . انتبه لآلة الكمان تحت ابطه، فتعجب من وجودها : لماذا اتيت بها من بيت خالتك ما دمت غير ذاهب الى عمل؟ حاول أن

يتذكر السبب الذى دفعه الى اقتحام بيت خالته للإتيان بالكمان، حاول أن يتذكر ماذا قال لخالته فلم يفلح ، فلماذا هو يتأبطها الآن ويمضى بها وسط الحقول؟ ! هكذا تساءل كالملتاث . وكالملتاث لم يجد جوابا معقولا، لكنه مع ذلك واصل المشى بكل حماسة وجدية، كمن يسعى لإدراك موعد مهم وخطير. اتراه يبحث عن شيء ضائع منه ؟! أم تراه يبحث عن نفسه التى كانت معروفة لديه قبل ايام قليلة ثم اختفت وحلت محلها فى جسده نفس اخرى ؟! أه لو يغمض عينيه ويفتحهما فيجد سعدية المليجى امامه بين هذه المزارع الخضراء المترامية ، يغمضهما هكذا يفتحهما هكذا : لا شيء سوى الخضرة والاشجار والاصيل ، الشمس الحمراء كالنحاس المنصهر ينسكب على شواشى الاشجار، قرصها الملتهب يرافقه جنبا الى جنب فى قاع الترعة وفوق رأسه .

لف به الطريق الزراعى ، دار وتعرج ثم اعتدل. أخيرا وجد نفسه مشرفا على «دفرا» أتراه كان مدعوا الى حفل فى هذه البلدة ولذلك أتى بالكمان واتخذ الطريق إليها دون أن يدرى ؟! لا بالقطع ، إنه متأكد أنه لم يتلق أية دعوات طوال الأيام الخالية. يذكر جيدا انه لم يتلق سوى طلبين للشغل من بعض المتعهدين وأنه رفض بشدة وإصرار حينما عرف ان ابراهيم افندى غطاس ليس في الفرقة .

أيا ما كان الأمر فإنه يتذكر الآن - بقلب منشرح - أنه جاء هذه القرية من قبل بصحبة ابراهيم افندى غطاس ذات ليلة سعيدة لا ينساها ، حيث كانا مدعوين فى هذا البيت الغاطس تحت سحب خضراء لأشجار عالية، الغارق فى الورود والرياحين . لصاحبه .. ما اسم صاحبه ياترى ؟ هو اسم مرتبط بالوجه البحرى، نعم ، اسمه البحراوى ، آه ، عبد البديع البحراوى ، من أعيان البلدة ، تعلم فى الأزهر حتى قبيل التخرج لكنه انصرف عن التعليم اثر موت ابيه لكى يتفرغ للإشراف على أرضه وبساتينه . هو قارئ ممتاز ، لديه مكتبة مليئة بالمجلدات المنقوش اسمه على كعوبها بماء الذهب ، يعشق الموسيقى عشقه للصلاة والحج الى بيت الله الحرام كل عام، لا يمعن فى الإنصات بورع وتركيز شديدين إلا فى حالين اثنين فحسب : حال استماعه للقرآن الكريم ، وحال استماعه

للموسيقى يذكر أن البحراوى بك أنصت الى عزفه فأرسل صلوات على النبى بعدد شعر رأسه، بل هب واقفا واحتواه فى حضنه وقبله وربت على ظهره فى حنو قائلا له :

- «زرنى كلما شئت فالبيت بيتك سواء وجدتنى أو لم تجدنى !!»

ويا حبذا لو جئت فأقمت معى على الدوام تأكل وتشرب وتكتسى وتأخذ مصروفا!! مل على كلما احتجت نقودا أو أى شيء !!

يذكر أنه عاد الى بيته ليلتها بأقفاص العنب والمانجو والكمثرى والاوراق المالية السمينة، توصله الركائب حتى باب البيت .

هو إذن قد جاءه الهاتف بأن يلبى دعوة البحراوى بك الليلة. ياله من هاتف ساحر جبار أخذه على مشمه دون ان يصرح له بحقيقة المشوار إلا على باب الدار. وهكذا وجد نفسه وجها لوجه امام البحراوى بك الذى كان بالصدفة السعيدة واقفا امام بوابة الحديقة ينظر فى ساعة جيبه قبل أن يتخذ طريقه الى المسجد لصلاة المغرب. كان البحراوى بك قد شاهده من بعيد مقبلا، تعرف عليه من ملمحين : آلة الكمان ومشيته المميزة، فتوقف فى انتظاره ..

فرح به البحراوى بك فرحا عظيما ، فتح حضنه وتلقاه بقبلات حارة صادقة:

- «بارك الله فيك ! أنت اليوم اثبت انك صديق عزيز غال ! هات هذه الآلة !» .

اخذ آلة الكمان فسلمها لخادم رابض تحت الشجرة بجوار البوابة، ومضى به إلى المسجد لصلاة المغرب .

بعد تناول العشاء الدسم الحافل، وألوان الفاكهة ، انتقلت القعدة الى الشرفة المطلة على الحديقة هى كبيرة مربعة فى حجم غرفة إلا أن جدارها الرابع مفتوح على نسق الاشجار الكثيفة فروعها المورقة تصنع على الشرفة شرفة ثانية. الشرفة مفروشة بالكنب البلدى المنجد العريض، والارض مفروشة بالسجاد الثمين . فى أرض الحديقة - المنخفضة عن أرض الشرفة بأربع درجات سلم رخامى - يفترش الجناينى جوالا أمام منقد النار تجت براد الشاى ذى الرائحة النفاذة الشهية،

يضع الحجر فوق الجوزة يرص فوقه النار بإحكام ومزاج ، يصعد به ، يسقى البحراوى بك وضيفه . نكهة الحشيش الطازج تطشطش فى الجو تعلو على روائح الفاكهة المتدلية من أشجارها كأثداء فتيات أبكار. القمر راقد فوق هامات الشجر، يبرز له أنف فضى دقيق كأنف سعدية المليجى، وعينان كعينيها ، والبيت المحاط بالحديقة يسبح فى سكون جليل . ليس ثمة من ضوء سوى ضوء القمر المبرقع بالاشجار ، وضوء سعدية المليجى الذى أضاء قلب عبد البصير، فاتصل القلب بالاوتار كأنما لا وسيط بينهما من أنامل أو قوس .

نسى عبد البصير مضيفه الجالس امامه فى صمت مهيب كأنه قد تبخر واختلط بسحائب الدخان الأزرق الشبيه بضوء القمر. كان يقصد أن يجرب القوس على الاوتار بعد ضبطها ، فإذا بالقوس يختطف جملة مفيدة كاملة سريعة لاسعة ضربت العازف فى نخاعه ضربة صادمة شعر على أثرها كأنه كان طوال العمر أعمى واكتشف فجأة انه قد ابصر. برعشة لذيذة رهيبة اختطف الجملة نفسها ثانية، فاتسعت دائرة الضوء فى عينيه ظهرت مرئيات كثيرة مبهمة بعض الشىء لكنها سرعان ما تتضح ثم تتضح فتزداد اتضاحا. وضع الكمان فى حجره والقوس بجوارها وقد ركبته رعشة فرح غامض بل راح ينتفض كنبى نزل عليه الوحى فجأة لينقله من الظلمات الى النور .

ابتسم عن اسنان كبيرة لا تتسق مع مافى بدنه النحيل من رقة مشاعر فى نعومة القطيفة ، مسح بكفيه على وجهه ، وطلب حجرا يولعه بمفرده وكوبة شاى صغيرة. وفيما كان يطرد الدخان الكثيف من منخريه كان يشعر أنه قد صار على يقين من الآن ، والآن فحسب ، أنه يكتشف سر الفن لأول مرة فى حياته ، ذلك السر السحرى الغامض الذى قد لا ينجح ممارس الفن فى اكتشافه وإن ظل طول عمره ينتج ما يسميه بالفن . يدرك الآن أن الفن إن هو فى حقيقة أمره إلا الحنين الى الغائب المرموق ، المرجو، المرتقب لقد قرأ ذات يوم فى مقالة عابرة أن الرجل المصرى الفرعونى القديم الذى كان يعيش على الصيد والقنص ، كان قبل خروجه

الى الصيد يرسم نفسه وقد نجح فى الايقاع بالفريسة ، ليس أى فريسة بطبيعة الحال ، بل الفريسة التى يحلم بها، يرسم نفسه فى عدة صور تبين كيف دبر للايقاع بها، تصل الى المشهد الختامى الذى فيه قد جندلها. إنه هنا يضرب عصفورين بحجر واحد، يستكنه بالفن طرائق الابداع فى الصيد ، إذ الإبداع مزدوج ، إبداع فى الفن وفى تحريك ملكة الصيد، وفى نفس الوقت يكشف بالفن ، عن قواه الخفية التى ربما لا يكون قد وعاها من قبل، انه اذن رسم خطة الصيد من ألفها إلى يائها . وإذ يصل بفن الرسم الي درجة اليقين التام من النجاح فيما هو مقبل عليه ،يشعل النار يضع فوقها القدر ملآنا بالماء ريثما يعود بصيده حتى لا يضيع وقتا فى الصيد وفى الطهو . منتهى الثقة، ثقة تفوق ثقة الذى يفتح مخزن طعامه ليأخذ من مخزونه ما يشاء .

فيما مضى كان عبد البصير يترك نفسه على سجيتها اثناء التقاسيم الحرة تنتقل من مقام الى مقام ببراعة ودربة ، خواطر متناثرة مبثوثة فيها مشاعره المتضاربة الحائرة بفيض هائل من أحاسيس مجسدة فى انغام ، لا يمكن ان يطلق عليها اسما محددا ، انما هى مجرد تقاسيم ، مهارات فى العزف وفيض من الانغام الحسية لا أزيد ولا اقل . أما الآن ، فى تلك اللحظة ، فإن الانغام التى تهدر فى صدره تتجمع فى اذنيه تصب كلها فى تيار شعورى واحد يمكن التعرف عليه، واثباته وتسميته ككائن حر يمكن أن تستحضره وقتما تشاء تستعيده بنصه، له استقلاله وشخصيته المحددة ..

عمل فني. هذه اول مرة يفهم فيها مغزى هذا التعبير الذى قرأة كثيرا. عمل فى إطار محدد ،فيه اخذ وعطاء وحوار، وله مفاتيح يمكن الدخول إليه بها. إن هذه الجملة الموسيقية العابرة التي اختطفها القوس من الأوتار عفوا كانت بمثابة غطاء ارتفع عن قدر به شراب ساخن، ربما كان ماء، خمرا، إداما .. والقوس هو المغرفة التى ترفعه الى مشاعر المتلقى ، وأيا كان مذاقه فلا يغترف القوس إلا منه حتى ينفد ما فى القدر ليحل محله شراب آخر .

راح القوس يخطو على الاوتار فى دبيب حذر، حتى لا تلسعه سخونة ما فى القدر من سائل شعورى يغلى ويفور . كانت الحرارة تشيع فيه شيئا فشيئا، والقدر يفيض بغليانه دفقة وراء دفقة من مشاعر منصهرة فى أنغام على روى واحد يبرز فى الانغام ما يشبه القوافى، الشبيهة بعشرات المجاديف على الصفين فى جندول مديد ينساب فوق الموج المتلاطم بسلاسة وقوة . لم يعد ثمة فاصل بين العازف والكمان ، كأنهما كيان واحد غارق فى دائرة بيضاوية من الأنغام الكثيفة المتناسقة المتضافرة المتآزرة .

البحراوى بك جاحظ العينين منبهر، يشعر كأنه يمتطى صهوة الجندول نشوان ترنحه حركة الجندول فوق الموج حتى ليوشك أن ينقلب به فى قاع النهر لكنه لا يلبث حتى يعتدل متوازنا لتتسلق مقدمته موجة عالية تطيره فى الهواء لبرهة سرعان مايتجاوزها بمنحدر لطيف ، وصفحة النهر امامه مثل كثبان رمل ابيض فى صحراء مترامية. لم يعد البحراوى بك يقبل الخروج من هذه الحالة بأى حال من الأحوال. ود لو بقى هكذا الى مالا نهاية وسط هذا البحر الفياض بالطرب والبهجة والأنس .

إنه ليشعر فى هذا الجو كأن ثمة شيئا مهما يستدعيه، ثمة هاتفا يناديه الى ماهو أهم ، لعله مؤذن يناديه حى على الفلاح، لعله عاشق مجروح يطلب اليه طبيب الروح ببلسم الشفاء، لعله داعى الخير يدعوه الى العطف على بنى البشر ، لعله بشير الصبح يدعو الناس الى القيام لتصنع فجرها الصحيح ، لعله رسالة تنبيه الى أن فى هذه الحياة ما هو أهم وأمتع وأجل من المال والممتلكات وكافة المتع الرخيصة الزائلة، أبدا ليست هذه مجرد تقاسيم حرة كالتى اعتاد سماعها من هذا الولد النابه العجوز، إنما هى رحلة متكاملة فى موضوع بعينه صاغه نغما شجيا يبثه القلب ويحكمه العقل بموازين ورموز فى غاية الوضوح والتجلى .

اختلط ضوء الفجر بضوء القمر، ثم وصلت الشمس فى قطارها السريع، فنثرت حليها على الحديقة والشرفة ، على القوس والوتر حينئذ أفاق العازف على

مليئة ساطعة استقرت فى ذهنه فيما هو ينيم القوس فى مرقده من الصندوق : فلا هى أنه قد انتهى لتوه من تأليف أول مقطوعة موسيقية للكمان ، ولكمانه على وجه التحديد وإذ رنت فى اذنيه طرقعة اقفال الصندوق كان عنوان المقطوعة كأنه الصدى لهذا الصوت الطروب : نداء . حقا، وياله من نداء يشعر بحرارته تكاد تصهر قلبه .

(١٩)

أدمن الجلوس فِي شرفة البحراوى بك المطلة على الحديقة من الداخل . فما كان من البحراوى بك إلا أن خصص له حجرة صغيرة ملحقة بحجرة الجلوس لكى ينام فيها إذا اراد . ذلك أن البحراوى بك رأى أن يستضيفة لأجل غير مسمى .

- « ماذا وراءك فى طنطا كى تنشغل عليك؟ الورشة لم تعد تذهب اليها! أبوك نفسه استغنى عنك ! فلتبق معى ليس لى سوى ولد واحد اختطفه فن التمثيل إلى معهد الفنون المسرحية ومنه الى الفرقة القومية فلتكن انت بدلا منه ها هنا إلى أن تختطفك القاهرة التى لابد أنها ستختطفك ذات يوم !! » ..

بقى هو صامتا علامة الموافقة ، ثم مالبث حتى استقر فى البيت كسيد من كبار السياح نازل فى افخم الفنادق ، بين ليلة وأخرى يزورهما إبراهيم افندى غطاس، يمكث معهما حتى الصباح، احيانا كثيرة يقضى الخميس والجمعة لايبارح هذه الشرفة الممتعة . كان يلاحظ ان عبد البصير في حالة غياب شبه كامل عن القعدة وإن كان عنصرها البارز فيها، ولطالما أبدى ابراهيم افندى اندهاشه من هذه الشخصية العجيبة : فى داخله ساعة منضبطة على مواقيت الصلاة يشعر بموعدها بدقة حتى وهو مستغرق فى أعمق النوم. فحيث يبدو على الفراش كالميت لاحراك فيه، إذا به يبربش بعينيه فجأة، وفى لمح البصر تراه واقفا يبحث بقدميه عن الشبشب ليدخل دورة المياه ، حينئذ ينظر ابراهيم افندى فى ساعته فيرى ان موعد صلاة العصر قد أزف، وفى الحال يسمع صوت المؤذن

على سطح المسجد القريب . من صلاة العصر الي صلاة المغرب يشاهد الضيفان حوارات البحراوى بك مع فلاحيه وخدمه وسماسرة تجارة الفاكهة القادمين لمعاينة صفقات العنب والتين والمانجو والكمثرى وهى فوق اشجارها . وسواء وصلت الحوارات الى حلول او تعقدت فإن أذان المغرب لابد أن يقطعها على وعد بأن تستأنف غدا أو بعد غد، ويصطحب البحراوى بك رجاله وعبد البصير الى المسجد لصلاة المغرب، وعند عودتها يكون العشاء جاهزا ..

إبراهيم افندى غطاس - الذى يزيد وزنه بشكل ملحوظ من أكل الضأن والرومى والحمام المحشو بالفريك الصعيدى والدجاج البلدى والبط ناهيك عن الفواكه - يلاحظ باستمرار ان هذا النعيم كله لا أثر له على عبد البصير كأنه يأكل الطعام لغيره ،فهو على الدوام نحيل، فى وجهه قليل من الشحوب ، تقوم عيناه بخدعة فى غاية الطرافة ففى عينيه حول خفيف يجعل الناظر اليه يتصور انه مركز عليه النظر، ولو انتبه لا كتشف ان صاحب هاتين العينين فى حالة شرود كاملة. وقد جرب ابراهيم افندى ان يحدثه فى موضوع ما، وظاهر العينين يقول إن مستمعه يتابعه بتركيز كامل ، فحينما يصمت قليلا ثم يسأله. فيم كنا نتحدث ؟ يفاجأ به ينظر اليه فى كثير من البلاهة قائلا : هه ؟! بل قد يفاجأ بأن عبد البصير لم يكن يدرى أن ابراهيم افندى يتحدث اصلا. تذهب الدهشة بإبراهيم افندى كل مذهب، فالولد لم يكن هكذا ابدا، وهذه الحال طارئة عليه بدأ يلاحظها منذ شهور قليلة، إلا أنه لم يتوقف عندها طويلا، استراح لتفسيرها بأنها بوادر عبقرية سوف تتضح فى السنوات المقبلة لتحقق وجودا فى حجم عبد الوهاب وأم كلثوم وزكريا احمد والسنباطى فى مجال العزف على الكمان، لكن شرود العبقرية كما يعرف ابراهيم افندى غطاس لا يصل الى هذه الدهولة التامة، فأية عبقرية هذه التى تعزل صاحبها عمن حوله كأنه داخل قمقم مسحور ؟ ! هذا الولد ليس طبيعيا على الاطلاق ولابد أن وراءه سرا غامضا يقلق باله الى حد الاستغراق . هكذا قال ابراهيم افندى لنفسه مرارا وتكرارا فى الشهور الأخيرة ، لاسيما

وأن حالة الشرود والدهـولة هذه تزامنت مع بداية رفضه للعمل مع جنس العوالم فى الأفراح والموالد .

تلك خـواطر تقلبت فى صـدر إبراهيم افندى غطاس وهو جـالس وحـده فى الشرفة اثناء غياب صديقيه فى الصلاة فى المسجد . ثم تساءل فيما يشبه الاقتناع : أيكون الولد قد وقع فى الحب؟ لم لا ؟ هذا هو المحتمل. ولكن - استدرك ابراهيم افندى على نفسه - الولد ليس من شبان هذه الأيام، لا عشق فى حياته سوى آلة الكمان ، وما عداها كلام فارغ لا يعرفه . على أن ابراهيم أفندى ما لبث حتى ابتسم ابتسامة عريضة مشرقة حينما تذكر فجأة أنه مكوى بنار الحب فى شبابه وكان أكثر جدية من عبد البصير . إن قصة حبه تعرفها شوارع قحافة بل تعرفها طنطا كلها، فلقد وقع فى هوى بنت مسلمة ملكت عليه قلبه أطاحت بكل استقرار فى حياته وكان كالحبيس لا يدرى ماذا يفعل للخروج من حبسه ، فحبه لأمينة ليس من النوع الذى يمكنه التغاضى عنه أو علاجه بأى علاج سوى ان يقترن كلاهما بالآخر مهما صادفهما من عقبات، وبناء عليه تقدم لأهلها واضعا نفسه تحت الامر والإشارة، لسوف يعلن إسلامه إن ارادوا ، سيدفع من جنيه لألف، سيبنى لها عشا لا مثيل له، ثم إنها موافقة . كل هذا قد ضاع ادراج الرياح، رفضه أهل العروس رفضا قاطعا، رفضوا حتى مناقشة الأمر من أساسه. البنت كانت ميتة فى هواه، فذهب اليها فى المدرسة الثانوية عرض عليها أن يهربا معا الى القاهرة حيث يشق هو طريقه فى فرقها الموسيقية وتواصل هى تعليمها كما تشاء، فوافقت البنت من فورها ، وفى اليوم المتفق عليه لتنفيذ الهرب اكتشف اخوها سرها فحبسها فى البيت منعها عن المدرسة نهائيا ، فأصابتها حالة نفسية حادة فانتحرت .

تحدرت دموع ساخنة على خدى ابراهيم افندى غطاس، وارتعش بدنه قليلا، لكنه مسح الدموع بمنديله وحاول نسيان هذه الذكرى المؤلمة، إلا أنها انثالت على رأسه ، مثلت امام عينيه صورها المرعبة: الشرود الدائم، الإضراب عن حلاقة اللحية، عن كل المتع ، عدم الرغبة فى الطعام فقدان الحماسة

للحياة كلها. لم يضمد جراحة سوى هذه الآلة السحرية العجيبة آلة القانون، دفن فيها كل ذكرياته المؤلمة، أهمل صنعته الأصلية كساعاتى بعد أن مهر فيها، وجد فى شغل العوالم والموالد صخبا لذيذا، تزوج ، أنجب، بهتت ذكريات الماضى، ولكن قرحا غائرا بقى فى القلب يوجعه كلما دهمته أطياف عابرة من قصة غرام جديدة .

ضرب ابراهيم افندى فخذه بكف يده وتمتم : الحب لا كبير عليه، لا منطق له، لا أمان، لا شفاء منه إذا تمكن داؤه من القلب، ذلك لأنه حب، لأنه قانون وحده، ولأنه جميل، إلا أن الوصل أجمل بالطبع، ومن المؤكد أن هذا الولد قد أصابه داء الحب فى الصميم ، قلبى عليك ياولدى فالحب سلاح ذو حدين مع الأسف وهذا هو عيبه الوحيد ومكمن الخطر فيه ، الآن قد أصبح للكمان منافس فى قلبك الغض ، مع ملاحظة أن الفن لا يقبل شريكا فى اهتمام الفنان، فليستر الرب .

دخل البحراوى بك يتمتم بختام صلاة المغرب، ومن خلفه عبد البصير كمهر صغير يثب خلف جواد ضخم . ألقيا السلام على إبراهيم افندى ، الذى اعتدل قائلا : حرما ، ثم نهض واقفا تلبية لإشارة من ذراع البحراوى بك . تبعه الى الردهة الكبيرة حيث احتلتها ترابيزة السفرة الكبيرة المستطيلة بكراسيها الجلدية وبوفيهها الضخم المتعدد المرايا تلمع فيها تلال من أطقم الاطباق الصينى والاكواب والكؤوس والملاعق والقوارير . كانت الترابيزة على طولها وعرضها محتشدة بالاطباق والسلطانيات والفوط كأن بلدة بكاملها ستأكل. فى الصدارة جلس البحراوى بك . فى مواجهته جلس ابراهيم افندى ، وبجواره عبد البصير وشرعوا يأكلون ، وكانت دواليب الكتب بواجهاتها الزجاجية التى تكسو جميع الحوائط، تضفى عليهم جوا من الرهبة والجمال .

لاحظ البحراوى بك أن كتبه المتناثرة فى كل مكان فى بيته لم تلفت نظر عبد البصير . فعلى قدر شغف ابراهيم افندى بهذه الكتب ومناظرها وعناوينها كان عبد البصير لا يهتم بها ادنى اهتمام كأنها مجرد ديكور . وكان البحراوى بك

كثيرا ما يضع أمام عينيه بعض كتب فى فن الموسيقى ، عن آلة الكمان بالتحديد، عن بيتهوفن ، أم كلثوم، سلامة حجازى ، من تلك الكتب الكثيرة التى تجذب اهتمام البحراوى بك اثناء زياراته المتكررة لمدينة القاهرة، ويحلو لابراهيم افندى التقليب فيها واستعارتها ، إلا أن عبد البصير يكاد لا يراها أمامه ، حتى كتاب الاغانى للأصفهانى ، الموضوع فى الشرفة باستمرار لم يلفت نظره مطلقا، لهذا استغرب البحراوى بك أشد الاستغراب ، شك فى ان هذا الشاب الموهوب يعرف القراءة والكتابة ، أراد ان يقطع الشك باليقين فقدم له جريدة الاهرام طالبا منه ان يقرأ له بعض اخبارها لأن منظار القراءة تائه منه، ففوجىء بعبد البصير يتعثر فى قراءة العناوين نفسها بشكل فاضح مثير للسخرية . طلب منه أن يكتب له عنوانه فى طنطا ففوجىء بخط كنبش الفراخ لايمكن قراءته مطلقا، ناهيك عن كونه استغرق ما يقرب من ربع ساعة فى كتابته . ليس هذا وحده ما ادهش البحراوى بك واعتبره نقصا فادحا فى هذه الموهبة الجبارة الساطعة ، إنما الذى أدهشه اكثر هو أن هذا الفتى الموهوب لا يفقه فى أمور السياسة او الثقافة شيئا على الاطلاق، مما جعل البحراوى يقلق على فتاه أشد القلق، خشية أن تؤثر دائرة معارفه المحدودة هذه على مستقبله الفنى ، فصحيح ان الموهبة ضرورية كأساس، لكنها وحدها لا تكفى لبناء مستقبل فنان .

أثناء تناولهم الشاى قال البحراوى بك :

– « علي فكرة يا عبد البصير لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة؟!»

نظر له عبد البصير فى بلاهة وشرود :

– «هه ؟!» ..

قال ابراهيم افندى باسما بلهجة ذات معنى ..

– «هو ليس في دماغه سوى الكمان فحسب !!»

صاح البحراوى بك :

– «عظيم ! ولكن القراءة عالم ثان يخدم الكمان مثل الموهبة ! القراءة وحدها

تجعل منه فنانا كبيرا ! على الاقل تفيده فى الإطلاع على آخر منجزات الموسيقى كفكر وفن معا !!»

قال عبد البصير بنبرة وضح الصدق فيها:

- منذ ان تعرفت على حضرتك بدأت اهتم بتدريب نفسى على القراءة لقد نسيت قواعد القراءة والكتابة ! وسوف ادخل معهدا ليليا ! وربما اتعلم لغة اجنبية!! إن شاء الله سيكون عندى مكتبة كهذه حينما استقر !!»

- «على كل حال مكتبتى تحت أمرك ! أى كتاب يعجبك خذه وارغم نفسك علي القراءة حتى تتعلم !! .

- سآخذ كتاب الاغانى !!»

- «خذ اباه لو شئت !!»

ضحكوا ، وشرع عبد البصير يمرر ابهامه الكبير على الاوتار فى حين نصب ابراهيم افندى الة القانون على حواملها ، وشرع يضبط اوتار الكمان، استعدادا لعزف مقطوعة (نداء)التى حفظها جيدا بقدر ما أمتعته . لكن ابراهيم افندى فوجىء بآلة الكمان قد نفرت واستقلت ، ثم ارتفع صوتها يصرخ بأعلى مافى الأوتار من عزم وشجن ..

- «يخرب بيتك يا عبده ! ما هذا يا مقصوف الرقبة ؟!»

هكذا صاح كل من ابراهيم افندى والبحراوى بك فى نفس واحد، وقف شعر رأس ابراهيم افندى وهو يلاحق حركة القوس بعينين مذهولتين : القوس يرتعش متراقصا ، والاوتار تصرخ كالذبيحة صراخا يفجر فى الصدور براكين العاطفة الجياشة . فى الأنغام ضراعة قوية مؤثرة ، تكاد تنطق صارخة : يارب يا إله الكون ! ياخالق السموات والأرض يا واهب الحياة يا عليم يا عظيم جل الباقى سبحانك : أغثنا أدركنا يا نصير المظلوم يارازق الدود فى الحجر يا فالق الإصباح يامسير الكواكب يا باعث اللهب فى شمس الظهيرة ومشعل القمر فى الظلماء .. الخ

كل هذا ترجمته الاوتار فى انغام افصح وابلغ من كل كلام . ثم مر القوس فاستل عبارة ختامية تكاد تنطق... آ .. م .. يـ .. ين

صفق المستمعان الهائمان . صاح ابراهيم افندى باسما فى خجل ، كأب نصف أمى يخاطب ابنه النابغة :

- «قطعة جديدة هذه ياعبد البصير ؟!»

هز عبد البصير رأسه ان نعم .. قال البحراوى بك :

- «ما اسمها ؟!»

تفكر عبد البصير قليلا ثم قال :

- فكرت أن اسميها : ابتهال .. فهى مجرد ابتهال»

مط كل من إبراهيم افندى والبحراوى بك شفتيه علامة التأييد والإعجاب . ثم شرع إبراهيم افندى يتدرب - فى الحال - على حفظ هذه الابتهالات ، فجعل عبد البصير يعزف الجملة الواحدة مثنى وثلاثا ورباعا ، وكلمة : يا سلام لاتنى تتردد على شفتى البحراوى بك بدرجات متعددة فى سلم الوجد .

(٢٠)

الحياة التى كانت جميلة فى نظره منذ برهة صارت فجأة كئيبة مقبضة، كأن فى قلبه زعابيب أمشير المتقلبة الهوجاء . صار يعجب من نفسه التى أصابها زلزال فصدعها فزعزع استقرارها، كان الانشراح يملأ صدره اذ يرى ذراع سعدية قد اندس تحت إبطه ومشت هى بجانبه تخطر كالغزال فى طريقهما الى حفل اضواء المدينة حيث ينتظرهما فى قاعة المسرح جمهور غفير جاء خصيصا ليستمتع بغنائها الذى سيبث فيه روحا عالية . بسمة مشرقة يسقطها على شفتيه خاطر عابر يهمس في اذنه بصوت حميم بأن «الست» لا يجب أن تتأخر فى هذا الحفل لأنها مرتبطة فى الغد بتصوير فى استوديو مصر .

لحظتئذ راح يدب على الارض بحماسة موسعا خطاه وقد وقر فى ذهنه يقين بأن الست واقفة فى انتظاره داخل سيارتها الفارهة. واذ اقترب من السيارة

بالفعل صدمه منظرها العفن . إنها سيارة مفعصة من كل الرفارف والغطاء والأبواب ، مخربشة كالحة متساقطة الطلاء فى رقع كثيرة .

سرعان ما تبين له انه مسافر مع فرقة المتعهد الى كفر الزيات، حيث اقنعه متعهد شارع البورصة ، وهو رجل أميل الى الاحترام والصدق والأمانة – أن مشاركته بالعزف فى هذا الفرح بالذات ضرورية لجميع الأطراف وله هو بوجه خاص كعازف يحترم نفسه ، فالحفل سيقام فى نادى البلدية ، وسيحضره جمهور خصوصى من نوعية أهل الفرح الذين هم من أشهر اصحاب مصانع الزيوت والصابون ، مما يشى بنقوط كالمطر، الأهم من ذالك ان العروس لها شقيق من كبار المسئولين فى الإذاعة ولسوف يحضر وبصحبته لفيف من الفنانين الذين يخدمهم فى منصبه ، من ممثلين وملحنين ومطربين ، أى أنها سوف تكون فرصة بالنسبة له كى يتعرف عليه هؤلاء وأولئك ، فلعل وعسى، ومن يدرى ؟ أليس من الجائز أن يكتشفه المسئول الإذاعى فى هذه المناسبة فيضمه الى فرقة موسيقى الاذاعة ؟

ما أن استمع عبد البصير إلى هذه الإغراءات حتى هتف بحماسة عالية :

– «عندى حتة دين مطربه ! مالها مثيل فى القطر كله ولا حتى فى الاذاعة !! مطربة تشرفك !! وعلى فكرة لو حضرت هى فإننى احضر حتى بدون أجر!! إسمها سعدية المليجى !!»

رفع المتعهد حاجبيه دهشة وحماسة :

– « الحقنى بها الله يسترك أنا فى عرض مغنية واحدة تكتمل بها المقاولة !!».

كلمة المقاولة نغزته فى صدره أوجعته، تجاوزها بسرعة، استغرقته الفرحة بأن توجد سعدية معه فى هذه الليلة، كأنها جاءت بالفعل. إلا أنه أفاق على المتعهد يستحثه على ذكر عنوان سعدية المليجى كى يبعث اليها فورا. سقطت بينه وبين المتعهد سحابة ثقيلة دكناء، دوخته كادت الدموع تطفر من عينيه لاكتشافه انه ليس يعرف عنوانها بالضبط . على أن المتعهد بث فيه الأمل حينما أكد له أنه سيبحث عن عنوانها ويغريها على المجىء ولو بمضاعفة الاجر وتمييزها بأعلى نسبة من حصيلة النقوط .

من أسف لم يستطع العثور عليها كما أبلغه صباح اليوم طالبا منه ترشيح واحدة اخرى تنقذ الموقف . قال له : هى، أو لا أحد. ثم انحرف مزاجه لاستحالة التراجع فى آخر لحظة بعد أن قبض العربون وصرفه منذ أيام. توجه الى قحافة ليشحن دماغه بنفسين من دخان الحشيش لعلهما يصبغان الحياة امامه بلون مريح يساعده على قضاء هذه الليلة كيفما اتفق . فى طريقه من قحافة الى موقف السيارات نسى كل شىء إلا سعدية والكمان تحت ابطه، يضغط على صندوقها برفق وحنان وحرارة كأنه يضغط على ذراع سعدية المليجى ، وصورهما معها تترى أمام عينيه زاهرة باهرة براقة مبهجة ، تحجبها اجساد المارة ، تدهسها السيارات المندفعة المجنحة يشتتها صديق غير مرغوب فيه يندفع نحوه مسلما متماديا فى السخف بسؤاله عن الصحة والأحوال بغير مبرر على الاطلاق ، وإذ يجهد نفسه للتخلص منه بسرعة ولباقة يفاجأ بأن لسانه قد وقع فى منزلقات تطيل حبل الحديث فيكاد يجن كأن سعدية تنتظره فى غرفة النوم عارية. يشعر لدى التخلص من الصديق العابر أنه عاد يتخبط فى أوحال ومنغصات توجع البطن، لقد أصبح يضيق بكل شىء فى هذه المدينة التى بدت له الآن كأنها تصادر مستقبله الميمون تدفنه تحت ركام من المشاكل التافهة والأعمال الأكثر تفاهة .

ركب السيارة مع الفرقة . حطت على صوره جبال من الكراهية لكل شىء، ليس فحسب لأنه فوجىء بهندية البرشومى بدلا من سعدية المليجى كنجمة للحفل ، وأنه سيشرب الذل والهوان حتى النخاع إذ يعزف بكمانه وراء هذه الشردوحة هذه البغى الحقيرة التى لا صوت لها ولا حس ولا مواهب سوى بروزات جسدها الوقحة الصفيقة التى تأكل بها عقل الجمهور، وإنما لأن هذه الفرقة مجموعة من أصيع وأحقر الآلاتية ، من حثالة قهوة الحللى ، ستكون الليلة إذن سلاطة باذنجان، وعليه من الآن أن يفكر فى كيفية غسل نفسه من هذه الشلة القذرة قبل أن يجد نفسه مضطرا لتبادل الالفاظ السوقية البذيئة على المسرح بل وأثناء العزف كما دأبت هذه اللمامة. اغتاظ من المتعهد ، اختنق صدره مد يدة ليفتح زجاج السيارة فوجدها بلا زجاج اصلا ، فنكس رأسه ملوماً محسورا ، وقد

استقر فى ذهنه خاطر شرير يوعز له بأن ينتقم من هذا المتعهد الذى دفعه حب انتهاز الصفقة بأى شكل إلى تلفيقق هذه الفرقة التى لا تصلح فى نظره إلا لكسح المجارى. تراكم الغضب على صدره : أيضعه هذا المأفون فى هذا المأزق الحرج السخيف ؟! أيساويه بهؤلاء مع أنه يعرف من هو ؟! طيب ! طيب يا متعهد النقر ! لسوف اطينها على رأسك إن شاء الله !!

عقابا لهذا المتعهد النذل قرر أن يحصل على أجره وفى نفس الوقت لا يلوث سمعته بالعزف مع هؤلاء الارزقية . لسوف يتمارض بمجرد الوصول الى كفر الزيات، سيتقن دور المريض، فلتكن الزائدة الدودية مثلا أو حصوة فى الكلى او أى شيء مفاجيء من هذا القبيل . وهكذا جعل يدرس فى رأسه كيفية رسم اعراض المرض بشرط ان يبعد انظارهم عن فكرة الذهاب به الى المستشفي او حتى استدعاء طبيب .

فوجيء باحتفال كبير جدا فى نادى البلدية . ما كل هذه الابهة ؟ ما هذا الإسراف الشديد فى العناقيد الكهربية الملونة باقواس نصر ممتدة بطول الشارع العمومى المؤدى الى النادى ؟ الواضح ان أصحاب الفرح اثرياء بالفعل ممن يحبون استعراض ثرائهم فى مثل هذه المناسبات . واضح ايضا أن المجاملين كثر، ، فثمة من تطوع بالسير بدراجة بخارية امام سيارتهم المكحكحة طوال الطريق، وثمة من قدم لهم التحية مرطبات وسجائر بغزارة . وكانت سيارتهم – الأجرة – فى وسط هذا الحشد الهائل من السيارات الملاكى اللامعة بمثابة قرحة كئيبة المنظر فى محيط جميل، على نظام أجمل . التقطت عين عبد البصير كتابات على بعض السيارات واستطاع قراءتها . الإذاعة المصرية .. أشرقت فى ذهنه صورة سعدية المليجى تغنى متوهجة امام ميكروفون اضواء المدينة . دب فيه انتعاش مفاجيء، سرعان ماذبل وآب الى كآبة رزلة ، قال لنفسه بصوت مكلوم: لو أن هذه الفرقة على شيء من النظافة ولو لنصف ساعة، لكانت هذه الليلة بديعة حقا. من فرط العصبية شعر برغبة هوجاء فى أن يتحدى النظام والقانون، فأشعل سيجارة ملفوفة بالحشيش ، غير عابيء بالشمامين حوله فى السيارة ،

فإذا بهذه الانفاس توقظ سابقاتها، فاندفع خياله يسابق سرعة السيارة محلقا فى اجواء وردية :

رأى سعدية المليجى تخطر امامه فى شارع يخلو من المارة ، مبرومة الجسد داخل الملاءة اللف ، لا يبين منها سوى وجه القمر، وكعبيها فوق كعبى الشبشب كتفاحتين تحت ساقين ملفوفتين من أشعة الاصيل . صار يتتبع خطوها الرشيق، ومؤخرتها - وجهها الآخر - تنساب هابطة صاعدة فى استدارات دقيقة مخلفة تحتها فراغا تدور فيه الملاءة نشوانة . كان من الواضح انها هى التى غمزت له بأن يسير وراءها . ثم لم تلبث حتى ظهر حولها من بدا انهم قائمون على حراستها من أهل الحتة ، احاطوا بها إحاطة السوار للمعصم . ظهر فى الحال قصر على الطراز العربي القديم ، انفتحت بوابته العتيقة . دخلت فى خطو مهيب، ما أن لامست قدمها العتبة من الداخل حتى استدارت ناظرة الى الملهوف خلفها، شيعت له ضربة رمش أسود مشرع فوق العينين الواسعتين الساحرتين، ثم اعتدلت واختفت فى البهو المنعطف على جناح الحرملك . اغلقت البوابة فتفرق الحرس . بقى هو شاخصا يتأمل روعة القصر ودقة بنائه وجمال طرازه المعمارى الفريد، صار يلف حوله فى تبتل رافعا بصره الى أعلى، حيث علقت المشربيات الخشبية كأنها الموسيقى مجسدة فى تشكيلات زخرفية مخرمة فى الخشب دقيقة الصنع والنقش فى تقابلات تشكيلية متكاملة كمعزوفة غنية بالايحاء ، كل تفصيلة فى احجار القصر لها مقابل فى نقش المشربية ، ها هى ذى المشربية تصدر صوتا طروبا ، فإذا باب صغير محندق يرتفع كالتندة كحافة القبعة : مساحة من الفراغ لم تتسع إلا لعينى القمر لكنها كانت كافية. تحاور مع العينين طويلا، ثم مسته المشربية بالخير ، وأسبلت هدبيها على العينين، هبط الباب البديع ، لكن شبح العطر المضىء كان يتخايل خلف الخروم المصفوفة فى تشكيلات هندسية بديعة . ها هو ذا يمضى متبتلا فى الحوارى المتاخمة للقصر، تتوقف نظراته عند كل مشربية ، يشب قلبه واقفا ينتفض بين الضلوع، تبلغه موسيقى العطر وحفيف قمصان النوم وطقطقة الأسرة وهى تستقبل الجسد النسيم كأنها تطبع عليه قبلة

الامتنان لأنه احتواها . كل مشربيه وراءها عين سعدية وعطرها، وكل مشربية موسيقى مجسدة ، حتى اصوات الباعة ، لقلقة العربات الكارو، صاجات بائع العرقسوس ، صخب المقاهى كل ذلك من أعذب الموسيقى وأطربها .

أفاق على مائدة الطعام فى بوفيه النادى. ما كل هذا العز ؟! زجاجات الخمر منتصبة كالديدبانات كالفنارات بين صحائف الطعام الشهى الوفير ذى النكهة الارستقراطية . من أسف ان هذه المائدة المهيبة ينتهك حرمتها الرعاع الاسافل عشاق الفتة والفوضي . كالمفاجيع انقضوا على الاطباق مسحوها بشراهة ووضاعة، كل منهم يخشى إن تراخى قليلا ضاع فى شراهة الآخرين . كان منظرهم مقززا مثيرا للقرف، ناهيك عن تكالبهم على زجاجات الخمر، يكاد بعضهم يدس بعض الزجاجات فى جيبه أو حقيبته، بعضهم لا ينتظر بطء الكؤوس فيرفع الزجاجة نفسها إلى شفتيه يدلق فى جوفه جرعات النار اللاهبة دون أن يطرف له جفن . يرتعد عبد البصير ينكمش فى جلده، إذ هو موقن أن عاقبة هذه الانقضاضة على الخمر ستكون وخيمة بعد وقت قليل، ولسوف يكون منظرهم جميعا مثيرا للرثاء والاحتقار ، لاسيما وأن هذه العاهرة المتنكرة فى إهاب مغنية افراح لابد أن تمارس عهرها ، لابد أن تنتهز الفرصة وتلقى بشباكها على بضعة زبائن موسرين تتفق معهم – بعربون مبدئى – لكى تجيئهم في زيارات خاصة فى الأماكن التي يحددونها . كيف يخرج هو من هذه الورطة السوداء دون أن تتلوث سمعته او تهتز صورته فى نظر قوم كهؤلاء ؟! يا إلهى إن هذه الليلة وحدها لكفيلة بأن تمسح طهره وعفته طوال العمر الفائت كله . لحظتها شعر بالدوار فعلا ، اضطربت الملعقة فى يده حقيقة لاتمثيلا، اندلقت الشوربة على صدره ، وقعت الملعقة من بين اصابعه، امسك بجبهته التى تكاد تنفصل عن رأسه متطايرة فى الهواء شظايا، وقف يتساند على الكراسى، طلب من يسنده الى دورة المياه، هب اليه أكثر من ثلاثة رجال ساندوه جيدا حتى دورة المياه البعيدة، فمال على حوض الغسيل فتقيأ كل ما فى معدته . غسلوا له وجهه ، جففوه بفوطة جديدة، قال إنه يريد أن يتمدد لمدة ساعة على الأقل فى فراش مريح بغطاء، لم يستطع إكمال

الكلام ، وآخر خاطر برق فى ذهنه كومض خاطف هو أنه جلب الشؤم على نفسه حينما قرر اصطناع المرض فهاهو ذا المرض الحق يداهمه، ثم تهاوى بين أيديهم، اختفت من ناظريه كل الأشياء .

(٢١)

حينما فتح عينيه تصور أن دقائق معدودة فقط قد مرت عليه فى حالة الإغماء، فوجىء بأنه متمدد على سرير وثير فى حجرة نوم سخية الفراش، مرتديا كامل ثيابه فيما عدا السترة التى لمحها مطروحة على كرسى. نظر فى ساعته فإذا الوقت قبل منتصف الليل بنصف ساعة، بدأت أصوات الفرح تقتحمه بنشاز لا قبل له باحتماله، يضخمه الميكروفون بغلظة مروعة، وصوت العاهرة الأقرع السادج السوقى يسرسع متعهرا فى ابتذال سقيم مكشوف يفقع المرارة: «أنا بامسى ع الحبة دول»، ثم تبتعد قليلا: «وبامسى ع الحبة دول»، موسيقى أشد انحطاطا تغريها بمزيد من التهتك: «أنا – وزفرة كالغنج الصريح – بامسى على – كأنها تقول أف – ع الحبة دول». ثم ينشط إيقاع الدربكة والصاجات بشكل غوغائى.

شعر بالتقزز ثانية، حاول أن يتقيأ فى منديله، لم يجد فى جوفه شيئا يتقيأه. نزل عن السرير، ذهب إلى السترة المطروحة على ظهر كرسى، نزع علبة سجائره، اختار واحدة محشوة بالحشيش فأشعلها شاعرا بدوخة لذيذة، تمدد مضطجعا على كنبة عريضة لصق السرير فجاءه طيف سعدية المليجى، سرعان ما تجسد فى كيان حى، راح يخطر أمامه فى الحجرة مرتديا قميص نوم عارى الذراعين والكتفين والصدر، قادما من داخل البيت!!

يا إلهى، أهى الحمى أصابته بالهذيان البصرى؟ أم لعله الجنون بطيف غزال طعنه فى السويداء ذات يوم قريب ثم اختفى؟ كلا، لقد رأى بأم عينيه الباب ينفتح برفق، وشبح الأنثى يتسلل داخلا، ثم يقترب منه بعطر فواح: الوجه القمرى الساطع ذو الذقن المثلثة كحبة الجوافة بغمازة فى أسفله، يبسم له، يمد الذراع البضة الناعمة المرمرية ليسلم عليه.

اعتدل واقفا، فى حال بين الرعب والنشوة. سلم عليها، تركت يدها الرخصة الدافئة فى قبضته، بصوت أنثوى حاد الأنوثة حاد الرنين قالت: «أنا أفراح! إسمى أفراح!». ثم استدركت:

- «سلامتك ألف سلامة!! مالك ياحبيب قلبى؟ أنا سمعت عنك وعن مواهبك من صديقاتى الطنطاويات!! كلنا فداؤك!!»

ارتج عليه، قال فى حرج شديد:

- «العفو! العفو! لا شىء! مجرد دوخة بسيطة! ولكن الحمد لله! نمت جيدا فأفقت!»

صار يرقب فتحة الباب فى فزع، الذكاء يطفر من عينين كطاقتين مفتوحتين على ليلة القدر، قالت:

- «لاتخف!! فالبيت خال!! ذهبوا كلهم إلى الفرح وأغلقوا علينا من الخارج بالمفتاح!! واضح أنهم نسوك وإنهم حقا لأغبياء!!»

جعل يتلفت حواليه كالأسير، لكن جمال الأنثى الماثلة أمامه كان مبهرا بدرجة خارقة، شابة فى حوالى الخامسة والعشرين من عمرها تقريبا، غزيرة الشعر بجدائل سوداء ناعمة كالحرير محلولة، على وجه خمرى نضر، تتدفق خلف بشرته الشفافة صفائح الدم الأحمر القانى. أما العينان ففيهما بريق نظرة جبارة يتعانق فيها الجنون بالثقة المطلقة. برقة دافئة تذيب الصخر قالت:

- «تفضل أقعد! لماذا تقف؟!»

اردفت قولها بضغطة من يدها على كتفه، أجلسته على الكنبة، أشعل سيجارة أخرى. نظرت له بنصف عين نظرة ذات معنى، قالت ببراءة وصفاء:

- «أنت كييف حشيش إذن!! لو كان أبى هنا كنت جئت لك بقطعة كبيرة منه!! لكن مع الأسف!! أبى راح فى مشوار بعيد منذ سنوات ولم يعد!! يقولون إنه سيرجع لكنى غير مصدقة! على كل حال ربنا يطرح البركة فى عمى فإنه يقوم بالواجب!!»

صار يخرج من ذهول ليصطدم بذهول أشد.. قال بريق ناشف كالعصا:

– «حضرتك متزوجة؟!»

هزت رأسها النفى:

«طالبة! كلية آداب الاسكندرية قسم اللغة الانجليزية لكن الحظ تعثر بى فى السنة الرابعة ثلاث سنوات لأنى بدأت أسافر كل يوم بعد أن كنت مستقرة فى المدينة الجامعية!! تشرب قهوة؟ على فكرة أنا أعمل قهوة تجنن!!»

صاح مستغيثا:

– «أرجوك! أنا فعلا محتاج لقهوة مضبوص.

هزت رأسها كأنها تدادى طفلا:

– «حا.. ضر! من عينى الاثنتين!»

وأشارت بإصبعها إلى عينيها، واستدارت ماضية نحو الباب.

يا أرض احفظى ما عليك. قوام منحوت بأزميل إلهى.. رنت فى أذنيه كلمات بيرم التونسى التى يحبها: ولك قوالب فى الأجسام، غلب الرسام، يقلدك بحجر ورخام، يلقاك أشطر، عادت بعد هنيهة مكشرة ما بين حاجبيها، قالت فى اكتئاب:

– «آسفة! لقد أغلقوا على كل شىء بالقفل، الكبريت والسكاكين، والأكواب والبوتاجاز!! لا أعرف لماذا يفعل هؤلاء المجانين هكذا؟»!!

ثم ارتكنت بظهرها على حافة السرير، انعوجت نحوه قليلا، اندلق صدرها كله فى مرمى عينيه يشع بالضوء والعطر والموسيقى، قالت بصوت يقطر حنانا:

– «مازلت متعبا ياحبيبى؟!»

شوح بيديه مندهشا:

– «من يراك يصحو ولو كان ميتا!!»

أشرقت على شفتيها بسمة كالقنديل البهيج، وكأنها أرادت أن تكافئه على هذا الإطراء الذى أطربها، فمالت عليه أكثر قائلة:

– «أرنى إذن صدق ما تقول!!»

وضعت يدها على جبهته لتختبر درجة حرارتها. شعر هو بمس كهربى يكاد يصعقه، صارت تتحسس جبهته بيد تضخ فى عروقه الحنان والحيوية والفتوة

والبهجة. مد يده على الرغم منه ولامس رسغها المبطط، فسلمته يدها الثانية، فأمسكها. تراخت بها نحو فمه. صار يمطرها بوابل من القبلات. صار هذا الجسد النازف حبا وحنانا يتراخى شيئا فشيئا، إلى أن استوت جالسة على حجره، طوقت عنقه بذراعيها العاريتين، أراحت خدها على كتفه، تدفقت جدائل شعرها الفاحم على وجهه حتى غمرته. صار ينتفض من أعماق أعماقه. مع ذلك كانت ذراعه اليسرى تحيط بخصرها فكأنه يحيط الدنيا كلها، تمنى لو يظل على هذا الوضع وقتا لا ينتهى. كانت هذه أول مرة فى حياته يلامس فيها جسد امرأة، جسد الأنثى. إذا بها ترفع رأسها مصيخة السمع ناظرة فى الفراغ نظرة شاردة شاحبة، صارت تنتفض، ثم نهضت واقفة وقد بدا أنها منشغلة بما يحدث فى الخلاء الخارجى، إذا بها تقول له فجأة:

– «هل يمكن أن تصنع فى ثوابا؟!»

قال بصدق وحماسة:

– «تحت أمرك طبعا!»

قبلته فى شفتيه بحرارة:

– «أريد أن أهرب من هذا البيت!! إنهم يحبسوننى فيه ليل نهار! لا أرى وجه الدنيا نهائيا!!»

بكت بدموع هطال:

– «تستطيع أن تساعدنى على الهرب؟ ألبس ملابس أخرى وانتظركم على الطريق الزراعى! اتركنى فى طنطا وأنا أتصرف!! ولو عملت فى هذا الثواب، أبقى خادمة لك طول العمر!! أرجوك!! شف لى أى حل أهرب به من هذا البيت!! أرجوك!! أقبل قدميك!! المجرمون يدبرون لقتلى ظلما وعدوانا!!»

دهمه الرعب القاتل، تذكر الله فاستغفر، ثم أخلد إلى صمت عميق حائر، جعل يستعيذ فى سره بالله من الشيطان الرجيم. كشرت هى فجأة، انقلب وجهها إلى وجه آخر، عيناها تقذفان حمما حمراء. قالت فى عدوانية:

– «جبان مثلهم!!»

وصفعته على وجهه صفعة مدوية أطارت الشرر من عينيه، لكنه لم يغضب، بل أمسك يدها التى ضربته وقبلها:

– «لكن لماذا يقتلونك؟! لابد أنك فعلت فعلا سيئا!!»

عذوبة الدنيا كلها فى صوتها فى وجهها فى هدوء أعصابها، لوحت بذراعها فى ثقة:

– «فشر!! أنا سمعتى مثل الجنيه الذهب!! المسألة وما فيها؟ أنى أحب الفن وأتمنى أن أكون مطربة وممثلة!! مثلت وغنيت كثيرا جدا فى حفلات الجامعة! حصلت على جوائز وميداليات! نشرت صورتى فى الجرائد كثيرا!! من يومها انقلبت الدنيا ضدى! أبى كان يوافقنى على احتراف الفن لأننى وأختى الصغيرة نيفين ورثنا حلاوة الصوت عنه! لكنه سافر فى رحلة عمل فلم يرجع منذ سنوات طويلة! عمى الآن هو رب البيت ويدبر لزواجى من ابنه ليرث نصيبى فى ثروة أبى أرضا زراعية ورصيدا كبيرا فى البنك!! أولاد الحرام نبهوه إلى أننى قد أذهب ذات يوم إلى الجامعة فلا أعود! منعنى عن المدينة الجامعية وحكم على بالسفر والعودة كل يوم حتى ارتبكت حياتى وتوالى رسوبى وهو فرح بذلك حتى أقبل الزواج منه ابنه مكسورة العين!! وأخيرا حبسنى فى البيت نهائيا منذ عامين!! عقلى شت وأعصابى تلفت وهم يزيدونها إتلافا بقولهم إنى مجنونة!! على فكرة! عريس الليلة ابن عمى لزم! وعلى فكرة! هل دريت بالطبيب الذى جاء وكشف عليك فى السرير؟! إنه ابن عمى أيضا! ساعتها أختى الصغيرة فتحت لى بابى لكى أدخل دورة المياه! لكنهم انشغلوا بك ونسونى! خرجوا جميعا وتركوا باب حجرتى مفتوحا!»

ثم أصاخت السمع هنيهة، وانتفضت قائمة تجرى إلى فناء البيت، وبعد هنيهة أخرى سمع بابها يفتح ويغلق، كان ثمة لغط يقترب من البيت. سمع صوت المفتاح يدور فى القفل، ارتدى سترته، هندم نفسه، أشعل سيجارة عادية، وضع ساقا على ساق. دخل عليه الرجال يتقدمهم كهل ملتح تشى ملامحه بأنه عم الفتاة، قال له فى نبرة اعتذار:

- «كيف حالك الآن؟! هل شعرت بالحقنة التى أعطيناها لك؟ هى التى أراحتك!!»

قال عبدالبصير:

- «الحمد لله! لم أشعر طبعا بالحقنة! واضح أنها خفضت حرارتى!»

كان يشعر بأن هذا الرجل مراوغ ألعبان كما يظهر فى عينيه الثعبانيتين. وكان قلبه يتمزق حزنا على هذه الغادة الحبيسة التعيسة، ويتمنى لو أن كان فى استطاعته مساعدتها إذن لما تردد: نهض واقفا يريد الخروج من هذا الحبس فورا:

- «بنا إلى الحفل!»

مضى خلفهم وقد مثلت فى عينيه صورة مزدوجة، وجه منقسم إلى نصفين: سعدية وأفراح، ثم انفصل النصفان وابتعد كل منهما عن الآخر ليكتمل بمفرده، وجه سعدية بجسدها يقبل نحوه، ورأس أفراح بظهرها وقيمص نومها يبتعد،. ثم ينعكس الوضع، فيرى سعدية فى قميص نوم أفراح، وأفراح فى ثياب سعدية واقفة أمام الميكروفون. ارتفع فى صدره هدير موسيقى عنيف يصم أذنيه عن صخب الفرح:

أدخلوه إلى البوفيه ليتعشى، فأكل بشهية، ثم أشعل سيجارة محشوة وجلس فى الهول الكبير يواصل الاستماع للهدير المتدافع فى صدره، لما رفع رأسه فوجىء بالمتعهد واقفا أمامه وبجواره رجل فى حوالى الستين من عمره يرتدى بذلة سوداء. نهض واقفا وسلم عليهما. قال المتعهد:

- «سلامتك يافنان!»

ضحك عبدالبصير وقال إنها دوخة أدت إلى إغماء طويل وكل ذلك من الإرهاق النفسى. حمد المتعهد ربه أن جاءت سليمة، ثم أشار إلى الرجل الأنيق:

- «أقدم لك والد العروس! انشغل بك حتى كاد يقع من طوله! لقد سمع عنك منى ومن صديقه إبراهيم افندى غطاس وكان حزينا لأن يحدث لك مكروه فى فرح ابنته! كان مستعدا لأن يستدعى لك أكبر طبيب فى مصر!!»

ضحك عبدالبصير فى امتنان وجعل يشكر الرجل. دخل عليهم رجل أكثر

أناقة، أشيب الشعر طويل السوالف مستدير الوجه. تلقاه والد العروس بحفاوة، قدمه إلى عبدالبصير:

- «ابن أخي! مدير مكتب مدير عام البرامج فى الإذاعة! وهو إذاعى قديم وليس إداريا! اشتغل فى الاخراج وتقديم البرامج سنوات طويلة!!»

سلم عليه عبدالبصير بحرارة. قال الرجل:

- «المتعهد كلمنا عنك كثيرا كلاما كبيرا!! ومنذ بضعة أيام كان عندى مطربة هاوية اسمها سعدية المليجي فكلمتنى عنك أيضا! فعجبت من هذه المصادفة واندهشت لما سمعت بما أصابك!!»

الرعشة والشحوب واضحان على وجه عبدالبصير، لكنهما شحوب ورعشة العاشق الذى أيقن أن سره قد فضح ولم يبق إلا الاعتراف به، فسأل بلهفة فاضحة:

- «سعدية المليجى كانت عند حضرتك؟! وما المناسبة فى أن تتكلم عنى؟!»

قال الرجل الأشيب:

- «إنها بنت نظيفة ومحترمة جدا! لجنة الاستماع تترك صوتها وتتغزل فى جمالها!! البنت مصابة بعقدة نفسية من جمالها! تكره جمالها ولا تطيق كلمة إطراء واحدة فيه!! لديها اعتقاد بأنه يلفت الأنظار عن صوتها! تقول إنه يهدد مستقبلها فى عالم الغناء! وهى محقة بصراحة! الغريب أنك تسمعها على شريط فتعتقد أنها من كبار المطربات بلا شك! لكن أن تسمعها وأنت تراها وجها لوجه فإن كل انتباهك لابد أن ينصب على جسدها!! البنت دخلت لجنة الاختبار عدة مرات ويسوء حظها من الربكة التى تعتريها فلا تحسن الأداء أمام اللجنة! واللجنة لا تعترف بالشريط أو الاسطوانة! تحب أن تسمع الشخص بنفسه!! آخر مرة اشتكت لى من سوء حظها فواسيتها وطمأنتها خيرا!! لكنها فى انفعالها قالت إن المواهب الحقيقية فى البلاد محرومة من ميكروفون الإذاعة بل إن الميكروفون هو المحروم منهم! قلت لها مثل من؟ قالت فى الحال عبدالبصير الصوفانى كعازف كمان!! وذكرت بعض المطربين والموسيقيين والمؤلفين لكنها تكلمت عنك كثيرا فى

حماسة كبيرة!!»

من فرحته أطلق ضحكته البلهاء الصفيحية، ثم جعل يردد كالأبلة كان يحدث نفسه:

- «غريبة والله مع أنها لم تسمعنى!!»

قال الرجل الأشيب:

«من سوء حظنا ألا نسمعك!!»

ضحك عبدالبصير فى حرج، ثم تلعثم قليلا، لكنه ما لبث حتى اندفع فى نبرة غرور حميمة قوامها الثقة والزهو عند الموهوبين موهبة غير عادية، مما يجعل غرورهم محببا إلى نفس من يراه. قال:

- «بصراحة إن ما حدث لى خير وفضل من الله! كنت سأحتقر نفسى إلى الأبد إذا اشتغلت مع هذه الفرقة! لقد صدمت حين رأيتها! وتقززت من منظرهم على المائدة! خوفى من الفضيحة شل مخى عن التصرف فوقعت مغشيا علىّ! خفت أن يرانى أبى بطريق الصدفة فيشمت فى مدى الحياة!!»

قال المتعهد كالمعتذر:

- «أعرف! وأنا مضطر! لم أجد سواهم! وقلت هذا لإخوانى أصحاب الفرح! إنى غير راض عن الفرقة لكنهم كانوا قد حددوا الموعد وانتهى الأمر! وعلى كل حال ربنا فرجها!!»

أوضح والد العروس مشوحا فى ابتهاج:

- «جئنا لك بإبراهيم أفندى غطاس! فى ظرف ثلث ساعة ذهبت بعربتى الفورد الأصيلة فجئت به، وهو فى الطريق مر على اثنين من كبار مطربى طنطا فأتى بهما: محمد صيام وسميرة الشافعى!! المطرب وزوجته، تصور أنهما أنعشا الفرح بالفعل!!»

ابتهج عبدالبصير، هتف:

- «حلو! لو أن إبراهيم أفندى معى فإننى أسمعكم ما تشاءون! وضارب الرق! فقط لاغير!»

قال المسئول الإذاعي:

- «بسيطة.. تعال معي!»

اجتازوا حديقة النادي. مروا بسرادق الفرح الصاخب الهازل المبتذل، فمن الواضح أن العاهرة تفرض وجودها بقوة الغوغائية والصفاقة وقلة الحياء، ومن الواضح أيضا برغم ذلك أن جمهور الفرح مبسوط ومنبعج على الآخر، فيا لها من مفارقة، إنه إذن ليس جمهوره فالحمد لله أن حيل بينه وبينه، ثم تبسم قائلا لنفسه: أصحاب الفرح يتذوقون الفن الرفيع، والفرقة التى تحيى فرحهم من أحط الفرق، والجمهور أشد انحطاطا منهما معا!!

وهنا انطلقت ضحكته الصفيحية جزلة مزهوة كأنه اكتشف إحدى النظريات الرياضية العميقة. وحينما سأله المتعهد عما أضحكه، شوح بيده الغليظة حول رأسه قائلا: الدنيا!! فلم يعلق المتعهد، ومضى مهرولا.

عند خروجهم من النادى اتجه المسئول الإذاعى إلى سيارته الفيات الصغيرة المسماة بالقردة، وأومأ لوالد العروس أن هات الشلة وإبراهيم أفندى والرفاق وتعالوا ورائى إلى البيت. ثم فتح السيارة وركب، وفتح الباب المجاور له فركب عبد البصير، فى حين اتجه المتعهد إلى السرادق لاستدعاء إبراهيم افندى والرفاق، واتجه والد العروس إلى سيارته الفورد ففتحها وأدار المحرك وجلس فى انتظارهم.

(٢٢)

كان بيت المسئول الإذاعي جميلا، يقع على الطريق الزراعى مباشرة، وخلف ظهره - لصقه - بيت العروس للبيتين ملاحق صغيرة كالعشش والأكواخ. من الواضح أن الأرض الزراعية المحيطة بالبيتين تتبع العائلة فيما يشبه العزبة الصغيرة التى يملكها أعيان التجار وأصحاب مصا[illegible]غزل ويستأجرون من يزرعها من الفلاحين والتملية. كانت عناقيد اللمبات الكر[illegible]ائية الملونة تزين البيتين والطريق المؤدى إليهما، إذ ان العروس ستنتقل من هذا [illegible]لبيت إلى ذاك، فالعريس ابن عمها وز[illegible]هم فى دقيقهم كما تجرى عاداتهم منذ سنوات طويلة.

لصق الجدار الخلفى لبيت والد العروس، الغارق فى المزارع المحاطة بأشجار الكافور والجزورين والصفصاف والجميز، فرشت الحصائر والأكلمة والمساند والشلت. جىء بعدة الشاى والجوزة بكل ملحقاتها، وبسلال الفاكهة الطازجة، وصوانى الهريسة والبسيمة والشكلمة، نشط خدم كثيرون على قيام القعدة فى دقائق معدودة.

الأنوار خلف ظهورهم تكاد تختفى، اعتادت عيونهم الظلام الذى بدأ يرق ويألفهم فصارت القعدة تنير نفسها بنفسها فى اكتفاء ذاتى، كل شىء فى القعدة يضىء نفسه، الأوانى النحاسية والأكواب الزجاجية وعلب السجائر والقداحات وبصائص النار والأوتار والأفكار والمشاعر. كان عبدالبصير ينوى أن يسمعهم إحدى ثلاث قطع من تأليفه يحفظها إبراهيم أفندى جيدا: [نداء]، [موسيقى الشباب]، [ابتهالات]. صار يدوزن أوتاره وإبراهيم أفندى يضبط عليه، فصارت الأنغام العشوائية المقطومة تطرق آذان العشب ووبر عباءة الليل وشواشى الأشجار وأحمال الحطب والقش على الأسطح المتناثرة على امتداد البصر، فاستيقظ كل ذلك وتحفز وانتعش.

ما أن تحرك القوس حتى بدا كلاعب الكرة وهو يتقهقر قليلا ليندفع جريا يشوط الكرة بكل عزمه. بضع سحبات عشوائية من القوس أظهرت مدى فتوته وطغيانه، حتى إذا ما انطلق لم يعد، كهداف ساحر علق الكرة فى قدميه واخترق الملعب لا يأبه بمدافع أو محاور أو منافس كل أولئك يتراقصون أمامه وحوله فاقدى الإرادة والرشد، حتى أن إبراهيم أفندى ظل متجمدا فى استعداده فاغر الفم ينتظر عودته دون جدوى.

كان الهدير المضطرم فى صدره فى قلبه قد راح يمور بعنفوان باحثا عن منفذ للخروج، فإذا بالقوس يملى على أنامل يسراه حركة جديدة تماما. فى الأنة الأولى للأوتار اعتدل جميع الجالسين فى قعدتهم، اتخذوا وضع إنصات مهيب. من الأنة خرجت الآهة الملتاعة، فى صرخة متنامية حومت على رءوس المنصتين كروح

إنسانية تعافيهم بالعافية قبل أن تبث شكواها إليهم. قالوا فى تشكيلات سيمفونية منتشية:

- «ياسلام! الله الله الله! ياعينى! ياحنين ياحنين! قل ياجبار! ياشيطان! سبحان العاطى!!»

ومصمصوا بشفاههم فى نبرة استعبار، على أن الصرخة الوترية عادت تحوم من جديد على استحياء.. تعلو ثم تخفت، تقترب وتبتعد، كوجه عذراء خفير يحاول أن يطل من فتحة المشربية لكن الحياء سرعان ما يواريه عن الأنظار، قال المسئول الإذاعى:

- «لكأن القمر يطل من خلل السحاب فيخفيه السحاب كأنه يخاف عليه منا أو يخاف علينا منه!!»

نظر بعضهم فى السماء قبل أن يدركوا مغزى العبارة، ثم ابتسموا حينما أشرق المعنى فى مخيلتهم. لحظتئذ اندلعت صرخة الكمان كمارد حطم القمم وانطلق، صارت تزغرد بالألم، تبوح شيئا فشيئا بلواعج مشتاق إلى الحرية يكاد يحطم أسوار سجنه يوصل صوته إلى أعلى ذروة فى السماء. البوح يتصاعد فى انتشاء، كالطير يرقص مذبوحا من الألم، يشف، يحكى تفاصيل عشق عذبه النوى، أضناه الجوى، أمجنون ليلى يلف على الديار ديار ليلى يقبل ذا الجدار وذا الجدار؟ وما حب الديار سكن قلبه ولكن حب من سكن الديار؟ أبائع سريح من أولاد البلد يقف تحت شباك محبوبنه مناديا على بضاعته واضعا فيها كل صفات وأوصاف محبوبه المحتجب؟ أشهرزاد جمعت صويحباتها يرفلن فى الدمقس وفى الحرير يحملن الدفوف والمزاهر يطربن بها شهريار حتى يستلبه الوجد فيؤجل موعد إراقة الدم يوما آخر؟ ربما، وربما، وربما.

صور عديدة لا نهاية لها راح المسئول الإذاعى وأبناء عمومته يرددونها يشرحون بها ما أحدثه العزف فى مخيلاتهم من تصورات ومشاعر، بعد أن ألهبوا أكفهم بالتصفيق الحار، وضح أنهم جميعا لم يتوقعوا أن يكون العزف على هذا

المستوى الجبار غير الطبيعى من عازف أمى، قال والد العروس مشوحا بذراعه فى غبطة كبيرة كطفل عجوز مرح :

- «فعلا! أنت لا يصح أن تعزف مع هؤلاء الأرزقية! أنت من طبقة أخرى! أنت قطب وهم رعاع! أنت جعلتنى لأول مرة فى حياتى أتمنى أن أكون عازفا على هذه الآلة التى أراها الآن صوتا من أصوات السماء»!!

قال المسئول الإذاعى:

- «العجيب يا أستاذ عبدالبصير أنك جعلت هذه الآلة الغربية مصرية صرفة! هل تدربت على هذه المقطوعة كثيرا؟»

ضحك عبدالبصير ضحكته العالية الساذجة الشبيهة بصوت صفيح يخبط فى بعضه. قال:

- «عمرى ما عزفتها قبل الآن! لقد ارتجلتها فور اللحظة! من واقع اضطراب عاطفى أعيشه الآن!!»

شد والد العروس طوق سترته بيديه تعبيرا عن ذهوله، أما المسئول الإذاعى فقد شوح صارخا:

- «لايمكن! قل كلاما غير هذا يارجل، أأنت ارتجلت هذه المقطوعة الآن؟ إنك إذن لجبار جبار جبار!!»

ثم استدرك ليثبت خبرته بالتذوق الموسيقى:

- «أظنها من مقام الـ...»

أنقذه عبد البصير من ورطته:

- «حجازكار كورد!!»

قال المسئول الإذاعى:

- «جميل! جميل جدا!!»

قال عبدالبصير بكل براءة وبساطة:

- «مارأيكم لو سميتها: المشربية؟!»

صفق المسئول الإذاعى طربا وإعجابا بالاسم، وأضاف:

- «أصبت! ليس لها اسم آخر! فعلا! المشربية!»

قال عبدالبصير:

- «خلاص! فلتكن المشربية!»

عادت الدهشة إلى المسئول الإذاعي:

- «ولكن! أستاذ عبده! هل يعقل أنك ارتجلتها كلها الآن من الذاكرة من وحي اللحظة؟

قال عبدالبصير مشيرا إلى صدره:

- «لكنها كانت موجودة هنا من وقت طويل!»

مط المسئول الإذاعي شفتيه مستغرقا في تأمل عميق.

دارت الجوزة عدة دورات، ودارت أكواب الشاي، دارت كذلك رأسه من النشوة. عزف لهم - يشاركه إبراهيم أفندي والرقاق - موسيقى: الشباب، نداء، ابتهالات، ثم المشربية ثانية، فخامسة تحت إلحاحهم، ثم انخرط في تقاسيم حرة، ثم غنى بالكمان أغنيات، على بلد المحبوب وديني، الأمل، الليلة عيد، في نور محياك.

انهالت النقوط على حجره من كل ناحية، أوراق من فئة الخمسة جنيهات، تتساقط أمامه وهو لاه عنها تماما، كل متعته وسعادته أن تستمر قدرته على إسعاد هؤلاء والاستحواذ على إعجابهم، هذا منتهى طموحه في الدنيا، وكانت سعدية المليجي حاضرة في أفراح، وأفراح ماثلة أمامه لاتريم،. مرة بقميص النوم،. ومرة في ثياب سعدية، في غمرة الحماسة ولغط الاعجاب كان الهم الذي يكبل رأسه هو الدعاء إلى الله أن يلهمه طريقة جهنمية - غير مباشرة - ينقذ بها أفراح من حبسها فإن إنقاذ أفراح من هذه المحنة القاسية البشعة يعادل زواجه من سعدية المليجي. هكذا خيل إليه.

انتبه إلى كومة النقود المبهرة على حجره، جفل كأنه لم يرها من قبل، حاول إزاحتها قائلا في حرج حقيقي صادق:

- «ما هذا؟ لا لا! لا داعي!! أنا لست آلاتيا ياأسيادنا!!»

لكن والد العروس حلف بأغلظ الأيمان ألا يردها، تطوع المتعهد بجمعها وتطبيقها بعناية، حاول وضعها فى يد عبدالبصير، فراح يبعد يده فى إصرار، فمد المسئول الإذاعى يده قائلا: هاتها، سلمها له المتعهد فى كثير من الحسرة ظنا منه أنه سيردها لأصحابها. إلا أن المسئول الإذاعى سحب صندوق آلة الكمان ففتحه، وحشر المبلغ فى العلبة الصغيرة الملحقة بركن فى أعلى داخل الغطاء، ثم أغلق الصندوق وتركه بجواره، فعل ذلك بشكل رصين فيه حسم باتر، فلم يعترض عبدالبصير على هذا التصرف الكريم، لكنه قال بشىء من الحرج:

- «يا أسيادنا! أولى بهذا المبلغ إخواننا»

وأشار إلى إبراهيم أفندى والرفاق، فهز والد العروس رأسه فى موافقة وأضاف:

- لا شأن لك بهم! سنرضى الجميع أربعة وعشرين قيراطا، هذا المبلغ البسيط لك وحدك هدية منا! ولك مع المتعهد حساب آخر، لا فلوس تكفى سعادتنا بك الليلة!»

فامتثل لهذا الرأى، وعدل القوس بين أصابعه، شرع يعزف أغنية: [فى نور محياك] لأم كلثوم. ومنها إلى أغنية [ياصباح الخير ياللى معانا]، فراح اللحن يعانق ملاءة الضوء اللبنى الهفهافة وأكواب الحليب التى امتدت أمامهم مع أطباق القشدة والفطير السخن ذى الرائحة النفاذة.

وكانت شمس الصباح الخضراء قد اشتد حيلها فعمرت الأفق كله حينما شرع عبدالبصير يضع كمانه فى صندوقها، عندها أخرج المسئول الإذاعى محفظته، تناول منها بطاقة تحمل اسمه وعنوانه، وأرقام هواتفه. قدمها لعبدالبصير، رجاه أن يمره عليه كلما سافر إلى القاهرة، قال له إن مستقبله الحقيقى فى القاهرة، وإنه يجب أن يعجل بالرحيل إليها.. وكان الخبر قد وصلهم بأن الفرقة ركبت وغادرت منذ أكثر من ساعتين، فأصر والد العروس أن يقوم بتوصيل عبدالبصير والمتعهد وإبراهيم أفندى والرفاق حتى أبواب بيوتهم.

فيما هم يستعدون للرحيل جاء فلاح يهرول متهدل الوجه شاحب الملامح يبدو

عليه الكثير من الاضطراب لكنه يبذل جهدا كبيرا لكى يبدو طبيعيا.. مال على أذن والد العروس، همس بشىء تهدلت له ملامح والد العروس واضطرب وشحب. اقترب منهما المسئول الإذاعى واستفهم بالإشارة، مال عليه والد العروس هامسا فإذا به يضطرب هو الآخر ويتمتم:

- «لاحول ولا قوة إلا بالله! وهل هذا وقته؟!»

ثم قال لوالد العروس:

- «خلك أنت أوصلهم أنا بسرعة!!»

شعر عبدالبصير أن فى الأمر شيئا محرجا للغاية، تقدم منهم قائلا فى إصرار:

- «لا أنت ولا هو! سنأخذ عربة من عربات الأجرة!!»

إلا أن المسئول أسكته بإشارة حاسمة من يده، شفعها بقسم غليظ أن لا أحد يوصلهم سواه، ثم أشار إليهم أن يتبعوه نحو سيارة والد العروس باعتبارها أكبر من سيارته.

السيارة راحت تنهب الطريق بسرعة جنونية، وزع عبدالبصير السجائر عليهم، استوعب نفس الدخان بعمق ثم قال للمسئول الإذاعى برجاء حار:

- «أمانة عليك يارجل أن تصارحنا! هناك شىء خطير حصل! ما هو؟ أرح قلوبنا أراح الله قلبك، لا تتركنا مشغولين عليكم بعد أن أحببناكم من كل قلوبنا!!»

شوح المسئول الإذاعى بذراعه فى فروغ بال يخفى به ما فى داخله من أسف:

- «حادث سخيف أخطأ التوقيت!!»

سأله عبدالبصير بلهفة:

- «خيرا إن شاء الله؟!»

- «بنت عمى مثقفة! وفنانة! فى السنة الثالثة بكلية الآداب بالاسكندرية قسم اللغة الانجليزية! متفتحة كالوردة طول عمرها متفوقة!! جاءها خلل مفاجىء فى عقلها كما يزعم عمى الذى هو أكبر من عمى والد العروس وهو شديد قاس! والله أعلم بالحقيقة لكن عمى عامل البنت بقسوة شديدة لمجرد أن لها ميولا فنية!! منعها

من الجامعة حبسها فى البيت!! اللية نسوا باب غرفتها مفتوحا لأول مرة بعد ثمانية أشهر من الحبس! لحظات! خرجت فيها إلى المطبخ فنقلت منه الجاز والكبريت! وحينما أعادوا إغلاق الباب عليها لحظة الاتيان بك من البيت أشعلت النار فى نفسها! ماتت طبعا»

ومسح دمعة تحدرت على خديه..

– «ماتت؟!»

هكذا صرخ عبدالبصير بغير وعى صرخة فزعة من قلب مكلوم وكاد يستطرد: ماتت أفراح؟! لكن الله ألهمه فسكت، انكمش فى المقعد مضطربا ينتفض من الغيظ والغضب يريد أن يبكى يملأ الدنيا صراخا يعود إلى عمها فيطلق عليه الرصاص، لكنه جاهد ليحتفظ بتوازنه.

حينما فتحت له خالته باب شقتها دلف إلى حجرة الصالون صامتا مكبوسا يجز على أنيابه يصادر دمومه التى تتدافع فى مقلتيه بعنف وحرارة. قالت خالته:

– «مالك ياحبيبى؟ مزرود وكاتم فى روحك؟!»

قال بصوت محتبس:

– «إرهاق! كنت فى فرح وتعبت!!»

ربتت على ظهره:

– «تشرب شاى بالحليب؟!»

قال: «القهوة أفضل!»

فمضت.. اختفت فى المطبخ، فتح صندوق الكمان ليأخذ المبلغ بغير حماسة، لكنه أبقى الكمان فى يديه شاردا مشتت الفكر مضطرب الأعصاب، كان يريد أن يبكى بحرقة أعنف وأحر بكاء. فبكت بدلا من الأوتار.

(٢٣)

كانت الأسرة كلها تستعد لفرح أخته الكبرى.. ماعدا زوجة أبيه التى انجبت للمرة الثالثة فازدادت حدة وتأمرا عليهم وتسلطا على أبيه. بقدر استيائه من

ضياع هيبة أبيه وكسر شوكته كان يشعر بعدالة السماء تنتقم لأمه من العذاب الطويل الذى عاشته مع أبيه، إنما كان الاستعداد للفرح يشغل أباه بالدرجة الأولى، وأمه على البعد، كلاهما يطلب فرحا يليق بأول البخت فى الانجاب، البكرية، وكان عبدالبصير قد اتفق مع جميع اصدقائه من العازفين والمغنين على إحياء الفرح بالمجان. بات يكثر من زيارة أمه فى بيت زوجها، فكانت تفرح بمجيئه فرحا عظيما، وتهيىء له الكنبة الاستانبولى فى الحجرة الجوانية المكنونة ذات الشباك البحرى الرائع، ليجلس وقت الأصيل يداعب أوتاره، حيث يكون زوج أمه قد استيقظ من نومة القيلولة صافى المزاج فيشربان القهوة معا، والسجائر الملغومة بالحشيش، فيسحب زوج الأم النفس بعمق ويعقب:

– «لا حشيش أروع من حشيشك ياعبدالبصير حين تملس هذه الأوتار: إنها تسكرنى وتسطلنى معا!! أنت والله ابن حلال!! رح ياشيخ إلاهى ربنا يأخذ بيدك ويفتحها فى وجهك!!»

تهز الأم رأسها مزهوة باسمة مشيرة بيدها إلى صدرها فى كثير من المرح قائلة:

– «صنعة إيدية وحياة عينية. أنا التى ربيته! شجعته! تحملت وصبرت من أجله!!»

يقول عبدالبصير:

– «طبعا! لولاك ما نفعت! أنت وهذه الكمان كل شىء فى حياتى! أحبك مثلها وأحبها مثلك!! أنت وهى شىء واحد فى دماغى لا استطيع الفصل بينكما!!»

تشوح فى وجهه بإصبعها الطويل الجميل كأصبع من الحلاوة العلف من صنع طنطا المتخصصة فيها، تردد كأنها تبتهل:

– «أنا قلبى راض عنك! طلبت من الله أن يفتحها لك أينما ذهبت! وعندى إحساس بأنك ستكون فى السماء إن شاء الله»!

هذه الكلمات كانت تستقطب الدموع فى عينى عبدالبصير تزلزل مشاعره، يجد

فى الحال أصداءها فى مقام الراست، يروح يلعب فى الراست جيركاه مستسلما لحلاوة تسرى فى بدنه مستمدة من أطياف من ذكريات الماضى البعيد: ما أجمل القديم دائما، هل هو جميل لأنه قديم؟ أم لأنه كان جميلا بالفعل؟ غدا يصبح اليوم قديما فهل تراه يصبح جميلا برغم شقائه؟ إن أطيافا ساحرة من ماضى الزمان تنثال على مخيلته تحرك مشاعره فتحرك أنامله فوق الأوتار. يرى الآن أشياء تنتسب إلى الماضى مع أنه لم يكن رآها من قبل، أمه وهى فتاة صغيرة، وهى عروس تزف إلى أبيه. .الزفاف على طريقة زمان، موسيقى زمان، غناء زمان، بيوت زمان، ملابس، أوانى، رجال، نساء، مدارس، طرابيش، ملاءات لف.. الخ.. ربما كانت حلاوة الماضى هى أننا أصبحنا نستطيع رؤيته كاملا على الحقيقة، عكس الحاضر والمستقبل بالطبع؟ حتى ما كان فى الماضى شقاء وبؤسا أصبح له الآن طعم خاص.

أدمن الجلوس فى بيت أمه، أصبح صديقا حميما لزوجها ذى القلب الطيب. ارتبط وجدانه بهذه الكنبة تحت هذا الشباك المطل على الترعة والخلاء المتباعد. لم يعد يذكر نفسه جالسا على هذه الكنبة إلا والكمان بين يديه والخواطر والمشاعر تنثال عليه، الخلاء المتباعد يرجع أصداء أنغامه، فى هذه الحجرة يشعر بالاستقرار، بالنظافة، يحلو له أن يدخل على أمه بأكياس الفاكهة النادرة من ثمرة كدحه وكده، يسألها دائما:

- «نفسك فى إيه يا أمه؟!»

- «ما اتحرمش منك أبدا يارب!»

كان يعرف أن الطلب الملح عليها الآن هو إقامة فرح لأخته يصدح فيه الرقص والغناء، يعنى لابد من العوالم والآلاتية، الأمر الذى يرفضه أبوه رفضا قاطعا، لدرجة أن العريس قد تحير صار عاجزا عن اتخاذ القرار الحاسم، إنه شاب متدين من مئات الدراويش الذين يقبلون يد أبيه، وهو ميال إلى الأخذ برأى حميه وعدم إغضابه ولايمانع أن يكون الفرح على القد، يتولى أهل العروسين إحياءه بأنفسهم، والاكتفاء براقصة واحدة للزفة لكنه حينما يلتقى حماته يصير ميالا

لإقامة فرح بمعنى الكلمة يحضره العوالم والآلاتية، فالإنسان لايفرح كل يوم، وفرحة العرس هى فرحة العمر.. إلخ..

بقى العريس على هذه الحال حتى قبل الفرح بيومين، ليفاجأ بأن عبدالبصير قد دبر كل شىء ومع أمه، صباح يوم الفرح فوجىء العريس بعمال الفراشة، يدقون للسرادق أمام بيته، فوقف يتفرج عليهم فى فرح مشوب باحتجاج صامت. عندما انتهوا من إقامة السرادق والمنصة وجد نفسه يسألهم:

- «كم حسابكم يا أسيادنا؟!»

رد عليه كبيرهم:

- «الحساب وصل»!

حمد الله فى سره بشدة، ليس لأنه أعفى من الدفع، وإنما لأنه سيكون صادقا مائة فى المائة حينما يحلف لحميه بأغلظ الأيمان أنه لا شأن له فيما حدث ولم يدفع مليما ولم يتفق مع أى أحد. فى الواقع لقد تصرف عبدالبصير هكذا تحسبا لهذا الموقف المتوقع، فإنه لم يشأ إعطاء أبيه فرصة للغضب من زوج ابنته بأى سبب، كان يعرف أن أباه سيركب رأسه العنيد ويشتط فى علاج الموقف، لكنه ترك الأمور تجرى حسبما اتفق.

بالفعل حدث ماتوقعه: اصطحب أبوه العروسين لعقد القران فى المسجد الأحمدى عقب صلاة العشاء، ثم عاد بالعروس إلى البيت حيث قامت الماشطة بتزيينها وإلباسها فستان الزفة، ثم استدعى أم بهيجة فحضرت مع لفيف من بناتها وصويحباتهن فقمن بالمهمة على أكمل وجه: غنين ورقصن حتى زلزلت الحارة زلزالها من ضجيج البهجة الصاخبة، وبعد أكثر من ساعة قمن بزف العروس من البيت إلى البيت فى مجموعة من عربات الحنطور لسنابك خيلها وقع بديع على الأسفلت صنع خلفية جميلة جدا لأغنية: اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوة جنينة. فلما وصلن إلى بيت العريس تسللن من خلف السرادق كأنما لا شأن لهن به، وضعن العروس على مقعد فى حوش البيت حيث جلست أختها

الصغيرة بجوارها من اليمين، وبنت من سنايير أم بهيجة من الشمال، استأنفن الغناء والرقص بشكل هادر.

كان العريس قد ذهب ليستحم فى بيت خاله فى كفرة الجاز، خلف محطة السكة الحديد، ثم انتقل ورفاقه فى ثلاث سيارات مزدانات بأشرطة ملونة. ما أن وصلوا إلى البيت حتى تسللوا به هو الآخر خلف السرادق، بمجرد وصول نبأ حضوره حمل النساء العروس إلى الطابق الثانى حيث غرفة نومها وتسلمن العريس فأدخلنه على عروسه.

بقى الحاج مصطفى وزوجته السابقة واقفين فى ردهة الشقة حيث انتحى كل منهما ركنا بعيدا عن الآخر كأنما لايعرف أحدها الآخر، والقلق باد عليهما رغم ما يشعر كل منهما من تشف فى الآخر لأنه نفذ رأيه ومشيئته بالنسبة لنظام الفرح. فلما تناهت إليهما صرخة البنت عالية ومكتومة معا، تمطعت الهانم ولوحت بذراعها فى زغرودة رجت البيت رجا، ثم شقت طريقها بين كتل اللحم حتى وصلت إلى باب الغرفة فطرقته ثم فتحته ثم مرقت داخله وردت الباب خلفها، ثم خرجت بعد برهة ممسكة بالمحرمة البيضاء التى تبقعت بالدم المحترق الداكن، والزغاريد تتدافع من فمها متلاحقة متلاحمة.

لحظتها استدار الحاج مصطفى ماسحا لحيته بأطراف أصابعه فى شىء من الرضا عن النفس. مضى يهبط السلم متمتما ببعض آيات الحمد والثناء. ألقى على السرادق الصاخب نظرة رثاء وسخرية، جانبه بحذر كما يشمر الشيخ جلبابه اتقاء للنجاسة، متعثرا فى خطوه، ثم ما لبث حتى استقام فى الطريق إلى بيت الشيخ سند ليكمل السهرة عنده بين رفاقه الطيبين.

كل ذلك والسرادق لا شأن له بما حدث، الغناء والرقص شغال على سنجة عشرة، وأهل العريس وصحابه يستفزون الحضور لتقديم النقوط كلما هبط حماسهم، إذ يطلع واحد منهم إلى المنصة فيقدم النقوط تحية لفلان وعلان، فيرسل فلان النقوط ردا على هذه التحية بأحسن منها.

وكانت الساعة قد دخلت في بداية النصف الثانى من الليل حينما اقتحم السرادق موكب من الزغاريد يقترب شيئا فشيئا، لحظتذاك كان عبدالبصير جالسا بين العازفين يوزع اهتمامه بين العزف ومراقبة الجو، فإذا به يرى أمه تظهر فى مقدمة الموكب القادم من خلف السرادق من البيت، ثم ظهر العريس متأبطا عروسه التى تزينت هذه المرة بيد أمها بعد أن أشرفت على تطهيرها من دم البكارة الذى خلد وسامه على محرمة من قماش الدبلان فى حجم الفوطة ستبقى أبد الدهر بين الثياب وبعد أن أطعمت العروسين برام الاتفاق الذى صنعته بنفسها.

ابتسم عبدالبصير لاكتشافه دليلا جديدا على أن عناد أمه أقوى من عناد أبيه. قال لنفسه إن السبب فى تقوية عنادها هكذا شدة العناد فى أبيه. ثم قام من فوره فأعد مقاعد للعروسين فى زاوية بارزة للمصورين، ثم اتخذ مجلسه. عزفت الفرقة عشرات السلامات والتحيات ابتهاجا بقدوم العروسين، انهال النقوط من جديد.، نشطت الفرقة، سخن الفرح بدأ بدايته الحقيقية، كانت الفرقة مختارة من نماذج محترمة للغاية انتقاهم عبدالبصير من غير المحترفين، من هواة على شىء من العلم والثقافة، دربهم طوال بضعة أيام على بعض مقطوعاته بمساعدة إبراهيم أفندى غطاس.

بدأ الصحاب يلحون فى طلب التقاسيم من عبدالبصير، فأومأ لإبراهيم أفندى غطاس، الذى أمسك بالميكروفون وقدم للحضور ابن طنطا النابغة عبدالبصير الصوفانى صاحب القوس المعجزة والأوتار الشاعرة، تم انزال الميكروفون إلى مستوى الجلسة، شرع عبدالبصير يعزف مقطوعاته الثلاث. فلما ضج السرادق بالتصفيق والتهليل والاستحسان كان هو قد توهج بصورة نادرة، فأمسك بسماعة الميكروفون وشكر الحاضرين على حسن استماعهم، ثم قدم التهنئة للعروسين، وأضاف قائلا إنه - تحية للعروسين - سيعزف مقطوعة جديدة انتهى من تأليفها اليوم بعنوان (ليالى زمان) فضج السرادق، ولعلعت زغاريد أمه مشرقة طروبة نشوانة.

(٢٤)

ضاقت به الحياة فى طنطا أكثر من ذى قبل. شهور طويلة مضت لم يتلق خلالها دعوة لحفل محترم، كل الدعوات لإقامة أفراح فى القرى، والقرى ميدان فسيح أمام المتعهدين يمارسون فيه النصب والاحتيال دون رادع، يصدرون إليه حثالة مقاهى الفن. والشىء الوحيد الذى يحرق دمه حقا هو اضطراره للعمل مع أدعياء عاطلين من الموهبة، بحر التفاهة مفتوح أمامه، وصحراء الضجر والفراغ من خلفه، فماذا يفعل ؟ أين يذهب وقد باتت مدينة طنطا أضيق من خرم الإبرة؟!

لايدرى لماذا حضر «الكافورى» بالذات إلى ذهنه مع أنه كان أوشك على نسيانه تماما فى الفترة الأخيرة. الكافورى يعيش فى بلدة أبى حماد بالشرقية. هو عازف بيانو منفاخ، موهوب لاشك فى موهبته، يحترم نفسه بقدر الإمكان، يعتبر الموسيقى أرفع الفنون قاطبة، وأن المنتمين إليها – تبعا لذلك – لابد أن يكونوا على درجة كبيرة من الاحترام والصدق والنزاهة أن يكونوا أشرف الناس ليكونوا جديرين بشرف الانتماء إلى الموسيقى.

كان الكافورى مدرسا للموسيقى يعطى الدروس الخصوصية، يعزف فى الحفلات الخاصة، ولكى يضمن وجوده فى محيط من العازفين المحترمين قرر أن يكون مقاولا وفنانا: المضطر يركب الصعب ياصاحبى، مرغم أخاك لاشره ولاطماع، إنه فعلا لا يطمئن لأى متعهد، ولايقبل أى دعوة للعمل إلا إذا دس أنفه فى تفاصيل الحفل، من الذى سيغنى، من سيعزف على الكمان، وعلى القانون وعلى العود وعلى الناى وعلى الايقاع فلان أفضل من فلان فى العود، وفلانة إذا كلفتنا جنيهات أزيد فإنها أكسب لنا، دعك من هذا الطبال القرداتى وهات الولد فلان من طنطا، فى دسوق ولد ناياتى يسحرك، هاك رقم هاتفه.

دأب المتعهدون على تبليغه الطلب هكذا: مطلوب مغن وراقصة وخمسة آلاتية ومنولوجست ، مطلوب قعدة عيد ميلاد فى منزل، مطلوب حفل فى ناد، فى سرادق، على سطح .. إلخ . فيقوم هو تبعا لذلك بانتخاب المستوى اللائق.

إذا كان فن الفنان ينضح على مظهره كما تنضح معظم المهن على مظاهر أهلها فإن شكل الكافورى يقول بأفصح بيان: أنا فنان .. وجهه مستطيل شاحب بعينين شاردتين على الدوام، نظراتهما هادئة ولكنها تشى بعمق ونفاذ. العينان فيهما خضرة البرسيم، جبهته ضيقة مقلوظة كالزلطة، تمتد فوقها فروة الشعر الغزير المهوش المتكور فوق بعضه بصورة فوضوية لاتسمح لأى مشط بالمرور فيها، طويل السوالف أشيب الفودين، غزير شعر الحواجب، غزير الشارب، طويل الأصابع طويل القامة، نحيل البدن، بارز الصدر، رقبته دائما فى حالة انكسار خفيفة حتى وهو ينظر إلى بعيد، فكأنه فى حالة جلوس دائم إلى البيانو، ودائما أبدا فى حالة إنصات، فى محاولة استرجاع لازمة موسيقية يدندنها فى صمت مع هزات من رأسه ويديه وتوقيع بقدميه. أحيانا يرفع صوته فجأة ناطقا بالحروف الموسيقية سريعة منغومة.

يرتدى جلبابا من البوبلين الأبيض ذى ياقة وأساور طالما هو فى البلد، فكأن البلدة بيته الذى يتحرك فيه على راحته فى قدميه شبشب عمولة متين الصنع بنعل وكعب، كنصف حذاء أمامى، أما إن تأهب للخروج من البلد - ولو لمسافة عبور ترعة - فإنه يرتدى البدلة الكاملة برباط العنق والمنديل على شكل الأهرامات الثلاث فى جيب الصدر.

حضور الكافورى فى ذهن عبدالبصير أشعره بابتهاج كبير . إنه يستريح لهذا الرجل، يحترمه، يأتنس بمحضره بل يستفيد علما ومعرفة، إذ الرجل ملم بكل أخبار الموسيقى والغناء فى العالم أولا بأول، يعرف أن مؤتمرا للأغنية سينعقد فى الدولة الفلانية يوم كذا وسوف تشارك فيه مصر بوفد مكون من فلان وعلان، يعرف أن مؤتمرات مشابهة عقدت فى مصر سنة كذا، يعرف - ويمتلك - كتبا عن الموسيقى العربية، لديه أيضا - وهذا ما أدهش عبدالبصير- مجلة خاصة بالموسيقى يصدرها الدكتور محمود الحفنى بانتظام، لديه كذلك نوت موسيقية مطبوعة فى كتب ومجلدات ثمينة التجليد بعضها من ألمانيا وبعضها من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، اشتراها من على سور الأزبكية ومن المكتبات الأجنبية فى

القاهرة والاسكندرية . هو حتما لايقرأ هذه اللغات لكنه يجيد قراءة اللغة الأهم، لغة الحروف الموسيقية المدونة بها هذه النوتات . يشرح لزواره من الهواة كيف أن هذه - تصوروا - هى السيمفونية السادسة، وأما هذه - حذروا فزوا - فإنها إنها، إنها الأوبرا التى ألفها فيردى باسم عايدة لتعرض على دار الأوبرا المصرية، وأما هذه النوتات المجموعة فى كتاب فإنها أغنيات شعبية مصرية جمعها فرد فرنسى يدعى ماسبيرو كان من العلماء المرافقين للحملة الفرنسية، جمعها كلاما ولحنا، صفحة فيها الكلام بالعامية المصرية،والصفحة المقابلة فيها النوتة الموسيقية هل تحبون أن أعزفها لكم على البيانو؟ هكذا، أنظروا كيف كان أجدادكم الحفاة يغنون منذ مائة وخمسين سنة أو أكثر، آه لو ضرب الحظ معى فوجدت أميرا يرعانى وينفق على منزلى إذن لوضعت كتابا عن الملحنين المشهورين أبين فيه كيف سرقوا هذه الألحان العظيمة ووضعوا عليها أسماءهم، ولكن من أين يجىء الحظ؟ إن الحظ لو اقترب من بلدة أبى حماد فسوف يموت مقهورا من الصدمة.

غير أن بهجة عبدالبصير كانت عظيمة حقا حينما تذكر أن الكافورى من الشرقية، وهو يشعر أن للشرقية وقعا حميما فى قلبه. إن هاتفا قويا يشده للقيام بهذا المشوار . إنه فعلا فى شوق كبير للكافورى، ولو أمضى عنده يوما بليلة فلاشك تتجدد نفسه، وقد يجيئه رزق، بل قد .. قد .. قد يعرف شيئا من أخبار سعدية المليجى التى سكنت قلبه فلم يعد فيه مكان لغيرها، وهكذا ركب القطار متوجها من فوره إلى أبى حماد .

بيت الكافورى نسخة طبق الأصل من الكافورى نفسه؟ بيت جميل الشكل ومهوش فى آن، مزيج من الفوضى والنظام، متسق مع ذلك للغاية، غرفة الاستقبال وإن حوت صالونا كاملا من الشغل الدمياطى على الطراز الملكى، اتسعت مع ذلك لكراسى إضافية متنافرة الأشكال والألوان والأذواق، كأن كل كرسى استعير من مكان بعيد، منها الكلاسيكى المحندق الدقيق الصنع والطلاء كأنه بقايا أسرة عريقة غاربة، ومنها المصنوع من القش، ومنها الخشب، ومنها ماهو من مواسير

الحديد الخردة، بعضها منزوع المسند، بعضها الآخر منزوع القرص ويستعاض من قرصه بلوح خشبى يوضع كيفما اتفق، تتسع الغرفة أيضا لآلة البيانو المنفاخ، وآلات أخرى عتيقة فى حاجة إلى إصلاح، اشتراها قطعة بعد أخرى من بائعى الروبابيكيا واختار لها زوايا فى الغرفة يعلقها فيها على الحوائط بمسامير وأسلاك. بوفيه الأطقم الصينى الضخم ذِو الأرفف الزجاجية والبطانة الداخلية من المرايا، يقبع هو الآخر فى ركن، ترتص فوقه تلال هائلة من الكتب والمجلات والصحف. صور كثيرة على الحوائط لعبده الحامولى، وسلامة حجازى، والشيخ درويش الحريرى، وزكريا أحمد، وسيد درويش، ونجيب الريحانى، ويوسف وهبى، تتوسطها صورة مبروزة بإطار من الأرابيسك فى حجم صفحة الجرنال، لرجل معمم ممتلىء الخدين يشبه إلى حد كبير صورة الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى، مع أن الاسم المخطوط أسفل الصورة يشير إلى أنه الشيخ الكافورى الأب، الذى كان صييتا مشهورا وقارىء قرآن وعالما فى التفسير والحديث، ويشيع الكافورى أنه كان يجيد العزف على أكثر من آلة موسيقية، فى مواجهة هذه الصورة على الحائط المقابل صورة بنفس الحجم للكافورى نفسه فى عز شبابه يرتدى البذلة والطربوش ويقف ممسكا بيمناه العصا الأبنوس ومستندا بيسراه على كرسى عباسى قديم الطراز عليه إصيص نحاسى صدىء تطلع منه أعواد الزهور. بجوارها صورة زفاف الكافورى واضعا ذراعه اليمنى على كتف زوجته التى بدت جميلة الوجه سمينة مبطرخة من كل ناحية وشعرها مفروق من المنتصف ومجموع فى ضفيرتين تنسدل إحداهما على ظهرها والأخرى على صدرها ومن فوقها طرحة الزفاف بتاجها المزين بالورود. على ترابيزة الوسط صور مبروزة بحوامل لأولاده وهم أطفال، ولحفيدته الجديدة. إلى جوارها طفاية سجاير كبيرة من البللور ممتلئة بأعقاب السجائر الـ «جولد فلاك» الساخنة التى يدمنها الكافورى.

الغرفة مطلة على الشارع، يفصلها عنه فراغ عرضه متر ونصف تقريبا، مسور بزوايا الحديد ودعامات أسمنتية، وباب حديدى متين قصير القامة يسهل فتحه من

الخارج بأن يمد الواحد يده عبر الشبكة الحديدية ليزيح الترباس ويدفع الباب، لكن أحدا لن يفعل ، لأن تكة الترباس تدق رأس الكلب الرابض فى الأرض الرطبة فى مكان خفى، فيدب فيه الهياج الشرس، وبلا أى تفاهم ينقض على بطن الداخل فيمزقها، إلا أنه كلب ذكى القلب كالكافورى مغرم بالموسيقى مثله، يترنم لها وتهدأ أعصابه ويبتهج، يحب كل الموسيقيين يعرفهم جيدا وعلى صداقة وطيدة ببعضهم ، ما أن يشم رائحة الواحد منهم حتى يأتى فى قفزة واحدة فيشب على الباب من الداخل معلقا أماميتيه فى فتحات الشبكة الحديدية كأنه يريد أن يمد يديه مسلما أو متلقفا بالأحضان، يروح يعكرش فى موضع الترباس وذيله منخرط فى رقص بديع نشوان.

استقباله لعبد البصير كان حافلا، كاد يقول له: أين كنت منذ مدة وعندما فتح الترباس اندفع الكلب عنتر نحوه فتلقفه فى حضنه. من الباب الحديدى إلى سلم البيت خطوة واحدة، ثمة سلم بمدخلين متقابلين، يوصل إلى بسطة ترتفع عن الأرض حوالى مترين، من يقف عليها يصير فى شبه إيوان مسجد فى قلبه باب، إذا طرقه برفق سيرد عليه من الأعماق البعيدة أى صوت قائلا: تفضل، فعليك أن تدفع الباب وتدخل لتجد الكراسى كلها فى انتظارك! اجلس، قلّب فى المجلات والصحف، فإن هى إلا برهة حتى يجيئك فلاح شاب هو أصغر أشقاء الكافورى، حاملا صينية عليها براد ملآن بالشاى وعدة أكواب من الزنك الأبيض، تأخذ واجبك أولا، ثم تسأل إن كان صاحب البيت موجودا أم لا؟ فإن كان موجودا فإنك لن تضطر للسؤال لأنك قبل انتهائك من شرب الشاى تراه ماثلا أمامك فى بشاشة وترحيب، فإن لم يكن موجودا فإن الشاب الذى دخل بالشاى سيجلس معك.

شعر عبدالبصير باحباط حينما جلس الشاب معه، خاصة أنه لاحظ أن آلة البيانو غير موجودة. سرعان ما أخبره الشاب أن الأستاذ سافر بالأمس إلى أنشاص لإحياء مولد هناك مع الصييت الشهير عبدالوهاب النجدى.

(٢٥)

كان الوقت مابين الظهر والعصر، فرأى عبدالبصير أن السفر الآن إلى انشاص قد وجب، منها فرجة على المولد ومنها لقاء مع الكافورى.

عند أذان العشاء كان يدخل مدينة أنشاص التي يحبها ويلتقى فيها شبانا كثيرين يحبون الشعر والموسيقى، مضى فى شوارع المدينة فإذا هى تحتفل بمولد أحد أوليائها الصالحين، السرادقات منصوبة فى الساحة العريضة الكبيرة، تياترات وسيركات ومنصات ألعاب نارية، راح يستطلع سرادقات التياترات يتفرج على صور نجومها يقرأ برامج سهراتها، على باب أول سرادق خفق قلبه وتسمر فى مكانه محاولا السيطرة على نفسه حتى لاينفجر من الفرحة مزقا متناثرة، ذلك أن صورة سعدية المليجى كانت تتصدر صف الصور كنجمة أولى فى البرنامج لهذا التياترو.

كان الوقت مبكرا، فبادر بقطع تذكرة فى الصف الأول، احتمل الكثير من «النمر» السوقية السمجة، خاصة تلك التى يؤلف أصحابها لأنفسهم شخصيات نمطية وثنائيات فكاهية مبتذلة ولزجة: الزعبلاوى والشنكحاوى ، زعيط ومعيط، رفيعة هانم والسبع أفندى، حمص وحلاوة .. إلخ.

أخيرا، وبعد أن تيقنت إدارة التياترو أن جمهورا جديدا لم يعد محتملا فى أفق الليلة، وأن منظر صفوف المقاعد قد صار مبهجا إلى حد ما، ظهر الأفندى النحيل المفرط فى الأناقة والعطور، فقدم للجمهور نجمة السهرة، المطربة ذات الصوت الملائكى سعدية المليجى، وارتفع صوته بالاسم فى صيحة حماسية طنانه، ثم مالبث القمر حتى شق طريقه بين الستائر الردماية، وأقبل يتبختر فى خطو هين رشيق.

شعرت سعدية المليجى أن دوى التصفيق تشوبه الليلة نبرة دافئة لم تلمسها فى الليلتين السالفتين، فثمة يد عفية تقود موجة التصفيق عند لمسات بعينها لايتذوقها إلا حريف متودك فاهم للأداء وأصوله، تمشت الفرحة فى أوصالها كدبيب النمل وحمدت الله كعادتها كلما قوبلت من الجمهور بحفاوة تؤكد موهبتها

وتضعها فى المكانة اللائقة، قررت أن تشبع هذا الجمهور بأحلى ما فى صوتها من نبرات، ومالت على أختها، تبادلتا الهمس لبرهة كأنهما تتشاوران فى الأغنيات التى تكشف أكثر من غيرها عن جمال صوتها، أغنية وراء أغنية، تأكد لديها أن الحفل متغير عن كل ليلة، ثمة أنفاس جديدة وحميمة بين جمهور الليلة، ومن الصف الأول تجيء تعليقات ذات مغزى فنى خبير، فانشدت نظراتها تطوف على الصف فى حركة استطلاعية متلهفة إلى أن التحمت العين بالعين، فعراها ارتباك عظيم، تدفقت عصائر الورد فى خديها، صارت من فرط الخجل والارتباك يضل صوتها عن النغم الصحيح لولا أنها سرعان ماتتصرف بلباقة وذكاء، انسلت عن اللحن إلى رحابة الموال فراحت تصول وتجول بمطلق حريتها تستجيب الأنغام لحالتها الشعورية الطارئة.

أنهت الوصلة على خير مايرام، هرولت إلى الكواليس لحقت بها أختها:

– «الجو غير طبيعى ! ما الأمر؟!».

لكن سعدية نادت خادمها الخصوصى عثمان. عبد أسود ضخم الجثة كبوابة الدار، ثاقب العينين غليظ الشفتين غليظ الصوت، له يد كالفأس، ورقبة كجذع الشجرة، يربط على زنده خنجر، وتحت إبطه بندقية مكسورة إلى قطعتين ، شغلة عثمان أن يرافقها فى كل مكان تذهب إليه، لايتركها تغيب عن عينيه برهة واحدة، فإذا دخلت حجرة مكتب مغلق لإجراء اتفاق فمن حقه أن يكسر الباب ويدخل إن غابت أكثر من عشر دقائق، مالم تخرج هى إليه من حين لآخر كى تطمئنه قائلة: حالا ياعم عثمان، فيهز رأسه فى امتثال: براحتك ياست هانم.

قالت له:

– «فى الصف الأول على الشمال فى الكرسى الخامس شاب يضع على كتفيه لاسة حمراء! هاته وتعال!».

أومأ برأسه ومضى. كان لطيفا جدا، رقيق الحاشية، جميل اللفظ مختصر العبارة واضح النبرات فى حسم، مال على أذن عبدالبصير وهمس فى أدب جم:

- «فيه ناس عايزين حضرتك! تعال ورائى» .

تعرف عليه فى الحال، مضى وراءه يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ليسبقه، وكان عثمان قد تعرف عليه هو الآخر، تذكر أنه التقاه فى مولد البدوى، تذكر ما كان بينه وبين سيدته من ملاطفات وود، فصار يبالغ فى احترامه وتوسيع السكة له، يردد فى كل خطوة:

- «اتفضل يابيه ! من هنا يابيه» !!

كانت سعدية وحدها فى انتظاره فى مكان قصى من خلف الكواليس، كاد يرتمى فى حضنها، يصيح بأعلى صوته:

- «أحبك ياسعدية ! أحب الدنيا كلها من أجلك، مرينى أفعل ماتشائين حتى تكونى راضية عنى، لم أحب أحدا سواك! أنت أول وآخر حب فى حياتى».

هى الأخرى كانت تحاول أن تخمد فى قلبها كتكوتا ينبش قشرة البيضة يلح فى الخروج إلى الحياة، ورغم أنها قد تدربت منذ برهة على كيفية اعتقال عواطفها والسيطرة على مظهرها، فإنها عجزت عن الامساك بالصوت المحايد الذى انتوت أن تكلمه به، تلقت يده الكبيرة بيديها الاثنتين بصوتها الذى خانها بارتعاشة الحب الدافئة المحتشدة بالشوق والحنو والأمومة قالت له:

- «لماذا فعلت هذا؟».

ألجمته الدهشة، وقف مبلولا يبحث فى ذهنه عن هذا الذى ربما يكون قد فعله دون أن يدرى، انتشلته هى من ورطته قائلة كأنها تشرح عبارتها السابقة:

- «كيف تجىء ورائى إلى هنا»!

قبل أن يفتح فمه ربتت على كتفه براحة يد تضخ الكهرباء فى أوصاله، كأم تدادى طفلها الشقى العابث، قالت فى حسم:

- «ارجع ! عد إلى طنطا فى الحال أرجوك وأتوسل إليك!! لاتعارضنى!! لاتفتح فمك بكلمة! عد حالا إلى طنطا بأى شكل !! لاتبق هنا دقيقة واحدة !! إنى خائفة عليك!! حياتك فى خطر!! إعمل معروفا لاتجعلنى أقضى بقية عمرى معذبة بذنبك!! أرحنى أراح الله قلبك!!».

كان همسها يعكس حرارة وضراعة أدهشتاه بقوة . لم يعرف ماذا يقول سوى أن جعل يردد:

– «ما كل هذا الخوف، ما كل هذا الخوف»

ضغطت على كتفه بغمزة فيها شيء خصوصي استشعره، حيث أودعتها كل مافى قلبها من حب وإنسانية دافقة:

– «إياك أن تفكر أننى سائبة أتحرك كيف أشاء؟! لا!! إن الله أعطانى الموهبة وحرمنى متعة الحرية!! إننى أشد بؤسا من السجينة فى زنزانة!! يتحرك وراء ظلى أشكال وألوان من خلق الله!! عمد ! فتوات! بكوات! تجار أثرياء ! قطاع طرق! أصحاب مناصب فى الدولة ! عيال صياع! كل واحد منهم يريد أن يأخذنى بأى شكل وبكل شكل! كل واحد منهم يدبر للآخر مكيدة ومصيبة!! إن طال أحدهم الآخر قتله. الجميع يتربص بى! إن غبت لحظة عن واحد منهم ظن أننى وقعت فى يد الآخر فيبحث عنه وعنى! الشر كله يحيط بى! طريقى كله دم ولولا عم عثمان القوى ماجرؤت على الخروج من البيت! أنا أيضا عنيدة؛ لا أحد فى الدنيا يأخذنى من فنى الذى نذرت له حياتى! الناس فى بلادنا يطمعون فى أى فتاة تدخل طريق الفن! يظنونها ضائعة لاتجد من يحكمها. لقمة طرية يخطفها الأقوى ! وأنا لن أكون سريرا!! أنا فنانة!! ولابد أن أثبت لهؤلاء الناس الظالمين أن طريق الفن شريف!! طولت معك فى الكلام وهناك ألف عين تقيس الآن طولك وعرضك!!

أنت لاتتخيل حجم الكارثة التى يمكن أن تحدث بعد دقيقة واحدة إذا استمر وقوفنا هكذا!! أرجوك أقبل يديك أن تخرج من هنا على المحطة رأسا».

ثم نادت:

– «عم عثمان!!».

فإذا هو أمامها فى الحال. فتحت حقيبة يدها، أخرجت منها ورقة نقد كبيرة ، أعطتها لعم عثمان!

– «خذ الأستاذ واذهب به إلى محطة أتوبيس طنطا! اقطع له تذكرة، لا تتركه إلا بعد أن يتحرك الأتوبيس ! فاهم ما أقوله ياعم عثمان».

- «حاضر ياست هانم!!».

ريقه نشف، فى مزيج من الحرج والصدمة قال:

- «وفرى فلوسك! فأنا معى على الأقل أجرة السفر!!».

قالت بحسم:

- «لا ! أنت ضيفى وتسافر بناء على رغبتى فلابد أن يكون سفرك على حسابى! إنها فضلة خيرك فى طنطا مع السلامة! سنتقابل، لا تتعجل! أشوفك بخير» .

واستدارت ملوحة له بذراعها فى سرعة واضطراب».

تسلمه عم عثمان ومضى به فى اتجاه محطة الأتوبيس بعد مغادرتهما ساحة المولد مال على عم عثمان قال فى ود :

- «عد أنت ياعم عثمان فأنا أعرف الطريق وحدى! خذ هذه لك!!».

غمزه بخمسة جنيهات، فنزع الرجل يده بعنف كأنما لسعته عقرب:

- «عيب يا أستاذ أنت تريدنى أخالف أوامر الست وهذا لايكون أبدا ولو بمال قارون !! أنا عينى ملآنة يا أستاذ !! الست هانم قالت إنك ترجع إلى طنطا يعنى ترجع إلى طنطا!!».

لم يجد بدا من الامتثال، فمضى بجواره صاغرا منكسرا، يشعر كأن الخيمة التى كانت تظله وتستره قد عبثت بها الرياح فاقتلعتها وبعثرتها ليصير هو فى العراء.

كطفل مغلوب على أمره أخذ التذكرة من المحصل وجلس يرقب عثمان الذى وقف أمام باب الأتوبيس كجدار ثقيل من الليل، ظل واقفا هكذا حتى تحرك الأتوبيس بالفعل وقطع شوطا، فلما خرج الأتوبيس من المدينة واستلم الطريق الزراعى صار عبدالبصير، بحركة تمثيلية متقنة، يتحسس جيوبه، يشير بأصبعه إلى رأسه فى محاولة للتذكر، أخيرا هب واقفا:

- «لو سمحت يا أسطى! نسيت حقيبة هدومى فى البيت، أسود الوجه الملعون استعجلنى!! أنزلنى هنا!!».

تمهـل السـائق ثم توقـف، قفـز عبدالبصير الى الأرض، اتخـذ طـريقه على مـهـل إلى سـاحـة المولد مـن جـديد، ليـبحث عن الكافـورى الذى جاء خصيصا من أجله.

(٢٦)

بعد بضـعـة أسئلة فى بضـعة مـحـلات اتضح أن الكافورى لم يكن فى حـالة شغل، إنما كان ضـيـفا على «خدمة» والخـدمـة مصطلح يطلقـه أصـحـاب الطرق الصوفية على المكان الذى يستأجرونه أو الخيمة التى ينصبونها فى أحد الموالد، والمعنى أنهم جميعا خدم لأهل الله ورجال الطريق، فلقد جاءوا من بلادهم لخدمة زوار هذا الولى الصالح، وقيل إن السبب فى تسمية الخدمة بالخدمة كونهم يخدمون أنفسهم بأنفسهم.

وصل إلى الخيمة التى استضيف فيها الكافورى، فوجىء به جالسا فى رهط من الرجال يوحى سمتهم بأنهم مهمون، حيث تجرى خلال الحديث عبارات من قبيل: ياحضرة العمدة وياشيخ البلد ويامولانا ..إلخ ما أن رآه الكافورى يدخل عليهم حتى هب واقفا، فاتحا أحضانه فى فرح وتهليل كبيرين. وقف الجميع، تلقوه بترحاب مهيب قال الكافورى:

- «جئت فى وقتك ياعكروت! متى تقتنع أننى مكشوف عنى الحجاب!! طلبناك ففى الحال أتيت!!».

قال عبدالبصير:

- «الحمدلله أنا أيضا مكشوف عنى الحجاب أتانى الهاتف فحركنى لهذا المشوار المفاجىء الذى جلب على قلبى السعادة كلها! يكفى أننى رأيتكم وهذا وحده مجلبة للسعادة! اشتقت إليك فلم أصبر فجئت إليك فى الحال!!».

قدمت له أطباق الفتة وهبر اللحم.. تعشى وشرب الشاى ودخن الجوزة مع مدخنيها من الدراويش. بعدها قال الكافورى وهو يشير إلى رجل يجلس بجواره يرتدى عمامة وجلبابا من الصوف وعباءة:

– «حضرة العمدة يطلبك بنفسه!! من ساعة ماحدثته عن مواهبك وهو رأسه وألف سيف أن تشترك معنا فى شغل الأسبوع القادم بإذن الله!!».

قال عبدالبصير بأريحية صادقة:

– «أنا تحت أمر حضرة العمدة!».

هز العمدة يده على صدره:

– «تعيش ياابن الأصول ياأمير!».

سأل عبدالبصير ببراءة:

– «والفرح فين بإذن الله؟!».

قال الكافورى:

– «ياسيدى كل سنة وأنت طيب!! مولد الشيخ جودة فى منيا القمح فى الأسبوع المقبل وعليك خير!!».

– «مولد؟!!».

هكذا هتف عبدالبصير بصوت ينضح بعرق الصدمة والاحباط، بل وبوادر الغضب، فضحكوا رغما عنهم. فأضاف عبدالبصير بكثير من الحرج، موجها كلامه للكافورى:

– «أنت تعرف أن الموالد ليست مجالى!! شغلى نفسه ليس ينفع فى الموالد!! جربت شغل الموالد وأنا صغير ! أى نعم تعلمت منه ولكن أهم ماتعلمته أننى لا أصلح له كما أنه لايصلح لى!! عدم المؤاخذة ياحضرة العمدة!! أنا خدامك ومستعد للخدمة مجانا فى أفراح الأنجال كلهم! أما الموالد – «صدرت عنه حركة اشمئزاز غير مقصودة» فإنها والعياذ بالله بهدلة!! أقصد أن لها أهلها وناسها!!».

قال الكافورى باسما:

– «تعرف أن سر احترامى وحبى لك هو احترامك لنفسك، فمن يحترم فنه يحترم نفسه بالضرورة!! هذا ماأعتقده، ولكن أنت تعرف أيضا أن الكافورى فنان يحترم نفسه ! أظنك غير محتاج لمن يشرح لك من هو الكافورى!! مقصودى أنه لو

لم يكن الشغل الذى أدعوك إليه محترما فمن باب أولى أن أمنع نفسى عنه!!تعرف هذا أم لا؟!».

يعرف عبدالبصير هذا بالفعل، ولذا فقد بدا ضعيفا بعض الشىء وهو يقول:

- «لكننى أخذت على نفسى عهدا بأن أمتنع عن شغل الموالد!! شغلى الآن أصبح معقدا!! التقاسيم الحرة لمجرد التقاسيم لم تعد تروق لى!! التقاسيم نفسها لم تعد تجىء إلا من داخل فكرة معينة!! لقد أصبحت أؤلف للكمان مقطوعات! أخذت الأشكال الأجنبية وملأتها بشغل مصرى صرف! لونجا وكنشرتو وكذا!! اسم الشكل ليس يهمنى ! إنما يهمنى مافى الشكل من مشاعر وأخيلة!! واشتياقى إليك هو اشتياق لمعرفة رأيك فيما فعلت!!».

هتف الكافورى فى ابتهاج طاغ:

- «أنت الآن جعلتنى لن أتنازل عن اشتراكك معنا!! على فكرة! الفرقة التى ستشتغل معها نقاوة ! كلهم من الهواة الدارسين المحترمين يعرفون قراءة النوتة! أما المغنين فهم سعدية المليجى وأختها والمنولوجست حسان شرارة ومحمد القيم وهنيات شعبان!!».

ما أن سمع أسم سعدية المليجى حتى تغيرت ملامحه، تدفق الدم فى وجهه مشعا بالابتسام أشعل سيجارة باستمتاع هائل، استسلم لدوار لذيذ : أخيرا سيجلس خلف سعدية المليجى عازفا، إن وجودها وحدها كفيل بحمله على الترحيب حتى ولو كانت بقية الفرقة ملمومة من فوق أكوام القمامة، شوح بذراعه فى مرح شديد، قائلا بصوت عال ملىء بالبشاشة والحماسة:

- «خلاص ياعم !! أنا لا أستطيع أن أؤخر لك أو لحضرة العمدة أى طلب! سأحضر!!».

مد الكافورى يده طالبا يد عبدالبصير، طرقع السلام بين الكفين طرقعة مدوية، مد العمدة هو الآخر يده وسلم عليه شاكرا . شرعوا يتكلمون فى موضوعات شتى، ، ولكن ذهن عبدالبصير كان قد انحبس فى صدره، راح ينصت إلى ما صار يهدر فيه من أنغام تطوف به فى عوالم ساحرة.

(٢٧)

جمهور سعدية المليجى فى منيا القمح كبير؛ فهى من بلدة مجاورة. كل أهالى المنطقة يحبون صوتها، يفخرون بأن الشرقية أم الفن؛ أبناؤها كثيرون بين النجوم: عبدالحليم حافظ ومرسى جميل عزيز وسيد اسماعيل وعبدالغنى السيد ورشدى أباظة؛ وفى القريب العاجل - يقولون - تنضم سعدية المليجى إلى نجوم القاهرة؛ هل هى أقل من أحد فيها؟.

لم يكن غريبا أن يمتلىء السرادق عن آخره؛ لاسيما وأن الكافورى أشرف على نظام الدعاية بنفسه فصاغها بأسلوب محترم بعيد عن المبالغات الرخيصة؛ فكانت اللافتات المعلقة على جوانب السرادق وبعض شوارع البلدة تحمل عبارات محددة على هذا النحو؛ عازف الكمان الموهوب ونجم طنطا عبدالبصير الصوفانى؛ المطربة المتميزة نجمة الشرقية سعدية المليجى؛ المنولوجست السكندري الشهير حسان شرارة.. إلخ.

وقف الكافورى على باب السرادق يمتع بصره بالزحام الذي يعشقه يستمد منه حماسة ساخنة ونشاطا لا يهدأ. إنه لا يحيا بحق ولا يتوهج إلا وسط زحام. فإن كان الزحام فى مكان عام فإنه يحب اختراقه مبتهجا مبهوراً رائق المزاج يوزع البسمات العريضة على كل من يحتك به أو يلامسه عفوا. وإذا استوقف بائع العرقسوس ليشرب منه جرعة فلابد أن يعزم على من حوله سواء كانوا من معارفه أم من الغرباء. فإذا كان الزحام خاصا فإنه يصل به إلى ذروة الوهج سواء فى العزف على البيانو أو فى الحديث الطلى الشائق.

جعل يتفرج على منظر السرادق مفتونا باللافتات المكتوبة - بخطه - بالفرشاة على شرائح من القماش وراح يرقب حركة الجمهور الوارد بكثرة، يتحرج إذا أغلظ العمال فى معاملة الجمهور؛ يتدخل فى الحال ينهر العامل يطيب خاطر الزبون؛ قد يصطحبه بنفسه إلى المقعد. فى نفس الوقت لا تغفل نظراته عن مراقبة وصول

الفنانين والآلاتية. اتسعت ابتسامته حينما رأى سعدية المليجى وأختها مقبلتين نحوه ومن خلفهما عم عثمان واضعا يده فى جيب جلبابه.

كان الفرح الشديد واضحا على وجه سعدية؛ فرح ممزوج بخجل أنثوى عريق جبار؛ كأنها مقبلة على موكب زفافها. ركضت نحو الكافورى كطفلة علمت أن أباها اشترى لها مفاجأة هائلة؛ صاحت كأنها لم تصدق اللافتات:

– «حقا؟! عبدالبصير الصوفانى معنا؟!»

هز رأسه وهو يحيط يدها بيده:

– «طبعا!! أم ترين أننا نكتب ذلك فى الاعلانات فحسب؟! هذا يكون غشا تجاريا يعاقب عليه القانون!!»

صدرت عنها حركات طفولية تعبر عن الابتهاج والاغتباط؛ كادت تدبدب بقدميها على الأرض راقصة مهللة؛ بل لعلها فعلت شيئا من ذلك فى لمحة سريعة؛ ثم شوحت بذراعيها:

– «أين هو؟! أموت وأشوفه! أحب أن أتفق معه على الألحان التى سأغنيها! سوف أتسلطن الليلة على الآخر بإذن الله!!»

تلفت الكافورى حواليه:

– «كان هنا منذ دقيقة!!»

رمى بصره إلى بعيد؛ انخطف بصر سعدية وراء عينيه؛ حيث وقف شاب أسمر الوجه ربعة القوام يرتدى قميصا حريريا شفافا أبيض اللون على سروال من الصوف الفانلة الأسود، وحذاء أسود على أبيض. كان مندمجا فى مشاهدة الجموع التى تلقى بنفسها فى الصخب. انعصر قلب سعدية وشحب وجهها؛ وقال الكافورى مشيرا بأصبعه إلى ذلك الشاب:

– «هو ذا!!»

تراجعت بظهرها قليلا لتتمكن من رؤية وجه الشاب جيدا؛ ثم بدأت تسمع دق قلبها. اهتزت فى وقفتها؛ صاحت فى غضب مبالغ فيه:

– «هو ذا؟! من قال هذا»؟!

قال فى دهشة شديدة:

- « أنا؟! ألم يعجبك منظره»؟!

صتاحت وقد جف ريقها:

- «هذا هو عبدالبصير الصوفانى؟!»

- «هو بعينه!!»

قالت فى ثقة وقد هبط حماسها من قمة الاغتباط إلى حضيض الاحباط:

- «لا يمكن!! هذا ليس هو! إننى أعرف هذا الشاب إنه من طنطا! وشكله ليس فنانا!!»

ضحك الكافورى:

- «طبعا لا يصح أن نأخذ الناس بأشكالهم!!»

صاحت فى ضيق من نفسها:

- «لكنه ليس عبدالبصير الصوفانى!!»

اغتاظ الكافورى؛ تلفت حواليه؛ وجد النایاتى سليمان أبوشفه مقبلا يهرول، تلقفه الكافورى بترحاب:

- «ياسليمان يابوشفه! تعال! من يكون ذلك الشاب الواقف هناك بقميص حرير أبيض وسروال أسود؟!»

نظر فيه سليمان أبوشفه فى ارتياب:

- «إه؟! ألست تعرف عبدالبصير الصوفانى؟! الكمنجاتى الطنطاوى؟! إنه تربيتك!!»

- «قل للآنسة!!»

ثم نادى بأعلى صوته:

- «ياعبدالبصير ياصوفانى!!»

فالتفت الشاب على الفور نحو الصوت. رأى سعدية؛ ارتجت الأرض تحت قدميه؛ تحول إلى بسمة هائلة؛ ركض نحوهم مادا يده للسلام.

سددت سعدية بصرها فى وجهه وقد اتسعت عيناها كأنها تريد أن تغرقه

فيهما؛ ثم ازداد وجهها شحوبا؛ شدت طوق جلبابها بحركة من يريد أن يخرج من هدومه؛ بصقت فى عبها، مجرد نفخة تعكس توترا لذيذا، أتبعتها:

– «باسم الله الرحمن الرحيم! دستور!!»

ثم عادت تنظر فيه وقد بدأ البريق الصاعد من عينيها يتخذ لونا جديدا فيه إشراق وإعجاب وفرح وعتاب ودهولة؛ ثم زامت بلهجة ذات معنى:

– «هكذا إذن؟! أنت عبدالبصير الصوفانى!! لماذا لم تقل هذا من الصبح؟!»

انتبهت إلى يده التى كانت لا تزال ممدودة للسلام؛ فاحتوتها بيديها الاثنتين فى حنان دافق؛ ضغطت عليها بقوة وحرارة. وصلته الرسالة؛ كاد يذوب يترنح من فرط النشوة التى سرت فى كيانه كله. سحبته ومضت، دخلت به إلى ما وراء المنصة وهى تردد:

– «وإذن فأنت عبدالبصير الصوفانى! ياحويط ياغويط يامكار!! تختبر عندى شخصيتك معزولة عن شهرتك؟!»

أرادت أن تقول له: أنت نورتنى؛ هذه أسعد ليلة فى حياتى. لكنها ضغطت على يده مرة أخرى، قالت باسمة فى مرح:

– «نتقابل على المسرح!»

ثم هرولت مبتعدة كأنها تهرب من نفسها..

البرنامج كان معداً بحيث يكون لعبدالبصير الصوفانى نمرة خاصة؛ إذ يقدمه مذيع الحفل فى فاصل من العزف على الكمان، يستغرق ثلث أو نصف ساعة؛ بعده مباشرة تدخل سعدية المليجى. لم يكن مذيع الحفل سوى الكافورى نفسه؛ الذى أمسك بالميكروفون وأفاض فى وصف عبقرية هذا العازف الذى شرف حفلهم به.

ران على الجمهور صمت عميق مشوب بالترقب والتحفز. فى خجل شديد قرب العازف فمه من الميكروفون المائل نحوه بزاوية حادة وراح يحدث الجمهور قائلا إنه من شدة فرحته بهذه الليلة ألهمه الله مقطوعة موسيقية جديدة من وحى هذه الليلة اسمها: النيل؛ ثم بدأ العزف؛ فما أن انتهى حتى ضج السرادق كله بالتصفيق والصياح؛ لكن الذى أطربه حقا تصفيق أكثر حرارة كان يجىء من بين ممرات

الكواليس، ممزوج بصوت سعدية هاتفا فى وجد حقيقى: الله الله الله. ثم عزف مقطوعة جديدة أيضا بعنوان: سماعى كونكورد؛ فمقطوعة جديدة بعنوان: سماعى شورى؛ ثم صار يتنقل بين المقطوعات؛ وفى كل مقطوعة يلهمه الله تقاسيم تذهب به وبالجمهور إلى أخيلة طازجة؛ والأكف تلتهب من التصفيق؛ والحناجر تصيح طالبة الإعادة. اضطر الكافورى إلى أن يمسك بالميكروفون ويحدث الجمهور قائلا إن الأستاذ عبدالبصير باق معهم طوال أيام الأسبوع؛ وفى الحال قدم لهم مطربة الحفل سعدية المليجى.

دخلت كالقنديل المشتعل. فوجىء عبدالبصير بأنها غيرت ملابسها فارتدت تاييراً صوفياً أبرز كل مفاتنها بشكل يفقد المرء عقله؛ تزينت كالعروس ليلة الزفاف؛ صارت تخطر فى مشيتها كالبطة؛ رشيقة أنيقة مشرقة؛ صار عبدالبصير يلاحقها بنظراته كفنان يتأمل لوحته بعد وضع اللمسات النهائية. ردت على تحية الجمهور الصاخبة بانحناءة متقنة مثل كبار الفنانين؛ ثم اعتدلت فى تيه ودلال تعيد جدائل شعرها التى تهدلت على صدرها إلى ظهرها؛ ثم خطت نحو الفرقة، بالتحديد نحو عبدالبصير، همست بيديها فى حركة ذات معنى فيما ترفع رأسها إلى السماء كحركة مكملة للمعنى. فهم عبدالبصير ما تريد ، فتهامس مع رفاقه؛ فانطلقت الآلات تعزف أغنية: هلت ليالى القمر؛ سرعان ماركبها صوت سعدية المليجى كالفرس المدرب على القفز فوق الحواجز واختراق الصعاب بمهارة فذة؛ لدرجة أن الجميع - جمهورا وعازفين - نسوا أن هذه الأغنية فى الأصل لأم كلثوم؛ واكتشف عبدالبصير أن الألحان العظيمة يحكم عليها بالسجن المؤبد حينما ترتبط بصوت واحد يحتكرها إلى الأبد: اللحن الذى يعجبنا على صوت من الأصوات ربما ارتفعت قيمته على صوت آخر كأن الأذن تكتشف عمقه لأول مرة، لمجرد أن الصوت الجديد يملك قدراً من الإحساس والذكاء والفهم يستطيع به إبراز جماليات اللحن وأبعاده المضمرة. تداعت فى رأسه الأفكار والخواطر: إن الغناء لا يشترط صوتا قويا مدويا كصوت أم كلثوم أو صالح عبدالحى مثلا؛ بقدر ما يشترط إحساسا مرهفا وذكاء فى الأداء كما عند المطرب الجديد الصاعد

عبدالحليم حافظ؛ فصوت أخيه إسماعيل شبانة أقوى وأجمل فى الجرس والنبرات؛ لكنه لو غنى أغنيات عبدالحليم فربما لا يتقبلها منه الجمهور بقبول حسن؛ وليس غريبا أن العامة فى بلادنا يصفون المغنى الجيد بأنه «حسه حلو» ، ولا يقولون مطلقا إن «صوته حلو»؛ فكلمة الصوت - كما فى التراث العربى - تطلق على اللحن لا على المطرب؛ وصوت سعدية المليجى - فوق ما فيه من قوة جرس وعمق رنين وجلجلة - يمتلك حساً رهيفاً عاليا؛ إن غناءها الليلة يختلف تمام الاختلاف عن غنائها فى طنطا؛ إنها الآن تخاطب قلبه مباشرة؛ هذا ما يشعر به ويتأكد منه. لقد نسيت نفسها؛ استغرقت فى حالة من الوجد كأنها تغنى لسنوات قادمة؛ كأنها كانت طول عمرها فى انتظار هذه الفرصة الحميمة. استمرت الأغنية ساعة كاملة، كرحلة ممتعة فى عالم من الأحاسيس والمشاعر. فما أن انتهت حتى وقف جميع من فى السرادق يصرخ يهلل يطلق الصفير الحاد. أما هى فلم تحفل بكل ذلك؛ إنما استدارت على موجات الهدير متجهة إلى عبدالبصير شاحبة الوجه مبهورة الأنفاس؛ قالت كأنها فى امتحان عسير:

- «هيه؟ إيه رأيك ياعبده؟!»

إذا به قد هب واقفا، فاتحا ذراعيه. فى لمح البصر وجدها بين أحضانه؛ لا يدرى إن كان هو الذى اندفع إليها أم أنها ارتمت عليه. فجأة وجد نفسه يطوقها بذراعيه فى حرارة يكاد يذيبها فى ضلوعه. كانت بين أحضانه كتلة من اللهب تنزل على صدره بردا وسلاما. وإذ وقعت عينه فى عينيها رأى وجهه فى صفائهما؛ فإذا هو يقبلها فى خديها. شعر كأن خديها تركا على شفتيه بصمتين لهما طعم حريف عبقرى. صار يلعق شفتيه خلسة طوال السهرة؛ يشعل السيجارة من السيجارة ليستحلب فى الأنفاس رحيق الخدين.

عندما تأهبت للانصراف آخر الليل مسافرة إلى بلدتها عنيت بالسلام عليه وحده ضاغطة على يده فى حرارة:

- «أراك غدا إن شاء الله»!!

فكأنها قالت له: أنا لك وحدك منذ الأن وإلى الأبد. وحينما رد عليها بكلمة إن شاء الله كانت أصدق إن شاء الله قالها فى حياته.

(٢٨)

كل أعضاء الفرقة ، بل وبعض الجمهور الأذكياء ، باتوا على يقين من أن سعدية أصبحت لعبدالبصير. إن الحب كالعطر لا يخفى نفسه مطلقا؛ سلطانه أقوى من أن يقاومه أحد.

هذا الاكتشاف داعب غروره فى طريقه من السرادق إلى الاستراحة التى سيبيت فيها وهى تابعة لمجلس المدينة. وقد حرص الكافورى على مرافقته؛ فكانت الغبطة واضحة فى كيانه كله فيما يتأبط عبدالبصير قائلا فى لهجة راقصة تنضح بالكثير من الحسد الواضح وضوحا يستل سمومه الحاقدة يبطنه بالحنو:

- «يخرب بيتك!! سعدية المليجى لم يحضنها مخلوق فى حياتها! فما بالك بالقبلة؟! يخرب بيتك! هذه أول ليلة أرى فيها سعدية المليجى على طبيعتها! على سجيتها بدون كبرياء حاد مبالغ فيه!! يخرب بيتك!! ماذا فعلت فى البنت يامضروب؟! البنت تحدت كل القوى!! أه لو كنت تعرف الشوارب والأكتاف والجباه العالية التى تجرى وراء سعدية المليجى وتفرض عليها حراسات مشددة تتقاتل من أجلها! لو عرفت هذا لعرفت إلى أى حد ضحت البنت بحياتها!! هى الليلة قالت للجميع بالفم المليان: موتوا بغيظكم فأنا اخترت حبيب العمر !! يخرب بيتك ياطنطاوى ياسهن!! أنت يطلع منك كل هذا؟! البنت كانت تغنى لك وحدك!! كانت تغنى فى آخر زادها!! ربنا يستر! ربنا يستر! من غد لابد أن أذهب إلى قسم الشرطة أطلب حراسة على السرادق وإلا فوجئنا بمن يطربقه على رءوسنا؟! ربنا يستر! صدقنى أننى فرح وخائف ومندهش !! لقد ظننت ذات يوم أن سعدية المليجى لا قلب لها يرميها على الحب! الليلة اتضح لى أنها حبيبة درجة أولى وهذا ما يفرحنى! لكنى أخاف من عشاقها حسادك! ومندهش من تهورها هكذا ومن قدرتها على قذف التراب فى وجوه كافة العوازل والحساد!!»

ظل الكافورى طوال بقية الليل يطلب خراب بيت عبدالبصير. ويعلن خوفه مما هو متوقع. أما عبدالبصير فكان في عالم آخر، عالم الحب الذى طالما سمع به دون أن يجربه. الليلة فحسب بدأ يدرك معنى هذه الكلمة: حب؛ ويقف على أسرارها الغامضة الساحرة. الليلة فحسب أيقن أن جميع المحبين الذين خلدهم التاريخ كانوا بالفعل محقين فيما فعلوا. يشعر الليلة أنه مستعد للموت، للمقاومة، لفعل أى شيء يمكنه من احتواء الحبيب وامتلاكه. فعلاً فعلاً كان لروميو وجولييت أن ينتحرا تحديا للتقاليد التى حالت بينهما كما شاهد فى السينما؛ الجنون يليق بقيس فى حب ليلى؛ لحسن المغنى أن يدفع عمره فداءً لنعيمة؛ لملك الإنجليز أن يتنازل عن عرشه مقابل وفائه لحب واحدة من عامة الشعب. غفل سويعات قليلة رأى فيها نفسه يمشى بين حدائق مورقة تزغرد فيها كل الزهور والألوان والعطور.

فى الليلة التالية جاءت سعدية المليجى كالملكة ترفل فى ثياب جديدة على درجة رفيعة من الأناقة والذوق الرصين؛ كانت قد أخذت زخرفها وازينت. بمجرد وصولها إلى السرادق بحثت عن عبدالبصير؛ وجدته فى انتظارها خلف البوابة. تلاقت الأيدى فى حرارة . كان منظرهما بديعا تحرسه عين الرضا من الشقيقة ومن عم عثمان الذى غير ثيابه هو الآخر فصار كالعمدة؛ وظهر المسدس منبعجا فى جيب الصديرى. سألها عبدالبصير وهو يتقدمها إلى الداخل:

– «ماذا ستغنين الليلة»؟

– «الليلة عيد»!

كانت ليلتئذ أروع منها بالأمس. كانت كأنها تقول بأعلى صوت وأفصح عبارة ليسمعها الكون كله: لقد أحببت! لقد أحببت! وكان الهدير الذى ينفجر أمامها من جميع الأركان يكاد يصيح هو الآخر بأعلى صوته: مرحبا بهذا الحب طالما أدى إلى هذا الوهج. وكانت هى تشعر بهذا الصدى فتمتاح من قلبها دفقات لاتنفد من المشاعر المجلجلة تملأ الجمهور بهجة وتجدداً وعاطفة جياشة.

باتت تظهر كل ليلة بثوب جديد؛ تعلن عن مواهبها الفياضة من جوانب متعددة. ما أروع الفن؛ لا حين تسنده الموهبة بل حين يضمخه الحب. لا فن بغير حب على

الإطلاق حتى ولو كان مستكملا لجميع المواهب والقواعد والأصول المرعية. الفن الذى لا يشعله الحب ولا يشعر بالحب ولا يوقظ فى الناس طاقة الحب ليس فنا حقيقيا بل مضيعة للجهد والوقت فيما لا طائل من ورائه.

الحب الحقيقي عدو للثرثرة؛ فله لغة أخرى غير لغة الكلام؛ هذا ما اكتشفه عبدالبصير طوال هذا الأسبوع الساخن البديع الذى يساوى عمراً بأكمله. لقد ولد الحب ونما وترعرع دون أن يقول أحدهما للآخر كلمة: أحبك. اكتشف أيضا أن الكلام فى الحب يبدأ عندما يجف الحب ويموت. والحب الذى يبدأ بالكلام يظل يتغذى على الكلام إلى أن يتساقط زيفه ويظهر خواؤه.

(٢٩)

آخر ليلة فى أسبوع مولد الشيخ جودة فى منيا القمح كانت بوتقة انصهرت فيها كل القلوب على المسرح أو فى الصالة. بدوا كأنهم جميعا غرقوا فى الحب الحقيقي لأول مرة فى حياتهم . صار الجميع عشاقا فى حالة وصل ساخنة رائعة ذاب فيها حقد العوازل ضاعت مرارتهم فى مذاق عسل مصفى.

خرج عبدالبصير من السرادق آخر الليل حاملاً صندوق الكمان فى يسراه؛ وفى يمناه حقيبة ملابسه. كان موزع القلب مشتت الخواطر؛ يظن أن سعدية قد لحقت بالقطار بعد انتهاء نمرتها قبل ختام الحفل بنصف ساعة كالمعتاد. كان يحاول التركيز فى التفكير فيما ينبغى عليه أن يفعل بعد أن أخذت سعدية قلبه وانصرفت. لكنه ما كاد يخطو خارج السرادق بعد أن ودع الفرقة ونال أجره من الكافورى؛ حتى لحق به من أمسك بالحقيبة يحاول نزعها منه. التفت؛ رأى عم عثمان يتشبث بالحقيبة لكى يحملها؛ تركها له. ما كاد يستفهم منه حتى وجد سعدية وأختها مقبلتين نحوه. قالت سعدية بلهجة ذات معنى:

– «عم عثمان لم يطاوعه قلبه أن يتركك تمشى إلى المحطة وحدك»!!

نبرة صوتها تقول إن قلبها هى – لا قلب عثمان – هو الذى لم يطاوعها على تركه وحده. معنى هذا ، كما توقع، أنها خشيت أن يتعرض لمكروه من عشاقها؛

وكأنها أرادت أن تؤكد له هذه الهواجس مضت بجواره؛ أشارت لشقيقتها أن تجاوره من الجانب الآخر؛ ومن خلفهم عم عثمان يحمل الحقيبة بيسراه تاركا يمناه متحررة على أهبة نزع المسدس من جيب الصديرى لدى أى بادرة شعور بالخطر. مضت فى أعقابهم زفة كبيرة من الرجال والصبيان يرشقونهم بالتحية وعبارات الإعجاب، وعبارات أخرى كثيرة تشى بمدى ذكاء المصريين وخفة ظلهم واتساع أفقهم الإنسانى؛ فبعض العبارات كانت تبارك هذا الحب بصريح القول:

– «ياسلام! كل منهما مخلوق للآخر! فليحيا الحب! من قال إن الحب أعمى ؟! ربنا يتمم بخير! ربنا يهنى سعيد بسعيدة! الطيور على أشكالها تقع»!!

عم عثمان كان أخف ظلاً من الجميع؛ إذ راح يغمغم معقبا على كل عبارة بقوله:

– «إه! طب ما احنا عارفين ! مضبوط! قل يارب»!

إلا أن غمغمته لم تتجاوز أسماع محروسيه؛ مما أضفى على الطريق بهجة وضحكات صافية. فما أن وصلوا إلى المحطة حتى هرول عم عثمان إلى شباك التذاكر؛ مد يده بفلوس كانت مجهزة. فى وقفتهم على الرصيف سمعوا ماكينة الختم تتك أربع مرات متعاقبة فيما كان القطار يقبل من بعيد كشبح أسود داهم. جلسوا فى القطار على دكتين متقابلتين فى عربة الدرجة الثانية.

كان عبدالبصير فى نشوة أنسته حتى أنه راكب فى قطار. لقد ارتاع فجأة إذ فوجىء بأن رفاقه جميعا قد نزلوا من القطار ومعهم حقيبته وكمانه؛ وعم عثمان على الرصيف يستحثه أن ينهض بسرعة وينزل. هب واقفا؛ إندفع إلى باب القطار ونزل لحظة شرع القطار يتحرك. بقى واقفا لبرهة كالأبله يتلفت حواليه باحثا عن محطة طنطا. لكن عم عثمان دفعه برفق؛ فمضى بينهم متردداً بعض الشىء فى حرج. فلما تبين له أن سعدية المليجى تستضيفه فى بلدتها الصغيرة شعر بأن الظلام المتاخم لرصيف المحطة قد أضاءته شمس الضحى. جاءه صوت عم عثمان ودوداً خفيف الظل:

- «أنسيت أن أهلنا هم الذين عزموا القطار على الغداء؟ كيف تكون فى بلدتنا ولا نعزمك»؟!

قال عبدالبصير:

- ولكنى لست القطار»!!

رد عم عثمان مازحا:

- «أنت سكة حديد بحالها!! يارجل أنت أثرت فى نفسى حتى قتلتنى جعلتنى أبكى من كل عين حفان!! ما كل هذا الفن الذي فيك يارجل؟! أنت والله كهربت الست سعدية وكهربت الخلق كلهم . رح ياشيخ إلهى ربنا يعطيك الصحة والعافية»!!

ضحكات سعدية الطروبة النشوانة المجلجلة تتناثر فوق الحلفاء على شاطىء الترعة. جسدها السمهرى الملفوف المبروم يتهادى بالكعب العالى فوق الأرض المتربة؛ وبيوت القرية تبدو من بعيد كعيون عمشاء ينبعث منها ضوء شاحب خافت. ثمة سواق دائرة. من حين لحين يترامى إلى أسماعهم أصوات طنابير، ونعير جاموسة، وصياح ديك.

حودوا فى وصلة بدت عمودية على قلب البلدة. خفراء يحملون البنادق. فلاحون يركبون الحمير خارجين من البلد. سعدية لاتنى تردد: «مساء الخير ياعم فلان»؛ والأصوات تشيعها فى كل خطوة:

- «مساء النور ياست سعدية! أهلا بالرجال! شرفتوا بلدنا! يا مرحب!»

تطوع خفير بالسير وراءهم حتى عتبة البيت.

بيت سعدية المليجى من البيوت الجميلة المعدودة فى القرية؛ مبنى بالطوب الأحمر من طابقين على طراز ينتمى للقاهرة الفرنسية؛ قاهرة وسط المدينة؛ نفس طابع الشرفات والنوافذ والزخارف. البيت ليس شاذا عما حوله؛ إنما هو متميز ولكن فى محيط من بيوت نظيفة جميلة؛ مما يشير إلى أن هذا المحيط المتميز كان ضاحية مستقلة خارج البلدة فى زمن لعله أواسط هذا القرن أو أوائله. قالت سعدية حينما رأت عبدالبصير يتأمل منظر البيت فى إعجاب:

«جدى هو الذى بناه! كان صبيتا كبيرا تعلم على يدى الشيخ على محمود!! عجائز بلدتنا يقولون إننى ورثت حلاوة الصوت عنه!! أبى رحمه الله كان هو الآخر جميل الصوت لكنه كان يغنى لنفسه فقط!! فرض عليه جدى أن يكون فلاحا ليزرع قطعة الأرض التى اشتراها من عرقه وشقاه!! آه لو سمعت صوت أبى ! أنا لا أجىء فيه شعرة واحدة !! كان أهل بلدتنا يغصبون عليه كى يغنى فى أفراحهم على سبيل التحية فإذا غنى تتمايل جدران هذه البيوت كلها من شدة الفرح! أمى كانت تقطع نفسها من البكاء حين يغنى بصوته الحزين! فإذا سكت تقبل قدميه ليستمر فى الغناء! تصور أننى كثيرا ما أبكى حينما أتذكر غناءه؟! إنما هو بكاء يريح النفس ويروق العين!!»

شرفة مفتوحة فى الطابق الثانى كانت مضاءة؛ تتدلى من سقفها نجفة ضخمة ثمينة عريقة الطراز. فلما تراجع قليلا ليتمكن من رؤيتها كاملة ضحكت سعدية وقالت:

– «طبعا هى نجفة كريستال تليق بمتحف الآثار! ماذا تقول لو علمت أنها لمبة جاز؟! عندنا الكثير من هذه الأثريات من مخلفات جدى»!!

صفقت بيديها. أطل من الشرفة فتى فى حوالى السادسة عشرة من عمره؛ صورة طبق الأصل من سعدية . سرعان ما اختفى وسمعوا صوت هبوطه على سلم خشبى ذى صرير. قالت سعدية:

– «إنه أخى بهادر! الوحيد! أسماه أبى على اسم رجل هندى مسلم كان يزورنا كثيرا! بهادر فى الثانوية العامة ويحب التمثيل لكنه لن يدخل معهد التمثيل إلا بعد حصوله على ليسانس الآداب لأنه دودة قراءة! يحب تأليف القصص والأشعار ومع هذا صوته أحلى من صوتى!!»

انفتح باب الشارع. خرج بهادر فى جلباب بياقة وأساور أبيض اللون شفاف. سلم على عبدالبصير فى حرارة؛ جذبه بترحاب إلى داخل البيت؛ ثم إلى السلم الخشبى. بعد البسطة الأولى فوجىء أنه وبهادر وحدهما يواصلان الصعود إلى الطابق الثانى. السلم مفروش بأكلمة صوفية. البسطة الأخيرة من السلم تدخل فى

رحاب ردهة مربعة فى وسطها باب، وعلى الجانبين شباكان طويلان فى جدارين متقابلين. دخلا من الباب. ردهة أخرى كبيرة، مليئة بدواليب متخمة بالكتب والمجلدات الفاخرة؛ الدواليب من خشب ثمين، مدهونة بالأويما، لها أبواب زجاجية، فوقها تماثيل صغيرة، وتحف، ومروحة، وجهاز راديو ماركة فيليبس كبير؛ وجرامفون بنفير فوق ترابيزة برخامة بيضاوية تتناثر حولها اسطوانات كثيرة داخل أغلفتها العتيقة من الورق المقوى. قال بهادر:

- «هذه مكتبة جدى! وجرامفون جدى ! أبى رحمة الله لم يشتر شيئا سوى هذا الراديو! حتى العفش الذى دخل به على أمى هو عفش جدى!!»

شعر عبدالبصير أنه لا يريد الخروج من هذا المكان على الإطلاق. جلس فى الحال على أول كرسى صادفه، كرسى منجد بالقطيفة وثير، أرستقراطى الطابع؛ له نظائر وأنداد كثار فى الردهة. على الأرض سجادة ثمينة فاخرة. يطل على الردهة بابان داخليان على كل منهما ستارة مخملية ثقيلة تحتها أخرى حريرية خفيفة. ثمة ممر أنيق علقت على حوائطه براويز عتيقة فيها صور يرجع طابعها لأوائل القرن العشرين. أدرك عبدالبصير أنه ممر يؤدى إلى دورة المياه والمطبخ. الباب المواجه له كان مفتوحا؛ برزت محتويات الغرفة: سرير من الخشب بعمدان فستقى اللون ذو ناموسية بمبية؛ إلى جواره بوريه من نفس الطراز تعلوه مرآة بعرضه تحتل معظم الجدار. ثمة جرائد ومجلات وكتب حديثة ملقاة على الطقاطيق والكراسى؛ مما يشى بأن بهادر بالفعل قارىء مثابر. ثمة أوراق بيضاء معدة للكتابة.

السلم الخشبى راح يئن ويتوجع، أنات قصيرة خافتة لكنها عميقة الصدى، كأنات اللذة النشوانة تحت جسم صاعد.. ما لبثت سعدية حتى ظهرت على البسطة الأخيرة، مرتدية ثوبا منزليا فضفاضا من حرير الشوربجى المشجر؛ رغم شدة اتساعه كانت تبرز من خلفه تموجات جسد ينتفض بالحيوية فى أشكال بيضاوية متداخلة متناسخة مراوغة كخيال مرآة مواجهة للشمس. كانت تحمل على ذراعها الأيسر جلبابا أبيض اللون فلما دخلت عليهما أدرك أنه جلبابه هو، أى أن

سعدية فتحت حقيبته وأتت به منها؛ فتفجر فى قلبه بركان من الإشراق غمره بمشاعر دافقة من اللذة والتطامن؛ كأن خصوصياته قد أصبحت خصوصيتها ولم يعد بينهما حاجز من التحرج أو الخجل. بساعد بض مرصع بالأساور الذهبية أشارت إلى الغرفة ذات الستارة المنفرجة والسرير الخشبى الفستقى وسلمته الجلباب قائلة: حجرتك. وأكملت الإشارة بما يعنى أن يقوم الآن ليغير ثيابه فيها.

عندما أزاح الستار وخرج من الغرفة مرتديا جلبابه الأبيض وجد فى انتظاره «ست الحاجة»، كما قدمتها له سعدية. سبحان فالق الإصباح فالق الحب والنوى؛ ست الحاجة أم سعدية تكاد تكون أختها الكبرى على الرغم من الطرحة البيضاء الملفوفة حول رقبتها. سماحة الوجه والملامح المسترخية على بحر من الذكاء الفطرى اللماح، وروعة التكوين فى قوامها السمهرى الضخم، ورصانة الحركة. نهضت واقفة فى استقباله بحركة أشعرته أنه فى بيت عريق الاحترام واضح الأصالة. داخله الشك لبرهة فى أن يكون جديراً بالانتساب لهذا البيت. شعر كأنه تجاوز حدوده وتطاول فطلب أن يسكن الجنة وهو بعد لم يكتمل ورعه .

لفت أم سعدية يدها فى طرف الطرحة وسلمت عليه قائلة فى ترحاب أمومى مشرق:

– «أهلا بك ياأستاذ عبده! نورت بلدتنا!»

جلس مبتسما، تكاد دموع الفرح تطفر من عينيه تعطل صوته. غمغم ببعض كلمات مضغمة، منكسا رأسه فى الأرض لايدرى أبفعل الخجل والحياء أم لفقدان القدرة على مواجهة هذه الفتنة الصارخة القوية الشخصية. لكنه بعد برهة وجيزة وجد نفسه منطلق اللسان مقبلا على الكلام فى لطف وظرف وحيوية. ما أن سألته ست الحاجة عن أحوال طنطا وأخبار البدوى حتى انبرى يتحدث عن كل صغيرة وكبيرة فى طنطا، وفى حياته الشخصية، وأضحكهم كثيرا على طرائف شخصية أبيه الذى جمع فى شخصيته بين الفنان والدرويش؛ فكأنه دون أن يدرى يعطيهم تقريرا ضافيا عن أصله وفصله ومشاريعه المستقبلية وطموحه الفنى؛ حتى علاقته المتوترة بأبيه، وعلاقة أبيه بأمه، وزوج أمه اللطيف الذى أصبح صديقه الحميم،

وأخته الكبرى زينب التى تزوجت وأراحها الله من زوجة أبيه الصلفة السليطة، وفرحها وما حدث فيه من تصادم بين جبلين هما أمه وأبيه. حكى طرفا من نوادر طفولته الشقية المعفرتة؛ عن الفلاحين المجاذيب الذين يطبعون القبلات على ظاهر يد أبيه شيخ الطريقة الورع، وكيف كان يتصدى هو لهؤلاء الفلاحين السذج حينما يسألون عن أبيه فى البيت فينكر وجوده لتطفيشهم تنكيلا بقسوة أبيه التى تحرمه من العزف على الكمان؛ كيف كان يتسلل إلى «الخدمة» التى يقيمها أبوه فى ساحة البدوى، فيبول بين أجساد الفلاحين المستغرقين فى النوم على الأبراش بأفواه مفتوحة عن آخرها .

لا يدرى كيف واتته الشجاعة على حكى كل هذا دون أدنى حرج؛ ربما لطبيعته المفتوحة؛ وربما بتشجيع مَن ضحكاتهم الصافية العميقة المنطلقة وعدم استنكارهم لشىء مما يحكيه.

وإذ رفع رأسه ليستمتع بآثار الضحك على وجوههم رأى شقيقة سعدية ومعها امرأة ريفية صرفة قد انتهتا من إزاحة الجرامفون وتنظيف الرخامة. فى دقائق امتدت المائدة: بطة كبيرة محمرة، سلطانية الشوربة، طبق الأرز على شكل القارب، ملوخية، سلاطة، أرغفة. قالت ست الحاجة وهى تجفف دموع الضحك الغزير:

– «قم ياأستاذ عبده لتتعشى! سعدية حدثتنى عنك كثيرا ولكن لم تذكر أنك خفيف الظل هكذا! ياه ياأستاذ عبده! أنت صافى القلب حقا وليس فى صدرك أى كلكعة»!! عقبت سعدية:

– «أنا نفسى والله ياأم ما كنت أعرف أنه هكذا! لم أر فيه غير الفنان المعجزة!!»

ثم ناولته فوطة مائدة؛ فنحاها جانبا؛ كذلك نحى الشوكة والسكين واحتفظ بالملعقة . تحلقوا المائدة، قامت ست الحاجة بتفسيخ البطة وتكويم لحمها أمامه:

– «كل ياحبيبى! أنت والله دخلت قلبى!»

اندمجوا فى الأكل بحيوية وحميمية ومرح. قالت سعدية:

– «على فكرة! أنا صممت على أن أجىء بك إلى هنا لأمنع وجع الدماغ عن

رأسى ! الآن قد عرف الجميع أننى أحببتك على عينك ياتاجر! إن الزمار لا يغطى ذقنه!! لم أتعود الكذب على نفسى! فبدلاً من الكتمان وانتشار الإشاعات!!»

ثم نظرت فيه كأنها تكمل العبارة بالنظرة. فقالت أمها فى تلقائية بريئة رائعة:

– «زين ما عملت!!»

أثناء تناولهم الشاى دخلت المرأة الريفية حاملة صندوق الكمان متقدمة به نحوه. قالت ست الحاجة باسمة:

– «أنا وبهادر إبنى نموت ونسمعك! بهادر يحب الموسيقى كعينيه! كان ينوى أن يسافر إليك ليسمعك! لكن هذا الولد المضروب لا يحب الظهور فى الأماكن التى تغنى فيها أخته ولا يحب السير معها إلا فى البلدة!!»

قال بهادر وحمرة الخجل تتدفق فى وجهه:

– «دمى حامى وأخشى العراك!! لو علق أحدهم بكلمة سخيفة! لو عاكسها أحد – وهذا لابد منه – فلن أسكت بالطبع! وأنا على قدر هدوئى شرس فى العراك خصوصا بسبب سعدية!! أصل الشراسة موت أبى ونحن صغار! أتصور دائما أن الأخساء سيستضعفوننا!!»

تبسمت الأم راضية موافقة:

– «عمك عثمان فيه البركة على كل حال!! تربية المرحوم يشتغل عندنا وهو طفل لا يعرف الكلام!! أثمر فيه خبزنا! لا مثيل لوفائه ورجوليته! إنه واحد من الأسرة وأولادى كلهم تربيته!!»

قال بهادر بنبرة احتجاج:

– «سنسمع أم نتكلم؟!»

– «نسمع طبعا!»

هكذا قالوا؛ وتوجهوا بأبصارهم فى اتجاه عبدالبصير، الذى أخرج الكمان بالفعل؛ وكانت أوتارها لا تزال ساخنة منضبطة جاهزة للبوح. عزف لهم مقطوعتين: (سماعى كونكورد) و(سماعى شورى)؛ وتوهج فيهما كما لم يتوهج فى حياته من قبل. كان يشعر أنه داخل فى رحم الفن، فى قلب عش الإلهام ومصدر

الوحى المباشر، كان يشعر كأنه يكاد يرى نور الله بذاته يحيط برأسه وذقنه المرتكزة عل فرس الكمان؛ والقوس يصعد ويهبط مغترفا من طاقة الضوء إشعاعا هاداً مبهراً. أثناء العزف حانت منه لفتة سريعة على وجه ست الحاجة، فخيل إليه أنها تكاد تتحول إلى هيكل ضوئى، كتلة من الذرات فى قبس الإشعاع تجرى مندفعة نحو الأنغام تتماوج معها.

ما أن انتهي حتى صاحت الحاجة فى وجد حقيقى:

– «اللهم صل وسلم وبارك عليه!! ياأرض احفظى ما عليك! لا ! لا! أنت ياولدى خسارة فى البهدلة !! كيف تسكت على نفسك حتى الآن؟! مكانك ليس هنا! إنما هناك مع أم كلثوم وعبدالوهاب! آه لو سمعك المرحوم! لأخذك من يدك ولف بك الدنيا كلها!!»

وقال بهادر وقد شعر أن الكلام كله لن يساوى نغمة واحدة مما سمع:

– «مستواك رفيع جدا ياأستاذ! بصراحة ما كنت أتصور أن تكون هكذا!!»

حتى المرأة الريفية القح رددت مسحورة:

– «دانت واعر قوى يادى الجدع!!»

ضحكوا فى صفاء؛ فاستطردت:

– «النبى أشرف خليقة الله مانى عارفه أتلم على روحى! أنت بعثرتنى! قل لنا شوية كمان إلاهى ربنا يسعدك دنيا وآخره!!»

قالت ست الحاجة:

– «لا تكسف إنعام! إنها سميعة لا تستهزىء بها! هى الأخرى تربية المرحوم!!»

عدل الكمان تحت ذقنه؛ عزف تحميلة (ليالى زمان) ؛ فاتسعت جميع الأحداق من فرط الروع. من ليالى زمان انتقل إلى مقطوعة (المشربية)، فمقطوعة (النيل). كل ذلك وسعدية تحيطه بعينيها فى حنو وإشراق دون أن تعثر على كلمة واحدة تليق بما شعرت به نحو موهبته الطاغية الجبارة. نهض بهادر وقبله على خديه. فهتفت ست الحاجة :

- «أضف قبلتين نيابة عنى!!»

فعل بهادر. أوشك عبدالبصير أن يقول لهم إن كل هذا الذى أطار لبهم من الإعجاب إنما جاءه كله من وحى سعدية منذ أن اهتز قلبه بحبها من أول نظرة؛ وإن لحظة انفتاح قلبه على حبها كانت هى نفسها لحظة اكتشافه سر الفن لأول مرة فى حياته منذ بدأ يغرم بالعزف على آلة الكمان؛ إن لحظة وقوعه فى بحر الحب هى شهادة ميلاده كفنان. غير أن الحياء اعتقل لسانه فلم يقل شيئا.

كان ضوء الصباح التريكوازى قد غمرهم حينما انتبهت ست الحاجة فنهضت واقفة:

- «سيبوا الجدع ينام! كفاكم هذا!!»

تقدمتهم خارجة. مضوا خلفها. أشار له بهادر إلى طريق دورة المياه؛ ثم انتظر حتى دخل عبدالبصير إلى السرير واحتجب خلف الناموسية، فأغلق باب الحجرة برفق؛ راحت خطواته على السلم الخشبى تعزف لحنا بديع الخشونة فيه أنس كبير. راح عبدالبصير يهبط مع الإيقاع المتباعد إلى قاع النوم السحيق، فى اطمئنان لم يعهده فى حياته مطلقا.

(٣٠)

وافقهم على أن يسافر بعد الغداء مباشرة. وبعد الغداء وافق على الانتظار للعصر حتى تخف حدة الحر. على مقعدين كبيرين من الخيزران فى الشرفة المطلة على الشارع ظهرت أمامهما الحقول الخضراء تحفها أشجار الكافور والجزورين. منذ ما يزيد على الساعتين وعبدالبصير يحاول استجماع شجاعته ليطرق الحديد وهو ساخن.

لاحظت سعدية ارتباكه وإفراطه فى التدخين، وشروعه فى الكلام ثم عدوله عنه. ابتسمت:

- «فى نفسى شىء»!!

- «شىء واحد»؟!

- «توكل على الله وقل»!

غطى تردده بضحكته الساذجة الخشنة كصفيح يخبط فى بعضه. ضحكت من ضحكته. أخيرا نجح فى أن يتلعثم:

- «أريد أن أقول.. مادمت أنت اعترفت بأنك.. أحببتنى.. وإذا كنت أنا فهمت معنى قولك بالضبط!.. فلماذا لا»..

- «نتزوج»!

- «مثلا»!!

- «يوم المنى»!!

- «صحيح»؟!

قالها كطفل تلقى من أمه وعداً مبالغا فيه. كررت هى:

- «يوم المنى فعلا!! أصبحت أشعر أن مستقبلى الفنى»..

- «قولى مستقبلنا معا»!

- «مضبوط ! مستقبلنا يربطنا الآن بعد الحب ! عمري ما تعجلت الوصول إلى شىء إلا الآن! عمرى ما فكرت فيه بجد إلا من لحظة ما عزفت لى! شعرت أننى وصلت بالفعل! صرت مغنية بحق وحقيق! عزفك أشعل فى النار! أمس وأنت تعزف لى ! تأكدت أنه لا حياة لى بدونك! اسأل ست الحاجة ! طول النهار أكلمها فى الموضوع! هى أخذت على نفسها عهداً بأن تتركنى أرسم مستقبلى وحدى أختار من أحبه حتى ولو كان شحاذا!! أمى ست تعجبك ! مثقفة! صاحبة مفهومية ! علمتنى أن الوصول بشرف هو النجاح الحقيقى الدائم! إذا اعتمدت الواحدة منا على فنها وحده تضمن أن الزمان لا يخونها أبداً !! فالفن هو الصاحب الوحيد الذى لا يغدر بصاحبه ! هو السند! أما الجمال والمال والوسايط فكلها أسباب زائلة مهما طال عمرها!! نصائحها حلق فى أذنى! أتذكرها كلها تقدم لى عريس غني يعشمنى بأنه مستعد لأن يفتح لى شركة اسطوانات خاصة بى!! ياما قابلنى

ناس استعدوا للصرف على من جنيه لمليون لكنى لم أحب أحداً منهم! كلهم كنت أشعر أنهم غرباء! أما أنت فأشعر أننا من طينة واحدة! التفاهم بيننا على أتم ما يكون»!

التمعت فى عينيه نظرة بلهاء غبية:

- «يعني أنت موافقة على أن نتزوج»؟!

ضحكت حتى تمايلت:

- «نقرأ فى سورة عبس؟ ماذا أقول أنا من الصبح»!!

- «إذن فأنا الآن أسعد مخلوق فى الدنيا كلها»!

- «علينا الآن أن نكمل هذه السعادة بأسرع ما يمكن!! لا أعرف ماذا جرى لى ؟! أريد أن أغمض عينى وأفتحهما فأرانى على مسرح أضواء المدينة وأنت من ورائى تقود الفرقة الموسيقية!! لا أعرف لماذا أشعر الآن أننى ضيعت الكثير من عمرى فى الإنتظار وقد حانت الفرص الكثيرة للتفاهم مع لجنة الاختبار لكننى كنت دائما أهرب من الاختبار فإذا عدت إليه شعرت أنى مرغمة عليه فأرتبك فأسقط فى الاختبار!! تصور أننى الآن متأكدة أننى لو تزوجتك فسأغنى أمام أى لجنة بقلب جامد وأعصاب هادئة! سوف تندهش طبعا إذا قلت لك ابعث من يأتى بالمأذون ليعقد قراننا!! قلبى يدق بعنف مخيف!! قلبى يقول لى أسرعى ياسعدية!! هل أنا جننت ياترى؟! يجوز!! وبكل صراحة أنا الآن أستمع لهاتف يقول لى إن الطرق كلها ستضيع من تحت قدمى إذا لم نبدأ مشروع مستقبلنا ابتداءً من هذه اللحظة»!!

شعر عبدالبصير كأن الحياة قد أعطته أكثر مما يستحق؛ كاد يشك فى كل ما سمع يظنه محض مزاح. إلا أنه قال:

- «لا يصح أن نتعجل فى هذا الأمر بالذات!! يجب أن نؤسس بيتا متينا كخطوة أولى لنتفرغ للفن بقلب خال من أى هم غير هم الفن وحده!! أعطنى فرصة أشهر قليلة»!!

- «لماذا بحق الله»؟!

- «أدبر أمرى! أجهز الشبكة أولا! ثم المهر! وأيضا يجب أن أستأجر شقة محترمة فى حى محترم فى القاهرة نفسها مرة واحدة»!!

- «شف ياعبده! أنا مبسوطة والحمد لله! عندى أموال كثيرة ! أرضنا كلها حديقة تروينا بالمال طول أيام السنة وأنا أكسب الكثير جدا من الحفلات والأفراح ولا أصرف شيئا!! دع كل شىء لى فأنا أحببت وسوف أضحى فى سبيل حبى ففرحتى لا تقدر بمال»!!

رفع يده في حركة احتجاج حاسمة:

- «لا! كله إلا هذا! لا شأن لى بمليم واحد من أموالك فأنا لست أكتع أو أعمى! أنا الآخر أكسب الكثير ولا أسمح لسيدة حتى ولو كانت حبيبة قلبى أن تنفق من جيبها على زواجى !! أنا الرجل ولابد أن أحقق رجولتى كاملة مما جميعه وإلا فلن أحترم نفسى لن أشعر بلذة الزواج وسأبقى طول عمرى مكسور العين»!!

لمسة من الضيق عبرت وجهها:

- «تاهت ولقيناها! استلف منى أى مبلغ تشاء! يكون دنيا عليك ترده لى وقتما تتيسر أحوالك! لا تضيع الوقت فأنا ملهوفة على الفرح والسفر! زفافى أصبح هو السفر! أشعر أنى منذ شاهدتك أصبحت على سفر!! ومن كان على سفر فالانتظار يقتله»!!

- «صدقينى أننى أشد منك لهفة! وأعدك أن الوقت لن يطول! ثلاثة أربعة أشهر بالكثير»!!

- «راحتك!! أنا فى انتظارك على أحر من الجمر! عليك أن تتذكر هذا دائما»!!

- «كله على جناب الله»!!

أوصلوه إلى محطة القطار فى موكب لطيف: هى وشقيقتها وأخوها بهادر وعم عثمان. لم ينصرفوا إلا بعد أن تحرك القطار. كان رسغها المرصع بالأساور الذهبية يلوح له تلويحة الوداع بحركة ذات معنى، كأن الحركة تقول له: ربنا معك!

إياك أن تطيل الغياب! تذكر دائما أننى فى انتظارك. فلما انسلخ القطار عن الرصيف واندفع يشق الحقول الخضراء فى تصفيق متتابع جهير الصوت؛ سالت على خديه قطرات دمع بارد مريح. شعر أنه يستقر فى جلسته؛ والأشجار وأعمدة التليفونات تندفع نحوه لتختفى خلف ظهره. سرعة القطار أشعرته بقرب المسافات. استقرت نظراته على صندوق الكمان وحقيبة ملابسه فوق الرف؛ هذا كل ما يخصه؛ فهو إذن ليس فى حاجة ماسة إلى طنطا؛ لا شىء يربطه بها على الإطلاق؛ كل مدخراته فى جيبه.

اعترته لذة فائقة حينما رأى من شباك القطار لافتة محطة طنطا على حاملها فوق الرصيف تزحف إلى الخلف. حلا له أن يوهم نفسه بأنه لم ينتبه؛ ثم ابتسم ساخرا من نفسه إذ هو موقن أنه قد تجاهل محطة طنطا عن عمد. ثم تبين له شيئا فشيئا أنه قرر أن يلقى بنفسه فى البحر دفعة واحدة وليكن ما يكون؛ أن يسافر إلى القاهرة فيقتحم الوسط الفنى ليفرض وجوده عليه مهما كانت الصعاب والعوائق، ليصبح جديرا حقا بأن يكون عريسا لسعدية المليجى.

(٣١)

أيام طويلة وأسابيع كثيرة مضت على وجوده فى شارع محمد على، دون أن تبزغ فى أفق الليالى الطويلة المملة بارقة من أمل. فى كل ليلة يأتى إلى قهوة التجارة التى يتمركز فيها الموسيقيون والمطربون والمتعهدون، ورقم هاتفها مدون فى مفكراتهم جميعا؛ الجرسون نصفه جرسون ونصفه سمسار حفلات؛ طول النهار والليل يتلقى مكالمات من فنانين يسألونه إن كان قد سأل عنهم أحد؛ ومن متعهدين يتركون أخباراً لفنانين عن مواعيد حفلات، أو يسألون عن بديل ينقذهم من ورطة. وقد يزور المقهى رجل طيب غشيم يريد أن يستدل على كيفية تأجير من يقومون بإحياء فرح لديه؛ فلسوء حظه - وحظ الفنانين بالطبع - يقع فريسة فى يد الجرسون؛ يظل به حتى يملأ دماغه، يلقى فى روعه أنه - خدمة له لأنه رجل طيب

وابن حلال كما يبدو عليه! - سيقيم له أفخم فرح بتراب الفلوس يحييه أشهر الفنانين.

- «عندى لك أكبر مطربة زفة فى مصر! هى التى زفت الملك فاروق على الملكة ناريمان!! سأجيء لك براقصة كالمهلبية! أهديك أشهر وأحدث مطرب دخل الإذاعة ! أختار لك من الآلاتية من يشرفك ويشرفنى ! دع كل هذا لى! ولكن معك كم؟ ما حدود المبلغ الذى تنوى أن تنفقه على الحفل؟ قل لى لكى أجهز لك فى حدوده حفلا يسترك أمام المدعوين»!!

سواء كان المبلغ كبيراً أو صغيرا فإن الجرسون سيلفق له فرقة من المتسولين تظهر عليهم أعراض - مجرد أعراض الفن ليس أكثر. فإن استشعر وعى وقوة شخصية الضحية فلا بأس أن يطعم الفرقة باسم أو اسمين ممن لهم بعض الشهرة فى وسط العوالم. ولابد أن يقبض أولا؛ ثم يمسح المقهى بنظرة استطلاعية يختبر فيها نوعية الزبائن. ولأنه ملم بأخبارهم جميعا فإنه يختار من يعرف أنه فى حالة قحط منذ شهور طويلة وفى أشد الحاجة إلى مليم؛ ينتحى به جانبا ، يتودد إليه، يلمح له أن أحد أقاربه - ربما ابن خالته أو ابن أخت زوجة. سوف يتزوج وقد قصده فى خدمة، وهو محرج فى الواقع لأنه مفروض عليه مجاملة قريبه ومن جيبه الخاص وأمره لله. الفنان المتعطل منذ شهور ما أن يسمع هذا حتى يداعبه الأمل فى فلوس تكفى ولو لسجائره وحشيشه وتسديد جزء من حساب المقهى؛ يجد نفسه قد تورط فى مجاملة لصديقه الجرسون بأجر أقل من رمزى. أما الفنان الحق، المشهور فى الوسط، فإن الجرسون لا يستغفله، إنما ينتفع منه بطرق لطيفة، كأن يحرص علي تبليغه أى خبر؛ وهذا الحرص على درجات تحددها درجة أريحية الفنان ومدى كرمه فى دفع البقشيش؛ فقد يقتصر الحرص فى التبليغ على رؤية الجرسون للفنان، إذ يتذكر فجأة فيهتف قائلا: على فكرة فلان سأل عليك من أجل كذا؛ وقد لا يتذكر إلا إذا سأله الفنان بشكل مباشر؛ وقد يهم بتبليغه الخبر على الفور فيكلمه فى تليفون جيرانه أو يبعث له بمرسال خاص يبحث عنه.

وثمة فرصة أخرى يهتبلها الجرسون؛ تلك هى وقوع المتعهد فى ورطة مفاجئة ؛ إذ كثيرا ما يتغيب أحد الفنانين عن الحضور لسبب مفاجىء أو لآخر؛ فمن مقر الحفل يتصل المتعهد بالمقهى ليسأل الجرسون فى تلقائية: من عندك الآن من المغنين؟ أو الآلاتية؟ أو المنلوجست؟ عندئذ تتجلى براعة الجرسون وسرعة بديهته؛ فلربما كان المقهى فى تلك اللحظة يغص بالفنانين الجالسين فى انتظار فيض الكريم؛ لكن الجرسون اللئيم يتغاضى عن هذا الزحام قائلا: عندى فلان؛ ويذكر من يعجبه ويرتاح إليه، من يستفيد منه أكثر من غيره. فإن سئل عن غيره ذكر من يليه فى درجة السخاء؛ ثم يتوقف عند ذلك؛ فيقول المتعهد: إذن ابعثه لى على العنوان التالى. يأخذ العنوان بسرعة يقوم بقليل من التمويه؛ فلذكائه يدرك أن مجرد رنين التليفون في المقهي فى مثل هذه اللحظة يدق له قلب الجميع فنزوع أعينهم - خلسة تراقب الجرسون وهو يسرع إلى السماعة سيما وأنه - كابن لشقيقة صاحب المقهى والمسئول عن إدارتها - ينبه على الجميع أن لا شأن لأحد بسماعة التليفون غيره حين يرن. كل منهم يتوقع أن يكون هو المطلوب، أو يتعشم فى حركة جدعنة من الجرسون. إلا أن الجرسون أذكاهم جميعا، ابن خاطئة بل ابن زانية، يتكلم بهدوء وبصوت واطىء دون أن يظهر عليه أدنى اهتمام؛ ثم يضع السماعة ويمضى إلى النصبة منهمكا فى عمله كأن شيئا لم يكن. فإذا تحكك به أحد المتطفلين فى مشروع مساومة فإنه - والبراءة الشديدة فى عينيه - يوضح له أن بيت المعلم هو الذي كان يتكلم، أو أن تاجر الفحم يسأل عن المعلم. ولربما أطال فترة التمويه حتى ينسى الجميع فى خضم الطاولة والدومينو والورق أن الهاتف قد رن؛ والجرسون خبير بعد ذلك فى التقاط مطلوبه، بغمزة عين؛ ثم بغمزة يد، تتلوها غمزة يد مقابلة؛ واحدة تغمز بورقة العنوان والثانية تغمز بورقة البقشيش أو بوعد مؤكد فى آخر الليل.

كل هذا أصبح عبدالبصير يفهمه جيدا؛ فشىء شبيه به يحدث فى قهوة الحللى بطنطا ولكن على نطاق ضيق جدا و غير متقن. ومنذ بداية ارتياده لقهوة التجارة

بشارع محمد على بالقاهرة وحاجز من الأنفة والكبرياء يقوم بينه وبين الجرسون؛ لا يريد أن يقع تحت طائلته وإلا أخذ فى الانحدار إلى ما لا نهاية.

اكتفى بالظهور فى المقهى عدة ليال حاملا صندوق الكمان؛ وتعرف على الكثير من قدامى الفنانين الذين اتضح أنهم يعرفون أباه؛ فكل رواد قهوة التجارة ليسوا من العوالم والآلاتية، بل يؤمها أيضا رهط من قدامى الملحنين الذين حققوا بعض المجد وبعض الشهرة فى مطلع حياتهم ثم خبت عنهم الأضواء إما لتخلفهم وإما لانتشار أذواق جديدة لم يتواءموا معها: يؤمها كذلك عدد من المطربين الذين اشتهرت لهم بعض أغنيات فى الراديو ولم يحالفهم النجاح فى غيرها. إضافة إلى هؤلاء وأولئك يؤمها عدد من الموهوبين الأصلاء تقدم بهم العمر دون أن يفلحوا فى إيجاد فرصة تضعهم فى منطقة الضوء وظلوا مع ذلك محتفظين باحترامهم لأنفسهم ومثابرتهم على التحصيل والتدريب؛ ومنهم من يصل إلى مستوى مدهش يضارع غناه كبار اللامعين؛ ولهذا يأنفون من شغل العوالم لشعورهم المتضخم بأنهم أنداد – وزملاء سابقون – لفلان وفلان من النجوم الكبار؛ ومنهم من سحقه الزمن وسوء الحظ فكسر رغيف العيش أنفه فأصبح يبيع ألحانه من الباطن للمشهورين يضعون عليها أسماءهم لقاء ثمن بخس؛ ومنهم من تحول إلى مجرد مرجع حى يلجأ إليه المحترفون للتعرف على ألحان تراثية يدرسونها أو يسرقونها. هناك إلى ذلك كله طائفة من الموهوبين الشبان الأذكياء لجأوا إلى قهوة التجارة لتحصيل الخبرة واكتساب الشجاعة فى مواجهته والتمرين على التعامل معه فى حفلات وأفراح يستكشفون فيها مواهبهم يجربون ما لديهم من أفكار وأساليب. هناك أيضا طائفة كبيرة من أنصاف وأرباع الموهوبين، مجانين الشهرة، الغارقين فى أحلام يقظة لا خروج منها، مرضى الإحساس المفرط بالوسامة، خاصة أولئك الذين تحمل وجوههم شبها من نجوم لوامع. هؤلاء وحدهم هم مصدر الضجيج والصخب والإزعاج؛ هم كذلك معرض تحف لمن يراقبهم، ومثار تسلية وفكاهة وربما كآبة ومرارة؛ إذ ترى ألوانا شاذة وغريبة من تسريحات الشعر، والملابس

الفنتازية المبالغ فى ألوانها وموديلاتها الصارخة، والسلوكات الميلانخوليا الفاقعة، والنماذج المتخشبة، المتورمة، المهرجة؛ هى فى النهاية شخصيات مستعارة، معظمها فضفاض على من استعارها. وفى جلسة واحدة لمدة ساعة مثلا ترى مسوخاً شوهاء من فريد الأطرش ومحمد عبدالوهاب ومحمد فوزى وكارم محمود وعبدالعزيز محمود وعبدالحليم حافظ وصباح وشادية وليلى مراد ونور الهدى وعبدالغنى السيد ومحمد قنديل ومحمد عبدالمطلب وجلال حرب ومحمد أمين، وفريد شوقى وشكرى سرحان ويحيى شاهين وكمال الشناوى ورشدى أباظة.

قد يصادفك وسط هذا الركام الهائل من الشخصيات الكانتو نسخة عتيقة باهتة من صالح عبدالحى أو عبداللطيف البنا أو عبده الدمرداش أو محمد العربى من أعمدة الغناء البلدى.

عبدالبصير يشبه هذه المقهى بسوق الكانتو الذى تباع فيه الملابس المستعملة؛ إذ تري فى هذا المقهى خلع الوسط الفنى من كل قديم الطراز وبال ومرقع. إنهم رجال تم غسلهم وكيهم جيدا لإخفاء مافيهم من عيوب. كما أن من يتعامل معهم يعرف سلفا أنه يشترى سلعة مستعملة قديمة نصف عمر؛ سيما وأن سوق الكانتو الفعلى الخاص بالهدوم القديمة يقوم على مرمى حجر من هذه المقهى فى أول شارع الموسكى، ومن المؤكد أن تعاوناً كبيراً يتم بين السوقين؛ فبقروش زهيدة يستطيع الواحد من هؤلاء أن يخطو - وهو جربوع - بضعة أمتار إلى سوق الكانتو ليخرج منها بعد دقائق أفنديا محترما يغتر فيه البصر.

يعرف عبدالبصير باديء ذى بدء أنه لن يروج فى مثل هذه السوق لكنه مع الأسف برزخ لابد من عبوره فى البداية إلا أنه مع ذلك منزلق صعب وخطير؛ فمن يعبره إذا لم يكن على موهبة حقيقية ووعى وحرص وصحوة دائمة فإنه قد يبقى محشوراً فيه إلى الأبد فتنضغط موهبته وتجف من فرط الابتذال تصبح سلعة رديئة فى سوق الكانتو.

بداية الانحدار - كما يعرف - تبدأ عادة بالتفريط فى الكبرياء الفنى بالذات،

وقبول التنازلات بجميع أنواعها ودرجاتها. إن فقدان الكبرياء يقود إلى قبول أى شىء؛ لتبدأ درجات الهبوط من تنازل إلى تنازل؛ وبذلك يكون المرء قد حكم على نفسه بأن يظل طول عمره فنانا من الدرجة الثالثة فى أحسن الأحوال، تلتصق به كلمة «أرتيست» ، التى - برغم شرف أصلها - باتت قرينة للعوالم والآلاتية.

(٣٢)

القعدة فى قهوة التجارة أمست مملة سمجة مثيرة للكآبة والقرف. المشكلة أنه طول عمره لم يتعلم أى لعبة من اللعب المسلية؛ حتى القراءة جربها كثيرا؛ فاكتشف أنه عاجز عن نطق المفردات نطقا صحيحا؛ أعاقته إشكالية التشكيل فلا يعرف متى ينكسر الحرف أو ينفتح أو ينضم أو يسكن؛ الألفاظ متشابهة والمعانى تلتبس فى ذهنه تبلبل أفكاره تشوشها تنزل عليها ثقيلة كالكابوس؛ فلقد ترك المدرسة قبل أن يجيد فك الخط أو رسمه جيداً؛ حتى توقيعه يرسمه على الورق بأصابع عاجزة مرتعشة؛ وحينما أخذ كتاب الأغانى من البحراوى بك كان يظن أنه سيتمرن فيه على القراءة ، فما كاد يفعل حتى خيل له أنه يغوص فى غابة شائكة موحلة ظلماء؛ حاول وحاول بإصرار لكنه بعد دقائق معدودة يدوخ ويكبس عليه النوم، فيرمى الكتاب ويستريح؛ إلا أنه نجح فى النهاية فى القدرة على قراءة خبر فى جريدة، شرط أن يقرأه فى سره ويفهمه بالفهلوة؛ أما الآيات القرآنية التى يؤدى بها صلواته الخمس فإنها معدودة على الأصابع من قصار السور حفظها من كثرة ترديدها فى الراديو وسرادقات العزاء. هو مع ذلك يجيد التحدث، لسانه طلق، يعرف حصيلة من الألفاظ الفصيحة التى يرددها الخاصة فى حديثهم اليومى من الفنانين والموظفين. فى حديثه قد يخدع العامة بأنه مثقف؛ لكن من كان على درجة بسيطة من الوعى والثقافة لا يمكن أن يقتنع بهذه الشخصية؛ وآخر ما يتصوره أن يكون صاحبها له أدنى علاقة بالفن؛ سيما وصوته ملىء بالتطجين البلدى حتى ليبدو كأنه سباك أو ميكانيكى أو بائع كرشة. لم تبهره السينما كأبناء

جيله من المدن الإقليمية؛ لكنه كان يدخل السينما من حين لآخر، خاصة الأفلام الغنائية الاستعراضية؛ فإذا كان الفيلم متحذلقا يعتمد على عمق المشهد وفنية اللقطة على حساب الحدوتة فإن النوم سرعان ما يعقد أجفانه؛ العجيب أنه كان مشهوراً بين أصحابه بأنه من عشاق السينما إذ يلتقونه كثيرا أمام بابها فى انتظار الدخول؛ ولا أحد منهم يعرف أنه اعتاد أن يدخل السينما كلما شعر برغبة فى النوم العميق.

كل هذا بدأ يعيه مؤخرا بسبب طول القعدة فى المقهى التجارية. مع ذلك فالمقهى شكله بالفعل مثير للفرح ابتداءً من ساعة الأصيل؛ حيث ترتص الكراسى والمناضد على الرصيف داخل البواكى؛ تمتلىء بمهرجان حقيقى من الأفندية بمختلف ألوان الملبوسات الزاهية. الجرسون وصبيانه فى حركة دائبة؛ صوت الراديو وزهر الطاولة وطرقعات النرد يمتزج بأحاديث الجالسين وضحكاتهم ومطارحاتهم الفكاهية؛ بأصوات أجراس الترام المجلجلة على الدوام فى قلب الشارع تحتك عجلاته بالقضبان الغائصة فى الأرض.

يحب قهوة التجارة فى هذه اللحظات فحسب؛ إذ يرتدى وينزل من لوكاندة البرلمان أشهر لوكاندة فى ميدان العتبة على بعد خطوات قليلة من المقهى. اعتاد أن يخرم من قلب سوق الخضار ليجلس على إحدى غرزه - وما أكثرها - ليشرب حجرين من الحشيش المتوفر فى السوق بكثرة. يصل إلى المقهى مع احمرار شمس الأصيل المنعكس فى احمرار عينيه. يجلس على الرصيف؛ الأرض أمامه مرشوشة بخرطوم المياه؛ زحام وحركة فى الشارع لا تهمد ليل نهار؛ كأن شارع محمد على هو معدة المدينة وأمعاؤها. يشعر بلذة فائقة لأنه أخيرا يجلس على مقهى الفنانين فى القاهرة منتظرا فرصته فى اللمعان. يسرح به خيال الحشيش فى دروب وردية؛ وكلما شعر بأن خياله سيهبط على الأرض سارع بإشعال سيجارة وطلب فنجان من القهوة السادة . يظل فى هذه النشوة منفردا بنفسه متصلا بالآخرين فى آن معا. فى حوالى التاسعة مساء تتعرى الكراسى شيئا

فشيئا؛ تلك هى الساعة الحرجة، ساعة أن يكون كل واحد من الجالسين قد عرف له طريقا للسهر فى حفلة فى فرح ملهى فى تسجيل إذاعى. لا يبقى فى المقهى سواه وبعض التجار والسابلة؛ حينئذ يحس بالكآبة ثقيلة سمجة متسلطة كضابط شرطة مصرى من أصل وضيع. ينهض عائدا إلى لوكاندة البرلمان؛ يغلق على نفسه باب الحجرة الصغيرة ذات السرير الواحد، التى كانت فى الأصل مطبخا مجاورا لسلم الخدم قبل أن يحولها صاحب اللوكاندة إلى حجرة للنوم؛ يلوذ بكمانه، يظل يصول ويجول فوق الأوتار حتى الصباح، يناجى طيف سعدية المليجى؛ كأنه يكتب لها الرسائل؛ يبلغها على البعد همومه وأحزانه وإصراره على خوض التجربة حتى النهاية مهما كانت مجهدة؛ لقد جاء لينجح وانتهى الأمر وسوف لن يعود إلى طنطا ثانية إلا زائرا؛ سوف يحقق لسعدية كل ما وعد به؛ هو يدرك من الأول أن الرحلة لابد أن تكون مضنية؛ وبقدر ما يشقى فيها الآن يوفر على سعدية وعلى نفسه متاعب كثيرة.

كان يلتقط الخاطرة الموسيقية التى تعبُر خياله كبرق نجوم تتهاوى فى الأفق البعيد؛ يتصيدها بمهارة فائقة؛ يحاصرها بالقوس فى كل المقامات حتى يمسك بها من تلابيبها ينحت ما حولها من ثرثرة نغمية كمن ينزع الورق عن قلب الخساية ليصل إلى لبها؛ يبرزها. الخاطرة تجىء بالخاطرة؛ مجموعها يصنع شكلا من الأشكال الفنية التى تعلمها واستوعبها جيدا من حفلات الكنائس فى طنطا ومن مناقشات الهواة الخبراء فى الاستماع؛ فهذه لونجا وتلك تحميلة وتلك سوناتا أو بشرف أو كونشرتو.. إلخ؛ حتى الفروق الدقيقة بين هذه الأشكال الفنية أدركها بجهده الذاتى من خلال التمعن فى نماذج من كل شكل على حدة؛ حتى أصبحت الأشكال فى حد ذاتها لا تعنيه؛ إنما يعنيه ما تحتويه هذه الأشكال من مضمون شعورى نغمى؛ فإذا كانت الفكرة سريعة عابرة للشعور فهذه لونجا، وإن كانت عريضة عميقة تحتمل عدة آلات مشاركة للكمان تستطيع كل آلة إثبات وجودها بتقاسيمها الخاصة النابعة من الفكرة الأصلية فهذه تحميله؛ وإن كانت الفكرة

كمانية صرفة تحتمل الحوار مع الآلات الإيقاعية والأوركسترا فهي كونشرتو.. إلخ.

لكن حتى متى ستستمر هذه البطالة؟ لقد أوشكت كل مدخراته على النفاد؛ وإذا لم يجد حلاً فى خلال أيام قليلة فإن وضعه سيصبح مؤلما جدا وقد لا يحتمله. فكر فى أن يحتجز أجرة القطار وحدها في مكان خفى ضمانا للرحيل إلى أى مكان آخر؛ لكن هل ثمة من مكان آخر؟! حينئذ عجزت الأوتار عن مجاراة ذهنه الشارد المشتت؛ فنحى القوس جانبا؛ أشعل سيجارة ملفوفة؛ قام فتوضأ صلى الفجر؛ بعد الصلاة تبين أن موعد الأذان لم يحن بعد؛ ذهب ليصلى الفجر ثانية جماعة فى مسجد الحسين.

فى طريق العودة إلى اللوكاندة حرف طريقه تلقائيا إلى شارع محمد على. على مقربة من المقهى استوقفته لافتة كبيرة على دكان: تصليح الآلات الموسيقية. أحس بفرح شديد؛ أشرقت الفكرة فى رأسه كأذان الفجر المفاجىء دائما. فى تلك الليلة نام مطمئن البال يردد قولا مأثورا سمعه كثيرا: ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج.

(٣٣)

صاحب محل تصليح الآلات الموسيقية لم يصدقه حين قال له إنه ابن الحاج مصطفى الصوفانى من طنطا. فصاحب هذا المحل زبون قديم لأبيه، يعرفه معرفة جيدة وإن كان لم يره منذ بضع سنوات. اطمأن صاحب المحل لعبد البصير وسلمه المحل ليتفرغ هو لمشاوير خاصة.

انتظم العمل فى المحل بصورة مفرحة، أصبح يقبل الوارد الكثير الذي كان يعتذر عن عدم قبوله سابقا بحجة الندرة فى اليد العاملة المدربة الخبيرة؛ بل أصبح يقبل الحالات المستعصية؛ فكثيرا ما كانت تجيئه آلات خربة تماما لا تصلح إلا لبائع الروبابيكيا فيفاجأ بأن عبدالبصير يقبلها فيبرك عليها يومين أو ثلاثة فيخلق منها آلة ثمينة يرتفع سعرها إلى أرقام شاهقة، مما يتيح له أن يطلب لقاء

تصليحها ما يشاء من أجور عالية ربما أغلى من ثمنها جديدة لأن قيمة الآلة فى الواقع فى قدم صندوقها. ثم إن الرجل كان متخصصا فى آلة الكمان وحدها؛ فإذا بعبدالبصير لديه خبرة عميقة وواسعة بآلات الكمان والعود والقانون؛ الآلات التى برع أبوه فى تصنيعها وإصلاحها على السواء.

انتعش المحل انتعاشة واضحة. وكان عبدالبصير ذكيا، إذ اتفق مع صاحب المحل على العمل بالنسبة؛ تبلغ النصف؛ كل آلة يصلحها يتقاضى نصف أجرها. ولأنه كان يطلب أجورا عالية جدا فقد عم الخير وفاض. بات الرجل حريصا على بقاء عبدالبصير معه؛ سيما وقد استرد المحل سمعته وأضيئت لافتاته وفتارينه. قال له ذات ليلة:

– «أين تبيت»؟!

– «فى لوكاندة البرلمان»!!

استنكر الرجل هذه الرفاهية الشديدة:

– «سائح ياخى»؟!

ألحقه باثنين من الموسيقيين الشبان فى مثل سنه؛ هما سامى دوير ومدكور أبوحليمة؛ فى حجرة واسعة فوق سطح عمارة عتيقة فى مواجهة القهوة التجارية. سامى عواد ومدكور ناياتى وكلاهما يدرسان فى معهد الموسيقى العربية ويعملان فى الأفراح مع العوالم.

شهر واحد أمضاه معهما، شعر أثناءه بأنه على غير وفاق معهما. كان النفور فى الواقع متبادلاً؛ فهما فى نظره محض آلاتيه من طائفة العوالم حتى ولو كانا يدرسان فى معهد الموسيقى فضلا عن أن مستوى الموهبة والخبرة عندهما قليل وفج. لشدة استهانته بهما لم يفتح آلته أمامهما مطلقا. فى المقابل هو فى نظرهما محض صنايعى يعمل فى إصلاح الآلات كما أنه لا يجيد القراءة والكتابة. حين شعر باستعلائهما الأجوف عليه لم يحاول تحسين صورته فى نظرهما بأية وسيلة؛ فهو فى شغل عنهما وعن نفسه؛ شغله الشاغل الآن هو سعدية المليجى: كيف يدبر

لها بيتا يؤسسه فى هذه المدينة؟ كيف يسرع بشراء الشبكة التى لابد أن تكون تحفة ذهبية نادرة؟ كيف يعقد قرانه عليها ويشبكها فى حفل واحد ثم يعود ليستأنف الكدح حتى يؤسس البيت ليجىء بها عروسا تتلألأ فى هذه المدينة تخسف نجومها الزائفة الصدئة؟ عليه أساسا أن ينتهى من كل هذا فى شهور قليلة؛ أما هذان الغران الأحمقان فغداً يعرفان من هو على الحقيقة.

فى يوم جاءه مطرب عجوز يحمل عوداً خربا تماما؛ حتى القصعة تحتاج إلى ترميم دقيق حرج. قال له وهو يبتسم فى خجل إنه ماكان ليأتى له بهذا العود ذى الخشب الثمين العتيق لو لم يكن قد سمع عنه وعن مهارته فى التصليح وإنه مستعد لدفع أى مبلغ فى سبيل استرداد هذا العود لصحته الأولى. بنظرة أولية سريعة أدرك عبدالبصير أن إصلاح هذا العود أمر فى غاية اليسر وإن بدا لسوء منظره غير قابل للإصلاح؛ لكنه كعادة الصنايعى الحويط لابد أن يصعب المهمة كى يرفع أجره. نحى العود جانبا فى صمت باسم؛ أتت يده بحركة ذكية بليغة كأنه يقول: يحى العظام وهي رميم. علق المطرب العجوز بقوله إنه يدرك هذا مقدماً ولكن عشمه فى خبرة الصنايعى كبير. وجد عبدالبصير نفسه يسأله فجأة دون أى مقدمات:

– «ألا تعرف طريق شقة خالية للإيجار؟! بشرط أن تكون محترمة فى مكان محترم تصلح للزواج»؟!

بدا كأن هذا السؤال بمثابة بداية للفصال فى أجر إصلاح العود؛ فأشرق وجه العجوز، صاح على الفور:

– «إن أصلحت لى هذا العود جيدا فلك عندى شقة معتبرة فى هذا الحى خلف قهوة التجارة رأساً !! أنظف وأجدد عمارة فى الحى كله»!!

الشقة كانت فوق شقة المطرب العجوز؛ مكونة من حجرتين وصالة ومطبخ ودورة مياه؛ لا تغادرها الشمس طول النهار؛ لها بلكونة بحرية هواؤها يرد الروح.

لم يحدثه المطرب العجوز عن ظروف هذه الشقة؛ لم يخبره بأنها مشئومة؛ ماتت فيها عروس فى شهر العسل صعقها تيار كهربى وهى تمسح بلاط الشقة بالمياه المتخلفة من غسيل الثياب حيث دلقت الطشت كله دفعة واحدة وكانت بريزة الكهرباد قريبة جدا من الأرض وأسلاكها عارية متآكلة ، فبقيت الشقة من ذلك التاريخ البعيد خالية يخيم عليها شبح الموت الكئيب. يوم تسلم العود صاغا سليما كاد يطير من الفرح، اصطحب عبدالبصير وفرجه على الشقة؛ نزل معه إلى صاحب البيت في الدور الأرضى؛ شهد على العقد؛ ذهب معه إلى السوق لشراء سرير سفرى وحشية من السفنج وبطانية وكرسيين ومنضدة من النوع الذى يفتح ويطوى. ولكى يريح العجوز ضميره أتى بالكهربائى وأشرف بنفسه على إصلاح شبكة الكهرباء وتبديل أسلاكها كلها ورفع برايز التوصيل عن الأرض.

أول ليلة يبيت فيها، صعدت ابنة العجوز تحمل صينية العشاء الحافلة بأكل شهى. ليلتها جلس على الكرسى فى مواجهة العجوز الذى جلس فوق السرير ممسكا بكراسة وقلم؛ راح يمليه خطابا لسعدية المليجى يبلغها نبأ الحصول على عش الزوجية المؤقت فى عمارة فى قلب العاصمة؛ ويطمئنها بأنه لابد قادم إليها فى القريب العاجل مجبور الخاطر بإذن واحد أحد.

(٣٤)

الأستاذ جميل كريم اسم لامع جدا فى القهوة التجارية وشارع محمد علي، يتردد كثيرا فى أوساط الموسيقيين من ملحنين وعازفين ومغنين. هو عازف قانون مخضرم؛ يشاع أنه عزف وراء كثير من مشاهر المطربين القدامى أمثال منيرة المهدية وصالح عبدالحى وعبداللطيف البنا؛ لكنه يفخر دائما بأنه عزف وراء مطربة القطرين فتحية أحمد فى حفلاتها الخاصة، كما أنه رأس فرقة إبراهيم حمودة واشتغل كثيرا مع محمد عبدالمطلب وحسيبه رشدى وغيرهم أيام كانوا يؤدون نمراً ليلية ثابتة فى كازينو بديعة فى وسط البلد؛ وحتى هذه الأيام لا يزال الكثيرون من

مطربى ومطربات سوريا ولبنان يراسلونه ويقومون بزيارته فى منزله كلما نزلوا إلى القاهرة.

منزلة عبارة عن شقة عريضة واسعة فى آخر طابق فى عمارة على ناصية شارع الجمهورية بينها وبين قلب شارع محمد على خطوات قليلة، مما جعله محسوبا بين أهل شارع محمد علي ووسط المدينة معا. تحفل شقته بأثاث عتيق على شىء كثير من الفخامة يليق باستقبال زواره الأجانب؛ ترى فيها الكثير من التحف الثمينة؛ كساعة حائط على شكل آلة الكمان تطلق أنغاما موسيقية كل ساعة وبدلا من البندول إمرأة عارية هى فينوس تتمايل راقصة فى نشوة كلما أتمت العقارب ساعة مضت من العمر. وهناك اسطوانات بدائية قديمة على شكل الكيزان؛ وآلة بيانو كبير مثبت فى الردهة الكبيرة؛ ومرآة بلچيكية مستطيلة مثبتة بعرض الحائط داخل برواز فوق بوابة المدفئة المبنية فى الحائط بالطوب الحراري؛ ومطحنة بن من خشب ثمين مزلط؛ وسجادة عجمى، وصور مبروزة لشخصيات ذات طابع تاريخى ممهورة بتوقيعات أصحابها.

الواضح أنها شقة فنان، كلاسيكية الطابع، تنبعث منها رائحة القدم مضمخة بعطور مخزونة، تمتزج برائحة التوابل العطرية التى تتصاعد دائما من مطبخ الشقة القريب من بابها.

يخطو الأستاذ إلى عتبة الثمانين من عمره لكنه يبدو كأنه لم يغادر عقد الستين؛ أسنانه كلها سليمة متينة؛ بشرة وجهه مشدودة خالية من التجاعيد؛ قامته مستقيمة كالعود صلبة مرنة فى آن. هو رجل اجتماعى بطبعه، أليف، مرح جدا، إذا مشى أو جلس أو تكلم تشعر كأنه يتحرك وفقا لايقاعات موسيقية. منضبط غاية الانضباط فى كل شىء كالنغم المحكوم بإيقاع محدد؛ إذا عزمك على كأس فكأس واحد بالعدد؛ عايزك فى كلمتين فلا تتوقع كلمة ثالثة. مقتصد لا بخيل، قليل الكلام، حتى نكاته لا تزيد على كلمة واحدة؛ ربما نصف كلمة وبقيتها حركة غمزة إيحاء. مع ذلك فنكتة عميقة حريفة تستلب الضحك من أعماق المحزون المكتئب؛ أما

هو فلا يضحـــك على نكاته أبداً؛ ومما يعطيـــها عمقا وطرافة أنه يقولها بوجه متجهم جاد.

إنما الفيض كل الفيض يتدفق بغير حساب حينما ينحنى على آلة القانون يوشوشها بأنامله؛ فإذا بالسموات تنفتح والشموس تشرق والمطر ينهمر بغزارة. أى شرير يجلس أمامه حينئذ فلابد أن يصير فى غاية الرقة.

لأن التسجيلات والحفلات أصبحت قليلة فى حياته فإنه دائم العزف فى بيته. ذلك أن بيته قاعة مفتوحة كل ليلة لجمهوره الخاص وما أكثره وأغناه ؛ من جميع الأحياء والبلدان، ومن البلاد العربية، مشايخ نفط وكبار تجار اعتادوا دعوته لإحياء سهرات خاصة بهم فى شققهم وعواماتهم وقصورهم وعزبهم. ولهذا فهو فى تدريبات دائمة، يضم إليه بعض العازفين الشبان الموهوبين. يتقاضى مكافآت مجزية ثمينة؛ فلا يستأثر بها وحده بل يوزع الكثير منها على عازفيه. مبدؤه فى الحياة أن الجميع يجب أن يناله من الحب جانب.

زوجه نوارة حياته. هى أصغر منه بعشرين عاما على الأقل، سمينة بعض الشىء؛ جميلة خضراء العينين تشبه فتيات أغلفة المجلات الفنية فى عشرينات هذا القرن؛ تحتفظ بحيوتها كاملة رغم أنها أصبحت جدة؛ تشيع فى البيت أنساً ومودة وكرماً، دائما أبدا عندها ما يؤكل فى آخر الليل، وما يشرب فى الزنقات الحرجة المفرحة. بفضل تدبيرها لم يفلس الأستاذ أبدا؛ إذ يجد لديها على الدوام مدخرا يقترض منه.

طويلة القامة مثله، شهية رغم كبرها فى السن؛ ضاحكة بشوشة ، غزيرة الشعر الكستنائى الملموم فى حزمة واحدة علي ظهرها. أنجبت له ثلاثة ذكور وبنتين، تزوجوا جميعا وانتقلوا إلى بيوتهم الخاصة؛ منهم المهندس والحكيمة والمدرسة والمحامى وأستاذ الجامعة؛ لا يجتمعون إلا فى المواسم والأعياد؛ أما فيما خلا ذلك من أيام فجميع رواد البيت هم أبناؤها بالتبنى مهما بلغوا من أعمار. بهذه الخصيصة وحدها - ربما - ظلت الشمس مشرقة عليها وعلى بيتها. لم

تشعر فى أى وقت من الأوقات أن زوجها غابت عنه الشهرة أو انحسر عنه الضوء؛ أن صوت الموسيقى لم يخفت فى هذا البيت أبدا؛ لدرجة أنها وهى تقوم بتنظيف النوافذ والأبواب فى غياب الزوار، تزيح إحدى الستائر فتتساقط أنغام موسيقية كانت عالقة بطيات الستائر؛ وإذا مسحت سطح البيانو بخرقة لامست يدها الأوتار فتقهقه أو تصيح أو تزغرد؛ ناهيك عن ساعة الحائط تموسق الزمن وتضبط إيقاعه.

الهاتف فى بيت الأستاذ لا ينقطع له رنين. هى تعرف جميع الأصوات على الطرف الآخر؛ ترد على كل واحد باللهجة التى تناسبه من المرح أو الجدية أو الرسمية: أهلا ياروح قلبى، مرحبا ياأستاذ، عاش من شافك يامولانا، حاضر ياأفندم.. إلخ. ورغم أنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياة كل واحد ومدى عمق أو سطحية علاقته بالأستاذ فإنها تبدو دائما كأنها لا تعرف شيئا. تعرف كذلك أن جرسون قهوة التجارة ألعبان محتال يختلس عرق الفنانين؛ ومع ذلك تكلمه باحترام إذا طلب الأستاذ فى الهاتف؛ بذكائها الخارق تحلل كلماته التى سأل بها عن الأستاذ فتفهم ما وراءها وما الذي يريده بالضبط رغم أنه لم يصرح؛ وتقول لزوجها:

– «الواد فلان سأل عليك اليوم ويظهر أنه يريدك فى كذا أو كيت»!!

فى الغالب يجىء توقعها صحيحا مائة فى المائة . وإذ يذهب الأستاذ إلى قهوة التجارة يأخذ مجلسه على الرصيف ولا يعنى بسؤال الجرسون عما كان يريده من السؤال عنه فىّ الهاتف؛ بل يتركه حتى يتكلم هو؛ وفى النهاية لا يعنى بالرد عليه إلا بتلويحة من يده تعنى أنه الليلة مشغول؛ وحتى لو كان الجرسون يريد إبلاغه بأن المتعهد فلان سأل عنه؛ ففى اعتقاد الأستاذ أنه على آخر الزمن لا يصح أن يتلقى أمر الشغل من جرسون؛ كما وأن جميع المتعهدين يعرفون هاتفه؛ ومن لم يكلمه بنفسه ويذهب إليه للاتفاق معه فليس له عنده سوى الإهمال، إياً كانت شخصيته.

(٣٥)

كان الأستاذ متوجها ذات عصرية إلى قهوة التجارة ليشرب القهوة والنارجيلة على الرصيف مستمتعا كعادته بشكل الحياة والزحام ساعة الأصيل، بمجرد ما حود فى شارع محمد على تسمر فى مكانه، شدته من أذنيه كالخطاف أنغام تحلق فوق رأسه تغمره بالبهجة تهز كيانه هزا، صادرة عن آلة كمان فى مكان ما، أنغام أشد صعوبة فى عزفها من أنغام بجانينى الإيطالى أكبر عازف كمان فى العالم فى عصره، لأول وهلة خامره الظن بأن الراديو فى واحد من هذه المحلات مفتوح على إذاعة أجنبية، لكن الأنغام فيها نكهة شرقية صرفة، فمن يكون هذا العازف الجبار ياترى؟، إنه يعرف أساليب عزيز الشوان وأنور منسى وأحمد الحفناوى وعطية شرارة وليس لأحد من هؤلاء هذه الإمكانية البهلوانية، الأنغام تقتحمه بقوة، تحفر لنفسها مجرى فى أعصابه، أبدا ليست تنزلق على الأعصاب وتمضى لحال سبيلها كمعظم الأنغام التى يسمعها من عازفى الكمان الشغالين فى السوق، هذه الأنغام تقول بالعربى الفصيح إنها صوت جديد طازج، إنها إحساس جديد بآلة الكمان، إنها لمهارة شيطانية فى الركوزات والنقلات واللعب بالقوس وبالحروف وامتطاء المقامات.

توقف فى مكانه شاهرا أذنيه يتلفت حواليه كالتائه الموتور المسلوب اللب، سرعان ماتمكن من تحديد المكان الذى تأتى منه الأنغام، محل تصليح الآلات الموسيقية، مالبث حتى رأى الأنغام رؤية العين تخرج متطايرة من باب هذا المحل.

ياعجبا، طول عمره يمر كل يوم أمامه فمتى انتعش هكذا وامتلأت الفترينة بكل هذه الآلات الثمينة؟!.

وقف على باب المحل فاغرا فاه كطفل يتفرج على أعجوبة من الأعاجيب، لا يكاد يصدق أن هذا الشاب المتواضع الكحيان هو الذى يعزف هذا العزف الحريف المشتعل بأصالة وموهبة كبيرتين.

ابتسم له الشاب عن أسنان كبيرة، ورمقه بعين حولاء قليلا، فتقدم منه الأستاذ واضعا يده على كتفه:

ـ «من أنت ياحبيبى؟!».

ـ «أنا الصنايعى!! أعمل فى هذا المحل!!».

ـ «وما هذا الذى كنت تفعله الآن؟!».

ـ «أجرب هذه الآلة بعد أن أصلحتها إكان مفقودا فيها الأمل! كانت مهشمة!!».

ـ «وأنت الذى أصلحتها أيضا؟! إنك شيطان إذن!! ومن علمك الموسيقى؟!».

ـ «أنا!!».

ـ «يا ولدى أنت عبقرى!! أتعرف من الواقف أمامك يقول لك هذا الكلام؟!».

ـ «أتشرف!».

ـ «جميل كريم!، القانونجى! هل سمعت به؟!».

ـ «طبعا! طبعا! أهلا يا أستاذ!».

وسلم عليه بحرارة، قال له إنه ابن الحاج مصطفى الصوفانى صانع الآلات الموسيقية فى طنطا، فاندهش الرجل بالغ الدهشة من هذه المصادفة العجيبة؟ لأن القانون الذى يعزف عليه الآن ومنذ مايزيد على ثلاثين عاما سبق لأبيه أن أصلحه بعد أن كان قد تخرب تماما!، احتضنه الرجل وقبله، أعطاه عنوان منزله ورقم هاتفه، أوصاه بضرورة أن يزوره فى منزله كل يوم لو أراد.

مضى الأستاذ جميل كريم إلى قهوة التجارة منتشيا كأنه قد أنجب على الكبر ولدا جديدا، أول خاطر داعب رأسه كان الصيغة التى ينقل بها الخبر إلى زوجه أم فريد، ثمة جمل موسيقية كاملة مما عزفه الشاب قد علقت بأذنيه واستقرت فى صميم صدره، وحتى يثبتها ويتمعنها فى الوقت نفسه جعل يرددها بفمه مرات عديدة فى استمتاع شديد، وفي كل مرة يتضح له إلى أى حد هى جملة مكثفة مركبة، شديدة الغرابة رغم أنها مألوفة وحميمة، فانتابه مايمكن أن ينتاب الصياد

الذى اكتشف أخيرا أنه أنفق العمر فى الجرى وراء بحار بعيدة بينما الخير كله فى مصرف ملاصق لبيته.

لم يتخذ مكانه المعتاد فى ركن قصى على الرصيف، بل اتجه إلى نفر فى الركن المقابل فالتحق بهم، انبرى يحدثهم عن هذه المفاجأة التى أذهلته الآن وهو فى طريقه إليهم، ويمط بوزه فى اندهاش عظيم، مرددا:

ـ «صحيح يا أولاد! مصر ولادة بالفعل ما فى ذلك شك!».

(٣٦)

جرت العادة أن يمر على قهوة التجارة كل يوم وهو فى طريقه إلى شقته، فيشرب القهوة السادة، يستمع إلى طرف من أخبار الفنانين، يتفرج على النماذج التعيسة ممن يعيشون فى وهم انتظار الفرصة للشهرة ولو من أضيق الأبواب.

فى تلك الليلة فوجىء بأنه صار محط أنظار جميع من على المقهى، عامله الجرسون باحترام شديد، جاء له بالقهوة قبل أن يطلبها، مزودة بالماء المثلج على غير العادة، وبغير مناسبة راح يمتدح كرمه وأخلاقه، يبلغه من طرف خفى أنه منذ رآه أول مرة أدرك أنه ليس شخصا عاديا فإنه بحكم تودكه فى المهنة يفهم الناس بمجرد رؤيتهم، زميلاه السابقان فى المسكن آتيا فسلما عليه بحرارة واشتياق وجلسا إليه وقد ظهر عليهما تواضع مفاجىء تجاهه، جاءه أكثر من واحد وطلب عنوانه.

فيما هو يتأهب للقيام دخل المقهى رجل ضخم الجثة ذو كرش كبير يرتدى بذلة فاخرة على قميص حريرى ياقته مزيتة بالعرق والغبار، ورباط عنقه مبروم بطريقة همجية، سعى إليه الكثيرون يستقبلونه بترحاب مبالغ فيه، بطريقة يبدو فيها الملق والنفاق، وهو يكتفى بمد يده الرخوة فيسلم على الجميع بغير حماس كأحد أصحاب الألفاد الأباظية فى رهط من رجال ضيعته، حينما وقع بصره على عبدالبصير أثناء مروره التفت نحوه ثانية، فلما رآه يسلم على زميليه تمهيدا للانصراف أشار نحوه بذراعه:

ـ «عايزك يا أستاذ لحظة واحدة!».

نظر إليه عبدالبصير فى توجس واندهاش، قابلته من زميليه نظرات لمس فى ظلها بعض الحقد والحسد، قال سامى دوير:

ـ «ابسط ياعم!! إنفتحت لك أبواب السعد!!».

سأله فى همس مضطرب:

ـ «من الرجل؟!».

شوح مدكور أبوحليمة الناياتى بحركة سوقية:

ـ «ألا تعرف من هذا الرجل؟!».

فكأنه يلومه بقسوة على جهله بمعرفة رجل ينبغى له أن يعرفه جيدا، ثم أضاف كأنه يهديه سواء السبيل:

ـ «يا مغفل! هذا هو نجيب السلحدار!! أكبر متعهد حفلات فى مصر!! يظهر أنه سمع الأستاذ يتكلم عنك!!».

إن هى إلا برهة حتى رأى نجيب السلحدار يتدحرج قادما نحوه، مادا يده الرخوة، تلقاها عبدالبصير بحماسته المعهودة فشعر كأن يده تحتوى على أرنب ميت، قال نجيب السلحدار بلهجة شبه رسمية:

ـ «أود أن أراك غدا هنا!، أو تتكرم بالمرور علىّ فى مكتبى لأتكلم معك كلمتين!».

نزع من جيب قميصه بطاقة صغيرة فيها عنوانه ورقم هاتفه، تناولها عبدالبصير فوضعها فى جيبه:

ـ «إن شاء الله!».

سلم عليهم ومضى إلى بيته، يستجمع فى ذهنه ـ ببهجة فائقة ـ تفاصيل الخطاب الذى سيمليه الليلة على جاره ليكتبه إلى سعدية المليجى يبلغها فيه آخر أخباره وأخبار مدخراته التى تنمو باطراد محروس بعين الله وعنايته، ثم شعر بأن الله يوشك أن يغضب منه لسبب غامض، فانتوى أن يثقل على جاره بكتابة جواب لأمه فى طنطا يطلب رضاها ودعواتها.

تردد كثيرا فى الذهاب إلى نجيب السلحدار، ليس احتقارا لشأنه، وإنما تحديا للحسد الذى لمحه فى عينى سامى دوير ومدكور أبوحليمة، كان فى أعماقه يريد التنكيل بهما ليعرف أمثالهما أنه ليس متكالبا على الفرص الرخيصة مثلهم لأن مستواه الفنى أرفع منهم بكثير، ظل الصراع محتدما فى نفسه حول أن يذهب أو لا يذهب، إلى أن فات موعد إغلاق المكتب، فاستراح لذلك بعض الشىء وإن شعر بغصة فى حلقه، إمعانا فى التنكيل بحقد الزميلين رأى أنه يجب أن يكون موجودا فى القهوة التجارية لحظة ذاك ليعرف زميلاه أنه لم يذهب كما توقعا، لم يتكالب مثلهما.

فى قهوة التجارة وجد نجيب السلحدار فى انتظاره مع الأستاذ كريم، هبا واقفين فى استقباله، قال الأستاذ:

ـ «تشرب قهوتك عندى فى البيت! بينا يانجيب!».

خجل من الاعتذار، فمضى معهما إلى بيت الأستاذ.

استقبلتهم الست أم فريد ببشاشتها المعتادة، قبل أن تمضى إلى الداخل أمسكها الأستاذ من ذراعها.

ـ «إنتظرى ! أنا كلمتك عن من؟».

نظرت أم فريد تلقائيا إلى عبدالبصير وقد اتسعت عيناها بنظرة استطلاع شغوف:

ـ «عبدالبصير الصوفانى! أهو ؟!».

سلمت عليه مرة ثانية بحرارة أشد:

ـ «الأستاذ طول الليل يكلمنى عنك! قال إن مافيك ليس علما ولا صنعة بل هو فيض من نور الله!، لماذا لم تأت بالكمان معك؟!».

ضحك ضحكته البلهاء كصفيح يخبط فى بعضه، فضحكوا جميعا بمرح، وقال لها الأستاذ كأنه أمسك بدليل قاطع:

ـ «أرأيت؟! أقول لك إنه فيض إلهى!!».

امتدت أمامهم أكواب مستطيلة من عصير الفراولة المثلج. ناوله الأستاذ كوبا:

ـ «حقا أين الكمان؟ نريده الآن للأهمية!أين هو؟!».

ـ «فى البيت!».

ـ «وأين هو البيت؟».

ـ «خلف قهوة التجارة بعمارتين!».

ـ «قم هاتها!!».

ـ «ضرورى؟!».

ـ «طلب الأغلبية!».

فيما لايزيد على عشر دقائق عاد بالكمان، كانت رائحة الشواء تعبق فى البيت، وترابيزة السفرة مفروشة بالأطباق، وصوت أم فريد يرن فى المطبخ متحدثة مع أحد، بعد برهة ظهرت فتاة هيفاء تحمل طبق اللحم المشوى، نهض الأستاذ:

ـ «حىّ على الطعام!!».

وسحب عبدالبصير من كتفه:

ـ «هذه العزومة على شرفك أنت! ليكون عيشا وملحا بيننا!!».

ضحك عبدالبصير ولم يعلق، لم يكن قد عرف بعد أن الأستاذ يتبع هذا الأسلوب مع كل الشبان الذين يستقطبهم ليأسرهم بالعيش والملح ليكونوا طوع يمينه حين يطلبهم فى أية سهرة خاصة، أو على الأقل ليجذبهم إلى بيته باستمرار، حتى لاينطفىء صوت الموسيقى فى البيت طالما هو حى.

خلال تناولهم للطعام رن الهاتف، ردت أم فريد بصوتها الودود، صارت ترسل التحيات وعبارات الشوق والترحيب، ثم وضعت السماعة قائلة لهم:

ـ «إنها قادمة فى الطريق!».

قال الأستاذ:

ـ «على بركة الله!».

وقال السلحدار:

ـ «ربنا يستر!!».

جيء بالشاى، ثم جاءت أم فريد فجلست عاقدة ذراعيها على صدرها، سحب عبدالبصير كمانه من خدرها، ضبط أوتارها، إن هى إلا برهة حتى غاب هو عن أنظارهم تماما، لم يبق منه سوى الأنغام القوية الطاغية، ولم يبق منهم سوى: الله الله الله يا سلام سلم! يا عينى! يا مفترى! معقول؟ ده إعجاز، عزف لهم ثلاث لونجات فى خيط واحد، نهاوند واحد ونهاوند اثنين ولونجا دوما جير، فلما رفع القوس قامته عن جسد الأوتار وغادرها شيعته الأوتار بأنة شبقة مكتومة، دوى التصفيق لبرهة طويلة ختمها الأستاذ هاتفا:

ـ «أنت لابد أن تتربع على عرش الكمان!!».

قالت أم فريد فى وجد مشبوب:

ـ «فعلا! لانظير له فى مصر الآن!!».

وقال السلحدار:

ـ «هذا طعم مصرى صرف!».

واستطردت أم فريد:

ـ «فعلا يا أبوفريد! اختلط على الأمر وهو يعزف! لم أقدر على التفريق بين الخواجة والمعلم البلدى!!».

أخلد نجيب السلحدار إلى الصمت مسلطا عينيه عليه فى دهشة بالغة كأنه يريد أن يفك لغز هذا المخلوق العجيب الذى يبدو لمن يراه أميا لا علاقة له بالفن، أحس عبدالبصير بسطوة نظراته، فابتسم:

ـ «لاتندهش هكذا!! ففى داخلى شيطان يعزف لى ثم ينصرف!! وهو مطيع! يحضر وقتما أستدعيه!!».

قال السلحدار:

ـ «وهذا هو العجيب!! كل الشياطين تحضر وتنصرف وقتما تشاء إلا شيطانك! فالحمد لله على كل حال!!».

لحظتها رن جرس الباب، هبت أم فريد واقفة:

ـ «جاءت!».

تبخترت نحو الباب ويدها تلف حزام الروب حول جسدها المحتفظ بتناسقه، فتحت الباب فى مواجهتهم تماما، ظهرت سيدة ترتدى تاييرا رماديا محبوكا على جسدها الرشيق المبروم يعطى لقامتها الطويلة بعض الأرستقراطية، عانقت أم فريد، تبادلتا القبلات، أفلتتها أم فريد واستدارت تنظر إلى السلم كعادتها دائما قبل أن تغلق الباب، خلعت السيدة قبعتها الصغيرة ثم خلعت القفاز الحريرى الأسود، وسلمت عليهم.

حدق عبدالبصير فى وجهها، ملامحها مألوفة، تذكر أنه رأى صورتها كثيرا فى مجلة الإذاعة، ما أن تكلمت بعبارات الاشتياق حتى عرف من صوتها أنها المطربة الإذاعية الشهيرة نادية فهمى.

تحفز السلحدار:

ـ «ما الأخبار يا مدام نادية؟!».

لوحت برأسها فى يأس:

ـ «لابد من تأجيل موعد الحفل عشرين يوما على الأقل!!».

شحبت الابتسامة على شفتى السلحدار، تهيأ للرد، لكن الأستاذ كان أسرع منه:

ـ «فال الله ولا فالك! لماذا التأجيل؟!».

هى نفسها كانت مستاءة من فكرة التأجيل، غير مرحبة بها، إلا أنها نفخت، واقشعرت ملامحها فى ألم:

ـ «عازف الكمان الأول عندى مريض وملازم الفراش بأمر الطبيب!، إنه عصب الفرقة كما تعرف!!».

شوح فى وجهها بعشم أبوى:

ـ «أعرف أنه مريض ربنا يشفيه ولكن هل خربت الدنيا؟ عندنا من هو أفضل منه! برقبته!!».

تراجعت برأسها فى استهوال:

ـ «لايمكن ! أغنيتى فيها صولو كمان لايقدر عليه إلا حريف! أنت تعرف ألحان محمود الشريف! إذا لم يكن الصولو متقنا ضاع اللحن كله!!».

هز الأستاذ أصابعه فى وجهها:

ـ «سأريحك!».

ثم نظر إلى عبدالبصير:

ـ «أخ عبده! تحفظ لحن أغنية مدام نادية فهمى! ياسلام ع الهوى!».

قال عبدالبصير:

ـ «أظن أنى أحفظه! أحتاج فقط لمن يذكرنى به مرة واحدة!».

قالت هى فى ضجر:

ـ «اللحن ليس هو المشكلة ! المشكلة فى الصولو! آلة الكمان تتسلم منى بعد قولى يا سلا... ا... م ع الهوى الأخيرة لتكمل هى الجملة!!».

هتف عبدالبصير:

ـ «بس بس! تذكرته! أهذه هى العقدة فى نظرك؟ إنها أسهل من شرب الماء عندى!!».

وأمسك بآلة الكمان، فسحب الأستاذ آلة القانون ثبتها على ركبتيه وداعب الأوتار بمقدمة اللحن قائلا:

ـ «تفضلى يا هانم! غنى!».

كانت قد سلطت عينيها على عازف الكمان الذى وضح من أول سحبة قوس أنه أبرع مما قدرت، لم يخطىء فى حرف واحد من مقدمة اللحن فضلا عن أنه طغى على صوت القانون واحتواه، شرعت تغنى: يا سلام ع الهوى، يا سلام، يا سلا... ا... ا.... م ... ع الهوى، فإذا بالكمان تخطف منها الحرف مكملة الصولو كأروع ماتريد، ظلت ترشقه بنظرة ثاقبة لاتكاد تصدق، وهو لاه عنها مستمر فى عزف اللازمة مرة أخرى، أكملت، أعادت، ثم أعادت، ثم نهضت، أخذت رأس عبدالبصير بين يديها، قبلته فى جبينه قبلة امتنان.

ـ «الحمد لله ربنا بعثك لى من تحت الأرض! أين كنت من زمان؟ أنت بإذن الله معى إلى الأبد! خلاص يا جماعة ! على خيرة الله ! لا تأجيل!».

وهكذا كان على عبدالبصير أن يوجد غدا فى نقابة الموسيقيين فى شارع البستان فى الخامسة مساء لإجراء التدريب مع الفرقة استعدادا للحفل الذى سيقام بعد غد فى نادى الجزيرة.

(٣٧)

أعادت سعدية المليجى قراءة الخطاب للمرة العاشرة، وفى كل مرة تطويه بعناية وتدسه فى صدرها منه للحم مباشرة، قرأته صبحا، وظهرا، وعصرا، ومغربا، وعشاء، فى الشرفة، فى المطبخ، فى الردهة، فوق سريرها، قرأته على نفسها، على أختها، على أمها، على أخيها، فى كل هذه القراءات تجددت مشاعرها، كأن بئرا من الصفاء يضخ السعادة فى نفسها، لمحت الرضاء والغبطة فى عيون الأسرة كلها، كادت تتشاءم من عمق الشعور بالفرح، قالت متمتمة لنفسها:

ـ «اللهم تمم بخير!».

جاوبها صوت أمها من مكان خفى:

ـ «يارب! يارب يا أختى يارب!».

شعرت برعدة قوية، رفت عينها اليمنى، عبرت عينيها سحابة داكنة، كانت هبة ريح قد اقتحمت النافذة المطلة على الحقول البعيدة أطفأت المصباح أطاحت بالستارة على رأسها فلفتة، خلصت رأسها من لفة الستارة، نهضت تتحسس الأشياء، تمضى فى حذر إلى الكوميدينو تتلقف فى الظلام مقبض درجة، فتحته، قبضت على علبة الثقاب أشعلت عودا، كورت قبضتها فوق شعلته متجهة نحو رمانة المصباح المتدلية من السقف، بحثت عن كرسى تقف عليه، انطفأ العود، أشعلت فما كاد يشتعل حتى انطفأ، بغيظ أشعلت الرابع ففرقع ثم انطفأ، فأشعلت الخامس فالسادس فالعاشر فالعشرين، طاردتها الرياح حتى نفذت علبة

الثقاب كلها فانقبض قلبها وفطنت إلى أنها كان يجب أن ترد باب الشرفة أو النافذة قبل الإشعال فنقمت على نفسها، ألقت بنفسها فوق السرير فى الظلام، لحظتئذ تذكرت أن عبدالبصير نام بجسده فوق سريرها هذا، فاقشعر بدنها وخفق قلبها خيل إليه أنه نائم بجوارها، وكان صوته يطل من الخطاب المطوى فى صدرها يملأ الغرفة يترنح فى صوت عواء الريح:

إمسكى الخشب ياوجه السعد! نعم أنت وجه السعد كله، قبلما أعرفك لم أكن أعرف سر الفن، واليوم أعرف أن الفن هو أنت. حبك هو القوس وأنا الوتر، بالأمس كانت أمى واليوم أنت، وأنت غدا وبعد غد وإلى مالا نهاية، إمسكى الخشب، الحفلات أصبحت تطاردنى في كل مكان، لا أجد وقتا للنوم، فى الليلة الواحدة أتنقل من حفل فى الهيلتون، إلى حفلة فى شارع الهرم، إلي حفلة فى صحارى سيتى، نفخ الله فى صورتى، زرع حبى فى قلوب المغنين كلهم، كل واحد منهم يطلبنى أنا بالذات، لايرضى بغيرى، يؤجل نمرته حتى أجيء إليه، حتى الراقصات يحببننى أكثر وهذا هو العيب، فأنت تعرفين أننى لا أحب الفتنة ولكن الله يمتحننى فى هذه الأيام وأنا بعون الله ناجح، محنتى الوحيدة أن الظروف تضعنى كل ليلة أمام أنثى جديدة يتلوى جسدها فى عينى مباشرة كالحية والتى تتلوى هى الأخرى تنفضها على الأرض نفضا تكاد تبعثر لحمها، أنت طبعا تعرفين راقصات مصر الألعبانيات، وأنا والله ياوجه السعد شاعر بالذنب لكن الهاتف يقول لى: هذا أكل عيشك يا ولد وأنت مجبور على فعل هذا فإن عزفت للراقصة بغير مزاج استغنت عنك بغيرك قادر على شخلعتها، ثم إننى لا أستطيع تتفيه فنى، لو قلت لك ـ مثلا مثلا ـ إجعرى ونشزى فهل تستطيعين؟ أنا كذلك لا أستطيع أن أوقف لهب الفن عن السريان فى حطب عظامى!، على كل حال هى شدة وتزول عن قريب بإذن الله. المهم أننى الآن لست بقادر على أن أتدلل على أحد ممن يطلبوننى للشغل، لا أريد البطر بالنعمة بل أريد مزيدا منها لكى أبنى لك بيتا قويا، اللهم لك ألف حمد وألف شكر، أرجع كل ليلة إلى بيتنا وجيوبى محشوة بالورق الأحمر والأخضر، هل تصدقين؟ إشتريت خزنة نقالى صغيرة لأضع فيها

الفلوس الكثيرة، وأخفيتها تحت السرير، تممت عليها بالأمس فرأيتها ملأنة لتمها، فسحبت منها رزمة تخينة رحت بها للصايغ فى خان الخليلى، قاولته على شبكة عمولة مخصوصة ، أسورة مبططة ومزينة بالفصوص واللآلىء عرضها ثلاث قراريط، مع حلق يشبه شكل الفانوس يليق بأذنيك العظيمتين، وسلسلة فيها علبة بداخلها مصحف على قدها، ودبلتين مبططتين على الموضة، أيكفيك هذا أم أن لك طلب معين؟ نحن مازلنا فيها، وعلى العموم لو طلبت طلبا معينا سأضيفه إلى ما تقاولت عليه، دفعت المقاولة كلها إلا قليلا، وكله فى حبك رخيص مهما غلا، سأستلم هذه الشبكة بعد جمعة واحدة وعلى فكرة، كان عندى حفلة فى طنطا يوم الخميس الماضى مع شفيق جلال، مررت على القماشى فقطعت منه بدلتين من الصوف الإنجليزى للفرح، أعطيتهما للترزى ودفعت له العربون ويوم الخميس القادم عندى حفلة فى طنطا أيضا مع كارم محمود وسأمر على الترزى لأعمل بروفة، الود ودى لو أقيم الفرح الليلة قبل بكره، ولكن لماذا العجلة مادمنا عقدنا النية واطمأن بالنا؟، لابد أن يكون فرحنا حدوتة يحكيها الناس سنوات طويلة، سلمى لى على أمك وأختك وبهادر وعم عثمان، والسلام ختام، من طرف خطيبك الذى يحبك: عبدالبصير الصوفانى.

تحسست ورقة الخطاب المطوية فى صدرها وابتسمت، وتمطت فوق الفراش مستديرة نحو الحائط، حيث ثبت فيه دولاب صغير محندق ذى باب خشبى منقوش بآيات قرآنية، مدهون بلون بنى غامق، سحبت ورقة الخطاب من تحت ثديها الأيسر، مدت ذراعها عن آخره، فتمطت قناة ظهرها كأنها انفصلت عن عجيزتها العالية المتكورة، فتحت الدولاب، وضعت الخطاب فوق الخطابات السابقة، أغلقت الدولاب، لمت جسدها متمددة على ظهرها مغمضة العينين، سرعان ما غابت عن الوجود وانتظم تنفسها ثم عاد فاضطرب.

رأت نفسها تمضى ذاهلة حائرة وحيدة، وسط جمع هائل من البشر داخل سرادق كبير جدا، كان قلبها منقبضا بعض الشىء إلا أنها كانت تمشى بين كتل من الجالسين على مقاعد تشبه مقاعد السينما، سرعان ماتنبهت إلى أنها ماضية

فى الواقع نحو خشبة المسرح لكى تعتليها وتغنى، فلابد إذن أنها مدعوة للغناء فى هذا الحفل الفرح، كانت شبه غاضبة لأنها جاءت إلى الحفل على هذه الصورة المهينة التى لاتتناسب مع مكانتها الفنية، أين شقيقتها التى لاتغادرها؟ أين عم عثمان، أليس من واحد على الأقل أو اثنين من أصحاب الفرح لاستقبالها؟! كيف رضيت بالمجىء إلى هنا هكذا؟!! إنها لاتذكر كيف تم الاتفاق، فلابد أنها قد غرر بها بشكل من الأشكال لعلها تكتشفه حالا، فى الحال رأت نفسها واقفة فوق خشبة المسرح ومن خلفها الفرقة الموسيقية ووراءها مباشرة عبدالبصير بكمانه الساحر، على عكس ماتوقعت رأت نفسها مترددة فى الغناء لخوفها من الفشل، تنبهت فجأة إلى ضجة مقبلة، مالبثت حتى تجسدت فى زفة عريس، فإذا هى فى الحال ترى نفسها جالسة فى قلب الكوشة مرتدية فستان الزفة بين فتيات لاحظت أنها لم تعرفهن من قبل، جمع من النسوة يرتدين الطرح البيضاء الناصعة وقد اندمجن فى غناء وزغاريد وطبول، غطت الضجة واقترب موكب العريس الذى بدا كالقمر جمالا وشبابا وقيافة، كان موكبه مقبلا نحوها، يمعن فى الاقتراب، انفصل العريس عن الموكب وتقدم منها فاحتضنها وقبلها فى خديها ثم جلسن بجوارها فى الكوشة وقد ارتفع ضجيج الفرح إلى ذروة عالية، بدت سعيدة بعض الشىء، نظرت بطرف عينيها خلسة إلى العريس فإذا هو.. أبوها، نعم هو أبوها بلحمه ودمه، لم تندهش، كانت فى قرارة نفسها تعلم أن أباها قد توفى منذ سنوات بعيدة، لكنها مع ذلك لم تستغرب، وبدا كأن ماهى فيه الآن طبيعى وعادى تماما، ها هى ذى فى ثوب الزفة واقفة يتأبطها العريس ـ أبوها، وآلات التصوير تلتقط لهما العديد من الصور، راحت تبتسم وترفع يدها لتسوى شعرها على الجبين بحذر حتى لاتفسد أصابعها ما على بشرة وجهها من زينة، أخيرا مضى بها العريس فى خطوات بطيئة وقد بدأ الصخب يتلاشى فلم يبق سوى مزهر واحد راح يدق بإيقاع أغنية الزفة المعروفة: اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوه جنينة، ثمة موسيقى كونية خافتة جدا تردد نغم الأغنية نفسها في إيقاع بطىء جدا، لكن صوت المزهر أخذ يشتد ويشتد فيما هى تحت إبط العريس يدخلان فى

أفق من الظلمات الحالكة، تعاظم الخوف فى نفسها، تسارعت دقات قلبها فى عنف، صدرها يحبس الأنفاس عن أنفها، والأفق المظلم يطلق أشباحا غامضة فصلت بين ذراعها وإبط العريس، وسمعت صوت أبيها يناديها من قلب الظلمات هاتفا: سعدية! تعالى ياسعدية!، تحاول الرد عليه لكنها لاتجد صوتها، لاتستطيع تحريك ذراعيها أو ساقيها، تطلق زئيرا حادا، حينئذ شعرت بيد تلامس ذقنها، فارتعبت، انفلت صوتها صارخا، فوجئت بعينى أمها مفتوحتين فى قلب عينيها:

ـ «مالك ياقلب أمك؟!».

هدأ لهاثها، زفرت:

ـ «اللهم اجعله خيرا !! خير يارب!!».

قالت أمها:

ـ «كابوس!! أنت لاترحمين نفسك! سهر وشغل سهر وشغل! خذى اجازة! أنت محتاجة للراحة!!».

ـ «فعلا! عندك حق!!».

وكانت تريد أن تحكى ما رأته، لكنها خشيت من مجرد ذكره، فاعتدلت فى رقدتها، وطلبت من أمها أن تنام بجوارها.

(٣٨)

عقد الذهول والفرح لسانه أمام بنك الصائغ ، الذى راح يعرض عليه المشغولات قطعة فقطعة . لم يصدق أن هذا الرجل الواقف أمامه هو الذى أبدع هذه التحف . صار يتأمل فى الأسورة المرصعة بفصوص من الأحجار الكريمة فى تشكيلات زخرفية جذابة . تخيلها فى معصم سعدية ؛ فأشرقت على وجهه شمس الضحى المتسللة من نافذة مجاورة للبنك ، رأى وجه سعدية مشرقا والقرط الفانوس يتدلى من أذنيها ، والسلسلة تتوسطها علبة المصحف ملتفة حول جيدها . ثم أمسك بالدبلتين ؛ بحث فى داخلهما عن اسم سعدية المليجى واسمه ؛ وجدهما منقوشين وبجوارهما التاريخ الذى حدده لتقديم الشبكة وعقد القران معا

فى ليلة واحدة توافق ليلة مولده من تسعة عشر عاما مضت .

لم يشبع من الفرز والتقليب والانبهار .. مع ذلك طوى كل المشغولات فى علبتها الحمراء المبطنة بالقطيفة ؛ قدم للصائغ بقية حسابه عن طيب خاطر . لف الصائغ العلبة فى ورقة مفضضة حزمها بورق لاصق شفاف ؛ قدمها له : « مبروك» دسها فى جيب السترة الداخلى وخرج من الدكان إلى شارع خان الخليلى لا تكاد قدمه تلامس الأرض من فرط البهجة ؛ يكاد يعانق جميع الناس ؛ يكاد يستوقفهم ليبلغهم أنه بعد عشرين يوما سيدخل على سعدية وأنه سيجىء بها إلى القاهرة لتنقى بنفسها العفش والمفروشات على ذوقها .

ذهب إلى نقابة الموسيقيين بشارع البستان ، أمضى على قهوة الجمهورية الوقت المتبقى على بداية موعده مع التدريب لحفل فى صحارى سيتى .

عندما عاد إلى البيت فى آخر الليل سحب الخزنة وفتحها ليضع المجوهرات فيها ، تحسس رزم النقود المكدسة فوق بعضها ؛ كاد يشرع فى عدها لكنه تشاءم من العد فتركها . وبعد أن أغلق الخزنة فتحها وأخذ علبة المجوهرات فأعادها إلى جيب السترة ، كما كانت ؛ قال لنفسه : يجب أن أفرح بها فى جيبى وربما فرجت عليها بعض الأصدقاء . تذكر موعده مع الترزى فى طنطا ليتسلم البدلتين الجديدتين ؛ فإذا هو يبتسم ؛ إذ تبين له أن موعد استلام البدلتين يوافق موعد حفل له فى طنطا مع كارم محمود وسعاد مكاوى وشهرزاد . تبين كذلك أن يوم شراء البدلتين وتفصيلهما كان أيضا يوم حفل ؛ فأحس بكثير من التفاؤل ؛ فاستلقى على الفراش راضى النفس مطمئن البال قرير العين .

(٣٩)

طوى الترزى البدلتين واحدة فوق الأخرى ؛ لفهما معا فى فرخ من الورق الأصفر ، سلمهما له :

– « ربنا يتمم بخير ! لابد أن تدعونا فى الفرح !

شكره ؛ قال إن هذا لابد أن يحدث بطبيعة الحال وأن عليه أن يكون مستعدا لتشريف الحفل الذى سيقام فى غضون عشرة أيام على الأكثر . دفع بقشيشا سخينا للصنايعية يقدر بحجم سعادته ؛ طوى البدلتين فوق ذراعه اليسرى؛ حمل صندوق الكمان فى يمناه ؛ مضى نحو مسرح بلدية طنطا ليشارك فى الحفل الذى سيبدأ بعد ساعة تقريبا ؛ يحييه كارم محمود وسعاد مكاوى وعمر الجيزاوى والراقصة نعمت مختار ؛ وتقيمه محافظة الغربية لصالح مرضى الدرن الرئوى .

كان سعيدا كطفل يحمل ثياب العيد ، يتعثر فى شعور غامر بالخجل فلا يفلح فى تنظيم وقع خطواته ، لا ينى يلقى السلام بين خطوة وأخرى؛ يتوقف برهة يهز رأسه شاكرا لمن يشدد عليه فى العزومة أن يتفضل الشاى؛ معظمهم أصحابه وزملاء طفولته وجيرانه فى المنزل فى المحل فى الورشة . أوشك أكثر من مرة أن يدعوهم لفرحه لكنه تذكر أنهم جميعا لابد أن تصلهم بطاقات مطبوعة تحمل التاريخ والموعد والمكان الذى سيقام فيه الفرح . تصور شكل البطاقة ؛ قرر أن يصرف النظر عن مطابع طنطا البدائية وأن يطبعها فى القاهرة بشكل يليق بسعدية . شعر بأن جسما صلبا يضغط على ضلوعه تحت ذراعه المعقوف تحت لفة البدلتين ؛ فتذكر بابتهاج عظيم أنها علبة الشبكة فى جيب سترته الداخلى فوق قلبه تماما .

سطعت أضواء الحفل على واجهة مسرح بلدية طنطا مقبلة نحوه على شكل أقواس النصر . أسماء نجوم الحفل مكتوبة بالنيون وجمع غفير يحتشد أمام باب الدخول وشباك التذاكر ؛ وعربة الإذاعة واقفة على مقربة لكى تسجل لقطات من الحفل . جنود الشرطة يصطفون على الجانبين فى الميدان العريض والشارع المواجه له ما أن اقترب من المسرح حتى تلقاه رهط كبير من الجمهور بالتحية وحب الاستطلاع ؛ بعضهم سلم عليه ، بعضهم هتف باسمه . صار يفلت من الزحام بصعوبة حتى لا تتهدل اللفة . ودخل مهرولا إلى قاعة المسرح ، ومنها إلى الكواليس ، حيث نادى رئيس عمال المسرح وسلمه البدلتين يشيلهما فى مكان

أمين لنهاية الحفل ، وغمزه ببقشيش سخى ؛ فاختفى الرجل وعاد بعد قليل يحمل فنجان القهوة وعندما مال ليصب القهوة فى الفنجان تمهل قليلا فى انتظار الحركة المعهودة بينهما ، حيث تمتد يد عبدالبصير خلسة بقطعة من الحشيش تحت علبة السجائر ، إذ ينزوى فى ركن قصى ويفرك قطعة الحشيش على مجموعة سجائر ويعيد لفهما ثم يحتجز لنفسه اثنتين ويعيد الباقى لعبد البصير يصبغ بأنفاسها دماغه ليتوهج فى العزف كما اعتاد .

انتهى الحفل فى الرابعة صباحا . كل فنان ينهى وصلته يستقل سيارته عائدا إلى القاهرة . رتب عبدالبصير نفسه على أن يعود إلى القاهرة فى قطار الصحافة، ليمكث فى القاهرة أسبوعا على الأقل ينتهى فيه من ثلاث حفلات متفق عليها؛ ثم يتصل بسعدية ببرقية يطلب تحديد موعد الفرح ليطبعه فى بطاقة الدعوة وهكذا ودع زملاءه ؛ حمل كمانه ولفة البدلتين . قال له رئيس العمال إنّ فتاتين ينتظرانه على الباب منذ وقت طويل . خفق قلبه بعنف ؛ دبت الرعشة فى ساقيه ؛ توقع أن تكون سعدية جاءت مع أختها للسؤال عنه . قال للرجل : ما شكلهما ؟ قال الرجل : هما تقريبا تلميذتان فى الاعدادية . اندهش عبدالبصير بكثير من اللذة ؛ أيكون قد صار نجما تطارده المعجبات من الفتيات ؟

كانتا واقفتين فى انتظاره على الرصيف بجوار الحائط . ما أن وقع بصره عليهما حتى خيل إليه أنه رآهما من قبل ، فشعر بكثير من التوجس . تقدمت إحداهما مسلمة عليه . عرفها فى الحال : إنها ابنة رجل تاجر حمص كبير من عشاقه ، كثيرا ما عزمه فى بيته ليسمعه هو وضيوفه وجيرانه . قال لها :

– « أهلا يا تهانى ! والدك بخير ؟»

قالت وقد فرحت لأنه تذكر اسمها :

– « يسلم عليك ! كان ينوى الحضور لكنه اضطر للسفر أمس لتخليص طلبية بضاعة من سوريا فى الاسكندرية !» .

– « يأتى بالسلامة إن شاء الله !» .

ثم أرسل نظرة إلى الفتاة الثانية التى وقفت بعيدا . كانت نحيفة الجسد

مفسرة الملامح والتقاطيع مبرومة ناهدة الصدر مقببة العجيزة ، لوزية العينين فيهما لمسة ضوء من عيون عائلة طنطاوية مشهورة بجمال النساء ؛ عينان واسعتان قويتا النظرة قويتا الشخصية ، رصينة النظرة ، تعكسان قوة عزيمة وتحد إلا أنها كانت تبدو مرتبكة بعض الشيء ، ما أن نظر لها حتى تبسمت وأقبلت نحوهما في خطوات واثقة . سلمت عليه :

- « أهلا يا أستاذ عبده !» .

قالت تهاني :

- « فاكرها ؟!»

أعاد النظر فيها؛ تذكرها بالفعل ؛ سبق له رؤيتها في بيت تاجر الحمص والدتهاني ؛ حيث قدمها له صديقه التاجر قائلا إنها تهوى الغناء وتريد مشورته إن كانت تصلح أو تستمر في المدرسة ؟! ليلتها ضبط لها أوتار الكمان وقال : غني ؛ فغنت أغنيتين لنجاة الصغيرة . عطشان يا اسمراني ، واوصفولي الحب ، وهما من أجمل ما لحن لها محمود الشريف . يذكر أن صوتها كان فيه بعض الإحساس ، بعض نبرة حلوة شجية ، إضافة إلى أذن موسيقية لا قطة ، وحماسة كبيرة ؛ إلا أنها تحتاج لتدريبات هائلة مضنية ؛ وفي النهاية لن تكون قادرة على الاحتراف اللهم إلا أن تشتغل مع العوالم . وقد صرح لها بذلك دون مجاملة ونصحها بالالتفات لدروسها ؛ خاصة أن الفن طريقه شائك وغير مأمون بالنسبة للرجال فما بالك بالفتيات ؟!

تساءل في نفسه : ما الذي تبغيه الليلة يا ترى ؟ أتكون مصرة على الالتحاق بأهل الفن عن طريقه ؟ أتكون قد تدربت جيدا وتريد أن تعرض عليه إمكانياتها الجديدة ؟! شعر بإشفاق كبير عليها ؛ راح ذهنه يعمل بسرعة في كيفية التخلص منها بلباقة بأي شكل .

فاجأته تهاني :

- « حضرتك مسافر الآن إلى القاهرة مباشرة ؟!» .

- « إن شاء الله في قطار الصحافة !» .

قالت فى رجاء حار ، لدرجة أن ملامحها تقلصت فى رسم ملامح الاستعطاف والاستجداء :

– « أرجوك أن تأخذ منال معك لحد القاهرة ! مسافة السكة فحسب !!» .

– «لماذا ؟!» .

قالت منال :

– « لابد أن أقابل خالى لأمر ضرورى !! وأنا لا أعرف القاهرة عمرى ماشفتها !!» .

صار يبحث عن مخرج من هذه الورطة ؛ وضع حقيبة الكمان على الأرض ؛ أشعل سيجارة . بدأت بذور الشك تقوم فى ناظريه . يبدو أن تهانى شعرت بتردده وتشككه فى الأمر كله ؛ فربتت على كتف صديقتها بحنو كأم صغيرة :

– « قولى له الحقيقة كلها يا منال ! صارحيه بكل شىء فهو ليس غريبا !!» .

فى طلاقة وثقة أعطتا كلامها مصداقية ، قالت :

– « الحكاية وما فيها أن أمى ترملت علينا أنا وأختى وأخ صغير منذ أكثر من ست سنوات !! هى الآن تريد أن تتزوج !! لف عليها رجل مكار عينه زائغة ! أنا وأختى لا نريد زوج أم !! خصوصا أنه سيقيم معنا فى الشقة التى اشتراها أبى بفلوسه من أجلنا !! سينام على فراش أبى !! هو فى الحقيقة يريد أن يتزوج الشقة والفرش ومعاش أبى القليل !! أمى لا تريد أن تسمع كلامى وأنا ابنتها الكبيرة !! قلت فلأذهب إلى خالى فى القاهرة وأجىء به ليمنعها !! هو الوحيد الذى يستطيع أن يمنعها من الوقوع فى هذه الغلطة الشنيعة . ويبعد هذا الرجل الكالح عنا !! كل ما أطلبه منك يا أستاذ عبده أن تأخذنى معك للقاهرة وتتركنى أذهب لخالى وحدى !!» .

الحرارة كانت بادية فى كلام البنت ، ونظرات عينيها لا تشى بأى كهن أو كذب . انعطف فى الحال إليها . سألها فى اهتمام وجدية :

- « وهل تعرفين عنوان خالك جيدا ؟!»

– « نعم ! هو فى حدائق القبة شارع الصهاريج نمرة خمسة وستين أ شقة

رقم ثلاثة !! خدمتك الوحيدة أن تنزلنى فى باب الحديد وتدلنى على الأتوبيس الذى يروح حدائق القبة وتتركنى وكل حى يروح لحال سبيله ! ويكون لك الشكر!!».

قال فى حماسة :

- « لا ! إذا كان الأمر كذلك فإنى ملزم بتوصيلك لحد البيت ! قولى يارب ! تعالى معى !!» .

سلم على تهانى تاركا معها السلام إلى أبيها ؛ حمل الكمان بيمناه ، أشار برأسه لمنال ، فسلمت على تهانى ومشت بجواره . حاولت أن تحمل عنه شيئا لكنه رفض بشدة وزجرها . ثم أوقفها على الرصيف وهرول إلى شباك التذاكر ؛ قطع تذكرتين للقاهرة ، فيما كانت أجراس المحطة تدق لقطار الصحافة إيذانا بالرحيل..

(٤٠)

بينما كانت سعدية المليجى تجلس فى الشرفة المطلة على الطريق الزراعى، مرتدية ثوبا منزليا كاسيا حتى الركبتين من طراز شائع يسمى البرميل إذ يصير شكل لابسته كالبرميل ضيقا من أعلى منبعجا مدحوا من الوسط منسابا إلى ضيق حتى الكعبين وبينما كانت شمس الضحى العالى قد خرجت لتوها من الحمام مغتسلة بمياه المطر ملتفة فى خمار رقيق من سحب سماوية اللون ، كان ذهن سعدية قد بدأ ينشغل بمهمة ترتيب حقيبة سفرها ؛ إذ أن سيارة من طرف المتعهد القاهرى ستأتى لتأخذها مع اختها وعم عثمان إلى القاهرة ؛ ومن هناك تسافر مع الفرقة إلى مكان بعيد لم يذكره لها المتعهد بالضبط لاحياء فرح كبير ستكون هى نجمته . ابتسمت فى قليل من الزهو ؛ طاف بذهنها صوت المتعهد مؤكدا لها أن صيتها وصل إلى أبعد مكان تتخيلها ، حيث أن عريسا من آخر الدنيا طلبها بالاسم وسيرسل لها سيارته الخاصة لتنقلها وحدها - مع أختها وحارسها - إلى مكان الفرح ، ولم يشأ أن يخبرها بالمكان لتكون مفاجأة سارة،

ثم إن سيارة العريس ستتكفل بإعادتها إلى البيت معززة مكرمة ، كما أن حجم النقوط سيكون ثروة طائلة ؛ خاصة أنها ستمكث ليلتين : ليلة الحنة وليلة الدخلة حيث تقوم هى نفسها بزفة العروس مع راقصة شهيرة من راقصات القاهرة .

فيما كانت تستعرض فى ذهنها ألوان الثياب التى يجب أن تلبسها فى هذه المناسبة لمحت الواد بسطويسى العامل فى السنترال فى محطة السكة الحديد يقبل مهرولا نحو البيت ببدلته الميرى الصفراء المترهلة ؛ يلوح لها بذراعه من بعيد ، ممسكا ببطاقة ملونة . نهضت منحنية على حافة الشرفة بمرفقيها . ما أن اقترب حتى هتف :

- «تليغراف يا ست هانم !» .

انخلع قلبها من مكانه ، شحب وجهها ؛ تمتمت :

- « خير يارب ! اللهم اجعله خيرا!!» .

ذلك أن أهل الريف كلهم ينزعجون من كلمة تليغراف انزعاجا مدويا ، حتى بعد أن يتضح لهم أن البرقية لا تحمل نبأ سيئا تظل قلوبهم تتنفض لمدة طويلة وقد يعقبها صدمة غير مضمونة العواقب .

قبل أن تسترد قلبها صاح الولد بسطويسى فى غبطة :

- « عايز الحلاوة يا ست سعدية ! حلاوة كبيرة !!» .

هدأ قلبها عن الخفقان السريع ؛ انتظم تنفسها ؛ أشارت له بذراعها البضة المغمورة بالأساور الذهبية : اطلع ، ولم تشأ ايقاظ اخوتها من نومة الضحى ، كما أن عم عثمان ذهب يشترى طلبا ، خرجت إلى بسطة السلم ؛ سحبت حبلا مربوطا فى درابزين السلم ينتهى بعقدة فى أكرة الباب؛ فانفتح باب الشارع ؛ فدخل بسطويسى قافزا إلى السلم كالبهلوان ، سلمها البرقية :

- « إيدك على الحلاوة !! قبل القراءة !!» .

هى نفسها كانت ميالة لتأجيل فض البرقية حتى تهدأ أعصابها لتستوعب ما يمكن أن تحويه من مفاجآت . أعطته ورقة بعشرة قروش ، نبهت عليه أن يغلق الباب وراءه ، صار يرسل لها الدعوات ؛ أضاف :

– « لم أتأخر دقيقة واحدة ! يعنى من مصر إلى المكتب إلى هنا فى خيط واحد ! أنت تأمرين يا ست سعدية !!» .

عادت إلى الشرفة ؛ رأته يهرول على الطريق بين صفين من أشجار الجزورين ممتدة على طول مدخل البلدة إلى الطرق الزراعى البعيد . جلست ؛ فتحت البرقية بحذر :

– « خطيبتى العزيزة سعدية المليجى ! من محطة مصر أثناء عودتى من حفل طنطا أرسل لك قبل ذهابى إلى البيت لأقول لك إنى تسلمت الشبكة وبدلة الفرح ! وأطلب منك أن تحددى يوم الفرح وتبلغينى به ولك منى السلام .. عبده !» .

ضمت البرقية إلى صدرها ؛ انفتحت كل خلاياها ومسامها تستنشق فرحة الخبر . فكرت فى أن تقوم فى الحال لترد عليه ببرقية عاجلة ؛ فليكن فرحنا اليوم لكنها رأت أن تتمهل قليلا ؛ فمادام يطلب فرحا تقليديا كأى عريس شاب يتزوج من بنت بنوت ، فليكن إذن فرحا بحق ، يقام فى هذه الساحة أمام منزلهم بدلا من طنطا ؛ شبكة وعقد قران ودخله ؛ أم تراه سيتمسك بكل التقاليد فيقيم ليلة للحنة وليلة للدخلة .

هى شخصيا لا بأس عندها من ذلك ؛ هى أساسا تحب الحنة فى حد ذاتها ؛ كما أن ليلة الحنة أساسية فى أفراح كل الفتيات فلم لا تستمتع بها هى الأخرى ؟ إنها يجب أن تجلس فى الكوشة ليلتين متتاليتين وبالمرة يكون لها حفل زفاف يلف البلدة من بيتها إلى بيتها ، وللعريس كذلك من بيتها إلى بيتها ، ما أطرف أن يتقابل الموكبان عند باب البيت فيندمجان فى هذه الساحة الواسعة لتقوم السهرة التى لابد أن يحييها كل من له صلة بالفن ممن تعرفهم ويعرفهم عبدالبصير ، لسوف تقول هذا لعبدالبصير فى رسالة عاجلة فإذا لم يوافق عليه فعلى الأقل يضحك ويبتهج .

تكسرت ضحكاتها الجذلة المغتبطة ، واختلطت بفتافيت ضوء الشمس المبعثرة على أرض الشرفة : إنه بالطبع سيدخل عليها فى هذه الغرفة نفسها على هذا السرير نفسه وبعد أسبوع ترحل معه إلى القاهرة حيث تشرف بنفسها على

اختيار العفش والفرش وقطع النحاس ؛ ستراعى أن يكون كل شىء رفيع الذوق ومؤقتا فى نفس الوقت ؛ فطالما أن الشقة التى ستسكنها فى شارع محمد على مؤقته فليكن الفرش هو الآخر كذلك وحينما يوفقا فى إيجاد شقة فاخرة شرحة فى مصر الجديدة أو المعادى تفصل لها فرشا على قدها يليق بها بقية العمر .

عندئذ رأت ضرورة أن توقظ أمها وأختها ؛ حيث لم تعد قادرة على احتمال الفرحة وحدها .

عانقتها أمها . عانقتها أختها . بكين ثلاثتهن من شدة الفرح . قالت ست الحاجة :

- « صدق الجدع فياله من رجل محترم ! قد بعثه الله لك من السماء يا سعدية ! هذا الجدع من النوع الذى يأمن له القلب لأنه محب عفيف طاهر !!» .

قالت الأخت فى غبطة :

« وموهوب ! وابن كارها ! ويحبها وتحبه !» .

قالت سعدية فى نبرة امتنان :

« تصورى يا أم أنه بعث البرقية بمجرد نزوله محطة مصر قبل طلوع الشمس ! ووصلت فى الضحى !!» .

علقت ست الحاجة :

- « سالكة بإذن الله ! اللهم اجعل طريقك سالكا مدى الحياة يا سعدية يا بنت بطنى!!» .

قالت الأخت :

- « ربنا يتمم بخير ! يا ترى ماذا سأفعل من بعدك ؟!»

بلمت سعدية ؛ فوجئت بمالم تكن قد فكرت فيه من قبل ؛ بلعت ريقها :

- « ستبقين معى بالطبع ! سافرى معى ونعمل معاً كالعادة وعبده لن يضيق بك ! أنا واثقة أنه سيفرح بك !!» .

كانت الأم على أهبة الكلام ؛ لكنها انتظرت حتى تعرف رأى ابنتها ؛ فإذا بالأخت باسمة فى لهجة حكيمة :

- « لا يا أختى ! أنت طريقك الآن اختلف ! وجودى معك سيعطلك !! شوفى أنت مستقبلك واشتغل أنا وحدى هنا فى حراسة عم عثمان ! فلما تستقر سفينتك على الشاطىء وتصبحين قادرة على خدمتى ابعثى لى !!» .

ابتهجت الأم :

- « عين العقل يا قلب أمك ! كلامك زين !» .

قالت سعدية :

- « خلاص ! أنا موافقة !!» .

هتفت الأم :

- « ربنا يفتحها فى وجهك أنت وهى!» .

نظرت الأخت فى ساعة يدها :

- « نتغدى ونلبس هدومنا !» .

قالت الأم :

- « اكتبى خطابا لعبده !» .

قالت سعدية :

- « بعد أن أرجع من هذا المشوار ! خطاب لعبده لابد له من قعدة طويلة ومزاج رايق !!» .

فى حوالى الثالثة بعد الظهر أنهت سعدية زينتها أمام المرأة ؛ مضت خطوات ؛ ناظرة من فوق كتفيها لظهرها ، ثم استدارت وأقبلت على نفسها . لاحظت أنها فى أبهى زينة كأنها العروس لا ينقصها سوى الطرحة . ألقت نظرة شاملة على الثوب الطويل المنفرج الذيل . خفق قلبها ، فهذا الثوب مرتبط بذكرى مجهولة غامضة . سرعان ما تذكرت الحلم الذى رأته منذ شهور قليلة ؛ خيل لها أنها كانت ترتدى فى الحلم فستانا مثله بالضبط ، لعله هو ؛ حينما رأت نفسها عروسا تزف إلى أبيها ، شعرت بانقباض مفاجىء ؛ همت بخلع الثوب لاستبداله بثوب آخر ؛ لكنها تشاءمت من خلعه ، ثم إنه أغلى وأشيك ثوب عندها يليق بنجمة حفل تقف على المسرح كأم كلثوم .

حانت منها التفاتة عبر الشرفة ؛ رأت السيارة الغريبة مقبلة تتهادى فى بطء شديد ؛ وثمة من يشير لها بأصبعه على شرفة البيت ؛ فصاحت :

- « يلا يا عم عثمان طلع الشنطة» .

وأخذت طريقها إلى السلم .

(٤١)

فى تمام السادسة صباحا كان القطار القادم من طنطا قد دخل رصيف محطة باب الحديد؛ فمضى عبدالبصير من فوره إلى مكتب تليغراف المحطة ؛ حرر البرقية لسعدية واستراح ؛ خرج حاملا البدلتين على ذراعه اليسرى ، والكمان فى يده اليمنى ؛ ثم اقتاد منال إلى موقف الأتوبيسات . رأى الزحام خانقا إلى حد التوحش؛ صعبت عليه البنت ؛ تأكد له أنها لابد ضائعة لا محالة . هرول إلى الشارع والبنت فى أعقابه : تاكسى . أركبها فى المقعد الخلفى وبجوارها علبة الكمان والبدلتين ؛ وركب بجوار السائق :

- « حدائق القبة يا أسطى!» .

ثم استطرد بعد برهة :

- « شارع الخزان !» .

ضحكت منال ، صححت :

- « الصهار .. ر .. يج ! شارع الصهاريج !» .

فمضى السائق كأنه لم يسمع شيئا ..

بالبدلتين على ذراعه ، والكمان فى يده اليمنى ، والفتاة من ورائه ، داخ الدوخات السبع فى شوارع حدائق القبة وحواريها ، حتى تصبب العرق فعرقت ثيابه كلها؛ اتضح أن شارع الصهاريج هذا ليس مثبوتا فى خريطة البلدية وليس يعرفه الا سكانه ، يئس ، فكر فى الانسحاب ، لولا أن الفتاة صارت كالمسئولية المعلقة فى رقبته لا يستطيع منها فكاكا ، دار فى دماغه شريط سينمائى سريع

البنت تاهت فى مصر ، التقطها أولاد الحرام ، أمها تبلغ الشرطة ؛ بنت صديقة تدلى بشهادة تقول فيها إنها سافرت مع عبدالبصير الصوفانى ؛ الشرطة لابد أن تستدعيه ؛ الفضيحة . توقف فزعا ، تلفت حواليه باحثا عن الفتاة بلهفة ، طلب منها أن تمضى بجواره .

أخيرا اتضح أنهما مرا على شارع الصهاريج أكثر من مرة ؛ رآهما طفل ذكى لاحظ حيرتهما ، سألهما عما يريدان سأل عبدالبصير :

– « تعرف شارع الصهاريج ؟! » .

قال الطفل :

– « هوذا » .

وقادهما إليه رجوعا إلى الخلف بضع خطوات . قرأت منال العنوان كله على الطفل وذكرت اسم خالها واسم أطفاله . قادهما الطفل إلى المنزل العشوائى فى نهاية الشارع العشوائى ، قيل لها إن هذا الساكن قد عزل منذ أقل من شهر ، ولا أحد يعرف عنوانه الجديد أكثر من أنه فى الوايلى . قالت منال :

– « نسأل عليه فى الوايلى !! » .

قال عبدالبصير :

– « نبحث عن إبرة فى كوم من التراب ! الوايلى هذا حى بحجم طنطا كلها ! أقصد محافظة الغربية كلها !! فهل نمشى كالمجانين تنادى يامن يعرف فلان الفلانى ؟! يمكننا أن نفعل هذا ولكن فى كم شهر ؟! » .

انفجرت منال فى البكاء ، صار منظرها مؤلما جدا وهى تبكى ، تغيرت معالم وجهها ثم اختفت كل الملامح فبدا وجهها قطعة من الكبدة مغسولة بسيل من الدموع ، شعر عبدالبصير بمدى قهرها . قال له منظرها إنها كانت تأمل فى بضعة أيام تقضيها فى بيت خالها تنعم خلالها بأكلة طيبة نومة طيبة ، فالواضح أنها تعانى من الحرمان ، سيما وأنها من لحظة نزولها ميدان رمسيس وهى تتطلع إلى كل شىء معروض ، تكاد تتوقف وتتفرج فرجة المشترى ؛ تتلفت كثيرا لتعيد النظر فى الأشياء يلمع فى عينيها بريق الرغبة ؛ ذلك البريق الذى سرعان ما يخبو

على حسرة القانع رغم أنفه ، بدأ عبدالبصير يفكر فى تقدير قيمة المبلغ الذى يجب أن يعطيه لها كى تعود به ؛ تطوع بأن يقطع لها تذكرة القطار ، وأن يعشيها عشوة دسمة ، بل ويشترى لها ولو شيئا واحدا مما تتطلع إليه هذه التطلعات التى مزقت قلبه من الألم .

ما لبث حتى شعر بالضيق ، فها هو ذا الليل فوق دماغ النهار يفرد ثوبه الأسود المطرز بأضواء شاحبة ، فكيف يتركها فى الليل وحدها إلى طنطا ؟ هل يغامر ويعود معها حتى يضمن وصولها لأمها بسلامة ؟! ولكن كيف يزوغ الليلة من حفل قبض عربونه منذ أيام ؟! مستحيل طبعا أن يفعل . إنها إذن لابد أن تبيت الليلة فى القاهرة ولكن أين ؟! هو لن يجرؤ على الذهاب بها إلى شقته ، فالشيطان شاطر وهو طول عمره يهرب من مواجهته خصوصا فى علاقته بالجنس الآخر حتى ولو تمثل فى طفلة فمابالك بعروس كاعب مثلها ؟!

وجد نفسه يسألها :

– « قلت لى أين يشتغل خالك ؟ ما وظيفته ؟!» .

ميز فى صوتها الباكى كلمة :

– « فى البلدية !» .

رغما عنه سقطت الضحكة الفلتانة من بين أسنانه الكبيرة ، لمعت لها عينه الحولاء فبدا لمن لا يعرفه كعتاة المجرمين فى السينما حينما ينظرون للفريسة بطرف العين نظرة ارهاب مستهترة :

– « هكذا فحسب ؟! فى البلدية ؟! فى أى مكان فى البلدية ؟ فى أى حى ؟!» .

صار واضحا أنها لا تعرف أكثر من هذا . فلم يضيع وقتا ، أشار لها أن تتبعه : « تاكسى!» عند بيته سلمها الكمان :

– « انتظرينى هنا دقيقة واحدة !» .

صعد إلى شقته ، رمى البلدلتين على السرير ونزل فى الحال . مضى بها إلى بيت الأستاذ جميل كريم ، حيث أشرقت الفكرة فى نفسه .

الترحيب الشديد من أم فريد شجعه على أن يحكى لها الحكاية بالتفصيل . صارت تصادر حكايته أولا بأول :

– « باسم الله ما شاء الله ! ذوقك سليم مائة فى المائة !! فعلا فعلا عرفت تختار !! اللهم زد و بارك !! يارب تمم بخير !! أنت ابن حلال حقا ! وعاقل ! مادمت فكرت على هذا النحو فأنت ولد غير قابل للفساد !!» .

هو لاينى يحرك ذراعه يهم بمقاطعتها كى يوضح حقيقة الموقف . وأخيرا تدخل الأستاذ جميل كريم لأول مرة :

– « عندك كلام ؟!» .

حكى الحكاية كلها بالتفصيل كأنه أمام محقق يحسب عليه كلماته؛ حتى تفكيره فى أن يجعلها تبيت عندهم مسافة الليل عرض عليها كيف جاءته الفكرة وكيف تردد وكيف لم يجد مفرا فتشجع .

زام الأستاذ بنبرة من يقول ساخرا : أهذا يستأهل كل هذه اللفة ؟! وقالت أم فريد فى بشاشة :

– « تبيت فى عينى ! حجرات الأولاد مازالت باقية كما هى ! حتى ملابسهم وهم فى سنها تركوها فى دواليبهم !! قومى يا عروس لتخلعى ثيابك المدرسية هذه فعندى لك فستان من الحرير الساتان مثل الفل !!» .

سحبتها من يدها ، مضت بها فى طرقة على يسار الداخل ممتدة . سأله الأستاذ :

– « عندك الليلة شغل بالطبع !» .

– « ساعتان أو ثلاثة بالكثير !» .

– « يعنى أنتظرك على العشاء ؟!» .

– « لا داعى لعشاء أو غيره لكنى سأجىء حتما !» .

نظر فى ساعة يده ثم نهض :

– « إلى اللقاء ! نمرتنا فى أول البرنامج من حسن الحظ !» .

مضى دون أن يسلم ، علامة على أنه عائد بعد قليل ، وكان الأستاذ يرتب

لسهرة دعى إليها اليوم من تاجر كويتى ثرى يملك نصف رأسمال جريدة كويتية كبيرة ويكتب فيها عمودا يوميا وهو متزوج من مصرية ويسكن فى شقة بعرض سطح عمارة يملكها فى شارع قصر النيل تطل على ميدان مصطفى كامل ، وأما الحفل فإنه بمناسبة عيد ميلاده الثمانين ، وقد وعده الأستاذ بفرقة من خيرة العازفين ومطربى الإذاعة . أما مطربو الإذاعة هؤلاء الذين يقصدهم فإنهم كثيرون فى دفتر القيد فى الإذاعة وإن كان المستمعون لا يذكرون اسم أو صوت أحد منهم ، فيما عدا قلة قليلة كان لهم بعض أمجاد غابرة وانسحبت عنهم الأضواء تماما كإبراهيم حمودة وحامد مرسى وفايد محمد فايد وعبده السروجى وعبدالفتاح راشد وغيرهم فأصبحوا لا يمارسون الغناء إلا فى مناسبات متباعدة وخاصة مقابل بقشيش سخى يضع مانحه فى اعتباره اشفاقه واحترامه لسمعتهم القديمة . وثمة مطربون تم اعتمادهم فى الإذاعة لكنهم لم يذع لهم أكثر من أغنية على مدى سنوات طويلة يعيش الواحد منهم على حسها محترفا فى شارع محمد على ؛ إذ هى تعطيه الحق فى أن يقدمه المتعهد باعتباره من مطربى الإذاعة . على أن هؤلاء لم يكن الأستاذ يميل إليهم فلا يدعوهم فى السهرات التى يدعى إليها خاصة إذا كانت ثمينة . إنه يعمل وفق مبدأ يؤمن به فى مثل هذه الأحوال : اكرموا عزيز قوم ذل ؛ ويشعر بسعادة غامرة كلما رأى أحد هؤلاء القدامى يتوهج فى السهرة مستعيدا بعض ذكريات الوهج القديم .

(٤٢)

سالم أبو شفه الناياتى وزعرب لاعب الدربكة وسيد عزب عازف التشيللو ومحمود السرياقوسى عازف الأوكورديون ، كانوا فى انتظار عبدالبصير منذ رأوه آخر الليلة الماضية فى حفل طنطا، حيث رأوه أثناء خروجهم واقفا مع فتاتين على الرصيف ، ورأوه فى القطار مع فتاة واحدة ، فابتعدوا عنهما وقد تهامسوا بأنها لابد خطيته ؛ فقد سبق أن فرجهم على الشبكة والبدلتين الجديدتين ، فلما سألوه

عمن تكون خطيبته تبسم قائلا إنها ستكون مفاجأة يستحسن ألا يكشف عنها الآن ، ولقد تمعنوا فى الفتاة جيدا بنظرات مختلسة فأعجبتهم وقالوا لبعضهم إنها تناسبه وهو أيضا يناسبها ، بقى أن يحتفلوا به الليلة ؛ إنها فرصة للسكر الليلة على حساب المحل ؛ فإذا كان مسموحا لكل واحد منهم بكأس واحد فى الليلة على حساب المحل فإن المحل لن يمانع فى منحهم سكرة مجانية إذا أقاموا حفلا صغيرا على شرف زميلهم صوليست الفرقة ، بمناسبة إعلان خطوبته.

هكذا تقدم سالم أبو شفه باقتراحه لمدير المحل ، الذى عرضه بدوره على صاحبة المحل - وهى مطربة قديمة ذات أمجاد غابرة - فوافقت بشهامة غير متوقعة ؛ هكذا هى بارعة فى جذب العاملين فى محلها واستقطاب حبهم .

دهش عبدالبصير حين نادته صاحبة المحل وهو يدخل . سلمت عليه بحرارة :

- « مبروك الخطوبة !» .

وقبلته فى خديه بأمومة مبطنة بعهر شائخ ، قال فى حياء شديد

- « الله يبارك فيك !» .

- « انتظرك بعد خلاصك من شغلك !» .

حياها ودخل ، فإذا الفرقة كلها قد تناقلت الخبر فى شغف ، سلموا عليه جميعا بحرارة ؛ بعضهم احتضنه ؛ انهالت عليه كلمة مبروك من كل ناحية . شاع جو من الدفء والتفاؤل والبهجة ؛ بدا أنهم يدخرون الشرب لآخر الليل . تناثرت تعليقات عابرة وغمزات لطيفة :

- « حلوه ! مربربة ! عرفت كيف تنتقى ! ذوقك عالى ! يا واخد الصغير يا حرامى السوق ! ربنا يتمم بخير ! المهم كيف يربيها على يديه .. الخ الخ » .

رغم أنه سرعان ما فهم حقيقة اللبس الذى وقع فيه وأشاعه من رأوه بصحبة الفتاة المسكينة فإنه لم يشأ وفضل أن يتركهم على عماهم لتكون مفاجأة حفل الفرح كبيرة وصادمة حينما يتضح لهم أن عروسه لاتقارن بمثل هذه الفتاة التى تبدو بالمقارنة بها قردا أمام غزال ، فضلا عن أن خطيبته معروفة لهم وجميعهم

ينفرط أمامها ؛ كما أنها فى القريب العاجل لابد أن تصبح نجمة غنائية وربما سينمائية لامعة .

ظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد؛ لكنه حين تأهب للانصراف على عجل ليعود إلى الأستاذ كما وعده ، تحلقه أعضاء الفرقة وزحفوا به خارجا إلى مقصورة المدير ، الذى أشار لهم على ركن قصى تم اعداده بشكل ملحوظ ، حيث ضمت عدة ترابيزات صانعة شكل بوفيه مستطيل ارتصت على سطحه الكئوس والزجاجات وجرادل الثلج وأطباق المزة المتنوعة الأصناف .

جاءت صاحبة المحل فقادتهم إلى المائدة ؛ أجلستهم :

– « العقبى لأولادكم جميعا ! ربنا يجعل كل أيامنا أفراحا ! إن عبده عزيز على وهذا المحل محله ! وهذه الحفلة البسيطة عنوان محبة فحسب لكنها لا تليق بمقامه عندى لكن إن شاء الله تكون حفلتى الحقيقية يوم دخلته على عروسه!!» .

ثم نادت على الجرسون أمرته أن يقف على رأسهم تلبية لأى طلب يطلبونه ؛ ومضت ، تلفت عبدالبصير حواليه :

– « ما هذا الذى فعلتموه يا أولاد الأبالسة ؟! أنتم تعرفون أننى لا أشرب الخمر ! لو كنتم اشتريتم لى ربع قرش حشيش فقط لكان أبرك وأهم عندى من كل هذه الدوشة !!» .

شخر بعضهم فى احتجاج ؛ وحلف بعضهم بالطلاق إلا ما شاركهم الشرب هذه المرة ويتوب بعدها . حدث صياح غوغائى . صبوا له الكأس ؛ زينوه بمكعبات الثلج ؛ اقترب به سالم أبو شفه :

– « هذا ويسكى بلاك آند هوايت فلا تكن حمارا » .

عمرك ما كنت تحلم أن تذوقه !! هذه فرصة لأن تجلو صدرك من الهباب الذى تشربه !!» .

قال فى قليل من التراجع :

– « أخشى أن أسكر ويكون منظرى مضحكا !!» .

هتف سالم أبو شفه :

– « هذا ويسكى بلاك آند هوايت وليس طافيــة من منقــوع البــراطيش سيـفرفـشك ولا يسكرك ! وحـتى لو سكرت ! جـرب ولو فى العـمـر مـرة ! فى صحتك!! » .

ورفع الكأس إلى أعلى ؛ فرفعوا جميعا كئوسهم ، علقوها فى الهواء فى انتظار أن يرفع هو الآخر كأسه . فما أن رفع يدا مرتعشة حتى اصطكت جميع الكئوس بكأسه فى مرح حقيقى :

– « فى صحتك ! هيا !! » .

ودلقوا الكئوس كلها فى جوفهم دفعة واحدة . ثم سقطت الرهبة التى كانت قائمة على الدوام بينه وبين الكأس ؛ زالت القشعريرة ؛ اضمحلت الغربة . فوجىء بعد وقت أنه يجاريهم كأسا بكأس ، وأنه انتشى ؛ نشوة تختلف عن سرحات الحشيش ، فيها جرأة واشراق وصراحة وانطلاق وسخونة مشاعر ، وفيها كذلك خيــال وردى بهيــج ، فعــلا ؛ كان عليه أن يجـرب هذه النشــوة ولو على سبيل العلم بالشىء .

سرعان ما تنبه – بكثير من الزهو الذى طالما انتظره فى طنطا لأعوام طويلة – إلى أنه مركز الضوء فى القعدة ، فالجميع ما بين مبارك على الخطوبة ومادح لفنه ومواهبه . الجميع وصل إلى حالة الشفافية التى تستحب فيها المكاشفات ؛ فراح كل واحد منهم يعترف بمدى ما لعبد البصير من قيمة فنية فى نظره ؛ حتى الذين كان يلمس فى علاقتهم به ظلا من الاستعلاء والازدراء والحقد لمجرد أنهم يحملون شهادات من المعاهد وهو لا يحمل – حسب تعبيره – سوى شهادة أن لا إله إلا الله ، الآن يعترفون له بتفوقه على جميع الأساتذة قديما وحديثا !! ينبهونه إلى مافى مواهبه من جوانب تدخله فى عداد العباقرة الافذاذ ، يقترحون عليه أن يولف لنفسه فرقة خاصة ، وأن يتخصص فى تأليف السمفونيات والكونشرتات والأناشيد الموسيقية ، توقعوا له مستقبلا مدويا ، بعضهم – بقليل من الخبث الشرير المقنع بالمدح – نعى عليه حرمانه من «الدراسة الأكاديمية» على الأقل

ليضع الشهادة فى أعين «الحاقدين» سيما ونحن بلد تركع للشهادات لا للموهبة . على أن سالم أبو شفه - الفاجومى - أفحمهم بقوله إن البلاد فيها ملايين الشهادات العالية وليس فيها سوى عبدالبصير واحد فقط . استدرك عليه عبدالبصير :

- « ليس كل من يحمل شهادة عالية يكون عبدالحليم نويره أو عبدالحليم على أو جمال عبدالرحيم أو إبراهيم حجاج أو فؤاد الظاهرى !!» .

لحظتئذ هبط عليهم أحد المطربين العاملين فى برنامج المحل ؛ استسمح عبدالبصير أن يصاحبه فى وصلته لأنه سيغنى أغنية قديمة يطلبها الجمهور باستمرار وفيها صولو كمان عقده .

هز رأسه موافقا فى أريحيه ؛ لكنه تذكر ضيفته الطنطاوية وموعده مع الأستاذ ؛ فانفض واقفا ينظر فى ساعته :

- « ياه ! لابد من انصرافى فورا !! خطيبتى فى انتظارى عند أحد أقاربى ! تأخرت عليها كثيرا !! آسف ! لكن غدا يمكن أن أكون تحت أمرك ! اعف عنى الليلة !!» .

تولى الصحاب توضيح الموقف للمطرب الذى اقتنع ، وقنع بواحد منهم ، أما عبدالبصير فقد انطلق مهرولا إلى الباب ومنه إلى الشارع . رمى بنفسه فى سيارة أجرة ؛ اندفع خياله يسابق السيارة : يشعر الآن أنه ممتلىء بنفسه ، بذاته، بكيانه ، هاهو ذا الخط قد بدأ يحالفه ، وغدا يحالفه النجاح الكامل فى خلق تأليف موسيقى مصرى الجنسية حينما تسمعه أية أذن فى العالم تهتف فى الحال: هذه موسيقى مصرية وإن عزفتها آلات غريبة .

وإذ كان يصعد الدرج إلى شقة الأستاذ كان يخيل إليه أن ساعة يده مخرفة ، فهو يشعر أن زمنا طويلا جدا قد مر عليه منذ كان هنا أول المساء ؛ لكن موسيقى نشرة أخبار الحادية عشرة أكدت له صدق ساعته ، تصور ضيفته الطنطاوية وهى مستغرقة الآن فى نوم عميق ، شعر تجاهها بكثير من الشفقة؛ بدأ يتشكك فى نواياها ، مال إلى الترجيح بأنها لا تزال تحلم بعالم الغناء والفن والفنانين، وأن

مجيئها إلى القاهرة بهذه الحيلة ليس إلا محاولة تختبر فيها ما تسمعه عن هذا الوسط الغامض المفضوح فى آن؛ تصورها وقد أصبحت نهبا لحيتانه ووحوشه المفترسة يبيعونها لبعضهم البعض بيع الشياه ، فاقشعر بدنه ؛ أحس كأنه المسئول عما يمكن أن يحدث لها من ضياع مروع ، فارتعدت يده وهى تضغط على زر جرس الباب .

(٤٣)

الست أم فريد كالأخطبوط ، لكنه أخطبوط الحنان والإنسانية ، إنها من ذلك النوع الذى يفرض خدماته بأى وسيلة ؛ تخلق لنفسها دورا من أضيق الأبواب . هوايتها الوحيدة فى الحياة أن تتسلل إلى ما تحت جلد جليسها ، تتحسس جروحه بأنامل ملساء تطبب وجعها ، وأنت لابد واجد فى مجرد الحديث إليها راحة كبرى اذ هى تستمع اليك باهتمام وتركيز شديدين يذكرانك باهتمام أمك ، تتأثر بكل ما تقول تأثرا حقيقيا يظهر عليها فتجدها تعلق :

- « ياروحى ! يا قلب أمك ! يا حرام» .

وربما بكت بحرقة أم موجوعة الكبد على وليدها المعذب ، ثم إنها لابد أن تفعل شيئا ، تضع نفسها فى الحال موضع المسئولة عن علاجك مما أصابك . إن كانت الأزمة فلوسا نهضت وفتشت فى أدراجها وربما فى جيب أبى فريد عن فلوس تعطيها لك : « ولا يهمك ! بتحصل فى أحسن العائلات ! خذ منى فأنا فى مقام والدتك والله ما تكسفنى!» إن كانت مشكلتك لدى أحد المسئولين فإنها تسحب الهاتف تبحث بين معارفها عن شخص يعرفه ؛ وكثيرا ما تجد ؛ وحينئذ تدهشك براعتها فى عرض مشكلتك ، تذهل كيف استوعبتها هكذا بكل هذه الدقة فعرضتها فى صورة أفضل مما لو عرضتها أنت مضيفة اليها انفعالها ومدى احساسها بفداحة المصاب . بل إنها ربما لبست هدومها ونزلت معك تشترى لك شيئا أو تصطحبك إلى موقع المشكلة لتكون واسطة خير بينك وبين بقية أطرافها .

وفى هذه الحالة لك أن تضمن حلا مريحا ؛ لأنها تعودت أن تقتحم المشكلة **فى** قلبها ، لبها ، عقدتها ، فتروح تعمل على فك هذه العقدة بحيل لا تنتهى وصبر لاينفد ، يساعدها على ذلك صوت رخيم منضبط ملىء بالهدير الموسيقى الغنى بالمشاعر . لا عجب فقد كانت فى الأصل مطربة من خامة أم كلثوم وفتحية أحمد ، قبل أن تقتنع بأنها لن تضيف إليهما شيئا مهما فامتنعت بعد نشاط وانعزلت بعد شهرة لكنها ظلت من ذلك النوع من المغنين الذى يغنى مشاعره فى رصانة تستقطب احترامك وتقديرك . لغتها أيضا سلسة ، ارستقراطية الطابع مبطنة بشئ من تطحين أولاد البلد . طلباتها رجاء يصعب رده ؛ وشكرها دعوات طيبة تدغدغ القلب إذ هى تدعو لكل واحد بما تشعر أنه يتمناه ، دعوات تكاد تكون شعرا موزونا ومقفى أحيانا ، بكلمات سخنة مليئة بالأمثال ، والشفافية ، والسحر القادر على إشعارك بتفاهة الدنيا ورخص كل ماهو زائل مهما غلا ، فى مقابل عظمة الإطمئنان وروقان البال .

بهذه الروح اقتربت أم فريد من ضيفتها الصغيرة منال ؛ أخذتها على حجرها؛ أدخلتها الحمام وبيدها دعكت لها ظهرها بالليفة وعاينت كل تفصيلة فى جسدها ؛ سرحت لها شعرها ، زينتها . ثم انفردت بها ففتشت فى كل ثنية من ثنايا مشاعرها عن أى حشرة من حشرات الوجع النفسى ؛ تأكدت من عفتها ، بكارتها، سلامة قلبها ، طهرها ، خلوها التام من اللوع ، من الطموحات الخرقاء . عرفت كل صغيرة وكبيرة فى حياتها وحياة أمها واخوتها . رأت بعينيها كل شىء ماثلا أمامها من فرط صدق الفتاة ، قالت فى نفسها : والله إنها لأصلح عروس لابننا عبدالبصير ؛ لو كان عندى ولد ما تركتها تفلت من يدى ولكنى أحببت هذا الجدع الفنان كابنى والخدمة الوحيدة التى أقدر على تقديمها له أن أهديه هذه العروس ؛ نعم وحق الله ليس أنسب له منها ولا أنسب لها منه ؛ لسوف تحاول على كل حال فإن رضى تكون أمه راضية عنه وإن ركب رأسه وراء بنت مزوقة من بنات هذه الأيام فذنبه على جنبه يتلقى وعده .

على أن أم فريد ليست بالتى تدخل فى أمر ولا تنهيه . . . تنوى شيئا ولا تفعله،

أو تمضى فى مشوار وترجع عنه مهما صادفت من معوقات . وهكذا ركزت عينيها الحانيتين على عينى البنت ، سألتها مباشرة :

– « مارأيك لوز وجناك من عبدالبصير ؟!» .

ارتبكت البنت ؛ احمر وجهها كالجزرة ، ارتخت جفونها. كررت أم فريد سؤالها بنبرة فيها من الثقة أكثر مما فيها من العرض؛ فارتعشت البسمة على شفتى البنت وانكمشت على نفسها فى قشعريرة هى مزيج من الحيرة والغبطة. حينئذ نهضت أم فريدة سحبت البالطو الفرو الثمين فوضعته على كتفيها وأمسكت بمحفظة نقودها الصغيرة؛ وخرجت. سمعت منال صوتها فى الردهة يبتعد قائلة للأستاذ:

– «طالعه الدور الفوقانى وراجعه»!!

لم يستغرق غيابها أكثر من عشر دقائق. رمت البالطو والمحفظة على السرير؛ نادتها:

– «قومى ساعدينى فى تحضير العشاء فعريسك على وشك الحضور»!!

لم تكد تنهى عبارتها حتى سمعت رنين الجرس فهتفت فى زهو يشبه الابتهال:

– «اسم الله على! أحمدك يارب وأشكر فضلك»!

وتوقفت فى صدر الردهة تتابع خطوات الأستاذ نحو الباب. فما أن فتحه ودخل عبدالبصير حتى فردت كفها فوق فمها وأطلقت زغرودة بلا صوت؛ وأضافت:

– «يلا ياعروسة على المطبخ»!!

كان عبدالبصير قد جلس منجعصا بفعل نشوة البلاك أند هوايت؛ فما أن رأى البنت تعبر الردهة بفستانها الساتان البرتقالى اللون حتى فغر فاه دهشة وذهولا: أهذه هى ضيفتة؟ لا يمكن! ألها كل هذه الجدائل الحريرية من الشعر الفاحم؟ أمخروطة هى هكذا كالبلطية تتلعبط تحت تموجات الحرير؟ ألها هاتين العينين اللاهبتين؟ كيف لم ينتبه لجمالها طول النهار؟! إن ملابس المدرسة كانت تخفى كنوزا رهيبة. اختفت داخل المطبخ لكنها بقيت ماثلة فى عينيه المسلطتين على

البقعة التى رآها تعبرها ناظرة إليه نظرة جانبية فيها شئ جديد لم يره طول النهار، شئ يشبه الشوق الملهوف، تكاد النظرة تقول: وحشتنى.

أشعل سيجارة، شعر بقلبه يسقط بين ركبتيه حينما عبرت خياله صورة أحمد فارس مقاول الكومبارس الذى لم يفلت من أنيابه لحم فتاة مرت على مكتبه. تمتم: اللهم استر على ولايانا. ثم فوجئ بأم فريد تقبل نحوه، تجلس بجواره تتحسس كتفه:

«إسمع منى ما سأقول لك يا ولدى وارمه فى البحر إذا شئت!! إن كانت أمك دعت لك فى ليلة قدر واستجاب الله لها! وإن كنت تريد أن تفتح بيتاً مبنيا على الشرف وصون العرض! وتشوف مستقبلك وانت مطمئن البال تجد من يخدمك بإخلاص يسهر على راحتك لتسهر على فنك مثلما فعلت أنا مع أبى فريد! فلتتزوج من هذه البنية!! إسمع كلام أمك التى لم تلدك!! فوحق النبى أشرف خليقة الله لو بقى عندى ولد بغير زواج ما تركتها تفلت من يدى!! إن كنت تحط عينك على واحدة بيضاء مزوقة ملونة العينين فاعلم أن الجمال الحقيقى الذى لم تفهمه بعد هو جمال البراءة والصفاء والماعون النظيف ولون الطبيعة الربانية!! هو هذه البنت باختصار!! وإن كنت تحط عينك على فنانة فأنت عدم المؤاخذة قصير النظر لأنك ستعيش عمرك كله خادماً لها!! سيكون فنها أهم عندها منك ومن كل الرجال! ويجئ يوم تجد نفسك فيه منفياً مقابل حفل فى برنامج أضواء المدينة أو فيلم مع حسن الإمام!! أنت فلاح متدين لن تقبل مرمطة زوجك بين أحضان الطواويس الكذبة الفجرة!! لن تقبل فتح بيتك لشلل الفرفشة والقمار من أصحاب الحل والربط فى هذا الوسط الموبوء!! فنان وفنانة يعنى خلاف قائم ليل نهار! فلابد لواحد منهما أن يكبر على حساب الآخر! والتضحية دائماً على من أحب أكثر!! ولأنى واثقة أن حبك لفنك قوى فإنى غير واثقة أن الطرف الآخر لن يكون حبه لفنه هو الآخر أقوى!! فالصدام آت لا محالة ربما قبل انتهاء شهر العسل!! اسمع نصيحتى فقد عشت فى هذا الوسط اللعين أربعين عاماً فأصبحت أعرف نهاية كل قصة من أول سطر فيها!! علمتنى التجربة أن زواج الفنان الموهوب من فنانة هو زواج فاشل

وجحيم أرضى حتى لو كان فى الظاهر ناجحا!! يقول لك الأستاذ كريم: إننى كنت المنافسة الوحيدة القوية لأكبر ثلاث أو أربع مطربات فى الدول العربية كلها لكنى فهمت نفسى مبكراً وفهمت قيمة زوجى فعشت له ولأولاده!! عشت سيدة بيت من الدرجة الأولى الممتازة بدلاً من أن أعيش فنانة من الدرجة الثانية ولهذا ربيت أولادى أحسن تربية وحفظت لزوجى فنه وكرامته!! أما إن كنت تحط عينك على واحدة غنية فإنك تبيع نفسك برخص التراب فى حين أنك الأغنى بفنك وموهبتك إذا كان وراءهما عقل وحكمة!! وإن كنت تختار عروساً لمركز أبيها فى الدولة فإنك المتنازل فى حقيقة الأمر لأن مركزك كفنان أصيل سوف يعلو على كل المراكز إذا ما كانت شخصيتك قوية لأن كل المراكز والكراسى زائلة إلا مركز الفنان!! يا عبدالبصير يا صوفانى إنى آمرك أن تتزوج هذه البنت!! ليس لأنى أحببتك حب الأم لولدها النابغ بل لأنى طامعة فى ثواب يمنحه الله لى! وأن تظل طول عمرك تذكرنى بالخير تطلب لى الرحمة!! هذا ما أردت قوله لك وأنت بعد ذلك حر تفعل ما تشاء و لن تلومن فى النهاية إلا نفسك! فماذا قلت؟!».

بقى هو فى حالة الإنصات التى كان عليها فى تركيز وانتباه لكل حرف نطقت به، مفتر الثغر عن بسمة بلهاء تنفرج وتنقبض تبعاً لتواتر العبارات الصادمة. غرق فى بحر متلاطم من الحيرة لا شطآن له. لقد نبهته إلى مسائل خطيرة جداً لم يناقشها مع نفسه من قبل. رأى نفسه يؤيدها فى كل ما قالته، خاصة مادار حول مستقبله الفنى، وبالأخص الارتباط بفنانة ذات طموح معين. لم يكن من السهل عليه قول كلمة نهائية فى الموضوع، ليس قادراً على الرفض أو الموافقة، كما أن حبه لسعدية المليجى كالطود لا يتزعزع. يا لها من امرأة داهية، هكذا تمتم لنفسه فيما هو متجمد فى جلسته كتمثال، حتى لسعه عقب السيجارة فانتفض ثم رمى العقب فى الطفاية وأشعل سيجارة جديدة جذب أنفاسها بشراهة فهيجت الأنفاس أبخرة الويسكى فى سقف دماغه فنظر إلى السيجارة فى خجل ملحوظ بعد إذ تبين أنه أخطأ فأشعل واحدة من العلبة المحشوة سجائرها بالحشيش.

رصد الأستاذ هذه الحركة، فرسم على وجهه قناع الجدية الجهم وهتف فى غضب مصطنع:

- «تسمع تدينى السيجارة دى؟!»

فسلمها له فى الحال بحركة تلميذ مذنب، متوقعاً أن الأستاذ سيدوس السيجارة بقدمه. إلا أنه فوجئ بالأستاذ ممسكا بالسيجارة فى حفاوة، يدسها بين شفتيه يجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، ثم يردها له شاكراً. انفجرت الضحكة بين ثلاثتهم تضمر شيئاً من التواطؤ الحميم ويتناثر هشيمها الصاخب فى أنحاء الردهة فتبرقش الصمت الرهيب الذى كان جاثماً عليهم قبل برهة. قالت أم فريد:

«ماذا قلت فيما سمعت منى؟!».

قال فى مرح:

- «قلت لا إله إلا الله!!».

هتفت بنبرة فرح رنانة:

- «إذن فأنت موافق!!».

تلجلج، راح يفتش فى رأسه المخمور عن ردود حاسمة موجزة لبقة. لم تسعفه البديهة المعطلة عنده من الأصل، إلا باحتجاجات خائبة:

- «نعم ولكن!! إنها لاتزال صغيرة وتلميذة فى المدرسة الإعدادية!!».

عاجلته أم فريد:

- «تزوجنى أبو فريد وأنا أصغر منها!! هى الآن فى عزها يا غشيم!!».

- «ولكن يا أم فريد..».

أراد أن يقول شيئا عن القانون والشرعية لكنه اختصر الأمر فى كلمة:

- «المأذون!!».

- «لا مشكلة من هذه الناحية!! اطمئن!!».

- ومن يدريك أنها توافق!!».

ثم استدرك:

- «من يضمن أنها تكون سعيدة معى؟! أو أنا سعيد معها؟!».

اعتدلت أم فريد صائحة فى ثقة:

- «قل إنك موافق ولا شأن لك بالباقى!!».

أخلد إلى صمت عميق، قطعه بأن قدم للأستاذ سيجارة من العلبة المدسوسة، أخذها الأستاذ قائلاً:

- «هيه! أشوف شغلى؟ أحب أن ألعب دورا أنا الآخر!!».

تلاقت نظرته بنظرة زوجه، فنهضت فى الحال. أتت بسلة الهاتف ذى العلبة المذهبة بالنقوش والمخروطة على هيئة جذع نخلة والسماعة تشبه جريدها. أمسك الأستاذ بالسماعة، أدار القرص على رقم يحفظه:

- ألو! يا شيخ عمران! ماذا تفعل الآن يا ترى؟! ما رأيك فى عشوة سُقُع؟! تعال فورا قبل أن يبرد!! اسمع! هات عدة الشغل معك! وإسمع ! فت على المقهى فى طريقك هات الولد سالم أبو شفة والواد زعرب! هات من تجده! سلام».

وضع السماعة:

- «وسعى الثوب يا أم فريد!!».

- الخير كثير والحمد لله! قلبى دليلى دائما كما تعلم يا أبو فريد!! بذمتك يا أبو فريد: الديك الرومى فى الثلاجة منذ كم يوم؟ كل يوم ننوى طبخه ويرزقنا الله بعزومة برانية!! شف النصيب!! إن الله هو المدبر الحقيقى! هذه البنية وهذا الولد كلاهما ابن حلال!! بذمتك يا أبوفريد منذ كم يوم وأنا أقول لك إننا ننتظر فرحا يقام فى بيتنا؟! قل! هذه الشقة مكتوب عليها الفرح! سبحانك يارب أقمنا فيها فرحنا وأفراح أولادنا كلهم وفرح بنت أختى هدى! والليلة وكل ليلة إن شاء الله تمتلئ حياتنا بالأفراح!! لأ والأكادة انت يا أبو فريد لما حكيت لك المنام الذى رأيته أول أمس تقول إننى لم أتغط جيداً! كل الناس ترى الأحلام بعكس تفسيرها إلا أنا ما أراه يتحقق بنصه!! أحمدك يارب! اللهم أوقف لأولادى أولاد الحلال وكن لهم فى الغربة حاميا ونصيرا!!».

السعادة كانت تغمرها تضفى على وجهها نضارة فتاة فى العشرين من عمرها حتى ليشتهيها الشباب اشتهاء تزكيه فخامة جسدها المشدود. مضت إلى المطبخ

تتهادى، فيما نهض الأستاذ فأتى بآلة القانون، فتحها، أومأ لعبدالبصير أن يفعل مثله، ففعل. راح الأستاذ يضبط أوتاره على أوتار عبدالبصير. فجأة توقف الأستاذ قائلا له:

- «ضبطة كمانك غريبة»!

قال عبدالبصير باسما:

- «ضبطة مصرية! تعلمتها من أبى»!!

- «أعرف أن أباك عازف عود أصلا»!

- «وضبطة كمانى ضبطة عود»!!

- «غريبة»!!

- «الخواجات يضبطون الكمان: صول - رى - لا - مى!! والأتراك يضبوطونها على: صول - رى - لا - رى»!!

- «نعم ولكن الضبطة العامة فى مصر هى: صول - رى - صول - رى!! يعنى مابين التركى والأفرنجى»!!

- «أما كمانى فقد ضبطتها ضبطة العود على: صول - رى - صول - دو»!!

- «ولماذا اخترت هذه الضبطة بالذات»؟!

- «لأن منهجنا كمصريين منهج غنائى بحت!! نحن كما تعلم ليس عندنا تراث موسيقى بحت كالأجانب!! كل ثروتنا غناء فى غناء!! وحتى المقطوعات الموسيقية التى ألفها محمد عبدالوهاب ومحمد فوزى وفريد الأطرش لم تكن تأليفا موسيقيا بحتاً كما عند الغرب أمثال بيتهوفن وموزارت وهندل وباخ وغيرهم!! كانت كأنها أغنيات تغنيها الآلآت بدلاً من الأصوات البشرية!! وأنا أحلم بأن أطور هذا الغناء الموسيقى وأطوعه لمنطق التأليف الموسيقى على الطريقة الغربية ! وإذا نجحت فى ذلك أكون نجحت فى تطويع الطريقة الغربية فى التأليف الموسيقى لمنهج الغناء المصرى! وآلة الكمان هى أداتى الوحيدة»!!

- «أنت ولد ملهم على كل حال»!!

جاءت أم فريد مزهوة:

- «طب بذمتك ودينك ياأبو فريد! ألم أقل لك هذا الكلام نفسه يوم استمعت إليه أول مرة؟! تذكر؟ قلت لك هذا غناء موسيقى مصرى ولكن على الطريقة الأفرنجية»!!

- «حصل»!!

هكذا أومأ أبوفريد برأسه فيما يرمقهما معا فى إعجاب؛ ثم بدأ يداعب الأوتار بمدخل مقطوعة: (لونجا دو ماجير) التى استمع إليها من عبدالبصير أكثر من مرة وخلبته. كان فى الواقع يريد أن يتمرن معه على عدة مقطوعات من مقطوعاته لكى يعزفها فى سهرته المرتقبة.

غير أن عبدالبصير وهو مندمج فى العزف كان ثمة ما يشاغل عينيه ويستقطب اهتمامه: كانت البنت منال قد بدأت تروح وتجىء بين المطبخ وترابيزة السفرة تفرش وترص الأطباق والملاعق والشوك فى نشاط وحيوية. كانت عروسا بالفعل تبدو شهية؛ ويبدو أن هذا البيت قد أضفى عليها مزيدا من الأنوثة أو لعله كشف عنها.

سمعوا وقع أقدام كثيرة تصعد السلم، ولغط الشيخ عمران ونكاته وقفشاته يصل إليهم بوضوح. ترك عبدالبصير آلة الكمان، وقام ليفتح الباب.

(٤٤)

دخل الشيخ عمران مهللا؛ ومن خلفه سالم أبوشفه وزعرب وزميلا عبدالبصير فى السكن القديم ونجيب السلحدار المتعهد. امتلأت الشقة بالزئيط؛ راحوا جميعا يتكلمون فى آن واحد؛ إلى أن هتفت بهم أم فريد:

- «العشاء جاهز ياجماعة»!

تقدمهم الأستاذ نحو الترابيزة. اتخذ كل منهم مكانه. بدأت سمفونية الغزل فى أنفاس أم فريد العطرة؛ قادها الشيخ عمران بكفاءة يحسد عليها.

الشيخ عمران فى الأصل صييت مشهور بين قطاعات كبيرة من جماهير

الموالد وبعض القري؛ إلا أنه ليس يتخصص فى الغناء الدينى فحسب؛ بل يجيد الغناء بجميع ألوانه؛ حريف جدا في أداء أغنيات أم كلثوم ومحمد عثمان وعبدالوهاب وكذلك الشيخ على محمود والشيخ درويش الحريرى ومواويل الشيخ محمود صبح وعبده الدمرداش القهوجي؛ بحساسية مرهفة وبراعة شديدة. يَلبس لكل حال لبوسها؛ فهو تارة بالجبة والقفطان والعمامة إذا كان الحفل دينيا محضا؛ وتارة أخرى بالجلبات البلدى والطربوش إذا كان الحفل فرحا فى حى بلدى؛ وتارة ثالثة بالبدلة الأفرنجية إذا كان الحفل فى حى أفرنجى وفيه منصة وتخت موسيقى. له مع ذلك شغلة رسمية بحكم حصوله على شهادة «العلمية» من الأزهر الشريف: مأذون شرعي؛ هكذا كتب على لافتة مستطيلة بالخط الثلث العريض، تمتد على جدار شرفة شقته فى الطابق الثانى من عمارة بارزة فى ميدان باب الخلق. هى شقة كبيرة ذات بابين على السلم؛ واحد لأهل منزله مغلق لا يفتح إلا لهم؛ والآخر يفتح على الصالون المزود بمكتب ودولاب كتب وملفات؛ وعلى هذا الباب لافتة نحاسية لامعة ورصينة تضيف إلى شغلة المأذون مهمة القيام بإحياء الأفراح والليالى. ولقد يستقبل العميل لعقد قران فيأخذ منه مقاولة الفرح كله من بابه. لهذا فالمكتب لا يكف عن استقبال العملاء. الشىء الوحيد الذى يرفض القيام به هو الطلاق.

بعد العشاء قالت له أم فريد:

– «إفرد ورقك ياشيخ عمران وأسمعنا صلاة النبى حتى آتيكم بالشربات»!!

فى لمح بالبصر فوجىء عبدالبصير الصوفانى بيده تعانق يد الأستاذ جميل كريم – الذى وكلته العروس – تحت منديل مفرود فوق اليدين؛ وقد راح يردد خلف المأذون كلماته. أطلقت أم فريد سربا من الزغاريد الرنانة الرائقة؛ ثم قدمت لهم عصير المانجو، وبجواره زجاجة كاملة مبرشمة من الويسكى تلقاها أبوفريد هدية من صديقه شيخ النفط العربى. وكانت قد أعطت الشيخ عمران شهادة تسنين للبنت أتت بها من طبيب تقع عيادته فوق شقتهم مباشرة؛ وكانت ورقة الشهادة منتفخة لأن أم فريد لفتها على خمسة جنيهات دفعتها – مؤقتا – من جيبها لكى

ينكسف الشيخ منها فلا يطمع فى عبدالبصير ومن ثم لا يحدث أى شقاق يعطل سير مشروعها الأثير.

سرعان ما انشدت الأوتار، وسخن الشيخ عمران فصرح منجليا بفعل الوسيكى وسجائر الحشيش ودور محمد عثمان: كيد العوازل كايدنى. أطال بغير إملال فى مقطع: آه يا مالك، فيردون عليه جميعا: قلبى بالمعروف؛ حبك كوانى، تعالى شوف؛ وهو يعيد ويزيد فى الآهات والليالى.

أصرت أم فريد على إقامة زفة أياً كان منظرها؛ فالبنت - ياقلب أمها - بنت بنوت، وحرام أن نحرمها من ليلة عمرها.

وكان لها ما أرادت؛ حيث نزل على صوت الزغاريد وفد من نسوان الجيران، شاركن كلهن فى تزويق العروس وإلباسها فستان زفة أخرجته من دولاب إحداهن. ثم نزل العريس متأبطا عروسه.

فى غبشة الفجر؛ فى شارع محمد علي، مضى العروسان يحوطهما لفيف من نجوم الشارع المعروفين لكل كبير وصغير فيه؛ جميعهم فى حالة من المرح الحقيقى، تخلوا فيها عن كل وقار؛ صاروا يغنون ويصفقون ويعزفون: إتمخطرى ياحلوه يازينه ياوردة من جوه جنينه، وسابلة الطريق ينعطفون عليهم؛ فيتضخم الموكب؛ يزداد طربا وهياجا وجنونا يقطر بهجة ومرحا؛ حتى إذا صاروا أمام قهوة التجارة وكانت أضواؤها الخارجية مطفأة خرج من أوكارها كل من فيها؛ فلما ميزوا بين الموكب الشيخ عمران ونجيب السلحدار وسالم أبوشفه وزعرب انخرطوا فى ضحك وصخب وتهريج؛ فلما تبينوا أن العريس هو عبدالبصير انضموا إلى الموكب عن طيب خاطر ورغبة صادقة فى المجاملة. خرجت من المقهى دفوف ونايات وطبلات. كلهم كانوا سكاري يستنفرهم المرح فاندفعوا جميعا على سجيتهم.

توقف الموكب أمام البيت الذي يسكنه عبدالبصير. تكفل شبان الحارة من باعة السمين والفاكهة السهرانين بتوسيع دائرة فى قلب الموكب؛ ثم تحزموا باللاسات وأمسكوا بالعصى وهات يارقص كأنهم جوعى للفرح ما صدقوا أن رأوا أنفسهم

على مائدة شهية. استيقظ الشارع كله وانفتحت الشبابيك فاصطكت الدرف بالحيطان فى إيقاعات متتابعة؛ وتطايرت منها زغاريد متطوعة.



لحظتذاك كان ثمة موكب آخر أضخم وأكثر احتفالا وصخبا، ولكن على بعد آلاف الأميال؛ فى ساحة كبيرة فى مدينة بنى سويف؛ حيث امتد السرادق على طول الساحة وامتلأ بعناقيد اللمبات الكهربائية الملونة، واحتشد بالمدعوين الصعايدة حملة البنادق والرشاشات والنبابيت، ومجاميع الحشاشين والباعة من جميع الأنواع. فى آخر السرادق منصة عالية جلس فوقها العريس مطبق اليدين والقدمين على عجينة الحنة؛ ومن حواليه فرقة موسيقية كبيرة وصل بها التجلى والسخونة حدا عظيما؛ ومطربتان وراقصة فى حالة وجد وامتنان وامتزاج بنشوة جمع النقوط المنهال عليهم من أول الليل بغير حساب؛ الجماهير المخمورة المسطولة الهائجة تهز الأرض بصياحها الملىء بالشبق وجنون الرغبة فى الانعتاق من الثياب. مابين شوط راقص وآخر يصعد أحدهم على المسرح شاهرا ورقة البنكوت الخضراء يمسى بها على معازيم جدد؛ يستنفر ردهم على التحية بأحسن منها؛ تنهال الفلوس والأسماء على نبطشى الفرقة؛ تتجاوب مع صوته فى الميكروفون طلقات الرصاص فى غزارة كأنها حرب السابع والستين.

بجوار المنصة تماما تكأكأ رهط من أقارب العريس وأبناء عمومته وأصهاره على استعداد لتلبية أى طلب من الفرقة أو العريس؛ كل منهم يحمل سلاحه المعبأ بالذخيرة أبرعهم جميعا فى استخدام السلاح هو «هادى» ابن أخت العريس؛ قصير القامة سفروت؛ عجوز الملامح رغم صغر سنه؛ يشتغل فى تجارة المحاصيل الزراعية بنجاح كبير؛ مشهود له بالجدعنة والفروسية؛ مرهوب الجانب حتى من المطاريد نزلاء الجبل، لبراعته فى التنشين وحدة بصره وجسارة قلبه.

راحت طلقات هادى تتدافع فى سرعة ورشاقة ترج الفضاء رجا؛ فينظر الجميع حواليهم بحثا عن مصدر الطلقات فلا يجدونه. قليلون هم الذين كانوا يرون

هادى فى جلسته متقرفصا لصق المنصة، يكاد جسده الضئيل يختفى فى ظلها وظل الزحام فوقها. المدفع الرشاش الآلى فى حصنه، ماسورته موجهة إلى السماء بزاوية محكمة منضبطة بيدين صلبتين. وكان قد عبأ الخزنة لتوه من جديد حينما لمح خاله الأكبر مقبلا نحو المنصة لكى يقدم التحية لمعازيم وفدوا لتوهم. تحفز هادي للإطلاق بمجرد سماعه اسم أحد من المدعوين الجدد. غير أنه لم ينتبه لمجموعة أطفال أشقياء بجواره - تحت كوعه مباشرة - يتناحرون للاقتراب من المنصة. ضغطت أصبع هادى على الزناد فى اللحظة التى انتفض فيها أحد الأطفال واقفا؛ فاصطدم جسده كله بكوع هادى؛ فاهتز المدفع الآلى فانحرفت ماسورته انحرافة حادة صبت كل محتويات الخزنة دفعة واحدة على المنصة؛ تهاوت الأجساد فوق بعضها كأشجار اقتلعتها ريح صرصر عاتية: المطربون والراقصات والعازفون والعريس والخال الأكبر، واندفعت نوافير الدم تعانق الأضواء الحمراء تزيدها احمراراً.

اشتعل السرادق بالصراخ واللطم والعويل. انكب الجميع على المنصة يرفعون الجثث الهامدة عن بعضها. بحر من الدم القانى تخوض فيه الأحذية وتصطبغ به الأيدى والوجوه والثياب. انطرحت البطاطين والملاءات فوق الجثث التى أشير ببقائها على المنصة حتى تجىء النيابة للمعاينة. على مقربة منهم - فوق الأرض - جثة قزم سفروت غاب عن الوعى محتضنا مدفعه فداسته الأقدام بططته تماما. سرعان ما راح اللون الأسود يخترق السرادق فى أشباح لاطمة صارخة . صار اللون الأسود يتزايد، والأشباح تلوح بآلاف الأذرع تشعل فى الأفق حريقا هائلا من الصوات الملتاع.



تقدم الشيخ عمران ففتح بجسده ثقبا فى جدار الموكب السميك؛ فتمكن عبدالبصير من سحب عروسه، وزرق بها إلى عتبة البيت؛ صعد بها السلم. كان الصداع يدق رأسه بمطارق عنيفة فيشعر بألم حاد فى رأسه وفى جنبه. تحسس

جنبه فاصطدمت أصابعه بورم وكلكعة فى جيب سترته الداخلى. قبض عليها بقلب واجف؛ سرعان ما تبين أنها علبة الشبكة التى أعدها لخطيبته سعدية المليجى؛ فشعر كأن سكينا تخترق قلبه كما تخترق قلب البطيخة. كاد يصرخ من عمق الألم؛ لكنه مد المفتاح فى ثقب الباب؛ أضاء نور الردهة؛ سحب عروسه إلى الداخل فى رفق مبالغ فيه يخفى به حقده العارم عليها.

رفع لفة البدلتين رمى بها على المنضدة. رفع البطانية عن السرير؛ فرشها على الأرض؛ أخذ إحدى الوسادتين رمى بها فوق البطانية؛ خلع سترته فعلقها فى مسمار مثبت فى ظهر الباب؛ قال لعروسه بلسان ثقيل وعينين كابيتين:

– «نامى على هذا السرير»!!

نظرت إليه مندهشة كأنها تقول: وأنت ؟! لكنها لم تنطق بحرف؛ ولعلها استراحت لهذا المسلك. أما هو فقد أشار إلى البطانية فى حركة متهافتة:

– «سأنام هاهنا حتى الصباح فأنا متعب ونومى ثقيل»!

لم ينتظر ردها، فتمدد ببقية ثيابه على الأرض؛ طوى الوسادة تحت وفوق رأسه ليسكت بها ألم الصداع المتزايد. وكان صخب الموكب فى الشارع لا يزال قائما؛ فيما يشعر هو كأن الأرض تدور به؛ وسقف الحجرة يكاد يهوى فوق جسده. ثم راح كل شىء يبتعد، ويمعن فى الإبتعاد، ثم يضمحل تماما.

(٤٥)

.. كان يمشى فى قلب أدغال من البوص والحلفاء وأعواد التيل، فوق أرض موحلة كما يحسها ولا يراها ولا يتبين موطىء قدميه؛ يدوس على شوك وضفادع؛ يشعر بضيق شديد إذ يبدو الطريق بلا نهاية بلا أمل فى وضوحه. سأل نفسه: إلى أين أنت ذاهب على وجه التحديد وما الذى رمى بك فى هذه الوحلة؟! وقر فى ذهنه أنه لابد ذاهب إلى حفل فى قرية لاشك تقع هاهنا؛ ومن المحتمل أن يكون قد سبقه أحدهم بآلة الكمان كما يحدث أحيانا. فوجىء بقناة تعترض طريقه، وأنه صار فى

مفترق طرق. إنحاز تلقائيا إلى طريق بدا سهلا محفوفا بأشجار الجزورين. أرسل البصر حواليه يستطلع الأفق البعيد بحثا عن معالم تشير إلى بلدة لكن الليل كان ينكفيء على الأرض وليس ثمة من ضوء سوى بريق نجوم ترقد على خد الأفق كثقوب دقيقة. تنحنح، لعله أراد التأكد من صوته فصاح: ها.. ا..ا..ه. ارتد إليه صوته في موجات متلاحقة: ها.. ا.. ا.. ا..ه؛ وإذا به يشعر بدبيب خطوات ثقيلة ترج الأرض من خلفه تقترب منه. استدار مذعوراً؛ رأى قزما ضئيل الحجم يمسك مدفعا رشاشا يصوبه نحوه:

– «قف مكانك لا تتحرك!! ياخائن ياجبان!! ظننت أنك تقدر على الإفلات بعملتك وتهرب»؟!

ارتعد:

– «أهرب؟! هذا والله لم يخطر ببالى»!!

– «فلماذا جئت إلى هنا إذن»؟!

– «لابد أننى مدعو لإحياء فرح في بلدة قريبة من هنا!! ولكن قل لى أنت: أهرب من ماذا؟! وماهى عملتى التى تقول إننى».

– «ألا تعرف ياجبان ياخائن؟! ألم تكن على موعد مع فرح آخر»؟!

– «ربما ولكن أين»؟!

– «أنت تعرف جيدا»!!

– «يظهر أنى نسيت فاعذرنى!! إن مشاغلى كثيرة ووقتى قليل!! ومع كل فأنا مستعد للذهاب معك إلى أى موعد تشاء»!!

– «أين الكمان؟! أنت وحدك لا تكفى !! ثم إن الوقت فات وانتهى الأمر»!!

– «فماذا أفعل فى رأيك»؟!

ضحك فى مرح صبيانى:

– «تظن أنى أردت قتلك؟! لا يامسكين!! إنما أنا اغتظت منك لا أزيد ولا أقل ! كنت أحمل هذا المدفع لأطلق الرصاص فى الهواء تحية للفرح فلما لم يعد هناك فرح جريت أبحث عن صيد فرأيتك فعرفتك»!!

أيقن عبدالبصير أنه اصطدم بمعتوه عليه أن يأخذه بالسياسة اتقاء لتهوره. قال له بشيء كثير من الحذر:

- «هل من خدمة أؤديها لك»؟!

فى لهجة من يعفو عند المقدرة قال القزم:

- «اتكل على الله! لقد عفوت عنك»!!

ما أن استدار لينصرف حتى تناهت إلى أسماعه قرقعة عجلات سيارة فوق طريق مليئة بالقلاقل؛ ففى الحال اختفى القزم بمدفعه الرشاش؛ وظهر شبح السيارة التى كانت من طراز عتيق جدا، عبارة عن صندوق مقفل، يجرها جوادان؛ وعلى جانبى مقعد السائق فانوسان يبعثان ضوءاً مرمداً. توقفت العربة أمامه. خيل إليه كأنه كان على موعد معها وأنه كان ينتظرها فى هذا المكان الغريب النائى. مال نحوه السائق ماداً يده ليسلم عليه؛ فإذا هو عم عثمان حارس حبيبته سعدية المليجى؛ كان مكفهر الوجه عابسا؛ سحب من جواده صندوق الكمان وقدمه إليه؛ فخيل إليه أنه كان يعرف أنه ترك كمانه أمانة لدى سعدية ريثما يعود من مشوار قريب؛ وأنها استغيبت حضوره فبعثته له مع عم عثمان. حين أمسك بيده الصندوق فوجىء به قد انفتح لأن الغطاء فيما بدا لم يكن محكم الإغلاق. سقطت آلة الكمان مع القوس على الأرض . انكب عليها بسرعة فرفعها وهو يتوجس بشدة من أمور غامضة. رأى الأوتار كلها تقطعت، والرقبة انكسرت، وبعض مفاتيحها غائبة فى حين بدا القوس كأنه عود من الحطب وأوتاره نسائر من خرق بالية. شعر بأن قلبه هو الآخر كذلك، صرخ صرخة أليمة. هم بالصعود إلى العربة ليمسك بتلابيب عم عثمان يسأله: من المسئول عن هذا الفعل الشنيع؟ لكن العربة كانت قد مضت، وبدت من بعيد مجرد صندوق فاحم السواد يخترق أحشاء الليل ببصيص من الضوء. وقف يلطم خديه باكيا؛ ومع أنه كان مدركا أن قدرته علي إصلاحها تصل إلى حد تجديدها أفضل مما كانت فإنه لم يعرف بالضبط علام كل هذا البكاء الحارق؟! فتح عينيه من خلل الدموع الغزيرة الساخنة؛ فرأى القزم واقفا

أمامه مستندا على المدفع الرشاش المنكفىء على الأرض كالعصا؛ تلمع فى عينيه بوارق مخيفة؛ قال له:

- «لا جدوى من البكاء!! داوى جراحك بنفسك!! هل تعرف السباحة»؟!

- «لا! ولكن لماذا»؟!

- «يتعين عليك أن تعبر ترعة عريضة بعض الشىء فإن وفقك الله فى عبورها تجد فى مواجهتك حديقة كبيرة اخترقها ولا تخف!! ستوصلك إلى المدينة التى تسكنها!! وعموما! تعال اركب فوق ظهرى وأنا أعبر بك»!!

سحبه من طرف سترته بحركة خشنة؛ فجمع عبدالبصير أشلاء كمانه ومضى بجواره، حتى لاح لهما خط أبيض تبرق فيه النجوم كرءوس من الدبابيس؛ كلما اقتربا منه اتسع كشريط من الدانتيل الأبيض يعترض الطريق؛ ثم ظهرت الحديقة من خلفه؛ وظهرت بقعة سوداء على الشاطىء الآخر تترنح تتحرك؛ سرعان ما توقع عبدالبصير أن تكون هى العربة التى يقودها عم عثمان. نظر حواليه باحثا عن القزم فلم يجده؛ فشعر بوحشة مرعبة؛ انطلق منه صراخ وعويل. صارت البقعة السوداء المتحركة تقترب منه ويتضاعف حجمها كلما اقتربت. اتضح أنها سفينة أشبه بالأتوبيس النهرى تقترب من الشاطىء. توقفت؛ امتد منها لوح خشبى ثقيل ربطها بالشاطىء. رأى نفسه يمشى تلقائيا فوق هذا اللوح، حذراً يترنح. على سطح السفينة استقبله رجل أحمر الوجه؛ قدم له كرسيا. جلس متعبا ينظر إلى الرجل الأحمر الوجه فى استطلاع وجل. اتضح أنه أجنبى يتكلم بلغة غير مفهومة على الإطلاق؛ ولكن عبدالبصير فهم من إشاراته أنه يريد تطييب خاطره وتهدأة نفسه المضطربة؛ ثم تركه وغاب فى الداخل برهة وعاد ممسكا بآلة عود وكرسى؛ جلس أمامه؛ دوزن الأوتار؛ راح يعزف أنغاما شرقية صرفة؛ سرعان ما تبين عبدالبصير أنها أنغامه هو، من تأليفه هو، جمل ومقاطع مختارة بعناية من مقطوعاته: المشربية والنيل وأيام زمان. شعر لذلك بابتهاج عظيم جدا. وكانت السفينة قد راحت تتهادى بين الموج فى سلاسة النغم؛ والحديقة صارت على الجانبين البعيدين. نبت القلق فى صدره، أشار بيده إلى يمينه قائلا للخواجة إن

الشاطىء هاهنا. هز الخواجة رأسه أن نعم؛ ثم أشار بيده الممسكة بريشة العود فى حركات فهم منها عبدالبصير أنهما سيقومان برحلة قصيرة يعودان بعدها إلى الشاطىء. داخله شيء قليل من الطمأنينة فرأى نفسه يفتح علبة الكمان ليشارك الخواجة فى عزف مقطوعاته لعله ينسى القلق، تذكر الأوتار المقطعة فدق قلبه بعنف ورأى نفسه ينخرط فى بكاء غامض محزون؛ صار يهذى بصوت عال، يسب يلعن يدق سطح السفينة بقدميه حتى أصيبت إحدى قدميه بألم شديد فوق احتماله؛ فانتفض قاعدا ممسكا بها بيديه الاثنتين متوجعا .

(٤٦)

كان قلبه لا يزال يدق بعنف. بذل جهداً كبيراً فى تخليص جفنيه من عماص علق بها كالصمغ. شعر بفرحة كبيرة حينما اكتشف أنه راقد فى فراشه؛ لكنه استغرب رقاده هكذا على الأرض؛ نومة لم يعتدها أبدا؛ فهل تراه وقع عن السرير أثناء استغراقه فى النوم دون أن يدرى؟ فمن عساه إذن يكون قد افترش له هذه البطانية ووضع الوسادة تحت رأسه؟! نظر إلى السرير بعينين مجهدتين؛ فوجىء بفتاة ترقد فوقه معطية وجهها للحائط ملتفة بملاءة أحكمتها حول جسدها. دار بعينيه فى أنحاء الحجرة؛ تأكد أنها شقته؛ رأى لفة البدلتين الجديدتين ملقاة على المنضدة. نهض واقفا تطرقع أطرافه بطقطقات عالية الصوت. تثاءب فى صوت كالعواء. تقلبت الفتاة؛ نهضت جالسة؛ سلطت عليه عينين عميقتين صافيتين كحورية خشنة. تذكرها فى الحال؛ إنها ضيفته التى علقت به عند سفره من طنطا؛ ولكن كيف تأتى لها المجيء إلى هنا والنوم فى سريره؟! كانت كالمسئولية الجسيمة قد جثمت على صدره. قالت له مبتسمة فى وجل:

– «صح النوم»!

– «صح بدنك»!

– «ماكل دذا النوم يارجل؟! نومك ثقيل كالموت»!!

– «منذ متى وأنا نائم»؟!

– «من بعد الزفة مباشرة»!!

– «قلت زفة»؟!

– نعم زفة»!!

قالتها خفيضة الرأس؛ ونطقت الكلمة الأخيرة بنبرة مطابقة لنبرته تماما، بقصد الاستنكار لما فى تساؤله من غباء غريب صادم.

– «كنا معا فى فرح»؟!

– «كنا الفرح نفسه! والزفة كانت زفتنا»!!

أطياف مما حدث جعلت تطوف برأسه كحلم باهت الصور والمناظر. جلس على حافة السرير منقبض الصدر معقود الجبين. بقى منكس الرأس لبرهة طويلة يستوضح شريط الصور فى رأسه حقيقة ما حدث. أخيرا رفع رأسه:

– «هل حدث بيننا شىء؟! أقصد من لحظة أن جئنا إلى هنا»؟!

داهمتها الكآبة؛ ارتعش صوتها، صارت تغالب دموعها:

– «لم يحدث أى شىء!! نيمتنى هنا ونمت أنت على الأرض كالقتيل»!!

– «آسف! كنت مرهقا؟ كم الساعة الآن»؟!

نظرت فى معصمها:

– «الرابعة بعد الظهر»!

– «إذن فقومى بنا»!!

قام؛ فك حزام السروال وأعاد ربطه بإحكام حول القميص الذى تكرمش وتهدلت ياقته. لبس حذاءه؛ خرج إلى دورة المياه فغسل وجهه، وعاد حاملا الفوطة فقدمها لها: اغسلى وجهك. دفعت الملاءة عنها ونهضت عن السرير؛ فإذا بها كانت تنام بنفس الفستان الذى جاءت به من طنطا بعد أن خلعت فستان الزفة المعار إليها ورمت به على الكرسى. لبست حذاءها وخرجت إلى دورة المياه. إنتهز الفرصة وغير قميصه بقميص أقل نظافة؛ لبس فوقه السترة وأشعل سيجارة وجلس فى انتظارها يكح بشدة ويبصق فى منديل ورقى.

اخترق بها ميدان العتبة إلى محل عمر افندى؛ اشترى لها فستانا جديدا ثمينا وأنيقا. عاد بها إلى بيت الأستاذ كريم لكى ترتديه هناك لأنها ستسافر اليوم إلى طنطا. رمت بنفسها فى حضن أم فريد منفجرة فى بكاء صامت. سحبتها أم فريد إلى حجرة النوم؛ فيما جلس هو مع الأستاذ فى الردهة يستمع منه إلى تفاصيل ما جرى ليلة أمس. وقد أبلغه الأستاذ أن الشيخ عمران سارع بتوثيق القسائم وأتى بها مختومة منذ الضحى. قرأها عبدالبصير بصعوبة بالغة؛ لكنه ميز اسمه واسم منال وأسماء شهود عقد القران. قال بصوت عال لتسمعه زوجه وأم فريد إنه سيسفرها اليوم إلى طنطا لتبلغ أمها بما حدث حتى لا يقلقوا عليها مزيدا من القلق بعد ليلة ونهار كاملين خارج البيت.

وجدوا جميعا أنه حل ضرورى. وحينما علمت أم فريد أنه لم يقربها اطمأنت إلى نواياه ووافقت بحماسة. دخلت عليهم منال مرتدية فستانها الجديد وقد مشطت شعرها وتطيبت وتزينت، فبدت كسيدة من علية القوم تليق بفنان مشهور يدخل بها الأماكن العامة . كانت تحمل حقيبة يد أعارتها لها أم فريد.

فى ميدان المحطة اشترى لها بعض الفاكهة وعلبة من الحلويات. كان فى أعماقه يتمنى ألا تعود، أن تحتجزها أمها، أن تقع كارثة تمنعها من المجيء. كاد يقول لها بصريح العبارة إنه كان غائبا عن الوعى ساعة أن عقدوا قرانه عليها بهذه الطريقة الهزلية الارتجالية الطريفة كلعبة يلعبها الصبيان للتسلية؛ وإنها ليست الزوجة التى يتمناها كما أنه شخصيا لا يصلح لها بل إنه فى الواقع يحب واحدة غيرها حباً ملك عليه قلبه ومصيره وكل حياته وبدونها لا حياة له ولا مستقبل وإنه ليلة التقاها فى طنطا كان يحمل بدلة الفرح وهاهى ذى شبكتها لا تزال فى جيب سترته واسمها مكتوب على الدبلة التى سيضعها فى أصبع يده اليسرى إلى الأبد؛ أما إن كان قد أخطأ وجارى أم فريد والأستاذ فى عبثهما فإنه مستعد لدفع ثمن غلطته هذه مهما غلا سيما وأنه لم يأخذ من عفافها أى شيء بل إنه لم يلمسها.

كاد ينطق بهذه العبارات التى راحت تتواتر فى رأسه تهدر فى صدره؛ لكنه -

ربما لطيبة فى قلبه – لم يجد الشجاعة الكافية لأن يصدمها بهذه القسوة. ذلك أن مظهر الطفلة البريئة الطاهرة لم يغادرها بعد رغم أن الفستان الجديد يحمل طابع السيدات لا ذوق الفتيات؛ فاكتفى بأن قال لها – كأنه يعجزها :

– «بلغي أمك بما حدث وعودى فى الحال!! لا مبيت هناك!! من الآن وحتى موعد قطار الصحافة لديك متسع من الوقت لإبلاغ أمك!! إن جاء الظهر ولم تحضرى فخير لك ألا تحضرى لأنى لن أفتح لك الباب!! هذا كل ما عندى ولن أتردد فى تنفيذه»!!

قطع لها تذكرة السفر؛ غمزها بخمسة جنيهات. ردتها له قائلة إن أم فريد أعطتها واحدة مثلها. قال لها وهو يطبق كفها على الورقة:

– «إذن فيكون معك ورقتين أفضل من واحدة!! وإذا فاضت واحدة عن حاجتك رديها لأم فريد»!

حشرتها فى عبها؛ هتف متذكرا:

– «آه! خذى هذه الورقة فهى أهم من هاتين الورقتين كى تراها أمك»!!

سلمها قسيمة الزواج الخاصة بها. حشرتها فى حقيبة اليد. انتظر حتى ركبت بجوار الشباك فيما هو واقف يرتكن بكوعه على حافة الشباك يكرر عليها إنذاره:

– «إن جاء الظهر ولم تحضرى فاعتبرى نفسك طالقا ولا تعودى»!!

هزت رأسها موافقة. وتحرك القطار.

(٤٧)

تجنب الظهور على قهوة التجارة ؛ فكلما اتضحت فى ذهنه صورة مما حدث بالأمس شعر بخجل كبير، وبأنه يجب أن يتوارى عن الأنظار؛ فما كان ليتزوج على هذا النحو؛ أو يزف هكذا بشكل هزلى؛ أو تكون ليلة عرسه نوما على الأرض وسط كوابيس مزعجة لا معنى لها كهذا الزواج الفجائى الغريب. لم يكن ليحدث شىء من هذا كله مالم يكن هو فى الأصل طيب القلب أبله، لا شخصية له ولا إرادة.

يحس الآن أنه ناقم على أم فريد أشد النقمة؛ لعن ديك معرفتها؛ ثم استدرك فلعن نفسه، وأباه، وظروف تربيته التي جعلت منه ذلك الإنسان التواكلى الذى يسلس قياده للآخر يصنع مصيره على هواه.

تحسس علبة الشبكة فى جيب سترته الداخلى؛ قرر أن كل شىء لابد أن يمضى كما رسمه وتمناه. أما هذه التى ألقى بها فى طريقه فلن يعترف بها مطلقا. ثم تذكر أنه لم يتلق ردا على برقيته من سعدية؛ وبحث فى ذهنه عما يكون قد أعاقها عن الرد عليه كل هذا الوقت؛ لم يجد سوى أن تكون خارج البلدة فى عمل، وأن البرقية لم تصلها بعد؛ ثم توقع أن يكون الإهمال فى مكتب البرق هو السبب؛ فانتوي أن يمر عليه يسأله السبب.

كان يمشي كالمذهول؛ تتكشف له شوارع وحوارى لم يطرقها من قبل، ذات أسماء طريفة يسمعها لأول مرة، وأجواء شعبية لذيذة، ومقاه خفيفة الظل تضج بالحياة، كلها كانت كفيلة بفتح نفسه على الروح الشعبية المصرية التى اعتاد أن يكتشف فيها كل يوم بعداً جديداً؛ لولا أنه كان منقبض الصدر منحرف المزاج؛ يلح على رأسه مشهد واحد فى غاية البشاعة: الكمان وقد تقطعت أوتاره وتكسرت مفاتيحه، العربة السوداء التى يقودها عم عثمان فى أحشاء ليل أسود، القزم الممسك بالمدفع الرشاش، الأتوبيس العائم فى نهر بين حديقتين تفح منهما الوحشة، الخواجة الذى سرق أنغامه وأوهمه برحلة إلى الشاطىء الآخر المجهول.

هذا المشهد يطغى على مشهد زواجه؛ وكلاهما يبث فيه الكآبة وانقباض الصدر. تذكر أن حفل الليلة سيبدأ فى وقت متأخر من الليل فى كازينو المطربة المعتزلة؛ ازدادت كآبته. فكر لأول مرة فى حياته أن يتخلف عن الحضور؛ هو ليس فى حاجة لادعاء المرض فلابد أنهم سيفطنون إلى أنه عريس من حقه أن يستريح ليلة على الأقل. إنه لن يقوى على النظر فى عينى أحد من زملائه الذين لاشك أنهم سيسخرون منه. هؤلاء السفلة الملاعين هم الذين أوقعوا به فى شر أعماله باستدراجه إلى شرب الويسكى حتى السكر وفقدان الإرادة. الآن فحسب يدرك

لماذا لعن الله الخمر وشاربها وحاملها. لسوف يكون لسعدية المليجى الدور الأكبر فى انضباط حياته وشخصيته؛ هو أيضا لابد أن يلتزم جادة الصواب ونظافة المسلك حفاظا على كرامتها وسمعتها حتى لا تصبح مطمعا لذوى الأنياب المفترسة.

تنقل بين عشرات المقاهى فى عشرات الحوارى والنواصى البديعة؛ شرب عشرات الشايات والقهوات. أكثر من مقهى تبين له بعد الجلوس فيها أنها غرز لسقيا الحشيش، فحشش أكثر من مرة؛ حتى التهب خياله فألح عليه المشهدان الكريهان كادا يكتمان أنفاسه. تلقى تمسية من أحد المعلمين تعاطف مع شكله البائس وعينيه المرهقتين بالألم؛ ظنه الرجل مدمن أفيون؛ ولكن العدساية التى سربها إليه على ظفر إبهامه روقت دمه بالفعل، زحفت به نحو حالة من التوافق مع النفس والاستسلام للمقادير. نظر فى الساعة فإذا هى بالكاد تطرق باب المساء؛ فأين يذهب بقية الليل وهى طويلة مملة؟ لا مفر إذن من الذهاب إلى الكازينو لينسى إلحاح المشهدين الكريهين. مشى؛ لكنه شعر فجأة باشتياق عظيم لأوتاره؛ فحول طريقه إلى البيت.

نحى بصره عن لفة البدلتين؛ اتجه مباشرة إلى علبة الكمان، فتحها، رفع الكمان، تحسسها برفق، داعب الأوتار وترا وترا، احتضن الآلة فى صدره، ثم انطلق القوس يجرى على الأوتار كالرهوان، يصعد جبالا ويهبط إلى وديان خضراء مزهرة، يحلق فوق أحواض من الورد، والأوتار تزفر تزغرد تغنى تطلق أصواتا كصفير القطارات كنعير السواقى، كوقع سنابك الخيل على الأسفلت، ما بين جولة وأخرى ترجع به الأوتار إلى نفس الجملة التى انطلق منها دون أن يدرى، جملة موسيقية يتجسد فيها دبيب خطو ملهوف متعجل موتور حزين، تنساب منها الأوتار إلى حالة من البكاء الحار العنيف بنشيج عال. كان فى أعماقه يريد أن يبكى بحرقة، فبكت بدلاً منه الأوتار. ما إن تحرر القوس من الأوتار حتى تبين له أنه قد اكتشف الخطوط المبدئية لمقطوعة جديدة فذة، لسوف يعود إلى هذه الأنغام مرة ومرات حتى تتشكل المقطوعة فى صورتها النهائية، لسوف يسميها: السفر،

نعم، إنها توحى له بالسفر، بناس راحلين، بحركة وداع، بحزن غامض أشبه بحزن الفراق المؤلم، أخيراً تأبط كمانه ونزل.

قابلته الفرقة بحرارة شديدة، الكل يقول له: مبروك يقولها من قلبه بنبرة جد واضحة لا لبس فيها. بحث فى عيونهم فى نبرات أصواتهم عن أى ظل من السخرية فلم يجد إلا الحب الحقيقى والمباركة الحقيقية، بل إنه فوجئ بأن الجميع معجبون أيما إعجاب بمنظر الزفة التى كانت فى نظرهم غاية فى الأبهة. ما من واحد بارك له إلا وامتدح الزفة وجمال فكرتها كشئ بديع أصيل مبتكر. فلما أجمع الكل على ذلك خيل إليه أنها المؤامرة المدبرة لفضحه والتنكيل به، صار يتوقع لحظة تنكشف فيها المؤامرة عن حفل تهزىء وتجريح له. فاجأته المطربة المعتزلة بشئ لم يكن يتوقعه، أبدت ندمها على أنها لم تشاهد هذه الزفة «المودرن» التي يتحدث عنها «الوسط الفنى» كله، ثم أضافت بغبطة:

– «أصبحت نجماً تكتب الجرائد خبر زفافك!!».

صاح منزعجاً:

– «ماذا؟!»

نظرت فيه باستنكار:

– «ما قرأت الجرائد؟!».

– «عمرى ما قرأت جريدة!!».

رمت أمامه جريدة الأخبار مفتوحة على صفحة أخبار الناس، وضعت أصعبها على خبر يحتل مساحة بحجم كف اليد، ثم قرأته عليه فإذا به يحكى تفاصيل الزفة بكل دقة. تحت هذا الخبر مباشرة خبر آخر يحكى عن فرح آخر فى بنى سويف تحول إلى مأتم فى نفس الليلة فى نفس السرادق إذ أن أحد أقارب العريس أراد المجاملة بإطلاق النار من مدفع رشاش فاختل المدفع فى يديه فحصدت رصاصاته كل من كان على المسرح. طوى الجريدة ودسها فى جيبه. وفى هذه الليلة صوتت كمانه وحلقت بالوهج المشتعل فى ذروات بعيدة جدا.

(٤٨)

خيمت التعاسة على البلوك الثالث فى صف البلوكات الممتد على مساحة كبيرة فى مدخل حى قحافة بمدينة طنطا . كل البلوكات شكلها وردى باهت جربان ، تبدو كعلب واقفة تفصل بينها حارات عريضة ؛ الجدران الخلفية كلها تنضح بماء المواسير الصدئة المتلوية فى أضلاعها ؛ الشرفات كلها مليئة بأقفاص الدجاج وبنانى الحمام ؛ ومناشر الغسيل تتدل منها خرق وأشباح مصلوبة ؛ بصيص من الضوء ينبعث من خلل شيش النوافذ المغلقة ؛ أكثر من جهاز راديو مفتوح على قرآن وأغنيات ونشرة أخبار . إلا البلوك الثالث ؛ غرق فى الظلام والصمت ؛ ولكن العين الوافدة يمكنها ملاحظة النوافذ المفتوحة وقد أطلت منها رءوس تستطلع فى الظلام تميل ناظرة فى كل شبح يظهر على الطريق . فجميع سكان شقق البلوك الثالث يتعاطفون مع جارتهم الأرملة أم جمال ، القاطنة فى شقة فى الطابق الثالث ؛ حيث أمضت ليلة الأمس ونهار اليوم فى لطم وصراخ جذعا لغياب ابنتها منال التى خرجت فى الصباح إلى المدرسة الإعدادية فلم تعد ، وقد ذهبت أم جمال إلى صديقة ابنتها وسألتها فقالت لها إن منال سافرت إلى خالها فى القاهرة . لم تصدق الولية ؛ اعتقدت أن البنت طفشت منها ولن تعود .

تطوع رجال كثيرون من سكان البلوك بالذهاب إلى أقسام الشرطة والمستشفيات ؛ لفوا حول دور السينما ومسرح البلدية ؛ سألوا فى كل مكان ؛ لكنهم عادوا جميعا منكسى الرءوس أسفا وحسرة على الولية الغلبانة التى نكبت بموت عائلها ثم باختفاء ابنتها الكبرى .

كانت قد يئست من وقفة الشباك تارة والبلكونة تارة أخرى ؛ فتربعت فى الردهة الضيقة تبكى وحدها بحرقه ، تشكو إلى الله ضعفها وسوء بختها . ثم سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فأسرعت ابنتها الثانية الصغيرة بفتحه ؛ فإذا

بعروس مجلوة تقف بالباب مرتدية فستانا ثمينا ؛ وثمة رءوس كثيرة تنحنى على درابزين السلم فى الطوابق العليا تمعن النظر فى هذه الزائرة الأنيقة كالأميرات . صرخت الأخت فى فرح طاغ :

– «منال !! منال يا أمى !! خلاص ! كفى عن البكاء !!»

رفعت الأم رأسها ناظرة فى فتحة الباب غير مصدقة ، نفضت جسدها السمين الضخم هبت واقفة ؛ أسرعت بإغلاق الباب ؛ أخذت البنت فى حضنها بقوة ولهفة ، صارت فى توتر تتحسسها فى كل موضع ، تنظر فى عينيها تريد اختراقها تبحث فيهما عن وشاية بالخطيئة . أجلستها ، فتحت حقيبتها أخرجت ملابس المدرسة وكيس الفاكهة وعلبة الحلوى متوقعة أن يكون خالها قد لقيها بالفعل ؛ لكن التوجس لم يفارقها وهى ترص كل هذه الأشياء أمامها :

– «ما هذا ؟! أين كنت يا بنت ؟! كل هذا يطلع منك يا مفعوصة ؟! تعملين فى أمك كل هذا ؟! صبرك بالله حتى أفيق ! ولكن ما هذا ؟! انطقى يا بنت !!» .

قالت منال :

– «بصراحة ! تزوجت بالأمس !!» .

كتمت الأم صرختها بوضع يدها على فمها :

– «تزوجت ؟! ما شاء الله ! تزوجت من يا فاجرة ؟!» .

قالت منال فى ثقة :

– «عبد البصير ابن الحاج مصطفى الصوفانى ! يشتغل فى مصر ! تزوجنى على سنة الله ورسوله ! وهذه قسيمة الزواج !!» .

لطمت الأم خديها مولولة ؛ شوحت بيديها فى صوات بغير صوت ، صارت تفح :

– «انطقى ! ماذا فعل بك هذا الولد ؟! قولى يا فاجرة !!» .

صاحت منال فى احتجاج وغضب :

– «لم يفعل بى أى شىء ! اكشفى علىّ عند الطبيب . لو أردت !! الجدع قدم

لى كل خير !! وهو ابن حلال وأمين وأنا أحببته ومتمسكة به !!» .

زامت الأم فى حسرة :

– «هيه ! وهربت معه إلى مصر فضحك عليك وطردك لأحمل عارك ؟!» .

هتفت البنت بجرأة وقوة:

– «لم أهرب معه! صاحبتى طلبت منه أن يوصلنى إلى بيت خالى! وجدنا خالى عزل من بيته إلى بيت فى حى الوايلى! ودخل علينا الليل فتركنى أمانة عند سيدة محترمة زوجها زميل له فى الشغل ! الست أقنعته أن يتزوجنى !! وأنا لمست فيه الرجولة فوافقت ! فأتوا بالمأذون وعملوا لنا زفة كبيرة لكن الرجل لم يلمسنى!! وقال لى اذهبى إلى أمك بلغيها الخبر وطمئنى بالها وتعالى فى الحال!! وأنا خلصت ضميرى وجئت وسأعود إليه فى قطار الصحافة كما طلب منى لن أتأخر عليه ساعة واحدة!! هذا كل ما فى الأمر والذى يحصل يحصل!!»

قالت الأم وقد أطمأن بالها بعض الشئ:

– «لكن يا ابنتى ! هذا شخص لا نعرفه ولا يعرفنا!! فلماذا تسرعت؟! أما كان الأولى أن نسأل عنه؟! والمدرسه !! أليس وراءك مدرسة؟!»

قالت منال:

– «المدرسة ملحوق عليها! هو لن يمنعنى من التعليم! وهو رجل مشهور وكل الناس تعرفه وتحبه وسمعته كالطبل هنا وفى مصر!!»

– «كيف وأنا لم أسمع به؟!»

– تعرفين إبراهيم افندى غطاس ؟ الساعاتى؟»

– «بتاع العوالم !! طبعا ! كل أهل الحى يعرفونه!!

رجل محترم ومؤدب لم نر منه إلا كل خير!!»

– «اسأليه عنه ! إنه صاحب أبيه وصاحبه!!»

– «والله لأفعلن!»

وسحبت ملاءتها فى الحال، دب فيها نشاط حاد بعد موت محقق. لفت نفسها فى الملاءة: تعالى معى فنهضت منال ومضت معها بنفس الحماسة، تشيعهما

أنظار الجيران فى الظلام من كل نافذة وبلكونة وبسطة سلم.

رسم إبراهيم افندى علامة الصليب على صدره بأصبعه كأنه يعزف نشيدا قدسيا ، قال لأم جمال:

- «الله وكيل ! قلت عبد البصير الصوفانى؟!»

- «سمعت أنك تعرفه!!»

- «إبن الحاج مصطفى الصوفانى؟!»

- «نعم هو!!»

- «صاحب محل الآلات الموسيقية فى شارع أحمد ماهر؟!»

- «هو بعينه!!»

- «تزوج ابنتك هذه؟!»

- «على سنة الله ورسوله!!»

- «إحمدى الله يا وليه !! بوسى يدك وجها وظهرا لأن الرب رضى عن ابنتك!! عبده نابغه! ومؤمن بالله! تقى كأبيه شيخ الطريقة ! أطهر من الطهر ! كان المنتظر أن يتزوج إحدى الأميرات لكنه النصيب الغلاب!!».

- «إذن فأنت تعرفه جيدا؟!»

- «تربيتى ياوليه !! عيب عليك أن تسأل عمن هو الأجدر بأن يسأل عنك أنت! لا تؤاخذينى فى ذى الكلمة فأنا صريح!! لو كنت منك لظللت أزغرد مدى الحياة!! أما أنت يا ابنتى فمبروك عليك! ألف مبروك! اعتبرينى حماك! أى شئ يضايقك منه تعالى لى فورا وأنا أملص لك أذنيه!! كل ما أطلبه منك أن تكونى فى مستواه !! وإمسكى فيه بيديك وكل أسنانك! لأنك لا تعوضينه ! كونى له أما وزوجا وعشيقة لو أراد فإنه قيمة كبيرة ! دعك من أمك فهى لن تفهم قيمته أبدا! نفذى ما طلبه منك !! إتكلى على الله!!»

عادت الأم بابنتها راضية مع قليل من الشك والتوجس إذ أن مبالغة إبراهيم أفندى غطاس فى وصفه جعلتها تتوجس من مستقبل ابنتها معه، تخاف أن

يهجرها عن قريب حينما يعلو شأنه، لكنها تذكرت وصفه له بالإيمان والتقوى فسلمت أمرها لله.

البيت الذى ضج بالصوات واللطم والبكاء يوما بليلة ارتفعت فيه الزغاريد الرنانة فجأة، فالتم الجيران كلهم وقد التبس عليهم الأمر. شرحت لهم الأم حقيقة الموقف بحماسة وفرح استمدتهما من منظر الرضاء الواضح على ابنتها، ثم وزعت بعض الفاكهة وبعض الحلوى على الموجودين قالت إن ابنتها يجب أن تبقى معها يومين أو ثلاثة حتى تتمكن هى من تدبير أمرها وتجميع أقاربها لمرافقتها فى السفر حتى يعرف العريس أن عروسه ليست مقطوعة من شجرة، وحتى تشرف بنفسها على تجهيز بيت ابنتها مما جميعه وتطمئن على وضعها وتعود بقائمة العفش تحتفظ بها عندها للزمن لكن منال هتفت فى حدة وإصرار:

– «لا!! لابد أن أعود إليه فى قطار الصحافة كما أوصانى لأنه سينتظرنى تعال أنت على مهلك أما أنا فلن أنتظر لن أخلع هدومى! سأبقى جالسة هكذا حتى موعد القطار !! خذى العنوان واحضرى وقتما تشائين!!»

احتدت الأم، وصفتها بأنها طفلة عبيطة لا تعرف مصلحة نفسها. ردت عليها منال بأنها أعرف منها بمصلحتها كما أنها تفهم شخصية زوجها وتعرف أنه لن يغفر لها تكسيرها لأوامره من أول العلاقة الزوجية.

انغلبت الأم على أمرها نظرت إلى الجيران تستطلع رأيهم. أفتت أم أمينه بأن البنت محقة، وصرحت أم فريال بأنها عاقلة، وهتفت أم وائل بأن بنات هذه الأيام يختلفن عنهن وخير للأمهات أن يأخذن بناتهن على راحتهن لأنهن لن يفعلن إلا مافى رءوسهن. وهكذا ظلت القعدة منصوبة حتى أذان الفجر، فنهضت منال ساحبة الحقيبة فنهضن جميعا وقبلنها واحدة فواحدة بكين جميعا رافقتها أمها وأم فريال إلى المحطة، وأثناء عودتهما فى لمعة الضوء الفضى كشبحين مفضوحين كانت الدموع تنسكب على وجهيهما بغزارة توردت من تحتها الوجنات بشعور من الحزن البهيج.

(٤٩)

آخر صورة رآها كانت صورة سعدية المليجى مرتدية ثوبا أشبه بثوب الزفاف الأبيض، وعلى رأسها طرحة بيضاء مشغولة بالدانتيل، تطل من شباك قطار سريع، منظره غير مألوف بين القطارات التى رآها طول حياته، أسود كئيب، لولبى كثعبان صحراوى كالح. وكان هو واقفا على أطراف أرض زراعية متاخمة للقضبان، فيما راحت هى تلوح له بيديها فى حركة غمضت عليه، فلم يعرف إن كانت تعنى الوداع أم الوعد باللقاء، كذلك لم يعرف إن كان وقوفه ها هنا صدفة أم بتدبير سابق لكنه ما كاد ينتبه إلى وجودها فى فتحة الشباك وحركة يديها حتى كان القطار قد ابتعد مندسا فى الأفق البعيد. بعدها مباشرة تقلب فى فراشه، وانتفض جالسا يدعك فى عينيه.

نظر فى ساعته. كانت الحادية عشرة إلا الربع ضجة شارع محمد على كأنها فى قلب شقته. قال لنفسه إنه لابد وأن يسافر إلى سعدية، اليوم الآن ليعرف لماذا لم ترد على برقيته فلربما اتضح له أن البرقية ضاعت فى الطريق ولم تصلها ربما وقعت فى يد أحد من عشاقها الكثيرين فأخفاها نكاية فيها.

رمى بنفسه على الأرض واقفا تمطع متثائبا فى طريقه إلى المطبخ أشعل وابور السبرتو وضع فوقه الكنكة ملآنة بالماء، رمى فوق الماء تلقيمة شاى، إتجه إلى الحمام قضى حاجته العاجلة غسل وجهه وتجفف بالفوطة جيدا، دلق الشاى فى الكوب فوق نصف ملعقة من السكر، أشعل سيجارة جذب منها نفسين عميقين وكح بشدة ثم ركنها بجوار الكوب وجعل يرتدى ثيابه فكر فى ارتداء واحدة من البدلتين الجديدتين لكنه تذكر أنهما لابد لهما من قميصين جديدين ورباط عنق ثمين، قرر أن يشترى هذه اللوازم فور عودته من عند سعدية. ثم فكر أن يشتريها الآن ويذهب إليها مرتديا ثياب الفرح ومعه الشبكة لعله ينهى المهمة بالمرة لكنه سرعان مالام نفسه على هذا الاستعجال المهين لسعدية وله، فلقد سبق أن عاهد

نفسه على إقامة فرح طيب صحيح أن حفل الشبكة يكون فى العادة من مهمة أهل العروس، ولكن ما المانع أن يكون هو من أهل العروس؟!...

ربط الحذاء وارتدى السترة، صار يشرب الشاى فى رشفات سريعة، وإذا به يسمع طرقا على الباب، فانقبض قلبه فى الحال، لكنه مضى يفتح الباب» ..

- «سلام عليكم!!»

تجمد فى مكانه ولم يرد، إلا أنه تراجع بعد قليل عن فتحة الباب. دخلت منال:

- «تأخرت عليك؟!»

اتجهت مباشرة إلى حجرة النوم، حيث ألقت بالحقيبة على المنضدة وجلست على الكرسى:

- «من ساعة ما تركتك حتى الآن لم أنم!»

رغم ضيقة الشديد من حضورها شعر بشئ من الارتياح لأنها احترمت أمره وعادت فى موعدها. جلس فى مواجهتها على حافة السرير: «هيه!» قالت ببساطة طفولية:

- «نفذت ما قلته لى بالحرف!!»

حكت له ما دار بالتفصيل استمع إليها بإمعان فلما تبين أنه ليس ثمة من مشكلة البتة خبط ركبتيه بكفيه ونهض واقفا:

- «خذى إذن كفايتك من النوم حتى أعود!! إن غبت لا تقلقى!!»

وخرج دون أن ينظر إليها.

بقيت جالسة فى مكانها ما يزيد على الساعتين شاردة مرهقة مكدودة الذهن. تشعر الآن أنها تطفلت على حياة هذا الرجل فتزوجته رغما عنه فى غيبوبة منه ومنها فحتى لحظة عقد القران لم تكن تظن الأمر على سبيل الجد، إذ لم يكن فى نيتها أن تتزوج أصلا فمسألة التعليم بالنسبة لها كانت حتمية لاحبا فى العلم بل استعجالا للحصول على مؤهل دراسى يتيح لها عملا تقتات منه أسرتها المعدمة، أما وقد نبهتها أم فريد لمسألة الزواج من هذا الرجل على وجه التحديد فقد استهجنت الفكرة فى بادئ الأمر، ثم سرعان ما استحسنتها، ثم تحمست لها

عندما بينت مدى سهولتها وأهميتها، على الأقل لأن الزواج سيبعدها عن محيط الفقر، سيجنبها محنة الصدام الدائم مع أمها، وهى محنة قائمة منذ أصبحت هى فتاة ناهدة الصدر مرتفعة العجيزة تشاغبها النظرات فى الطريق، ومهما يكن من أمر - هكذا فكرت - فإن زواجها هذا رغم كل شئ يعتبر أفضل بكثير من زواج كان مدبرا لها فى ظل أمها كأرملة تريد الانتهاء من مسئولية ابنتها بأى شكل الأهم من كل هذا أنها تحب الفن طول عمرها وتتمنى أن تعيش بين أهله خاصة فى القاهرة العاصمة فأن تتزوج من فنان أمامه مستقبل مفتوح وزاهر، أمر لا يخلو من بهجة قلبها دليلها يقول لها ان هذا الرجل شديد الطيبة بقدر ما هو فنان موهوب و لقد عاملها بشهامه ورجولة منذ أن التقاها ونظرة العطف عليها قائمة فى عينيه لم تنطفئ بعد إنها الآن أصبحت تحبه بالفعل ولا تبغى به بديلا، لسوف تعمل بقدر ما تستطيع على إسعادة راحته كما أوصاها إبراهيم افندى غطاس كل ما ترجوه أن يصفو قلبه تجاهها، أن يحبها كما أحبته. هل تراه يحبها فى قابل الأيام ؟ أم تراه يظل يذكرها أنها انتزعته من حبيبة قلبه التى حدثها عنها؟! عليها إذن أن تنسيه هذه الحبيبة بأى شكل، أن تحل محلها فى قلبه تثبت وجودها فى حياته .

زفرت، إذ شعرت بأن المهمة أمامها شاقة وعسيرة، وأنها لابد أن تتفرغ لها، ناسية أمر التعليم مؤقتا، عليها أن تتعلم الآن فى مدرسة جديدة هى مدرسة الزوجات الفاضلات وبالأخص زوجات الفنانين، أعظم معلم لها فى هذا الشأن أم فريد طبعا لا أحد غيرها. عند هذا الحد شعرت بالارتياح تركت الباقى على الله، فطالما أنها لم تخطئ، لم ترتكب أى حرمانية فإن الله سوف يجازيها بالخير. هنا بدا لها أن زوجها أسهل من أن يثير كدرها وأبسط من أن تحمل هم انضوائه تحت لوائها فى المستقبل سيما بعد أن تمنحه الولد.

قامت فخلعت ثوبها، علقته على مسمار خلف الباب، بحثت عن شئ ترتديه فتحت الحقيبة وجدت فستان البيت فيها، لبسته ، تمددت على السرير السفرى، لفت نفسها فى الملاءة، ما لبثت حتى استغرقت فى نوم عميق.

فى حوالى الثالثة صباحا عاد عبد البصير ، دس المفتاح فى ثقب الباب محاولا عدم إحداث أى صوت تسلل فى هدوء إلى حجرة النوم، انزلقت عينه على السرير، رأها مستغرقة فى نوم عميق خرج إلى الردهة ساحبا الكرسى معه. صنع كوب شاى وجلس يدخن مستعيدا ما حدث : لقد ذهب إلى مكتب البرق فى باب الحديد واستعلم عن برقيته بموجب الإيصال الذى يحمله، فاستعلم المكتب بدوره وتأكد له أن سعدية المليجى بنفسها هى التى استلمت البرقية ووقعت بإمضائها ، فعاد غاضبا ممرورا إلى قهوة التجارة، جلس وقتا طويلا، ثم دخل السينما المواجهة لدار الأوبرا ، ثم خرج إلى قهوة التجارة ثانية، لم يكن عنده أى حفل، فمكث فى المقهى فترة المساء كلها لعل أحدا يطلبه لأى فرح، إلى أن طب عليه سالم ابو شفة فدعاه لسهرة تحشيش لدى صديق لهما يسكن فى العباسية الشرقية، استوجه الفكرة لرغبته الشديدة فى نسيان أنه عريس، فى الانعتاق من هذا السجن الغريب الذى وضع نفسه فيه باختياره دون أى مبرر على الإطلاق، بل كان يريد الانعتاق من نفسه؛ الخروج من جلده، من هذا الجسد الوضيع، من هذه النفس الضعيفة المتخبطة الساذجة الأمارة بالسوء. كان يتمنى لو استطاع أن يشطب على كل ماضيه من لحظة الميلاد حتى هذه الحظة ليبدأ من جديد إنسانا جديدا تماما تمنى لو أنه لم يقابل سعدية المليجى غير أن أنفاس الحشيش وأنفاس الأصدقاء قد عمقت فى نفسه الشعور بالكآبة والغيظ من نفسه إلى حد الرغبة فى إيذائها بأى شكل، أن يفرض عليها عقابا قاسيا على هذا الاستهتار، أن يجعلها تشرب من كأس المرارة علقما دون محاولة منه لتحليته أو تخفيفه رفض أن يركب سيارة الصديق العائد بها إلى ميدان العتبة، شعر بلذة فى أن يمشى فلعل المشى يذيب هذه الجبال من الثلج المتراكمة على صدره ورئتيه صار يمشى بهمة ونشاط كالذاهب إلى موعد مقدس، يتجنب الطرق المستقيمة السالكة، ينعطف على السكك اللولبية البعيدة . وكانت قهوة التجارة قد أرخت جفونها وانكمشت على بصيص من الضوء الداخلى حينما أقبل نحوها من حارة جانبية مظلمة. خطر له أن يصبح على المقهى فربما وجد خبرا فى انتظاره ، لكنه كان زاهدا تماما فى كل شئ، غير

متحمس لأى شئ . ها هو ذا يشعر بالرهق ، بالحاجة إلى أن يتمدد ظهره على الأرض، لكنه بات يخشى النوم، إلا أنه خلع الحذاء والجورب، تسلل داخلا إلى حجرة النوم، علق السترة بجوار الفستان تذكر أن عروسا تنام فى انتظاره على السرير، نظر فى السرير، كانت العروس شبه ميتة كل طرف من أطرافها مرمى فى ركن بعيد، فمها مفتوح صوت تنفسها خشن مرتفع يوحى بالفجيعة كذبيحة تئن فى ضعف وانكسار، ترتفع الأنة عالية يطلقها القفص الصدرى بكل حريته ، ثم ترتد عائدة كأنما اصطدمت بسقف فتهبط متوجعة فى ألم. امتدت يده لكى تعدلها فى وضع يتيح لها تنفسا مريحا، لكن يده تجمدت بعد رعشة عنيفة، ثم ارتدت إلى جواره عاجزة . كانت فرشة الأرض باقية مكانها من الأمس ، فارتمى فوقها بثيابه ليوهم نفسه وربما غيره أن نومه ليس رسميا تماما إنما هو مجرد تريبحة مؤقتة لا يصح أن تغزوها الكوابيس لكنه سرعان ما استغرق فى النوم.

نومه كان متقطعا ملولا تخللته لحظات صحو توشك أن تكون انتباها، فيغمض عينه من جديد، يحاول قراءة سورة يسين فى سره، إلا أن السورة تختفى بعد الآية الثانية أو الثالثة أو قرب نهايتها . انتبه مرة إلى أن الضوء ذا اللون الإردوازى قد غمر الحجرة. وانتبه مرة ثانية إلى هواء بارد غير مألوف يهب عليه من الردهة وانتبه مرة ثالثة إلى أن الشمس راقدة بكامل تأججها فى زجاج الشباك المطل على شارع محمد على، وخيل إليه بعد ذلك أنه سمع طرقا على الباب مصحوبا بلغط، لكنه لحظتها كان إلى النوم العميق أقرب . غير أن اللغط راح يتزايد ويتضخم حتى صار فوق رأسه تماما . فتح عينيه، رأى رهطا من الناس يملأون الحجرة ينظرون إليه فى فضول صفيق. خيل إليه لبرهة خاطفة أنه فى واحد من الأحلام المزعجة، لكن عين إبراهيم افندى غطاس كانت قد سقطت فى عينيه متبعها بابتسامته اللطيفة ، فيما يصيح بمرح واستنكار :

– «صباحية مباركة يا عريس الغفلة !! يا أغرب عريس شفته فى حياتى !!» .

انتفض قاعدا ثم واقفا . تبين عددا من الناس : إبراهيم افندى ، سيدة عرف من وجهها أنها حماته ، رجلين على وجهيهما ملامح حماته ، صديقه الموسيقى

العجوز الساكن تحته . تجمد في وقفته ؛ حاول الدخول في شكل الترحيب ، لكن العماص كان يلبك رموش عينيه بلزوجة صمغية . صفق الموسيقى العجوز كفا على كف يعلن استنكاره :

– «كيف يا رجل تنام وتترك باب الشقة مفتوحا ؟! هل جننت ؟! الحمد لله أن الجماعة طرقوا بابى ليسألونى عنك ولكى أفتح لهم باب الشارع !! الدار والحمد لله أمان ولكن لا أحد يضمن الظروف ! حصل خير على كل حال ! تسلم أقاربك وقل لى مع السلامة ! شرباتى أشربها فيما بعد ! سلام عليكم !» .

انصرف مشيعا بعبارات الشكر من الجميع . كانت منال قد تربعت على السرير خجله مرتبكة حائرة . جلست أمها على حافة السرير وجعلت تربت على ظهرها تتحسسها في كل موضع دون أن تفلح في إخفاء توجسها وقلقها ؛ حتى اضطرت منال إلى أن تصيح فيها :

– «مالك يا وليه ؟! مانا كويسه اَهه ! أنا زى ما أنا ! ما نقص منى شىء !!» .

كان عبد البصير في حرج شديد ، لكنه سرعان ما تغلب عليه مسترداً مرحه . قال في بساطة وهو يشير إلى الأرض :

– «تفضلوا اقعدوا!!» .

ثم أطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يتخبط في بعضه . نظرت له الأم مندهشة ثم ضحكت ، وبدا من الواضح أنه دخل قلبها بهذه الضحكة فحسب . وكان إبراهيم افندى غطاس أول البادئين بالجلوس على الأرض فوق البطانية الكالحة ، فتبعه الرجلان ؛ وجلس عبد البصير على حافة السرير بجنبه ليواجه حماته ؛ فصارت منال بينهما . قالت حماته فيما بين الجد والمزاح :

– «هذه عملة تعملها يا رجل ؟! بذمتك ودنيك ! بنت كهذه تكون دخلتها بهذا المنظر ؟! » .

رفع يده الكبيرة ذات الأصابع الطويلة الغليظة ؛ رفع أيضا صوته الخشن الناضح بالمرارة :

- «شوفى يا أم جمال ! أنا تزوجت ابنتك وانتهى الأمر !! هذا نصيب والنصيب غلاب !! زواجى منها لم يكن فى دماغى أبدا !! وحتى هذه اللحظة لا أعرف كيف تم ولا كيف وافقت مع أنى مرتبط بواحدة غيرها وكنت أجهز لشبكتها هذا الأسبوع !! كل شيء تم غصبا عنى وعنها !! لا أنا أردت ولا هى أرادت !! إنما الله هو الذى أراد فأوحى لناس طيبين فتسلطوا علينا حتى فقدنا الوعى فتزوجنا !! وعلى كل حال فأنا لم أقرب ابنتك بعد !! والحمد لله أنك جئت على غفلة ورأيت ما رأيت !! فإذا كان لك رأيا آخر فخذى ابنتك وورقة طلاقها وأنا مستعد لأى تضحية مهما كانت غالية لإصلاح غلطتى فالذنب ذنبى أنا وليس ذنبها !!» .

شرع إبراهيم افندى يقاطعه أكثر من مرة . ولما تهيأ للكلام كانت نظرته معلقة بالبنت فى اهتمام وترقب ، وإذ رآها ترفع يدها صمت ناظرا فيها بعين ثاقبة حتى يعرف رأيها بوضوح ، فإذا هى تصيح فى تحد وثقة على بطانة خفيفة من الذعر :

- «طلاق ؟! والله لن يكون أبداً !! أنا تزوجت وانتهى الأمر ! وراضية بنصيبى !! وإذا كان عندك كلام يا أمى فابلعيه وأريحى نفسك !! إن كان أحدهم تخن أذنيك بكلمتين فأنتم جميعا فى سكة وأنا فى سكة !! ها أنا قلتها لكم ورزقى على الله !!» .

حدقت فيها أمها بغيظ مكتوم :

- «آه يا فاجرة !!» .

شوحت منال بذراعها فى عدم اهتمام :

- «فاجرة فاجرة !!» .

وقال إبراهيم افندى :

- «خلاص يا أم جمال ! وضحت الرؤية ! نتكلم الآن فى المختصر المفيد ! خلك معى يا جمال لتعقل أختك مع أنك محتاج لمن يعقلك !!» .

قالت منال وهى تحول بصرها بعيدا :

- «أعرف أن خالى جمال هو الذى قواها على الرفض بعدما قبلت !! ابن خالتى هذا هو الآخر كان يريد أن يزوجنى لأخيه ! ولكن كل شىء نصيب يا جماعة!!» .

قال إبراهيم افندى :

- «عداك العيب يا عروسه ! لابد أن نتعظ بما حدث !!» .

قال خالها جمال :

- «ما قلنا شيئا يا إبراهيم افندى ! لكن الأصول يجب أن تمشى على الكل!!» .

وقال ابن خالتها :

- «خلاص هى تزوجت وانتهى الأمر ! قصدنا الآن أن تأخذها لتقيم لها فرحا فى البلد ! وفى نفس الوقت نعطى للعريس فرصة لتجهيز بيته ! ونستر أنفسنا قدام الخلق !!» .

قاطعه إبراهيم افندى :

- «تحلف أن هذه هى نيتك حقا ؟!» .

صاح ابن الخالة بصوت مروحن :

- «أحلف ! طبعا ! أحلف !!» .

لكن منال صاحت من قعدتها بقوة :

- «سأرمى نفسى تحت القطار إن أخذتمونى بالعافية !! قلت لكم أنا خلاص تزوجت ودخلت ! أما الزفة التى تقولون عنها فزفتى كان لها العجب !! نشرها الجرنان وقرأتها بعينى فى جرنان الأخبار مع واحد فى القطار !! هل كنتم تحلمون بأن زفة ابنتكم تتكتب فى الجرانين ؟!» .

أشارت الأم إلى ما حولها فى تأفف :

- «تعيشين هكذا وأنت عروس ؟!» .

قالت منال :

- «هذه فى نظرى سراية أحسن من سرايات الملوك !! المهم راحتى !! وأنا مرتاحة ! أحب زوجى أعبده ! سأعيش معه على الفول والطعمية !»

قال إبراهيم افندى غطاس :

- «نسمع العريس !» .

قال عبد البصير فى نبرة صدق واضحة :

- «أنا الآن متمسك بزوجتى !! لن أفرط فيها أنها اشترتنى فأنا لا أبيعها بأغلى الجواهر !! هى الآن جوهرة عزيزة على !!» .

قال إبراهيم افندى غطاس :

- «كلام جميل ! وإذن فنحن دخلاء !!» .

صال الخال :

- «نريد أن نطمئن على عفش بنتنا !!» .

جاوبه ابن الخالة :

- «والقائمة ! ومؤخر الصداق!!» .

قال عبد البصير :

- «أما العفش فسأتولى تجهيزه من الآن ! وأما القائمة فاكتب ما تشاء وأنا أوقع عليه بإمضائى ! وأما مؤخر الصداق فإنه تحدد فى القسيمة وانتهى أمره!!» .

قال ابن الخالة متشددا :

- «لابد من تعديل القسيمة !!» .

استجاب عبد لابصير لاستفزازه :

- «لا تعديل فى شىء !! وأجدع ما فى خيلك اركبه !! زوجتى فى بيتى على سنة الله ورسوله ! وهى موافقة ! فليس لك عندى أى شىء !!» .

صاح الخال :

- «تتحدانا ؟!» .

- «نعم !!» .

- «إذن فهى قاصر وأنت غررت بها أنت ومن معك !! وزورت فى سنها وهذه جريمة !!» .

ونهض محتجا :

– «بنا يا جماعة !!» .

صاح إبراهيم افندى :

– «صلوا على النبى ! صلوا على النبى ! قلت يا عبد البصير إنك مستعد للتجهيز من الآن ؟!»

قال عبد البصير :

– «نعم ! الآن حالا !!» .

قال إبراهيم افندى غطاس :

– «إذن فهيا بنا نفعل !!» .

نهض عبد البصير فى الحال . قال ابن الخالة فى نبرة خبيثة صفراء :

– «والعروس ؟! ألا يحق لها أن تختار عفش بيتها بنفسها ؟! لابد أن تجىء معنا لتختار عفشا يناسبها كعروس بكر بنت ناس !!» .

قالت منال وهى متشبثة بمكانها :

– «ما يختاره زوجى سيعجبنى ! إنه سيختار أحسن منى ! ويفهم فى العفش أحسن منى ! وأنا قبلته بدون عفش !» .

ثم صاحت فى تحد غريب موجهة الكلام لزوجها :

– «يا أستاذ عبده !! خلك معى أنا !! لا ترهق نفسك !! لا تهتم !! هات ما تقدر عليه !! وإن لم يكن معك فلوس الآن فهذا السرير يكفى !!» .

تبادل الجميع نظرة جمدها الذهول وعدم التوقع لكن الحيوية ما لبثت أن تحركت فى نظرتين فى عينى عبد البصير وإبراهيم افندى غطاس . عبرت نظرة عبد البصير عن الامتنان الهائل الذى يوشك أن يكون حبا مفاجئا ، وعبرت نظرة إبراهيم افندى عن الإكبار الشديد للفتاة الأصيلة. أما بقية الحاضرين فقد بقى الجمود فى نظراتهم بنفس النظرة المتجمدة رمت الأم ابنتها ، ثم أشارت لمن معها؛ ومضت ، فتبعها كل من

أخيها وابن أختها منكسى الرءوس فى غيظ وخجل. مضى وراءهم كل من إبراهيم افندى وعبد البصير يحاولان استرضاءهم . وعلى السلم قال عبد البصير :

– «المسألة ليست قائمة عفش أو مؤخر صداق ! المسألة أن ابنتكم أصبحت من هذه اللحظة أغلى شىء فى حياتى !! فبدلا من زعلكم منها ادعو لها بالتوفيق ! رزقها ورزقى على الله ولن أفرط فى حق من حقوقها !!» .

بلغتها العبارة كاملة ، فشعرت براحة عظيمة . نزلت عن السرير ، جعلت تفكر فى تنظيف الشقة . وفيما هى متشمرة تفعل بهمة ونشاط تذكرت أن حافظة نقودها بها بعض جنيهات متبقية ؛ شرعت تفكر فى طبخة دسمة للغداء ، متوقعة أن إبراهيم افندى سيعود لابد مع زوجها . وقد صدق حدسها ؛ إذ ما كادت تتهيأ للنزول إلى سوق الخضار الملاصق للبيت من الخلف حتى دخل زوجها مع إبراهيم افندى حاملا لفة الكباب الساخن والأرغفة والسلاطات ، وكيسا من الفاكهة .

قربت المنضدة من حافة السرير كى تجلس عليه مع زوجها ليجلس ابراهيم افندى على الكرسى الوحيد . لمس إبراهيم أفندى ما هى فيه من حرج ؛ قال باسما :

– «كل شىء آت بعد قليل ! سراير ومراتب وألحفه ودواليب وترابيزات وكراس كثيرة ونحاس : فاطمئنى يا عروس ربنا يجعلك وجه السعد عليه !! أمك وخالك وابن خالتك شافوا العفش وانتقوه بأنفسهم قبل سفرهم ! الرجل لم يبخل عليك بأى شىء !!» .

أطرقت برأسها ، راحت تفرد لفات الطعام بمعصمين ممتلئين . تأمل عبد البصير هذين المعصمين لأول مرة ، فأعجب بهما ؛ ولاحظ أن جمالها من النوع الخفى الذى لا يعلن عن نفسه إلا لمن يحاول استكشافه . داخله كثير من السرور فأقبل على الطعام بشهية .

(٥٠)

أعجبه منظر الشقة بعد أن تم فرشها ؛ آمن أن الستر جميل وفاتح لشهية الإنسان على الحياة . أعجب أيضا بمنظر زوجه وهى تخطر بين قطع الأثاث كالبطة ؛ مرتديه أحد قمصان النوم العارية الأكتاف التى اشتراها لها من الموسكى .

كان جالسا على كرسى فى الأنتريه المخملى الذى فرشه فى الردهة ؛ ومن حوله ستائر تتدلى على الشبابيك والممرات من قماش الكريتون المشجر أنجزتها منال فى أربع وعشرين ساعة فى شقة أم فريد . فكشفت عن موهبة فى التفصيل والحياكة يمكن استثمارها .

وضعت أمامه فنجان القهوة ثم جلست فى مواجهته واضعة ساقا على ساق ، مبرزة - ربما عن عمد - شرائح من فخذيها العاريين فى لون البرتقال بعد تقشيره . أزاح عينيه نحو فنجان القهوة محاولاً طرد شبح الفخذين عن خاطره ؛ لكن الفنجان اهتز فى يده حينما وقعت عينه - عرضا على عينيها ؛ فإذا هى تنظر فيه بنظرة حائرة يشوبها ظل من الاتهام الغامض فارتجف قلبه . نظرتها المتشككة تكاد تطعنه فى رجولته . لها عذرها على كل حال ، فقد مضى على زواجهما أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يقدم على محاولة فض بكارتها ؛ بل إنه يتجنب ملامستها ولا يدخل الفراش إلا حين يتأكد أنها استغرقت فى النوم ، فيتسلل مندسا بجوارها محتفظا بمسافة بين الجسدين . ليتها تعرف أنه غشيم بالفعل فى العلاقة الجنسية لا يعرف عن تفاصيلها أى شىء ، بل إن الخجل يعتريه يجمد أطرافه بمجرد وقوع بصره على بقعة عارية فى جسد امرأة ؛ ولذلك فهو دائم الاستغفار يغض البصر كلما وقع عفوا على صدور أو أكتاف عارية فى الشوارع أو الحفلات ، يطارده الشعور بالخطيئة كلما اضطر للعزف وراء راقصة تتلوى ؛ لذا فقد اعتاد اغماض عينيه أثناء العزف ، منه تقوى ومنه اندماج .

كثيرا ما سأل أصحابه عن كيفية فض البكارة ؛ كيفية التعامل مع العروس ، عمن يكون هو البادىء ، عن الأسلوب الذى يضمن له عدم نفور العروس منه ، الإجراءات الواجب اتخاذها أثناء الفعل ؛ هل يتم عادة فى صمت أم مصحوب بكلمات معينة ومن قبيل ماذا ؟! أفى الضوء أم فى الظلام ؟! أعرى تام أن نصف عرى؟! أبالعضو أم بالأصبع ؟! أتسيل دماء كثيرة أم أنها مجرد بقع صغيرة ؟! كثرة الدماء دليل على البكارة الحقة أم أنها كيس دم صناعى ملبوس ؟! كيف يتسنى للعريس اكتشاف أن عروسه عذراء بختم ربها لم يمسسها بشر قبله ؟! وإذا اكتشف العكس لا قدر الله فماذا ينبغى عليه أن يفعل ؟! ما الذى يجب عليه أن يفعل لكى يطيل زمن الفعل قبل الوصول إلى الذروة ؟! ما هى العلامات التى تبين له أن عروسه قد استكفت وأن عليه تبعا لذلك أن ينهى الفعل ؟ هل بمستطاعه إنهاءه وقتما يشاء ؟! هل فتحة الإيلاج هى نفسها فتحة البول ؟! فكيف تكون مسدودة إذن بغشاء البكارة ؟! هل الغشاء هذا كالكوبرى مثلا والمياه تمر من تحته ؟! وكيف يضمن الزوج أن زوجه لن تنظر إلى غيره ؟! إذا حدث ونظرت فهل يكون هو المسئول أم أنها طبيعة فى بنت حواء ؟! هل هناك حد للاكتفاء متى بلغته الزوجة استقرت واطمأن الزوج ؟! ما هى الدلائل التى تشير إلى أن الزوجة قد بدأت تخون زوجها ؟! هل السلوك الأمثل أن يحجب الزوج زوجه عن كل اصدقائه ؟! هل ، وهل ، وهل ...

أسئلة عجيبة وغريبة ضاق بها سالم أبو شفه والشيخ عطيه وغيرهما من خلصائه من أهل الفن الذين بدءوا يستسهلون الصعود إلى شقته بدلاً من المقهى ليضعوه فى حرج يسكته عن مزيد من الأسئلة الساذجة ، فيقضون الليل فى سمر وتدريب . ولقد تلقى الكثير من النصائح والوصايا والدروس العميقة والوصفات المجربة ؛ ضاعت كلها فى هدير الأوتار ، واضمحلت على حافة السرير قبل أن يتمدد عليه ؛ فإذا هو كالعادة يعطى ظهره للعروس مستسلما للراحة التى يبعثها فيه تمدده على جنبه الأيمن . لطالما اندهش من موقعه هذا ؛ وتساءل كثيرا : ما

الذى يمنعه حتى الآن من محاولة فض بكارة زوجه ؟! إن الشىء الوحيد الذى يقوم فى ذهنه كلما شرع يستدير ليواجه زوجه ، وكلما هم بمد ساعده لاحتضاناتها ؛ شعور داهم بأنه قد بدأ يخون سعدية المليجى . شبح سعدية المليجى قائم بينه وبين زوجه فى الفراش .

ولكن ها هى ذى سعدية المليجى لم تعره اهتماما طوال ثلاثة أشهر كاملة . لقد خلص ضميره معها ، أرسل لها عشر برقيات بمعدل برقية كل أسبوع ، ومع ذلك لم ترد عليه ، فيا له من احتقار شديد له ؛ أيمكن لسعدية أن تحتقره إلى هذا الحد؟!! إنه غير قادر على تصور هذا ؛ أتراها قد علمت بزواجه من ليلة حدوثه ؟! ما لبث حتى انتفض وصاح متألما ، ممسكا بقلبه ، إذ تذكر الجرنان الذى نشر خبر رفافه العجيب . شعر بسكين يشق صدره بالطول وبالعرض ؛ لابد أن سعدية قرأت الخبر صباح الزفاف ، لابد أنها تأثرت ؛ لابد أن جرحها الآن ينزف دما كيف لم ينتبه إلى هذا منذ وقت مبكر ؟! كيف فاته أن حبيبته قد انجرحت جرحا عميقا لا يمكن شفاؤه ، بنشر ذلك الخبر الخايب ؟! لو انتبه إلى ذلك فى حينه لسافر إليها فورا وفسر لها حقيقة ما حدث . ولكن ماذا عليه أن يفعله الآن بعد أن سرحت النار فى الحطب فأحرقته تماما ؟! إنه لابد أن يصلح خطأة بأى شكل ، حتى ولو كان النصيب قد انقطع والعياذ بالله فإنه يجب أن يعتذر لها ويطلعها على الموقف برمته ؛ يجثو على ركبتيه أمامها يطلب منها العفو والسماح فإن تعطفت بقبول عذره فإنها تكون قد أقالته من عثرته وبعثت الروح فى حلمه الأخضر . نعم ؛ هذا ما يجب أن يكون .

زفر بحرقة واضحة أثارت انتباه منال بل جرحتها فى الصميم ، فهطلت دموعها بغزارة . نظر فى ساعته ، لقد أقبل المساء وفات أوان السفر اليوم إضافة إلى أنه مرتبط الليل بشغل فى صحارى سيتى مع نجوى فؤاد ومحمد العزبى ، لا يستطيع التضحية بشغل الليلة فهو متبطل منذ أسبوع مضى يصرف من لحم الحى .

دارت الفكرة فى رأسه وهو يشرب ثمالة القهوة متلذذا بخشونة البن فى قاع

الفنجان : لسوف يخرج من الملهى فى حوالى الثانية أو الثالثة صباحا فيتجه من فوره إلى محطة القطار ليركب قطار الصحافة ليكون لدى سعدية فى طلعة الشمس يصبحها بالخير ويحاول إقناعها أن منال هذه ضرورية لكليهما معا ، فإنهما يجب عليهما الانصراف لشغلهما ولابد من زوجة أخرى للبيت والطبخ والكنس والغسل ؛ خادمة بعقد شرعى . حينئذ شعر بهمزات شيطانية بدأت تركب على كتفيه لتوسوس فى أذنيه مزيدا من الأفكار الشريرة تجاه منال ، فارتعش شاعرا بالخسة وبضرورة طرد الشيطان ، فأشعل عود كبريت ليخيفه ؛ ثم أشعل سيجارة فيما يقول عبر الدخان المتصاعد من فمه :– «ما بكاؤك يا منال ؟!» .

قالت وهى تشرق بالدمع :

– «عمرى ما كنت تلقيحة !! أنت لا تطيقنى !! اتركنى أعود لأهلى إن كنت ضائقا بى حتى لا تتنهد هكذا مرة أخرى !!» .

أصابه رهق مفاجىء ؛ شعر بالإشفاق عليها ؛ عجز عن التصرف اللائق؛ أرسل ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يتخبط فى بعضه . ابتسمت رغما عنها . قام إليها ، لأول مرة فوجىء بيده تمتد لتمر على شعرها بأصابع حانية ، شعر برجفتها تحت يده ، تسربت إليه الرجفة ، قال بصوت مخرخش :

– «لا تشطى بخيالك إلى بعيد !! أنا أحبك فعلا !! وغداً يصبح كل شىء على ما يرام ! كل ما أرجوه منك أن تعذرينى فأنا مضطرب الأعصاب لأسباب لا شأن لك بها ولكنى سوف أهدأ حتما بعد وقت قصير !!» .

ابتعد قليلا ليطفىء السيجارة فى منفضة على الطقطوقة فى شكل قوقعة . أشعل سيجارة أخرى واتجه نحو الباب ، قال ممسكا بالأكره إنه سيقضى بعض مشاويره قبل حلول موعد الشغل وأنه سينادى عليها كالعادة من تحت الشباك : يا مصطفى – اسم أبيه واسم الطفل المفترض قدومه بعد حين – فعليها أن تدلى السلة وفيها الكمان فيأخذه ويضع فى السلة ما اشتراه من خضار ولحم وفاكهة .

بمجرد نزوله ساءل نفسه عن المشاوير المهمة التي زعم أنه سيقضيها ؛ فلم يجد وراءه أي مشوار ، تبين له أنه كان يريد الهرب من مواجهتها فحسب . إلا أنه وجد في النزول راحة كبيرة ، صار يمشي كيفما اتفق ؛ جلس على أكثر من مقهى في ميدان العتبة ، وميدان الأوبرا ، وشارع فؤاد . تأمل كثيرا في منظر كازينو أوبرا ، أو بديعة سابقا . حاول أن يتصور شخصية بديعة مصابني أيام كانت تدير هذا الملهى في عز مجدها : في هذا الملهى إشتغل نجوم كثيرون يعتز بهم ، فريد الأطرش ، إبراهيم حموده ، محمد عبد المطلب ، محمود الشريف وأحمد صدقي ومحمود شكوكو ومحمد فوزي . ما من فنان كبير إلا ومر في بدايته بكازينو بديعة وتدرب فيه على لقاء الجمهور . معظم الأغنيات الشهيرة التي يذيعها الراديو تم إنتاجها كلاما ولحنـــا وأداء في هذا الملهى الليلي العجيب الذي أدارته في سرة المدينة امـرأة قـوية الشكيمة من أصل شامي ولعبت أخطر دور في حياة الفن والفنانين ؛ وتزوجت من نجيب الريحاني ، ودخلت تاريخ الوجدان الشعبي وأصبح اسمها يطلق على أكبر كوبري يعبر النيل إلى بر الجيزة ولربما كان للكوبري اسما آخر ولكن ذاكرة الشعب القاهري لا تعرفه إلا باسمها . شعر عبد البصير - لا يدري لم - أن الأيام السالفة كانت أفضل كثيرا من هذه الأيام برغم كل شيء .

في طريق عـودته إلى البيت لمحه جرسون قهوة التجـارة فناداه . أخبـره أن رجـلا شـبه صعيدي قد سـأل عنه بإلحـاح شـديد فوصـفوا له البيت . سأل في اهتمـام : ما شـكله ؟ قيل إنه أسمر الوجه متغضن الملامح يتكلم بلهجة شرقاوية . هز رأسه بالشكر متوقعا أن يكون رجلا من أجاويد طنطا جاء يطلبه لفرح هناك .

تحت شباك شقته رفع رأسه مناديا : يا مصطفى . أطلت زوجه من الشباك قالت إن ضيفا ينتظره منذ حوالي ربع ساعة أشار لها بذراعه أن تنزله وتبعث الكمان معه . وقف ينتظر

(٥١)

ازدحم الشارع فجأة وارتفع صخب الترام بأجراسه المصلصلة. تلكأت السيارات فى بطء ثم توقفت نهائيا نتيجة عطل مفاجىء. كانت صنجة الترام قد انفصلت عن السلك الكهربى الممتد بطول خط الترام، ونزل المحصل ليعيد ضبطها على السلك. سيارة بصندوق أسود مربع اضطرت للوقوف أمام باب البيت فسدَّت الطريق إليه، لأن إحدى عربات الكارو كانت تسد عليها الطريق فى انتظار سير الترام. عينه صافحت السيارة ذات الصندوق الأسود بنظرة واجفة، تبين أنها سيارة لنقل الموتى مكتوب على أبوابها ولوحاتها عبارة : تحت الطلب.

أشاح ببصره عنها شاعرا بانقباض فى صدره. ظهر الضيف فى فتحة الباب المظلمة ممسكا بصندوق الكمان. هيكل الرجل مألوف لديه، حاول رؤية ملامحه فى ظلام العتبة فلم يفلح. وكانت السيارة ذات الصندوق الأسود قد فصلت بينه وبين عتبة الباب، راح يطرقع بأصبعيه ليلفت نظر الضيف إلى مكانه. خرج الضيف من العتبة متأبطا صندوق الكمان وجعل يبحث عن برزخ يمر منه بين السيارة ذات الصندوق الأسود والسيارة الواقفة خلفها أو الواقفة أمامها فلم يجد، فصار يلف حول نفسه حائرا. تذكر عبدالبصير بقلب منقبض أنه رأى هذا المشهد بحذافيره ذات يوم فى مكان ما، وحاول أن يتذكر أين رآه ومتى فلم يوفق.

تابع ضيفه المجهول إذ يتزحزح بجنبه لصق الحائط نحو كابينة سائق السيارة ذات الصندوق الأسود، والكابينة منخفضة كثيرا عن الصندوق. فوق هذه الكابينة مال الضيف بجذعه، مد ذراعه أمام زجاج السيارة ليصافح عبدالبصير الذى تقدم فمد يده فوق غطاء المحرك. وقعت عينه فى عينى الضيف، فهتف بفرحة طاغية:

– «عم عثمان؟! أهلاً أهلا أهلا! إزيك ياراجل!!»

سلم عليه بحرارة، ثم مد يديه الاثنتين وتناول منه آلة الكمان. فى تلك اللحظة تحرك الطريق فزحفت السيارة لتفصل بينهما لبرهة طويلة. فما أن لاحت لعم

عثمان فرصة اتساع مسافة بين سيارتين حتى عبرها بسرعة، فصار تحت إبط عبدالبصير، الذي سحبه إلى قهوة التجارة فانتحى به ركنا قصيا.

طلب فنجانين من القهوة، فصاح عم عثمان بلهجة ذات معنى:

– «سادة من فضلك!!»

كان الحزن باديا عليه بصورة جلية، وصوته خامل مخشوشن، وحاله أقرب إلى الهوان والبهدلة. لاحظ عبدالبصير هذا، لكنه صاح فى احتداد مبطن بالعشم كأنه يكلم سعدية نفسها وجها لوجه :

– «أيصح هذا ياناس ياطيبين؟! هل أستحق منكم هذا؟! مائة برقية أبعثها لكم ولا أحد يعبرنى؟! أنا لم أغلط على كل حال!! القلوب مع ذلك عند بعضها!! تصور أننى كنت سأسافر إليكم بعد ساعات؟! لكن الحمد لله أنك جئت!! سأريك الشبكة والبدلتين!! الآن ردت الروح لى!! نسيت كل شىء!! لم أعد زعلانا!! كنت واثق أن سعدية سترد على!! الحمد لله! الحمد لله!!»

جاءت القهوة المطلوبة. أمسك عبدالبصير الفنجان بيد مرتعشة وقد بدأ يتوجس من صمت عم عثمان المطبق، ورأسه المنكسة فى الأرض كمذنب ينتظر الحكم بالإعدام ..

– «لماذا لا تتكلم؟!».

بصعوبة شديدة رفع عم عثمان رأسه، بصعوبة أشد خرج صوته الصدىء :

– «لا .. لا.. لا أجد كلاماً أقوله!!»

– «هى غاضبة منى طبعا؟! معها حق! لكنى سأشرح لها كل شىء بالتفصيل!! ولابد أنها ستقدر موقفى!!»

– «لا ترهق نفسك ياولدى!! فكل شىء نصيب!!»

– «تزوجت سعدية؟!»

نشف ريقه فى انتظار الجواب. لكن عم عثمان لم يستطع المقاومة، فانفجر باكيا بعمق وألم حارق. هتف عبدالبصير بفزع ولهفة:

– «تزوجت ؟!»

- «لا !!»
- «ما الحكاية بالضبط؟!»
- «حتى الآن لم تعرف؟!»
- «أعرف ماذا؟!»
- «الخبر كان فى الجرنان لصق خبر زفافك!!»
- «خبر ماذا ؟!»
- «موتها!!»
- «إيه؟!»
- «تعيش أنت !! البقية فى حياتك!!»

انتفض واقفا كالمجنون، شد الرجل من خناقة فى عنف ملتاث:

- «ماذا قلت؟! سعدية ماتت؟! كيف؟! متى؟! أين؟! من قتلها؟! انطق!!»

خلص الرجل خناقة برفق من يديه القويتين، ثم احتضنه، أجلسه، صار يربت على كتفيه، حكى له قصة الحادث المروع الذى حدث فى فرح فى بنى سويف، وأخرج من جيبه الجرنان المطوى المتآكل، وبأصبعه أشار لعبدالبصير على الخبرين المتجاورين: خبر زفافه وخبر مقتل سعدية المليجى وشقيقتها والعريس على خشبة المسرح.

اختنق عبدالبصير بالبكاء، فك رباط العنق، شد طرفى القميص بيديه بكل عنف فتناثرت أزراره فى الهواء، صار يلطم خديه، يشوح بذراعيه فى حركات جنونية، ليس على شفتيه سوى:

- «مش ممكن ! مش ممكن! خيال! جنون!!»

صارت ذراعه تصطدم بكل ما حوله، سقطت صينية الفناجين على الأرض فتكسرت ، تهاوى صندوق الكمان فى ضجة مفزعة. بكل جنون ويأس شاط صندوق الكمان بقدمه، ثم صاح فى ألم ممسكا بقدمه بينما طار الصندوق إلى بعيد ليرتطم بالرصيف ارتطاما شديدا حتى انفتح وطارت الكمان. إنكب عليها أكثر من واحد ممن يسيرون على الرصيف، وضعوها فى صندوقها كيفما اتفق

وأعادوها إليه، فأمسك بالصندوق وهبده فى الأرض بكل عنفوان الغضب الملتاث، صائحا فى هذيان محموم:

- «لا أريدها!! لم تعد تنفعنى!! لم يعد لها أهمية فى حياتى!! خلاص! انكسر قلبى! ابعدوها عنى!!»

كل من فى المقهى تجمع حوله، حاولوا الاستفهام من عم عثمان، الذى كان منهمكا فى البكاء والحيرة والخجل لكنه مع ذلك استطاع أن يخبرهم بلب الموضوع. عندئذ صاح أكثر من واحد اتضح أنهم كانوا يعرفون سعدية المليجى إما قبل الحادث وإما بسببه :

- «لا حول ولا قوة إلا بالله! كانت فنانة بحق!! كانت من أشرف الناس!! كانت بنت موت!! مثلها خسارة فى أيامنا!! كانت فله!! موهبة خطيرة!! ألم يعرف بموتها إلا الآن؟! الحادث هز البلاد كلها وهو لم يعرف؟! عجايب!! ألم يسمع بالتأبين الذى أقمناه هنا فى القهوة بعد الحادث بليلة؟! ناس كثيرون من هنا سافروا إلى بلدتها للعزاء!! أحب أم صداقة أم قرابة أم زمالة؟! سمه ما شئت!! قل إنه الوفاء يارجل!! بصراحة إن من يعرفها لابد أن يحزن عليها!! لكننا جميعا إلى الموت صائرون!!»

انقسمت المرئيات فى عينيه من خلل الدموع الهاطلة، حيث وضع رأسه على كفه وانخرط فى البكاء كطفل تيتم قبل الأوان. شحب وجهه،! انسخط، بدت ثيابه فضفاضة عليه كأنه استعارها من كامل الشناوى. ميزت نظراته وجه الأستاذ جميل كريم يخترق الزحام واصلا إليه. شعر بقليل من الراحة.

- «قم معى ياعبده!»

قام فى الحال. أمسك الأستاذ جميل كريم بإبطه ملتفتا إلى عم عثمان:

- «تعال يارجل!»

نهض عم عثمان، جمع آلة الكمان التى انكسرت رقبتها وانخلعت بعض مفاتيحها وتقطعت أوتارها والتف بعضها حول بعض . شعر الرجل بالأسف الشديد وهو يكومها داخل الصندوق الذى تفصصت مفاصله وانعوجت أقفاله، فأغلق الصندوق كيفما اتفق، تأبطه، مضى خلفهما فى خطو جنائزى وقور مقهور منكسر.

(٥٢)

- «ياحرام !! قلبى على الجدع! والله قلبى عليه!! شوفى يابنتى! يوم تزوجت أبا فريد كان أسخم من زوجك!! كل الفنانين هكذا دماغهم ملووحة دائما يرون كل شيء بالمقلوب!! يتصورون أنهم بفنهم يعدلون الحال المايل!! فليتصوروا ما يشاءون فالمهم أنهم يعدلون دماغنا ويروّقون أعصابنا بفنهم!!.

«مهمتك الآن صعبة وسهلة فى نفس الوقت لأى دماغ مفتح!! زوجك الحق لله فنان حقيقى رغم أنه لم يتعلم فى المدارس ولم يأخذ شهادات عالية ولا دياولو!! لكنه فى نظر الذين يفهمون أهم حتى ممن يعطون الشهادات العالية لمستحقيها!! حرمان زوجك من التعليم جعله خشنا صعب الاحتمال من يسمعه يتكلم يتصوره سباكاً أو عامل بياض!! لسانه لم يعرف لغة المدارس وكلام الناس الراقين من أهل الفن!! إنه مجرد شخص من أولاد البلد أُوتى موهبة جبارة تسلطت عليه فلم يتعلم شيئا فى الدنيا كلها سوى الضرب على آلة الكمان وحدها!! كان المفروض أن يكون حلو اللسان ناعم الملمس حتى يعوض ما فاته من تعليم وثقافة فلا يسبب لمن يعاشرونه وجعا فليفظه الجميع فى لحظة!! محمد عبدالوهاب مثلا لم يأخذ شهادة عالية لكنه تعلم فى الأوساط الراقية كيف يتكلم كيف يقرأ كيف يفكر كيف يعاشر الناس ولهذا نجح فالموهبة لوحدها كامرأة جميلة معنسة لا ولن يقربها ذكر!! لابد معها من موهبة الذكاء والشخصية القوية والعين المفتوحة على كل شيء فى الحياة!! زكريا أحمد كان يتكلم كأكبر العلماء كلاما يملأ الدماغ! أم كلثوم حين كنت أزورها فى بيتها أراها تطلب من خادمتها فنجان القهوة وديوان إبراهيم ناجى!! سيد درويش كان يفهم فى السياسة وفى أمور المجتمع ومشاكل الناس ولهذا نجح!! زوجك مع الأسف لا يفهم شيئا بالمرة!! أصابعه تفهم أحسن منه وقوسه أذكى من عقله!! وهذا ما يجعلنا نحبه ونحتمله بعبله وأنت قبلنا يحب أن تفعلى!! ليكن فى معلومك أنه سوف يتعب فى حياته كثيرا ولن تكون علاقاته

ناجحة أبدا وهذا مما يضاعف من مسئوليتك يصعب من مهمتك ياحلوة لكنك إن تخليت عنه تكونى خسيسة وغبية لأن خسارتك ستكون الأكبر أما إن نجحت فى تطبيب جرحه فإنك تدخلين التاريخ من أوسع أبوابه يقال عنك المرأة التى وقفت وراء العظيم المضروب به وبها المثل!! لا تصدمنك الصعوبة فالمهمة أبسط مما يذهب إليه خيالك! إنها بسيطة: ضعى فى اعتبارك أن زوجك مجرد طفل شقى عنيد! إفهمى مواضع ضعفه وأكمليها بقوتك فضعفه قوة لك خل بالك! لكن لا تشعريه بأنه ضعيف وإلا فمثله يمكن أن يهدم البيت على رأسيكما فى لمح البصر فى لحظة غضب دون أن يدرى!! أشعريه دائما بقوته! شوفى ما يحبه فتحبيه أكثر! ما يكرهه لا تطيقيه! أهم شىء فى حياته آلة الكمان فلا تجعليها ضرتك بل كونى وصيفتها وهى الأميرة!! إنه درويش محب للصلاة مفطور على التقوى فصلى وراءه فرضا بفرض!! هو يحب الناس كعينيه يموت فى حب اللمة والونس لأنه كما علمت تربى فى حجر شيخ طريقة يقبل المريدون يديه فهو إذن شيخ طريقة هو الآخر ولكن على طريقته وله دراويش كثار يقرأون طول الليل وِرْدَ الكمان وعهد النغم فكونى لهم مضيافة قدمى لهم الأكل والشرب والراحة طالما هم فى دارك فالراحة ياحلوة ليست أن تقفل بابنا على أنفسنا وننام فى هدوء نأكل فى تكتم نفرح على الساكت نكتم الحزن فنموت كمداً وحسرة!! إنما الراحة ياحلوة أن نفعل ما نحبه، ما يفعله من نحبه ، ما يبسطنا ولو لدقيقة واحدة!! راحتك ياحلوة فى راحة زوجك إن كان مجنونا غريب الأطوار فلا تقفى له كاللقمة فى الزور!! ساعديه شجعيه فإذ يشعر بالدفء فى حضنك لا يغادره لحظة واحدة!! المنظر المجنون الذى عمله على قهوة التجارة منذ كم شهر مضى لا يفعله إلا دماغ هبلاء: يلطم ويجعر ويحطم الكمان ويفضح الدنيا كل ذلك ما كان له داع لولا أنه رجل على نياته صافى القلب نقى السريرة فكيف تخافين منه بعد ذلك؟! إنه لم يكتم سره عنك ولا عن أحد غيرك!! ما فى قلبه على لسانه ينفض غضبه أولا بأول!!..

«حمدا لله أنه اختار غريمتك فى الوقت المناسب جلت قدرته وحكمته! سبحان الله: قتلت لحظة عقد قرانك!! إنى والله لفى حيرة: هل كان الله لحظة قتلها يقف

لصالح القتيلة أم لصالحك أم لصالح زوجك أم لصالحكم جميعا فى نفس اللحظة؟! لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع هذا قول فى منتهى الحكمة!! أنت الآن ضامنة أن زوجك ليس مربوط القلب بأحد ولا أظن أن واحدة أخرى تدخل قلبه بعد ذلك بسهولة!! الوحيدة التى يمكن أن تدخل قلبه هى أنت! ولكن بشرط أن تفعلى ما سبق أن نصحتك به منذ شهور طويلة مضت!! لسوف يقتنع على مر الزمن أنك نصيبه الذى اختاره الله له بإرادته فسبحانه كان على علم بأن الأخرى مفقود فيها النصيب!!..

«أعرف أنه قد ندم ندما كبيرا على تحطيم الكمان! كان يسألنى: ما ذنبها؟! أقول سل نفسك! فيطوح رأسه أسفا وحسرة ويتحدث عن فعلته كأن شخصا آخر فاقد الرشد فعلها!! قلت لك مراراً إنه طفل كبير يتصرف على سجيته!! أعرف أنه صنايعى ماهر فى إصلاح الآلات الموسيقية؛ أعرف كذلك أنه أعادها أحسن مما كانت وهذا فأل طيب! لمَّا شفتها بعد إصلاحها فرحت قلت له مادمت أصلحتها بهذه العناية فإنك إذن نويت أن تعود لاستئناف نشاطك بعد هذا التوقف الطويل!! قلت يجب أن تلعلع فى الحفلات كما كنت وتحيى اسمك الذى كاد يُنسى!! صدمنى بقوله لا والله ما أصلحتها إلا حزنا عليها فحسب كتحفة يجب أن تبقى سليمة صالحة أما العزف فلا أظن أننى أرغب فيه فقد جف قلبى وتيبست أصابعى تجمد القوس فى يدى!! هو يكذب على نفسه بالطبع دون أن يدرى!! هو أيضا يشجع نفسه على الإستيقاظ يفضح نفسه لكى يثيرها لتتحرك لتعديل أمرها واسترداد عافيتها!! طبعا إسألينى عنهم فأنا مخضرمة فى عشرتهم سنين طويلة هؤلاء المجانين العظماء!!..

«عرفت ياحبيبتى! عرفت حكى لى أبو فريد وهو فى غاية الأسف والحزن!! ولكن ما الذى حدث؟ لا هذا يحدث أول مرة ولا زوجك أول من يحدث معه ما حدث!! ياما عظماء فى الموسيقى جاءت عليهم لحظات على المسرح توقفت فيها مواهبهم عن الحركة ففشلوا فانسحبوا بكل بساطة!! زوجك جلس بين الفرقة ليعزف فنشز ولخبط وتثلجت أصابعه؟! وإيه يعنى؟! الجميع يعرفون أنه فى أزمة

نفسية لم يخرج منها بعد! أنا شخصيا فرحت بوقوعه فى هذه الورطة الحرجة! نعم! كان لابد وأن يتلقى صدمة أعنف من السابقة حتى تفيقه فيثوب إلى رشده!! هو قد ينسى ذات يوم موت حبيبة قلبه لكنه لن ينسى أبدا لحظة أن واجه جمهوره وعجز عن العزف له لأن حبيبة القلب هى فى النهاية والبداية حبيبة القلب أما الكمان فإنها حبَّة القلب!! لن يهدأ باله إلا بعد أن يسترد احترامه فى نظر جمهوره! إنى واثقة أنه يحمل الآن هماً وحيداً: كيف ينتزع التصفيق من جديد؟ إن لتصفيق الجمهور وقع ساحر فى أذن الفنان يطرب له لحد الإدمان!! هذا ما يجب أن تعرفيه ياصغيرتى فاعملى بكل وسيلة على أن يستمع لتصفيق جمهوره! ساعديه استدرجيه للكمان باستمرار حرضيه على التفوق!! إن كان الرزق يجيئكم الآن من محل إصلاح الآلات فرزقكم الواسع لن يجىء إلا بعودة زوجك للإمساك المستمر بالكمان فإنها وعده قدره مصيره فليعد إليها قبل فوات الأوان!!.

«حكاية هجرك فى الفراش هذه نكتة!! إنه غشيم ياعبيطة!! دردحيه!! أهذا منظر واحدة يهيم بها زوجها أو تغريه بالفراش؟! تزينى ياحمارة! أنت لست تلميذه فى الإعدادية أنت زوجة والزوجة يجب أن تغرى زوجها وتفتح نفسه للدينا!! ماذا يمنعك من ! من الاستحمام مرتين وثلاثة فى اليوم؟ قلة مياه؟ هو ينام بجوارك على السرير كل ليلة! خُشى عليه! إطبقى فى حضنه فهذا حقك وواجبك أيضا! إنفخى فى ناره الخامدة حتى يطير التراب عن جذوتها المدفونة تحت الرماد! الرماد بارد على السطح فحسب لكنه يسخن كلما دخلت فيه وعند الوصول إلى بصة النار يشتعل بأقل وقود!! إن كنت غشيمة أنت الأخرى فافعلى أى شىء على سبيل اللعب واللعب يعلمكما معا!! إن يد الطفل وفمه يعرفان طريقهما إلى حلمة ثدى الأم دون أن يعلمه ذلك أحد!! كل ما هنالك أن الطفل لا يجب أن يوضع على الصدر أولا !! قومى الآن ونفذى ما قلت لك! اشترى لنفسك علبة تواليت! وطنى نفسك على أن تنجحى فيحالفك النجاح لا محالة!!».

(٥٣)

امتلأت الردهة الصغيرة الضيقة بعدد كبير من الناس، رجال ونساء: ثلاثة من

عازفي الكمان، الأستاذ كريم بقانونه، سالم أبو شفه بنايه، الشيخ عطية بعوده، الشيخ عبدالحليم مندور، الشيخ عمران، عفاف شاكر أحدث مطربة دخلت الإذاعة وتقلب عيشها فى دور الملاهى الليلية فى وسط المدينة، دقدق الرقاق. منهم من جلس على الكراسى التابعة لطاقم الأنتريه الرخيص، ومنهم من جلس فوق بفات وحمير خشبية منجدة، ومن جلس على الأرض العارية. فإذا طرق الباب طارق فلابد أن يقف اثنان على الأقل من الجالسين لصقه ليمكن فتحه.

لغط هائل تختلط فيه الأصوات: ثمة من يتكلم بحماسة وصوت عال، ومن يدوزن أوتاره، ومن يضبطها على الإيقاع. ثمة همسات صادرة عن وجوه على شاشة تليفزيون ماركة باى ١٧ بوصة أبيض وأسود موضوع على منضدة صغيرة لصق باب حجرة النوم مفتوح على الدوام رغم أن أحداً لا يتفرج عليه. ثمة أصوات لارتطام الأوانى فى المطبخ، ووشيش أكثر من وابور جاز مشتعل، ثمة طفل جميل عمره فوق العامين بأشهر قليلة راح يزحف فى الممر الضيق الفاصل بين الردهة والحجرات يقطع الممر رائحا غاديا فوق بالون منتفخ ما يكاد يصل إليه حتى يدفعه بقدمه الدقيقة المللظلظة صائحا فى زأططة: هيه، ثم يلاحقه من جديد، هكذا دربته أمه على أن يلهو بعيدا عنها فى لحظات الذروة كهذه اللحظة. ذلك هو مصطفى أول ابن لعبدالبصير، الذى فرح به فرحا كبيرا جدا، سيما وأنه يحمل الكثير من ملامح جدته الجميلة وخاصة عينيها الخضراوين. ها هو ذا عبدالبصير، رغم إنشغاله بضيوفه، وبآلته، لاينى يراقبه فى فرحة مشوبة بالتوجس إذ يخشى أن يحسده هو أو غيره فيصطدم بشىء أو يوقع جهاز التليفزيون فوقه، لكنه كان مطمئنا لحسن العاقبة لما لمسه فى ولده من ذكاء يبعده تلقائيا عن مواطن الخطر.

رفع الأستاذ كريم ذراعه ليعطيهم إشارة الاستعداد فتهيأوا جميعا، ثم خفض ذراعه مرة واحدة فشرعوا فى العزف. إنها مقطوعة «المولد» لأحمد فؤاد حسن إحدى المقطوعات التى سيعزفونها مساء الغد فى ملهى الأريزونا لأن الراقصة فلة مراد تفضل الرقص عليها تحديا لبقية اللاتى لا يرقصن إلا بمصاحبة موسيقى مشخلعة بالإيقاعات الصاخبة. إنهن فى نظرها يقمن بالتنطيط أو التشليت أما هى

فتقدم رقصا فيه فن وفكر وموضوع!! شوف الأملة. هكذا ينبز عبدالبصير من تحت لتحت فى كثير من الاحتجاج والسخط المكتوم لكنه مع ذلك مستمر فى العزف بأعلى ما عنده من قدرة وحماسة، حتى إذا ما وصلوا للمقطع الناطق أعطاهم الأستاذ الإشارة بإيماءة من رأسه أتبعها بنطق: صلوا على.. نور النبى، وهم جميعا يردون: ألفين صلا عليك يانبى.. الله الله .. صلوا على .. إلخ . وكان الصوت عميقا تردده جدران الشقة الضيقة، وتشارك فيه منال بصوتها من المطبخ ثم وهى واقفة على تخوم الردهة والمطبخ مكتفة يديها الملوثتين بعصير الطماطم: ألفين صلا عليك يانبى الله الله. كانت تطلق صوتها فى ابتهاج صاف مشوب بكثير من الرضاء عن النفس، فها هى ذى قد نجحت فى استرداد زوجها، عششت عليه وعلى أصحابه لا تكف عن خدمتهم ليل نهار حتى وهى حامل الآن فى شهرها الثالث للمرة الثانية، لم تعد تنتظر أن يطلبوا منها شيئا، فالقهوة وراء الشاى، وأكواب العصير الذى تجيد صنعه من الجزر والفراولة والبرتقال والجوافة والمانجو والخروب.

عزفوا مقطوعة «المولد» ثلاث مرات، ومقطوعة «حبيبى الأسمر» لعبدالوهاب أربع مرات، ومقطوعة «فتافيت السكر» لمحمد فوزى، وموسيقى وأغنية «زينة» لفريد الأطرش كل ذلك مرات عديدة حتى أطمأنوا إلى جودة مستواهم وفى نفس الوقت توهجوا وسخنوا، فبدأوا فى عزف مقطوعات لعبدالبصير: لونجا نهاوند، لونجا دوماجير، المشربية. عند ذلك قال الأستاذ كريم إنهم صاروا على أتم استعداد لتقديم حفل ساهر. إشمأنط عبدالبصير بكثير من الغضب المفاجىء وشوح بأصبعه:

– «إلا موسيقاى !! لا أعزفها فى مثل هذه الأماكن لو قطمت رقبتى!! يكفى أن نتمرن عليها فحسب!!»

لوّح الأستاذ كريم فى عدم اقتناع:

– «أنت حر ! لكننى لو كنت مكانك لـ...»

قاطعه بصوته الخشن:

ـ «كل واحد له نبى يصلى عليه!!»

وأطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه، فضحكوا لها. عندئذ صاحت منال: العشاء. سحب عبدالبصير ترابيزة الأنتريه الواطئة المستطيلة، وهى عبارة عن لوح زجاجى على أربع قوائم. ألصق بها طقطوقة صغيرة وفرد عليهما جريدة قديمة، وقف فيما بين المطبخ والردهة، يتناول الأطباق من منال فيناولها لسالم أبو شفة ليضعها على الترابيزة: الأرز المعمر، هبر اللحم من مشوى ومقلى ومسلوق مع الملوخية والبامية والسلاطات.

فيما هم يشربون الشاى فاجأهم عبدالبصير بقنبلة لم يكن يتوقعها أحد:

– «على فكرة ياأستاذ ! أنا لست معكم غدا!!»

– «ما هذا الكلام؟! أجننت ؟!»

هكذا صاح الأستاذ فيه. فرد عليه بكل برود:

– «نعم جننت ! لن أشتغل !! يلزمنى راحة!!»

– «لا أراحك الله! يامتعب القلب! بصراحة ياعبده أنت يجب أن تبطل هذه الخصلة! كلما رزقك الله بقرشين تتمرد علي الشغل وتتركنا إلى الراحة والكسل!! أنت تتبطر على النعمة خلِّ بالك وهذا لا يرضى الله!!»

– «نعمة ؟! هى !! نعمة!! الله الغنى عن هذه النعمة ياسيدى!! ربنا يكفينى شرها !! اللهم اغننى عنها!!»

– «أمرك عجب!!»

– «أمرى أنا ؟! يجوز!!»

– «تراه أمرنا نحن إذن؟!»

– «الله أعلم بالضمائر!!»

– «معنا غدا أم لا ؟!»

– «لا !!»

– «أنت حر !! لكن كان المفروض أن تبلغنى من أول الليل كى أتصرف فى واحد غيرك!!»

– «ياسيدى ! المقهى مفتوحة للصبح! فيها بدلاً من الواحد عشرة!!»

– «لكن ليس فيهم عبدالبصير الصوفانى!!»

– «وعبده فى حالة نفسية صعبة!! نفسى رافضة للشغل! صدقنى! طول الليل وأنا أحاول كسر أنفها لتستمر لكنى لم أقدر!! هى النفس أمّارة بالسوء كما تعرف! وماذا أفعل لها؟! أطاوعها مؤقتا لأريحها من الوجع ثم أعاود الشغل ثانية!!»

حينما انصرفوا عاتبته منال على هذا التصرف: أبَعد أن أكرمهم الله بالشغل ثلاثة ليال فى الأسبوع، وجرت الفلوس فى أيديهم، يتبطر؟! فانفجر فيها يكاد يبكى:

– «تعبت!! أشعر أننى أمرغ نفسى وفنى تحت أقدام راقصة تهز وسطها وفخذيها!! أشعر كأننى صرت غباراً طائراً فى ذيل بذلة الرقص!! الفلوس الراقدة فى دولابك الآن كأنها الثعابين تلدغنى كلما رأيتها!! نفسى مصدودة عن الأكل الذى نشتريه بها!! إنها فى نظرى حرام ملوثة!! كيف أصلى لله وأقتات من عرق فخذى راقصة تعرض لحمها على البشر؟! أمن أجل هذا تركت بلدى وأهلى وجئت إلى هنا؟! ما كان أغنانى عن كل هذه المشقة!! العوالم فى بلادنا أرحم! ما قيمة أن أكون عازفا فى فرقة أكبر راقصة فى البلاد العربية كلها؟! أليست فى نهاية الأمر مثلها مثل أى غازية من طائفة العوالم والآلاتية؟! إن الغازية أحيانا تتحشم أما راقصات القاهرة فلا يعرفن الحشمة ولا يبرعن إلا فى المسخرة وقلة القيمة!! سأكون راضيا عن نفسى لو عزفت لأصغر مطربة هاوية!! أما أن أقضى كل هذا العمر فى التدريب والمشقة لكى أستغل مواهبى فى هز وسط امرأة؟! الموت أليق بى!! أعرف أنك ستقولين لى الأكل والشرب والمعايش ! وقد سبق أن قلت لك على نظامى فى الحياة: الكمنجة أولا! بعدها الأولاد! بعد ذلك أنت!! هذا هو ترتيب الأهمية فى حياتى ولن يتغير!! الكمنجة هى كل شىء فى حياتى! هى عشقى وغرامى!! ليس هناك من يحب شيئا ويمرغه فى الوحل!! إننى أنتظر من الكمنجة أن ترفعنى وترفع من شأنى فكيف لها وهى المهانة أن ترفعنى؟! غير ممكن بالطبع

فإننى إذا لم أحترمها وأصون شرفها فإنها تخسف بى الأرض!! سأبقى طول عمرى خيطا فى ذيل بدلة راقصة! مسمارا فى حذائها!! سيان عندى إن فهمت هذا الكلام أو لم تفهميه فليس عندى غيره!!».

ثم أشعل سيجارته ، تمدد بجلبابه على الكرسى، فى حين بقيت منال صامتة تحدق فى الأرض بعينين واسعتين قويتين، عاقدة ذراعيها فوق صدرها التى صار فى مستوى بطنها المنتفخة. راقبت طفلهما وهو يزحف نحوها فرحا باسما يحاول أن يتسلق ساقيها. ابتسمت لابتسامته، فقد خطر لها أنه هو الآخر اعتاد صوت أبيه وهو يتكلم بانفعال حاد، فلم يعد يخاف منه شأن من يراه لأول مرة إذ يتصور أن هذا المنفعل ربما حطم كل شىء أمامه فى اللحظة التالية من فرط الإنفعال وتصاعد الغضب، والمؤكد أن سيصاب بالذهول حينما يرى أن كل هذا الانفعال قد هبط مرة واحدة إلى لا شىء بل ربما إلى بسمة أو ضحكة بلهاء تشبه صفيحا يخبط فى بعضه. إلا أن منال كانت بقدر إدراكها لطيبة قلبه تدرك أيضا أنه حنبلى فى هذه المسألة بالذات وأنه يعنى بالفعل ما يقول، وإنها لتوقن تماما من أنه يحب الكمان أكثر منها ومن العيال ومن نفسه أيضا، فبقاؤه على قيد الحياة مرتبط بأوتار هذه الآلة، إنه أشبه بالقوس تمسك به يد مجهولة قوية لتجرى به على أوتار الحياة كيفما شاءت هذه اليد المجهولة، توقن كذلك أنه ليس دعياً، بل هى أول من يعترف بموهبته، أول من يتمنى له الرفعة وعلو المقام، بل هى أول من يؤيده بأنه لم يؤت كل هذه الموهبة من أجل شخلعة أرداف راقصة فى شارع الهرم، إنما الحياة صعبة، وهو لا يعرف شيئا عن أسعار أى شىء، يكتفى بوضع كل ما لديه من نقود فى الدولاب لا يأخذ إلا مصروف يومه، ولا يكف عن إعلان انزعاجه كلما رأى كومة النقود توشك على الاضمحلال، يزعم أنها قد انضربت بقرد عفريت، ينسى أن هذه العزائم اليومية تتكلف الشىء الفلانى. ما أبعد ذهنه عن تخوينها أو اتهامها بالسرف، لكنه دائم الإنزعاج من نفاد أى شىء. تعرف كل هذا جيدا، إلا أنها لو استسلمت لجنونه لامتنعت النقود عنهما تماما لفترات طويلة قاسية. فماذا تفعل؟! لقد أصبحت تعرف حقيقة الجو من حوله أكثر منه، لأنها تراقبه من بعيد،

تعرف أن أية فرقة من الفرق الموسيقية لن تمكنه من تثبيت أقدامه فيها إلا كعازف بين العازفين وهو يأبى إلا أن يكون العازف الأول، الصوليست، وهذا صعب قد لا يتحقق إلا بمشقة كبيرة وبعد زمن طويل.

زفرت، فكرت فى أصابعها، جعلت تحدق فى أطراف أظافرها شاردة، ثم قررت أن تبدأ من غد فى شراء ماكينة للخياطة بالتقسيط، لقد آن الأوان أن تتكسب من مواهبها فى الخياطة والتطريز وتصميم الأزياء، أشد مواهبها سطوعا منذ طفولتها. السبب أن خالها أهداها عروسا جميلة من محلات القاهرة تغمض عينيها إذا نامت وتفتحهما إذا قامت، وتحرك ساقيها وفخذيها بمفاصل تمكنها من الجلوس والوقوف والتربع، كانت أغلى هدية تلقتها، فعشقتها، أصبحت تصمم لها الفساتين باستمرار، تتفنن فى اختراع موديلات جديدة فى تفصيلات جديدة يحكمها ذوق بديع، تدخر القصاصات الجديدة المتعددة الأنواع والألوان تخلق منها تكوينات فى غاية الجمال والاتساق، تكونت لديها منذ الصغر حاسة التعامل مع الأقمشة الثمينة، فما أن كبرت حتى أصبحت تصمم لنفسها الفساتين والجونيلات وتخيطها بنفسها على ماكينة أمها، كما اعتادت أن تحيل الملابس القديمة المهملة إلى أشياء جديدة يمكن الانتفاع بها، وتلجأ إليها صويحباتها ببذلات آبائهن فتحيلها بقدرة فائقة إلى تاييرات بعد أن تقلب القماشة على الوجه الآخر المحتفظ بلونه وجدته. لقد توقع لها الجميع أن تغتنى من وراء هذه الموهبة، فلتجرب حظها إذن. تذكرت أن فى الدولاب بضع مئات من الجنيهات، فإلى أن تنفد تكون هى بعون الله قد جنت بعض ثمار يديها. وهكذا سحبت نفسها برفق إلى السرير وهو من خلفها.

قالت: سم، ومدت له الطفل الذى دهمه النعاس فى الأرض، فقال بسم الله الرحمن الرحيم، وتناوله، مدّده بجوار الحائط فوق المشمع المفروش له على المرتبة، وتراجع قليلا لتصعد منال إلى جوار طفلها. فلما أطفأ النور وتمدد بجوارها أحاط ظهرها بذراعه تلقائيا. وتلقائيا استدارت إليه متلذذة بسماع دقات قلبه.

(٥٤)

آخر ما كانت تتوقعه منال أن يشك عبدالبصير فى سلوكها. لكنها بدأت تلاحظ عليه - منذ وقت مبكر - أنه كثيرا ما يرتاب فى نواياها، يراجعها فيما تقول، يمسك لها على الواحدة، يسألها أسئلة غريبة غير متوقعة، يتعمد إرباكها، يلخبط غزلها فتعجز عن إقناعه، فتشوح فى يأسى وضيق، فيسكت على مضض. هى لا تستطيع أن تفسر له أشياء من المفروض أن يفهمها بالبداهة، فمثلما هو غير مستعد للجماع فى كل وقت فإنها أيضا كذلك كما أنها ليست - ولا يمكن أن تكون - مجرد لعبة جنسية يلهو بها وقتما يشاء ويهملها كلما أراد. كيف لا يفهم أنها باتت مجهدة أضعاف جهده؟ هو يقضى الليل كله ومعظم النهار مع كمانه، وحده أو مع رفاق، داخل البيت أو خارجه، أما هى فطوال النهار والليل منكفأة على ماكينة الخياطة ومقص التفصيل ورسوم البترونات التى تجمعها من المجلات لتدرسها كى تخالفها أو تطورها أو تبسطها. هذا وحده كاف لأن تستغرق فى النوم بمجرد وضع رأسها على أى مسند، لكنها إلى ذلك تكنس تمسح تطبخ تسهر على راحة ضيوفه الأجلاف الطواويس. ما يتبقى فى عروقها من دم يكفى بالكاد لإرضاع وليدها الثانى زهرة، ناهيك عن ترويض مصطفى وتطييب جراحه بمجىء غريمة له فى أمه. لم يعد لديها وقت لتتزين وتجلس أمامه أثناء التدريب كما كانت تفعل فيما مضى، تستطيع فحسب أن تستحم لتزيل عن نفسها عرق الشغل ونكهة المطبخ، إلا أنها مع ذلك تستطيع أن تجهز نفسها له يوم الخميس مثلا من كل أسبوع. غير أنه لا يقنع بيوم واحد، ولا يتورع عن تقليب جسدها والعبث به وهى فى أشد حالات الإرهاق لا تقوى على فتح عينيها بله أن تفتح فمها لتعترض. لو كان الود ودها لصحصحت على طول الخط ولكن ما باليد حيلة. وإذ يشعر أنه ينفخ فى نار خامدة يدفعها بغلظة مبرطما بجمجمة غير مفهومة ثم يقوم ليدرك صلاة الفجر جماعة فى المسجد القريب.

يتفاقم الأمر شيئا فشيئا. أصبح عبدالبصير يتأفف صراحة فى منظرها الكريه كما يصفه، لا يعجبه أى ثوب ترتديه ولا أى وضع تتخذه فى جلستها، يكثر من الحديث عن النسوان الجميلة اللائى منظرهن يفتح النفس، وعن الأزواج الذين ابتلاهم الله بزوجات نتنات قبيحات، يحكى قصصا وهمية يزعم أنه سمعها أو شاهدها، يربط فيها بين إهمال الزوجة زينتها وبين اتضاح الخيانة الزوجية، وكأنه يريد أن يقول لها بصريح العبارة إنها تهمل التزين له لأنها لم تعد تحبه، وأن برودها معه دليل على انشغالها وربما ارتباطها بآخر!!.

تألمت أشد الألم، لكنها كتمت بخار الغضب فى صدرها، فقد كانت موقنة من طيبة قلبه ومن أنه مجرد مدب لا يجيد الكلام إطلاقا، لسانه واقع على تلال من الأنقاض البذيئة يسحب منها دبشا لا ينتهى وألفاظا لا يصح مطلقا أن تتردد فى بيت محترم، وقلما ينجح المستمع فى تفادى واحدة من هذه الدبشات الباطحة، بل قد يصاب فى كل مكان فى جسده، اللهم إلا أن يكون من مريديه الذين فهموه وباتوا قادرين على تجاوز طبعه وكلامه فلا يتعاملون إلا مع فنه أو الرد عليه بدبش أقوى يردعه فيضيق ويمسك لسانه. هى مع الأسف لا تقدر على فعل ذلك، قصارى طاقتها أن تصيح فى وجهه محتجة فى احتداد غاضب إذا ما تجاوز حده، بكلمة واحدة لا تتغير:

- «سبحان الله فى طبعك!! تريد أن تقتلنى؟!»

فيقول على سبيل الاعتذار:

- «ياريت!!»

بلهجة يحاول أن يحملها قدراً من نبرة المداعبة والتراجع.

العناد يورث الكفر، ولكن من حسن حظها أن عنادها لم يطل، ورغبتها فى التمرد على رغباته التى حاول فرضها بالقوة والغلظة نجحت هى فى وأدها. فهى أصلاً تحب أن تتزين، أن ترى نفسها فى المرآة باستمرار، أن تكون مريحة للعيون بأى شكل، نفسيتها فى الأصل لا تستريح إلا إذا كانت فى أبهى زينتها بملابس نظيفة معطرة فوق جسد يضوى باللمعان والنعومة والنضارة، ولم يعرقل طبيعتها

هذه سوى إلحاحه الصبيانى، وملاحظاته الخشنة الجارحة.

كبّرى عقلك يابنت، وتذكرى كما قالت لك أم فريد أنك زوج فنان نصف مخبول نصف عاقل، خذيه على قدٍّ عقله حتى تمضى السفينة آمنة بعيدة عن الأنواء. هكذا كانت تقول دائما لنفسها.

كان الطالع حسنا، والمناسبة طيبة، أنجزت تصميم وحياكة صفقة من الفساتين الثمينة لثلاثة عرائس دفعة واحدة جئن إليها من طرف أم فريد، من بينهن فنانة سينمائية صاعدة. تقاضت أجرا مجزيا جدا، فوقه بوسة عميقة تمثلت فى بقشيش خرافى من كل من عاين الفساتين من أهل العرايس. إلى ذلك فاليوم خميس، وسيزورهم الليلة أحد كبار الملحنين العتاة قرر أن ينافس كبار المطربين بأن يغنى ألحانه بنفسه، على وجه التحديد ألحانه المبكرة جدا، التى تحولت فى ظل عبدالحليم حافظ إلى نوع من التراث القديم. الملحن واثق أن الجمهور لم يتضع ذوقه بعد وأنه لايزال مفتونا بألحانه القديمة الجميلة، وقد فرح عندما لمس أن عبدالبصير يحفظها عن ظهر قلب ضمن محفوظاته التراثية الكثيرة، حتى ليكاد يكون مرجعا حيا فيها بالنسبة لملحنها نفسه، إذ أنه - كما وصفه الملحن العجوز - فى دماغه نوتة موسيقية محفورة لا تنطمس حروفها أبدا، لهذا فقد اختاره ليكون العازف الأول فى الفرقة التى تصاحبه، سيَّما وأن هذه الألحان مليئة بالتقاسيم المنفردة للكمان، ولسوف تسافر الفرقة مع حفلات برنامج فرح الشهر وبرنامج ليالى الشرق التى تقيمهما إذاعة صوت العرب باسم البرنامجين المذكورين فى الدول العربية منافسة بذلك حفلات أضواء المدينة التى تقيمها إذاعة البرنامج العام فى الأقاليم المحلية. بالطبع لن يجىء الملحن بمفرده، ثم إن عبدالبصير قد عزم الأستاذ عنان عاشق الموسيقى الذى يعمل مديرا لسنترال باب اللوق، والذى استجاب لأمنية منال بمجرد تصريحها بها : «نفسى يبقى عندى تليفون» ، فلم يمض شهر واحد إلا وكان التليفون قد تم تركيبه فى شقتها، ستجىء كذلك أم فريد مع أبى فريد، بل لقد وصلت أم فريد بالفعل منذ الضحى لكى تساعدها فى شغل المطبخ وتنظيم الشقة وإعداد المائدة على طريقة افرنجية

تليق بناس مهمين.

بمجرد الانتهاء من شغل المطبخ تناولتها أم فريد، أغلقت عليها باب الحمام، وبعرق الحلاوة المطاط نتفت لها كل شعرة وكل زغب فى حنايا جسدها، سوت حواجبها قوستها ببراعة كخطين مرسومين بالقلم الرفيع، أضاء وجهها واتسعت عيناها فى بحيرة من الكحل، انساب شعرها جدائل حرة طليقة على الصدر والكتفين، احمرت الخدود كالتفاح، تفرجت الشفتان كالفراولة، انثال على جسدها فستان جديد الطراز من صنعها، أحالها الى غزال.

استقبلت الضيوف بترحاب وبشاشة كعادتها دائما، فاجأت زوجها بأنها اشترت - من كدها - مائدة دائرية محندقة عتيقة الطراز كلاسيكية أثرية بطاقم كراسيها من قادها إليه - سرا - سالم أبو شفة النایاتی فى شارع هدى شعراوى أوجدت لها ركنا في الردهة بتعديل بسيط فى وضع الانتريه. امتدت المائدة على خير وجه، مضى كل شيء فى سلامة وإشراق بفضل دبلوماسية أم فريد وقيادتها الخفية للأمور.

بدا الجميع سعداء إلا زوجها، كان فاقدا توازنه ظل طوال الحفل مرتبكا، عصبيا، منحرف المزاج، يراقبها خلسة، وعلانية، فى عينيه شيء غريب كالصفاقة كالاتهام، شعرت هى أنه يجاهد ليخفى ضيقه، مما عرضه لكثير من الدهولة، فكلما وقع فى خطأ سدد إليها نظراته كأنها المسئولة، حتى أربكها، وتر أعصابها، لكنها ماتلبث حتى تسترد بشاشتها بغمزة ذات معنى من أم فريد، إلا أنها كانت تضمر حزنا عميقا جدا فى قلبها، لا لشيء إلا لأن الملحن العجوز قد بدأ يسأم من كثرة الملاحظات التى يأخذها على زوجها أثناء عزف التدريب وهذا شيء لم يحدث له من قبل أبدا، فالعادة أنه هو الذى يكتشف الأخطاء عند الآخرين، أما الآن فإن ملاحظات الملحن قد بدأت تتكلم فى بديهيات لايقع فيها صغار الهواة، صار الملحن غير قادر على إخفاء تبرمه واندهاشه فلا ينى يردد بين لحظة وأخرى:

- «أنت مالك الليلة ؟ إيه؟ ماذا جرى لك ؟ لست في الفورم!! ما الحكاية؟».

وهو قد حط عليه غباء كالتلميذ البليد ذى الوجه الكالح يردد فى ابتسامة بلهاء:

- «مش عارف!!».

أو يغطى على ارتباكه باطلاق ضحكة الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه، كان الملحن العجوز محقا فى تصريحه لحظة انصرافه بأن الليلة كانت للعشاء فحسب وأنه يشكر ست البيت من أعماقه، تبعه الأستاذ عنان معلقا بقصيدة مدح فى سيدة هذا البيت وفى ذوقها الرفيع وشياكتها فى كل شىء. اقترح الملحن العجوز بيته مكانا للقاء القادم. شيعه عبدالبصير حتى بسطة الطابق السفلى، كانت أم فريد آخر المنصرفين، وحينما مالت على وجهها لتقبلها قبلة الوداع همست فى أذنها بوصية شديدة الأهمية:

- «كونى باردة الأعصاب مهما فعل ومهما تكلم» !!

كونى مشتعلة فى الفراش كالنار فتهدأ أعصابه !!».

أومأت برأسها مبتسمة، انتظرت حتى اختفت أم فريد فى بئر السلم، أغلقت الباب ودخلت حجرة النوم فيما كان عبدالبصير يبدل ثيابه، لاحظت أنه يرمى بقطع الثيابفى كل اتجاه بحدة وضيق، يفلت الجلباب من بين أصابعه فيسبه سبا فاحشا، صارت بكل هدوء تجمع قطع الثياب تشبكها فى مشاجبها داخل الدولاب.

جلس على حافة السرير وأشعل سيجارة محشوة بالحشيش . جلست هى على مقعد التسريحة، سلطت عينيها فى عينيه باسمة بنظرة فيها اشتياق ونداء. صار ينقل البصر فيما بين وجهها وظهرها البارز فى المرآة. قالت:

- «أعمل لك شاى؟».

- «لأ!!».

- «قهوة؟».

- «لأ!!».

وشد نفسا عميقا من السيجارة ثم استدرك:

- «ماهذا الذى تعملينه في نفسك؟»

- «ماذا عملت؟».

واستدارت ناظرة لنفسها فى المرآة. عاجلها:

- «ماكنت أبدا بهذه الأناقة!!».

- «طول عمرى أحب الأناقة حتى وأنا فقيرة!!».

- «عمرى مارأيتك بهذه الزينة !! فما سرك هذه الليلة ياترى؟!».

- «أردت أن أعجبك ! فأنا كما تعرف أحب كل شيء يعجبك ويرضيك!!».

- «فلم اخترت هذه الليلة بالذات كأنك عروس ليلة الزفاف؟! أنت لم تكونى هكذا وأنت عروس!!».

- «ومتى كنت عروسا؟! دعنى أكون عروسا هذه الليلة!! قدر أن هذه ليلة عرسنا! فكل ليلة يسعد فيها الإنسان هى ليلة عرس!!».

- «لكن لماذا هذه الليلة بالذات؟! هذا ما أحب أن أعرفه بكل صراحة!!».

- «راق بالى! خلصت من شغل كتم أنفاسى شهورا طويلة! تطهرت من أثر الولادة فليلة البارحة كانت الأربعين على ولادة زهرة! واكتملت المناسبة بمجيء ضيوف لايصح أن أظهر أمامهم بمظهر لايليق بك وبى! أم فريد يكرمها الله تولتنى!!».

- «آ..آ..آ..آ هذه هى النقطة إذن!!».

واعتدل كأنه عثر على دليل الاتهام:

- «قولى إنك تزينت هكذا وفعلت فى نفسك البدع من أجل ناس آخرين!!».

- «ماذا تقصد ياعبده؟!».

وانقلبت سحنتها، هبت ريح الغضب على عينيها فكنست ما كان فيهما من ضوء، أشعلت جمرتين متقدتين.

إلا أن منال تذرعت بآخر ما فى صدرها من زفرات:

- «وضح كلامك ياعبده! ما إذا قصدت بناس آخرين؟».

- «أنت تفهمين قصدى!!».

كان صوته يقطر سما . وكانت نظراتها تقذف حمما:

- «هل أنت فى وعيك؟!».

- «تعرفين أننى لا أسكر ! والحشيش لايغيب عن الوعى!!».

بنبرة حاولت أن تجعلها ساخرة:

- «أنت والله أعلم تتهمنى بالخيانة!»

- «كل شىء واضح إذن!!».

هطلت الدموع على خديها، لم تستطع ايقافها، شعرت لأول مرة فى حياتها بالذل، وبأنها تورطت فى صفقة خاسرة. دار الشريط فى ذهنها بسرعة وكثافة، رأت نفسها عاملة فى محل للأزياء، ثم صاحبة عمل، ثم شريدة منبوذة تحمل على صدرها طفلة وتسحب بيدها طفلا، لا أحد يقبل الزواج منها بسبب طفليها، جميع وجوه أهلها تبحلق فيها بنظرات التشفى.

- «لماذا البكاء! تشعرين بالذنب طبعا!!».

حملقت فيه، همت بالبصق فى وجهه، لكن أم فريد بزغت فى ظلام حالك خلف رأسها فمنعتها، كانت البصقة قد تجمعت تلقائيا فى فمها، فسحبت منديلها وأودعتها فيه بهدوء ثم مسحت أنفها:

- «حيرّتنى ياعبده!! إن تزينت أكون خائنة!! إن أهملت زينتى أكون نتنة وخائنة أيضا!! هذا لاتفسير له عندى سوى شىء واحد هو أن التخوين فى طبعك !! لكنى ألتمس من الله الصبر على ظلمك!».

دفعت نفسها واقفة فى انكسار، اتجهت إلى الحمام فغسلت وجهها، جمعت شعرها فى عقدة واحدة فوق رأسها علقته فى مشجبه، ارتدت ثوبا منزليا بسيطا خفيفا، صعدت إلى السرير فاحتضنت طفليها، أعطته ظهرها كأنما إلى الأبد، سرعان مادكها النوم دكا.

سلوكه بعد ذلك أصبح لايطاق، لشدة مافيه من صبيانية والتواء يعود الى البيت فى أوقات شاذة لكى يفاجأها، يزعم أنه مسافر لحفل سيغيب فيه أياما فتجهز له الحقيبة وتودعه حتى الباب، ثم تفاجأ بأنه قد عاد فى عز الليل، فى كل مرة لايقتنع ببراءتها، فيغمغم، بما يكشف عن اعتقاده بأن الظروف قد خدمتها أو أنها طلعت أذكى منه، ثم يكرر المحاولة، فى مرة دبر الخطة بإحكام حيث أشرك بعض زملائه فى ايهامها بحقيقة أنه مسافر هذه المرة بالفعل: جاء زميلان بآلتيهما

فى بكورة الصباح ثم ركبوا سيارة فى انتظارهم مكتوب على لوحتها المعدنية وعلى أبوابها أجرة - اسكندرية فصدقته هذه المرة فما كاد الليل يدخل حتى آمنت على نفسها فأغلقت الباب من الداخل بالترباس، فإذا بها فى عز الليل تسمع «عكرشة» فى الباب وحركة دفع قوية عنيفة ترج الشراعة والجدران نفسها، فزعت من نومها صائحة: من؟! فصرخ ضائقا بلهجة آمرة حادة: افتحى فورا!! فى الحال!! ألقت بنفسها على الأرض تتخبط فى الأشياء بحثا عن زر النور، لفت جسدها فى ثوب كالعباء،ة هرولت، فتحت الباب، اندفع الى الداخل مهرولا. استدرك فارتد مسرعا فأغلق الباب بالمفتاح، هرول الى حجرة النوم كالمجنون، أخذ يقلب فى الفراش، يفتح الدولاب يتحسس الثياب الواقفة كأشباح خاوية تثبت بطلان أفكاره وفساد نيته، يركع على الأرض يقلب البصر تحت السرير، يدخل المطبخ والحمام يكاد يرفع غطيان الحلل، يفتح كل الشبابيك ينظر فى الشارع والحارة باسترابة، فى النهاية يرمى بجثته فوق الكرسى لاهثا يتصبب عرقا، ثم يبدأ فى جر الناعم: عندك عشاء؟ فتسحب نظراتها المتأملة فى سخرية أليمة، تستدير الى المطبخ لتؤلف له عشاء سريعا، تجلس أمامه لائذة بالصمت حتى ينتهى من طعامه فترفع الأطباق إلى المطبخ، تتلكأ أمامه قليلا فى انتظار أن يعن له طلب يطلبه، حتى إذا مالوح لها بذراعه علامة أنه لا يطلب شيئا دخلت حجرة النوم فاحتضنت طفليها.

انكسرت نفسها، زهدت الزينة والجنس بل والفراش، أصبحت قليلة الفرح لاتضحك من قلبها إلا نادرا، كان هو يمعن فى الاسترابة رغما عنه، كأن شخصية أخرى تتلبسه فى معظم الأحيان فتتصرف بدلا منه هذه التصرفات الشاذة. اعتاد أن يفتش فى ملابسها المودعة فى الدولاب، تحت أفرخ الورق المفروشة علي رفوفه، فى حقيبة يدها، أحيانا يعثر على قصاصة ورق عليها عنوان ورقم هاتف:

- «بس!! اعترفى ! عنوان من؟»

ويجرى إلى الهاتف ليطلب الرقم:

- «اعترفى قبل أن أسأله ! اعترفى قبل أن اطلقك الآن بالثلاثة» .

الابتسامة الشاحبة تتسع على شفتيها وقد غاضت الدماء فى صفحة وجهها.

- «اسأله !! فأنت ضعيف الذاكرة!!».

يضع السماعة مسلطا عينيه فى عينيها بخشونة وخسة ونذالة، وبذاءة:

- «ضعيف الذاكرة أم ضعيف الشخصية!! أم ضعيف شىء آخر ! قوليها بالمرة!! تنكرى لكل شىء».

تتذرع بالصبر والهدوء :

- «يارجل ياطيب !! نسيت أنك أعطيتنى هذه الورقة فى الأسبوع الماضى؟! يوم كنا عائدين من زيارة أم فريد والتقاك فى الشارع رجل يعرفك وتعرفه من سنين فطلبت تليفونه فكتبه لك؟! لحظتها أعطيتنى الورقة قائلا ضعيها فى حقيبتك!! أما أنا فيعلم الله أنى لا أعرف حتى اسمه!!».

يظهر عليه القليل من التردد المشوب بقليل من الخجل ، يحاول التذكر، يتلبك مخه، يرفع السماعة فى إصرار غبى، لكن لمحة ذكاء برقت فى عينيه حينما رد عليه الطرف الآخر ، إذ قال على الفور:

- «أنا عبدالبصير الصوفانى ! من معى؟».

رد عليه الآخر مهللا بالترحاب، تعرف عليه قال له عبدالبصير:

- «ها أنا كلمتك كما طلبت أحب أن أسمع صوتك! خلنى أراك ! مع السلامة!».

رغم هذا، فقد لاحظ مرة أن نوتة أرقام الهاتف مفتوحة بجوار الهاتف على حرف معين، فقطب حاجبيه فى اهتمام شديد، راجع الأسماء المكتوبة فى الحرف كلها متوقفا عند كل اسم لمدة طويلة قبل أن ينتقل الى غيره، خاصة أن الأسماء والأرقام كلها مكتوبة بخطها هى لأن خطه عاجز وغير مقروء، حينما عجز ذهنه عن ربط الشبهة باسم من الأسماء راح يسألها بشكل يبدو عرضيا عابرا:

- «تكلمت مع أحد ؟! أقصد فى التليفون؟!».

- «لم أسمع رنة التليفون طول النهار!!».

تزداد استرابته :

- «ربما طلبت أنت أحدا لكى يسليك مثلا؟».

تهز رأسها بالنفى .. تتوتر أعصابه:

- «ولماذا الكذب؟ النوتة مقلوبة مفتوحة على حرف معين أمام التليفون تقول بالفم المليان إن أحدا كان يطلب رقما منذ قليل!!».

تلوح بيديها فى ضيق، تنظر إلى أعلى طالبة الصبر من الله، تسعفها اللباقة بحس ساخر:

- «لو كان معى جهاز رفع البصمات لأثبت لك الآن أن هذه النوتة على وضعها هذا من صبيحة ربنا! وأنك أنت الذى وضعتها هكذا!! كنت تطلب شخصا قبل أن تخرج وكان الخط يعطيك مشغولا!! بالأمارة سببت ديك التليفون وهبدت السماعة فوقه وخرجت فى الحال!!».

يزوم مفكرا، يتذكر بالفعل:

- «مضبوط ! تذكرت حقك علىّ!!».

ويطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه، بلامبالاة كأنه لم يفعل شيئا يسىء إليها.

كان يدفعها الى الخيانة دفعا ولو على سبيل الهزء بكل محاولاته والتنكيل بعقليته الفاسدة، لولا أن شخصية أم فريد كانت تبزغ لها من بين كسف الظلام المتراكمة خلف رأسها تناشدها التعقل وتكبير المخ . صانت نفسها بقوة وصبر وجلد. قوتها كانت فى مواجهة نفسها بالحقيقة، حقيقة أنه قدرها الذى لامفر منه، فإنها رغم كل ذلك لاتزال تحبه وتقدر فنه، سيما وأن سلوكه المعوج المستريب أصبح لا يؤلمها، فلم يكن إلا تعذيبا لنفسه فحسب، وكان يؤوب اليها فى النهاية دائما مقهورا شاعرا بالذنب لائذا بضحكته البلهاء يطلب عفوها، اعتادت أن تعفو عنه، حياتها معه أصبحت فى السنين الأخيرة عفوا متواصلا، غير أنها باتت تتصرف بحكمة وحيطة، تنظر فى وجهه أول الليل، فإن لمست فى ملامحه انبساطا، وفى حركاته روقان بال، وفى عينيه انعدال مزاج، قامت فتزينت وغيرت ثيابها وتعطرت وأكثرت من الرواح والمجىء أمام ناظريه، واختطاف لحظات تجلسها معهم خلال التدريبات المتواصلة، لتنتهى الجولة أو بالأحرى تبدأ بدايتها الحقة -

ى الفراش، خاصة أنها اشترت لكل من الطفلين سريرا هزازا، إما أن نظرت فى
عينيه فرأت خلاف ذلك بقيت على حالها وكمنت فى حجرة النوم حتى ينصرف
رفاقه فيذهب هو فى أعقابهم الى مسجد الحسين ليؤدى صلاة الفجر جماعة،
وحين يعود يجدها تغط فى النوم ، فيستلقى بجوارها.

(٥٥)

ناوله سالم أبو شفة الناياتى السيجارة المغلومة بنوع ردىء من الحشيش،
نائلا فى حماسة مفاجئة:

– «أقرأت الإعلان اليوم فى الجرايد؟!».

قطب جبينه:

– «إعلان ماذا؟!».

– «مسرح التليفزيون سينشىء فرقة غنائية استعراضية ستبدأ نشاطها فى
الحال بتقديم أوبريت الليلة العظيمة من تلحين حسين جنيد وإخراج فؤاد
الجزايرلى وهم يطلبون موسيقيين يعملون مع الفرقة بعقود ثابتة وربما تم تعيينهم
بعد فترة إذا استمرت الفرقة ناجحة!!».

طقت الفكرة فى رأسه خضراء معبقة برائحة منعشة لعلها رائحة الاستقرار
المؤدى الى صعود:

– «أنت قرأت هذا الإعلان بنفسك؟ والله دى فكرة نيرة ! تعال نتقدم ! لن
نخسر شيئا! صحيح أن كل شىء يمشى فى البلد بالوسائط ولكن لن نخسر
شيئا! مجرد طلب على وروقة دمغة!!».

تمت كتابة الطلبين في نفس القعدة وفى الصباح توجها سويا الى إدارة
المسرح فى مسرح الهوسابير ثم رجعا بموعد للاختبار.

جاء انضمامه لفرقة أوبريت الليلة العظيمة بمثابة عهد جديد بكل معنى الكلمة،
شعر أنه قد حصل على اعتراف رسمى بأنه موسيقي يعتد به فى البلاد، عضو فى

فرقة تشرف عليها وتدفع رواتبها الحكومة، انفتح أمامه عالم جديد، ممثلون وممثلات ممن كان يرى صورهم فى لوحات الإعلانات، مخرجون مؤلفون مهندسو ديكور وإضاءة كمانه لفتت أنظار كل هؤلاء دون زملائه جميعا، بل إن زملاءه أنفسهم انبهروا به، صاروا يدبرون للاختلاء به عقب انسدال الستار فى قعدات خاصة فى حجرة التدريب أو فى بيوتهم لكى يعزف لهم نتفا من مقطوعاته التي ألفها بوحى من حبه لسعدية المليجى، فإذا هم يندهشون من مهارة قوسة وليونة أصابعه وقدرته الفذة علي استنطاق الأوتار بأوهى لمسة بأقل نأمة، تتضاعف دهشتهم حينما يكتشفون أنه علم نفسه بنفسه وأنه لم يتخرج مثلهم فى معهد الموسيقى رغم أنه يجيد قراءة النوتة الموسيقية مثلهم، مع ذلك بقى شعور خفى يضمخ أحاسيسهم بمرطب مريح، هو كونهم أكاديميين، ذوى شهادات عليا أما هو فشعبى تلقائى غير مؤهل أكاديميا، ذلك هو الشيء الوحيد الذى تمسكوا به جميعا فى علاقتهم به ليصدوا عن أنفسهم غائلة تفوقه عليهم واشتهاره فى الوسط الموسيقى أكثر منهم فى زمن قصير حتى أن الكثيرين من الملحنين بدأوا فى الاستعانة به كصوليست متميز يرفع مستوى الأداء الموسيقى فى ألحانهم ويشجعهم على تخصيص فواصل منفردة للكمان، كان لابد أن يكون ثمة شيء يتميز به زملاؤه عنه يواجهونه به عند اللزوم.

بات هو حساسا جدا فى التقاط هذا الشعور بل كان كان يتوقعه ويحسب حسابه منذ زمن طويل مضى، وكم عانى منه معاناة نفسية قاسية، إلا أن شدة ردود فعله سرعان ما أنسته هذا الشعور تماما، فماذا ينقصه بعد إذ وضعه المتذقون الأصلاء - وعلى رأسهم الجمهور - فى المكانة التى يستحقها!! ثم إنه ليس من الغباء لدرجة أن ينسى أن حملة الشهادات العليا هؤلاء يجلسون أمامه كالتلاميذ طالبين أن يدربهم على عزف مقطوعاته هذه ليقينهم، أن مجرد إجادتهم لعزفها يعتبر شهادة بأنهم قد وصلوا الي أعلى مستويات المهارة. هذا وحده يكفيه دليلا على أنه أعلى قامة منهم، بل إنه ليتلقى كل يوم شهادة عملية جديدة كلما شاهد المسرحية موسيقى كبير من عمالقة التلحين والتوزيع والتأليف والقيادة

والطرب، بات من المألوف أن من يحضر من هؤلاء يطلب التعرف عليه بحكم ما سمعه عنه : إبراهيم حجاج، فؤاد الظاهرى، محمدم حسن الشجاعى، عبدالحليم على، عبدالحليم نويرة، أحمد صدقى، محمود الشريف، حسين جنيد، مدحت عاصم، كل هؤلاء وغيرهم استمعوا اليه فقالوا - أمام الجميع : هذه الموسيقى لابد لها من عازفين أخصائيين لابد من خلق عازفين جدد يتمرنون عليها لتخلقهم هى.

داخل مسرح البالون عثر على حجرة منفردة أشبه بالخص المنفى، لعلها كانت معدة لخفير مخازن الديكور، هذا الخص استهواه فاتخذه منتجعا لتدريباته اليومية قبل بداية العرض بساعات طويلة، وكان أنصاف الموهوبين من العازفين حملة الشهادات يستهجنون هذا الاغراق المبالغ فيه فى التدريبات ويتخذونه مثار للتريقة والسخرية ويقومون بزيارات خاطفة لهذاا لغرض وحده. إلا أنه سرعان ما أعطاهم أعمق درس مفحم كان قد تعلمه بدوره من حوارات أبيه مع العازفين الأجانب الذين يحضرون للمشاركة فى حفلات الكنائس وهم من خيرة العازفين فى العالم، موجز الدرس أن العازف لابد له من تدريب يومى لايقل عن ست ساعات إذا أراد أن يكون شيئا حقيقيا له وزنه، وذلك من أجل سلامة الطبع، قيل وما الطبع ياعبدالبصير! قال يعنى انطباع الأوتار على الأنامل عند العفق، فبالتدريب المتواصل تكتسب الأعصاب وعضلات الذراعين والأصابع سيولة وليونة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعرف الأوتار مستقرها من بصمات الأنامل فتستقر عليها بكل راحة بمجرد وصول الأصبع الى الوتر فى أى منطقة فيه، كما أن القوس هو لسان الكمان فلابد من التدريب عليه وحده ساعة علي الأقل كل يوم بأن تمسك الأصابع بالقوس ثم تظل تحركه فى الهواء صعودا وهبوطا تنفضه.

استمع العقلاء من الموهوبين الأصلاء الى هذا الكلام فى إجلال وتقدير، أصبح منهم من يعشق الاستماع الى هذه التدريبات نفسها رغم أنها مجرد نغمات عشوائية غير متسقة فى سياق محدد، وقال له فؤاد الظاهرى إن لك لمنهج فى التدريب، ذو خصوصية، فنحن أمام سبعة حروف، سبع قرارات وسبع جوابات على أوتار أربعة فماذا يمكن أن يخرج منها؟ إنك بتدريباتك العشوائية التلقائية هذه تعصر الأوتار

عصرا تستحلبها أخر نقطة فى ضروعها بالإلحاح على كل حرف ومحاصرته من جميع الطبقات ؛ وهذه التدريبات فى حد ذاتها قيمة إبداعية كبرى لو أننا على درجة من الوعى لقمنا بتسجيلها على أشرطة كتمارين يمكن تقريرها على طلبة المعاهد عمليا ونظريا ويمكن تصديرها لكل من يريد التعمق فى المعزوف الشرقى من معاهد العالم .

بات كل راغب فى استقطاب المهارة والوصول إلى درجة عالية من الدربة يحج إلى هذه العشة السحرية ، حتى غدت مصدر أنس حقيقى فى هذا المسرح الواقف على شاطىء نيل العجوزة يقدم لجمهوره ألعابا سحرية وأغنيات بهلوانية فى فنتازية فنية مطبوخة جيدا من فنان جماهيرى عتيق جمع فى مزاجه بين السينما والمسرح ألعاب السيرك هو المخرج فؤاد الجزايرلى .

هذه العشة صارت بيته الحقيقى حتى أنها أنسته بيته الأصلى ؛ نسى زوجه ومحاولاته الكيد لها، أصبح منشغلا بنفسه تماما . لم يلاحظ أن زوجة قد سمنت إلى حد مزعج ، صارت كالبرميل القصير تتحرك بصعوبة شديدة وتستعين بأكثر من خادمة ؛ بل لعله لم يلاحظ أنها أنجبت له بنتا ثانية اسمها مديحة ليصبح هو أبا لثلاثة : مصطفى وزهرة ومديحة . الشىء الوحيد الذى طفا على سطح ذاكرته فبات يذكره على الدوام لأنه لم يكن يتوقعه على الإطلاق هو ذلك الرجل الحاج الذى وفى بوعده ليثبت أن الدنيا فى مصر لاتزال بخير وفيها ناس تستحق الجنة فعلا ؛ ذلك هو الحاج مصطفى الصوفانى ، سمىّ أبيه . كان التقاه منذ أكثر من عام فى فرح ابنته فى حدائق القبة . يومها - لأجل النصيب - ألهمه الله أن يتواضع فيقبل المشاركة بكمانه فى إحياء فرح خصوصى على سطح عمارة ؛ وبالطبع كان لاسم الحاج دخلا فى قبوله المجاملة بدون أجر ؛ سيما وأن الحاج صاحب عمارة سكنية جديدة يمكن أن يقوم عليه الأمل فى العثور على شقة سكنية فى عمارة جديدة محترمة فى حى محترم يبعده عن حى العوالم السيىء السمعة . ولأنها إرادة الله فإنهم حينما عرفوه على الحاج بعد الحفل قال له الرجل فى إعجاب شديد متحيز :

– «من أين جئت باسمك هذا ؟!» .

ضحك ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه :

– «من عند الله ! أم أنك تريد أن تتنكر لابنك ؟!» وأردف فحدثه عن أصل عائلته الطنطاوية التى لابد أن تكون هى نفسها عائلة الحاج ؛ ثم ختم كلامه بأنه ابنه يحلم بشقة واسعة . فإذا بالحاج يقول له بكل بساطة :

– «عندى شقة فى الدور الأرضى فى هذه العمارة نفسها يسكنها طلبة فحينما يسافرون فى إجازتهم أعدك بأن تكون لك ! هات عنوانك !!» .

وكان وهو يمليه يتصور أنه كلام من قبيل فض المجالس ؛ لكنه فوجىء بأن الرجل قد أرسل إليه رسولا يخطره بأن الشقة قد خلت . انطلق إليه بكامل عفشه وأولاده ؛ وبدأت منال تفرج عن مدخراتها فتحولها إلى أطقم للجلوس وللمائدة والنوم . صار البيت بيتا بحق وحقيقى ؛ يليق أن يستضيف فيه من يشاء من كبار الناس . لكنه جاء بعد أن ولف على هذه العشة الساحرة الملائمة التى بات لايغادرها إلا بضغط من الحراس المجبرين على ضرورة إغلاق الأبواب فى نهاية السهرة .

كثيرا ما كانت تنتقل العشة بكامل هيئتها إلى البيت فى النصف الثانى من الليل ؛ ليكملوا تدريباتهم فى غرفة الجلوس المطلة على الشارعين العمومى والفرعى معا ؛ فوق طاقم من المقاعد المطعمة بالأصداف والمنجدة بالقطيفة الحمراء . فما أن يدخلوا البيت حتى تنهض منال مستأنفة نشاطها فتجهز العشاء الدسم لكل هؤلاء . أثناء انهماكهم فى الأكل تستحم وتغير هدومها ثم تقبل عليهم بوجه مضىء كى ترحب بهم . فى العادة تستمر القعدة حتى أذان الفجر ، فيتركهم ذاهبا إلى المسجد المحندق المقتطع من العمارة حيث كان المفروض أنه دكان بمخزن لكن صاحب العمارة حوله إلى مسجد ليتمتع بحق إسقاط العوايد عن عمارته ؛ فكأنه أعد خصيصا لعبد البصير لأنه كان المواظب الوحيد على أداء الصلاة فيه .

لقيت مسرحية الليلة العظيمة نجاحا ملحوظا ؛ إذ أن الأعمال الفنية المؤلفة من

عناصر . غذائية كثيرة «كحلة التورلى» الشهيرة فى المطبخ المصرى . وكان لمسرح البالون نفسه كبناء على شكل المنطاد ومجهز من الداخل لتأدية الحركات البهلوانية، دخلاً كبيرا فى نجاح الفرقة . لهذا استمرت كفرقة غنائية استعراضية تنتهى من عمل لتبدأ فى آخر ؛ وتم تعيين كل الموسيقيين كموظفين فى الميرى .

طابت له الحياة ؛ امتلأ بنفسه . مرتب الحكومة يسد ثغرات لايستهان بأمرها . الحفلات الغنائية التى يدعى إليها فى الملاهى بعد انتهاء العرض المسرحى أو فى أيام الإجازات هى التى تسد الجانب الأكبر . زوجه لم يعد لديها وقت للتفكير فى الأزياء ؛ وما حاجتها لذلك ؟ إنزوت ماكينة الخياطة فى ركن قصى من حجرة المعاش ، لاتدار إلا للشغل فى ملابس أهل البيت والصحاب المقربين جدا . لقد أصبحت منال أما لأربع أبناء يملأون حياتها صخبا وبهجة وانشغالا حميما . لم يعد يهم - ولايهم زوجها - أمر الزينة أو أمر الفراش ؛ فلقد تمضى الشهور الطويلة دون أن يجتمع كلاهما فى فراش واحد ؛ إذ هو يتهيأ للنوم فى اللحظة التى تتهيأ فيها للصحو لتجهيز العيال للمدرسة ، ولشغل البيت الذى لاينفد ؛ فإن تلاقيا على الفراش صدفة فى لحظة قيلولة فإن الظرف هو الذى يتحكم فى تحديد مصير اللقاء ؛ إما تلاحم سريع لاهث مكتوم متحشرج وإما تبادل حوار سريع حول شئون البيت والعيال .

امتلاؤه بنفسه فصله تماما عن الحياة من حوله ؛ انحصرت حياته كلها فى القوس والوتر ، ولا شيء غير ذلك ؛ لايرى الحياة من حوله إلا مجرد أخبار تبلغه ، بشكل عابر بغير تفاصيل ؛ أو فى شيء من الاحتفالية يعرف من خلالها بعض التفاصيل . دائما أبدا يفاجأ بحدوث الأحداث وانقلاب الأمور وحضور أشياء طارئة ؛ فيضطر للسؤال عن أصلها وفصلها ؛ قد يقنع بفهم الظاهرة من ظاهرها ؛ وقد يخيل إليه أن محدثه عنها يخوض به فى حكايات طويلة غير مفهومة ومعلومات معقدة عن أوضاع غريبة ؛ فإذا هو قد سئم بسرعة وانصرف ذهنه . هو إلى ذلك لايحب أن يصدع رأسه بالاستماع إلى أى مناقشة ؛ حتى الحوارات

والأحاديث التى تبثها شاشات الإذاعة لايطيق متابعتها أكثر من دقيقتين فيأمر بتحويل المؤشر أو يقوم هو فيبحث عن أى موسيقى أو غناء فى أى محطة ؛ فإن وجده ازدراه وأستحقره ! فيما عدا السنباطى وعبدالوهاب وزكريا أحمد من المعاصرين يبدو الجميع فى نظره معتمدين على النصب الفنى المتقن أو السرقة من الغرب .

دائرة معارفه السياسية تقترب من الصفر ؛ يعرف بالكاد اسم رئيس الجمهورية واسم رئيس الوزراء . وقد ظل شهورا طويلة لايعرف أن «الثقافة» قد استقلت عن «الإعلام» بوزارة خاصة ؛ وأن جميع المسارح بما فيها فرقته أصبحت تابعة لوزارة الثقافة فى هيئة اسمها هيئة المسرح والموسيقى . وقد ظل لوقت طويل - رغم إعلامه بهذا الخبر - يخلط بين وزير الثقافة ووزير الإعلام . ولولا أن الأمر قد تطلب منه تقديم أوراق ومسوغات ؛ كما أن شخصية الصراف الذى يقبض . منه راتبه قد تغيرت مثلما تغير مقر الخزنة ؛ لولا ذلك لما اضطر للسؤال عن حقيقة ما جرى .

فى كل ما سمعه وشاهده لم يدهشه شيء قدر دهشته من سوء مستوى الأخلاق فى الوسط الفنى بعامة ، بصورة صدمته صدمة عنيفة باردة ؛ تأكد على أثرها أن مجتمع العوالم والغوازى والموالدية - الذى استعلى عليه بإيعاز من أبيه - ربما كان أحسن خلقا وأنظف سلوكا وأعف من كثيرين جدا من هؤلاء المشهورين اللامعين . لم يكن يتصور على الإطلاق أن الألفاظ السوقية القبيحة يمكن أن تجرى على ألسنة هؤلاء الذين سعى لشرف الانتماء إليهم فى العاصمة ؛ فإذا هم يتخاطبون بمفردات تتناول عضو الأم ، يصفون بعضهم بعضا بألفاظ يندى لها الجبين عرقا ؛ عبارة يا ابن القحبة جارية على كل لسان تتردد فى الدقيقة الواحدة عشرات المرات ؛ ناهيك عن الاتهامات الشنيعة التى تلقى جزافا ودون مراعات لأى حرمة ؛ والأحكام الكبيرة تطلق دون تبصر لتصيب الأكابر والعمالقة فى مقتل !!.

كثيرا ما تألم من ثقل الصدمة ؛ كثيرا ما فضفض للأستاذ كريم ؛ متسائلا

السر فى قلة الأدب المنتشرة بين زملائه . وكان الأستاذ كريم يمط بوزه فى أسف قائلا :

- «على أيامنا لم تكن العلاقات على هذا المستوى من الدناءة !! الصغير يحترم الكبير ! والكبير يحنو على الصغير ! لا تسمع فى البروفة إلا يا هانم ويا أستاذ ويا مولانا ومن فضلك ومن غير تكليف ولو سمحت لى .. إلخ ! علاقات على مستوى الفن !! اليوم صار الوسط الفنى لمامة !! اتسعت مساحة العمل قبل إعداد الكفاءات والكوادر اللازمة فامتلأت الساحة بكل من هب ودب تحت راية الاشتراكية وبمبدأ إتاحة الفرص وعدالة التوزيع وما إلى ذلك من عبارات حق يقصدها تبرير الباطل وشرعية الخطأ !! عليه العوض !!»

وعلقت أم فريد :

- «لا تنسى يا أبو فريد أن الثورة نجحت فى تكسير كل الرءوس الكبيرة فى البلد !! لايجب أن يكون فى البلاد رأس أعلى من رأس الثوار ! والثوار يعنى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح نصر وشعراوى جمعة وعلى صبرى وسامى شرف وكل واحد من هؤلاء حكومة قائمة بذاتها وفى نفس الوقت يعرف مركزه أمام الرأس الكبيرة الوحيدة فى البلاد !! والله لولا ذكاء عبدالناصر ومعرفته بأنه محتاج لخدمات أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وتوفيق الحكيم وأمثال هؤلاء الأذكياء الثعالب الماكرين لمسحهم من على وجه الأرض !!هو صحيح يعرف أن لهم شعبية كبيرة والضرب فيهم يحرج موقفه لكن منذ متى كان يهمه حتى من الشعب نفسه ؟! إنما هو ذكى يستمع لمشورة مستشاره الخصوصى العاقل محمد حسنين هيكل فيجعل من أمثال هؤلاء رموزا يحرص عليهم لزوم المظهر !! أنسيت يا أبا فريد أن الثورة مرمطت كثيرا من الناس المحترمين مرغت كرامتهم فى التراب لمجرد أنهم خاصموها فى الرأى ؟! ألم تسمع ما يتناقله الناس فى السر عما يفعله صلاح نصر فى كبار الفنانات ليرغمهن على الشرمطة والمومسة خدمة لجهاز المخابرات !! والله إن دمى يغلى كلما جاءت سيرة هؤلاء الشياطين !! منذ يومين كانت عندى مطربة مشهورة !

قطعت قلبى وهى تحكى لى عما فعلوه بها ! حكموا عليها أن تكون عاهرة ! صوروها عارية ! سجلوا لها شرائط وهى فى الفراش مع من أرغموها بالنوم معه خدمة للوطن !! بل ومع زوجها !! زعيم أفريقى بغل نتن ظل ليلة كاملة ينهش فى لحمها بأسنانه وأظافره حتى شوهها جعلها تنزف من كل مكان فى جسدها فحولوها إلى المستشفى وزعموا أنها تعرضت لحادث سيارة ليبرروا لزوجها ولأهلها مافى جسدها كله ووجهها من خدوش وعض ونزع مفاصل ! والمؤلم أنها فى النهاية لم تجد فى جوفه أية أسرار أو معلومات !! تقول لى ثورة ؟! ثورة الشؤم ياليتها غارت بها الأرض !! أضاعت البلد وهيبة الناس وزيفت كل شىء ! والله وربنا ما يرضى بهذا أبدا ولابد أن يفضحهم واحدا واحدا !! يمهل ولايهمل !! أنت الآخر طيب ياسى عبده !! أنت فلاح وعندكم مثل يقول : ماقدرش على الحمار شد البردعة !! هكذا الناس الآن ياسى عبده إلا يقدرون على شتيمة من يستحق الشتيمة فصاروا يشتمون بعضهم بعضا !! وعلى كل حال لماذا تستغرب ؟! الرئيس عبدالناصر نفسه يتلفظ بالألفاظ السوقية فى خطاب رسمى ! يقول عن الملك حسين ابن زين ! وعن ملك السعودية سأنتف ذقنه ! وعلى أمريكا أن تشرب من البحر ! وتجىء أنت بسلامتك فتعترض على أن الزملاء يشتمون بعضهم بألفاظ سوقية ؟! نصيحتى أن تكون فى حالك ! وبصراحة فلن تسلك معهم وتأخذ حقك إلا إذا كنت قليل الأدب مثلهم طويل اللسان !! أما الذين يتكلمون عن الأخلاق والقيم الوطنية هذه الأيام فإنهم أشبه بنكتة خطيب المسجد الحشاش أتعرفها ؟ أحكيها لك : وقف الخطيب على المنبر فى صلاة الجمعة ينهى الناس عن شرب الحشيش ويصرخ بأعلى صوته يعظهم بأن الحشيش ضار بالصحة يخرب البيوت والأدمغة ولهذا يحرمه الله ! فسأله رجل على نياته : وما الحشيش يا مولانا ؟! فدس الخطيب أصابعه فى لفة العمامة وأخرج قطعة حشيش رفعها أمامهم قائلا : مثل هذا ! ثم دسها واستأنف الخطبة !!»

ضحكوا ؛ وأضاف الأستاذ كريم :

– « إضافة لكلامك يا أم فريد فإن الثورة فتحت جميع الجامعات والمعاهد

العليا للسفلة والرعاع وحثالة المجتمع ! والسفلة ليسوا هم الفقراء بالطبع ! حصلوا على شهادات عالية لكنهم بلا أخلاق بلا تربية فى الأصل ! واكتملت الكارثة بأن أصبحوا الآن هم عصب الحياة فى كل مجال !!» .

أستدركت أم فريد :

- «علمتهم الثورة لكنها مسحت شخصياتهم !! أذلتهم ! منعتهم من الكلام فى السياسة طعنتهم فى ضمائرهم نفت الأساتذة المحترمين وسلطت عليهم أساتذة لا خلاق لهم يبيعون لهم العلم بالقطارة ويشتغلون مخبرين عليهم !! أهل الخبرة تم استبعادهم من كل مكان !! وأهل الثقة خيالات مآته وماهم بأهل لشىء بالمرة !! منظمات الشباب طابور من المخبرين وكتاب التقارير مطلوقين على عباد الله الشرفاء المساكين !!» .

هز أبوفريد رأسه فى تأييد وعلى شفتيه ابتسامة حرجة تنضح خوفا وتوجسا ؛ ثم مال برأسه فى صوت خفيض :

- « لا أعرف متى ينتهى هذا الكابوس ! هل سمعتم بما حدث للمطرب المسكين كمال حسنى ؟! نعم كمال الذى يشبه صوته صوت عبدالحليم كما يزعمون ! مع أن صوته فى نظرى ونظر أم فريد أحلى بكثير ! مبتهج مبتسم ملىء بالأمل ! اكتشفه المذيع الكبير حسنى الحديدى فى برنامج ركن الهواة فأعطاه اسمه كما أعطى المذيع حافظ عبدالوهاب اسمه لعبدالحليم شبانه ! وكان عبدالحليم قد أصبح مؤسسة قائمة بذاتها منذ صار مطربا خصوصيا لثورة عبدالناصر فكبرت نفسه على زملاء الكفاح وانطلق يبحث عن زملاء ملائمين للمرحلة ! لهذا رحب الموجى وغيره بالتلحين لكمال حسنى فنجح وأحبه الناس حينما غنى مع شادية فى فيلم سينمائى وبدأ يشق طريقه ! هل علمتم بما جرى له؟ طبعا لا ! المسكين كان عندى هنا منذ يومين فى حالة تصعب على الكافر من شدة الرعب !! بكى بحرقة ووجع ! قال المسكين إنه دعى لأول مرة فى حياته للغناء فى حفل أضواء المدينة فقابله الجمهور بعاصفة من التصفيق ! فى الحفلة التالية طلب لنفس البرنامج فطلب الفرقة الماسية فتهربت منه ! فلجأ لفرقة من الدرجة

الثانية ! وفى الحفل بدأ يلاحظ أشياء غير طبيعية : الوجوه خلف الكواليس تتجنب النظر إليه ! عمال الميكروفات لا يلاطفونه كالعادة رغم أنه ينفق عليهم ما يتقاضاه من أجر ! الفرقة الموسيقية غير متحمسة ! مع ذلك غنى بكل أعصابه تحديا للجو المحيط به ! صفق الجمهور بحرارة طلب الإعادة مرة ومرات ! أثناء ذلك غاظه مجهول خلف الكواليس برفع صوت الراديو على اللحن المميز لنشرة الأخبار لبرهة عابرة فتأكد كمال بغيظ كظيم أن الميكرفون قد انتقل إلى الأستديو لإذاعة نشرة الأخبار ابتداء من فقرته يعنى لم يسمعه أحد ممن فى البيوت !! ما كاد المسكين يخرج من المسرح إلى بيته حتى وجد فى انتظاره أربعة رجال أشداء قالوا له : تفضل معنا حيث نطلبك فى كلمتين !! أخذوه ومضوا ! شحنوه فى سيارة بوكس فورد ! ذهبوا به إلى بناية فى حى لاظوغلى ! ركبوا المصعد ! أدخلوه على رجل مهيب متجهم الوجه مثل القليطة قال له : يا هذا هذه آخر مرة تغنى فيها ! قال المسكين : مش فاهم ! قال الرجل المتجهم فى شخطة قوية : إنشاء الله ما فهمت !! أدرك المسكين وقد أهين أنه أمام واحد ممن إذا قالوا فعلوا فقال له : ولكن يا أفندم ! سعادتك تعلم أننى استقلت من شغلى فى البنك وأحترفت الفن !! فهب الرجل فى وجهه : عد إلى شغلك الأصلى إشتغل أى شغله إولع بجاز المهم أنك لن تغنى بعد الآن ! هذه أوامر عليا ! غناء ممنوع ! وأنت الجانى على نفسك ! مفهوم ؟! هز المسكين رأسه يعنى مفهوم طبعا ! لكن الرجل شخط فيه بعنف : إنطق !! فنطق : مفهوم يا أفندم !! فشوح الرجل الغليظ بذراعه : مع السلامة ! ثم ناداه بعد أن خطا خطوة واحدة : إسمع : لو أردت نصيحتى فسافر إلى أى مكان وأترك مصر الأن لأن حياتك ربما كانت فى خطر ! وإياك أن تفتح فمك بهذا الكلام !! الولد يا ولداه صار جلدا على عظم فى أربعة وعشرين ساعة ! يمشى يتلفت وراءه من شدة الرعب ! ينام كل ليلة فى مكان مختلف !! بات عندى ليلة ! قال : دبرنى ! قلت : دبرنى أنت فبياتك عندى لن يمر بسلام ! ولكن أم فريد هذه التى تجلس أمامك أرجل منى بصراحة ! هى التى دبرته ! كلمت ناسا تعرفهم فى إذاعة الكويت قالوا لها : إرسليه فوراً !! اليوم فى الفجر جمع المسكين

حقائبه وتسلل إلى الكويت ليعيش هناك !! وإنى واثق أنه سيرجع لشغلته الأصلية كمحاسب لأنهم سيحاربونه فى كل الإذاعات العربية لصالح عبدالحليم حافظ مطرب الثورة المدلل !! هل يستطيع واحد منا أن يفتح فمه ؟!» .

زفرت أم فريد فى حسرة :

– «فكرتنى بالولد عبدالرءوف إسماعيل ! يا قلب أمه صوت كالقيثارة ! إنه عبدالحليم وعبدالوهاب معا فى صوت واحد ! إحساس وذكاء فى الأداء ! ترك بصمة بأغنية واحدة مشتركة مع نجاة الصغيرة من تلحين محمود الشريف : وطنى وصباى وأحلامى !! بهذه الغنوة قلب الدنيا على رأسه ! انسدت بعدها أبواب الإذاعة فى وجهه فأخذها من قصيره وسافر إلى الكويت ! كان بعيد النظر ويحترم نفسه ! ولابد أن الحرب لاحقته فى كل مكان فطلق الغناء بالثلاثة صار يقلب عيشه فى شغل بعيد عن الفن !! خسارة الغناء بغياب هذا الولد لا تعوض ! ربنا يستر علينا بقية أيامنا لنخرج منها بكرامتنا !!» .

وشوحت بذراعها كأنها تقول : فضونا من هذه السيرة الشائكة المرة . إلا أن عبدالبصير هو الذى نطق هذه العبارة بنفسه حينما استشعر الرعب الحقيقى ؛ ثم استغفر الله وطلب الستر بصوت عال . ولحظة شعر بأن شخصية جيدة تولد الآن فى قلبه : سيغلق أذنيه عن كل شىء يسمعه ، لن يكون له أى دعوة بأى «مواضيع»، لن يتكلم ، لن يهتم بمن راح ومن جاء ، لايريد أن يعرف حتى اسماء الوزراء ولا المدراء ولا حتى الغفر ، لن يكون مؤدبا مع زملائه حتى لا يؤكل أو يستضعف خاصة أنه لاحظ أن أعلاهم صوتا وأطولهم لسانا أكثرهم تواجدا ومكسبا . لن ، ولن ، ولن ؛ إلا أنه كان يحاول مع ذلك إسكات اللغط المرتفع داخله لكى ينصت إلى صوت خافت يتردد فى أعماقه يريد إنذاره بأن الطريق حالك وشاق ، وشائك . ومع الخفقان الشديد لقلبه كان يدرك أنه فى احتياج للإنصات جيدا لهذا الصوت قبل أن يدلهم الطريق تماما .

بات مسخا مثيرا للعجب أكثر من الإعجاب . المتحدث معه قد تجىء عليه لحظة لايجد أمامه شخصا بمعنى الكلمة يبادله الحديث ؛ ربما رأى ابن بلد ساذج ، كل

كلامه تطجين فى تطجين ، لايعرف كيف يصوغ رأيا أو وجهة نظر فى عبارات مستقيمة مهذبة ؛ إنما كل آرائه ووجهات نظره عبارات مبتورة موتورة غليظة خشنة جارحة ؛ فهذا فنان ابن قحبة ؛ وهذا فن وسخ ؛ وهذه بلدة من الشراميط ؛ وهذا المدير إن ضايقه فى المرة القادمة فسيحرر له محضرا فى القسم ؛ وهذه الراقصة لبؤة ، وتلك مغنية نصف كم ؛ ياعم سيبك ؛ غدا سوف يطربقها الله على رءوسهم ؛ إلى آخر هذا القاموس الذى لا يوجد إلا فى أحقر الحوارى والمقاهى الرخيصة فضلا عن أنه لا يليق بأصحاب المواهب الفاخرة . لقد أصبح أشد وساخة وسوقية من الوسط المحيط به ؛ أصبحت شكواه من قلة الأدب لا محل لها وقد صار علماً من أعلامها .

شخصية فقيرة جدا فى المحتوى الثقافى والإنسانى ؛ مع ذلك هو إنسان كريم طيب القلب حقا . ولأنه خاوٍ تماما من كل مايمت إلى الثقافة بصلة ؛ فإنه بات محض أصابع مدربة على درجة عالية جدا من المهارة والبهلوانية ؛ لكنها محض مهارة ، محدودة الأفق ، غير خلاقة . وآخر قطعة ألفها منذ سنوات طويلة بقيت حتى الآن لم تكتمل ؛ ومن الواضح أنها لن تكتمل فى ظل انحدار الوسط الذى انتمى إليه ودخله متعشما أن يستمد منه الثقافة والمعرفة والنمو والسمو ؛ فإذا العكس هو ماحدث ؛ لم يعد التأليف يلح عليه مطلقا ؛ لم تعد تطرأ عليه أية خواطر موسيقية مبهجة كتلك التى كانت تداهمه فى ظل عشقه البكر الأول لسعدية المليجى. إلا أن حماسته للمران والتدريب المتواصل لم تفتر لحظة واحدة . وكان عزاؤه أن جميع من يستمع إلى تدريباته ينبهر بما تفتتحه من مناطق نغمية شبه مجهولة ، وما تكشفه من قدرات للأوتار غير مألوفه من قبل .

إلا أنه وقد بدأ يلاحظ ذلك على نفسه ؛ لاحظ ماهو أكثر أهمية فى نظره : شىء يشبه النفور المتبادل بدأ يقوم بينه وبين الكثيرين من كبار العازفين . الكثيرون منهم أصبحوا لايطيقون الجلوس معه أطول من ربع ساعة ، لا أحد منهم يرحب بالدخول معه فى أى حوار أو محادثة ؛ لا أحد يسأله رأيه فى أى شىء ؛ تجنبوه تقريبا ولكن فى شىء من اللطف والرقة كما أن أحدا لم يعد يتحدث عنه

بالحماسة السابقة ؛ بل كف الجميع تقريبا عن الحديث عن موهبته ؛ فإن سمعوا مبهورا ؛جديدا يتحدث عنه بإعجاب أمسكوا هم التعليق ؛ فإن طولبوا بالتعليق رددوا عبارات مدغمة غير مفهومة ؛ أو مفهومة لكنها حيادية تماما . من كانوا من قبل أصدقاءه الحميمين باتوا إذا جاءت سيرته بينهم علقوا على فتور صداقته لهم بكلمات سريعة موجزة : «مغرور - لسانه طويل - مدب - عصبى - جهول .. إلخ» وبعد أن كانوا يساندوه إذا تحدث عن نفسه بزهو أو طالب بتحسين وضعه ؛ أصبحوا يفعلون ذلك بشيء من اللؤم والالتواء يعطى أثرا عكسيا فى غير صالحه .

زوجه منال كانت أذكى منه كثيرا فى العلاقات العامة كانت تعرف بالبداهة أن مشاعر الغيرة والحقد هى التى تحكم علاقة كبار العازفين بزوجها . لسان زوجها طويل أى نعم ، وحاد ، والاتهامات الشنيعة هى أقرب شيء إليه ؛ إلا أن ذلك مهما كان لاينفى مشاعر الغيرة من رجل بلا علم على الإطلاق ولكن موهبته تتفوق عليهم ؛ ثم إنها تعرف - وهم أيضا لاشك يعرفون أن من يعاشر زوجها يوما واحداً سرعان ما يدرك أن لسانه فى واد وقلبه فى واد آخر ، وأنه مزدوج الشخصية ؛ فالشخصية التى تعزف على الكمان هذا العزف البديع المؤثر ليست هى التى تتعامل مع الناس . وهذا يعنى فى نظرها أن الذين كرهوه وحقدوا عليه فى الخفاء وبدأوا فى الدس والكيد له كانوا مستعدين لذلك فى الأساس ؛ فما صدقوا أن أعطاهم الفرصة كاملة ؛ سلمهم المبرر الظاهرى المنطقى . لقد درست هى الأخرى أخلاقيات الوسط الفنى جيدا ؛ إذ أن شقتها هذه صورة مصغرة منه ؛ أصبحت على ثقة من أشياء يقشعر منها البدن كانت تسمعها ولا تصدقها . نعم هى الآن موقنة من وجود من هو مستعد لقتل منافسه فى الشهرة والاستحواذ على الفرص ؛ نعم هناك وحوش بلا ضمائر يستلبون عفاف القاصرات بوهم الشهرة ؛ نعم هناك من هو مستعد للتفريط فى عرضه مقابل النجومية الزائفة ؛ نعم هناك من يستعين بالحكومة على ردع منافسيه وإيقاف نموهم! نعم هناك أشخاص مؤسسات لا تعرف الرحمة أو الإنسانية فى سبيل استمرارهم كمؤسسات ؛ نعم أم كلثوم مؤسسة وعبدالوهاب ألعبان وعبدالحليم أخطبوط ؛ وكل فنان جديد إنما

يتوقف مستقبله على مدى قدرته على أن يكون أخطبوطا متفرع الأذرع والسيقان والرءوس والأعين والذيول؛ إن لم يكن للمطرب أو المطربة رءوس في الإذاعة والتليفزيون والصحف والسوق فإنها ضائعة وهو ضائع لامحالة مهما كانا على موهبة ؛ من ليس غولاً أكلته الغيلان ؛ لقد رأت كل هذا بعينيها ولمسته بيديها؛ رأت كيف أن الإنسان في هذا الوسط لابد أن يكون ناعم الملمس منافقا كذابا أفاكا بلا ضمير قادرا على التلون في سرعة البرق . زوجها إذن بالنسبة لهؤلاء وأولئك – على خشونته وطول لسانه وحدته – يعتبر ملاكاً طاهرا لا مثيل له بينهم . إن حذاءه في نظرها ونظر أم فريد – وهما محقتان – برقابهم جميعا بلا استثناء وعلى جميع المستويات .

لم تقلق منال من تدهور العلاقات بينه وبين كبار الموسيقيين بوجه عام ؛ يكفي أن شخصياتهم جميعا تتلاشى على المنصة أمام طغيان كمانه تلك الفرس العفية ؛ يكفي أيضا أن جميع الشبان الجدد يلتفون حوله كالدراويش يحبون حتى طول لسانه .

اشتكى لها مرة أن الصحف لاتكتب عنه ، وأن الإذاعة – مسموعة ومرئية – لا تسجل معه الأحاديث ؛ فتصورت أنه يجب أن يتكلم عن نفسه . ولكن حينما تصادف أن سجل معه التليفزيون حديثا في ليلة رأس السنة عن تمنياته للعام الجديد ؛ فوجئت به يتحدث عن شيء لم يخطر لأحد على بال : لقد تمنى أن تنشيء الدولة فرقة للموسيقى العربية تكون مهمتها إحياء التراث الغنائي بشكل معاصر؛ فالتراث يعتبر ثروة غنائية ثمينة مهددة بالضياع ومن المؤسف أن جمهور هذه الأيام لايكاد يعرف لحنا واحدا لداوود حسني أو كامل الخلعي أو عبده الحامولي أو سلامة حجازي أو أبو العلا محمد أو محمد المسلوب أو درويش الحريري أو علي محمود أو غيرهم رغم أنها ألحان عظيمة جدا صنعت كل الأجيال ؛ ثم عزف بالكمان بعض هذه الألحان ؛ وقال إن إنشاء هذه الفرقة ضرورة قومية لابد منها إذا علمنا أن عدد الحفظة الملمين بهذه الألحان – الباقين على قيد الحياة – قد أصبح شديد الندرة كما أنهم في طريقهم إلى فقدان الذاكرة ؛ ولابد أن

تتكون هذه الفرقة من خيرة العازفين وأجود الأصوات الكورالية ؛ وأن يشرف عليها ويقودها واحد من عمالقة الدارسين بحيث تقوم بتقديم هذه الألحان فى صورة عصرية حديثة بتوزيع جديد ، أوركسترالى . ولهذه الفرقة أكثر من هدف : إحياء التراث ونشره بين الأجيال الجديدة حفاظا على سلامة ذوقهم وشرقيتهم ، وربطهم بتراثهم وفى نفس الوقت تكون الفرقة بمثابة معمل للتفريخ يتخرج فيها المطربون والعازفون .

انبسطت أسارير منال من شدة إعجابها بهذه الفكرة ، ومن كونها فوجئت بأن زوجها تحدث جيدا فى حدود اللياقة والتهذيب . لبلتذاك اطمأنت ؛ وقامت لتستحم، وتغير ثيابها .

(٥٦)

ربما كان من قبيل الصدفة أن وزير الثقافة - وهو المثقف الجهم ذو القراءات العميقة الجادة والاهتمامات الفنية والفكرية المتنوعة - لفتت نظره شاشة التليفزيون المفتوح فى الردهة أمام أهل منزله، فجذب انتباهه حديث رجل جهم الملامح مثله كبير الاسنان يتكلم فى حماسة شديدة عن فكرة انشاء فرقة للموسيقى العربية تتخصص فى تقديم التراث قديمه وحديثه فى ثوب عصرى بتوزيع اوركسترالى يلعب فيه الكورال دورا كبيرا .

بدت له الفكرة وجيهة إلى حد كبير ، اعطي أذنه للمتحدث فلما شرع يعزف بعض الالحان القديمة على الكمان فاضت على اعطافه بهجة طاغية، وانتبه فى كثير من الوجل الناتج عن شعور مرهف بالمسئولية ان حفظة التراث الغنائى القومى ينقرضون إن بالموت او بعجز الشيخوخة. إنه وهو وزير للثقافة مفتون بالموسيقى العالمية الكلاسيكية القائمة على الفكر والتأليف ، وخاصة فاجنر والذى يملك من تسجيلاتها مكتبة زاخرة ما بين شرائط واسطوانات - يتوق الى استكمال تسجيلات لألحان عربية تراثية يعشقها ويترنم بها كثيرا فى خلوته .

تذكر فى الحال الحانا كثيرة عظيمة كان يستمع اليها فى طفولته وصباه وشبابه ثم اختفت تماما من سوق الغناء بل ومن الحياة كلها ، لعبده الحامولى وسلامة حجازى وعبد الحي حلمى وصالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا وسيد درويش ومنيرة المهدية بل وزكريا احمد والقصبجي الكبير وصبرى السوربونى ، وتساءل : أين ذهب كل هذا الآن ؟! كيف سمحنا له أن يوشك على الانقراض ؟!

دوت فى اعماقه – على انغام الكمان الساحرة – بعض الحان حميمة، حملت معها اطيافا من الذكريات الحلوة معطرة الالحان ربما يكون فى مكتبته على اسطوانات قديمة مشروخة الصوت . حضرت فى قلبه الحان بعينها، تخيلها على صورة حديثة خلابة بأصوات شابة دراسة يصاحبها تخت كامل من الآلات الشرقية والغربية، توقع لفرقة من هذا النوع نجاحا جماهيريا مدويا. عندئذ تغير المشهد على شاشة التليفزيون اثر انتهاء المتحدث من حديثه فظهرت اغنية خفيفة رقيعه لمطربة لا صوت لها لا حس لا معنى، ناهيك عما فى الأغنية من صخب وابتذال ، خيل اليه ان الواقع يحاوره ، تسمرت الفكرة فى رأسه كضرورة قصوى فى مواجهة هذه الغثاثة . على أن الفكرة سرعان ما اختبأت تحت عشرات الأفكار والمشاريع الملحة العاجلة . كان موزع النفس بين مشاريعه الخاصة كمثقف ، وهى دائما طموحة مكلفة مرهقة . ومشاريع الوزارة وهى لا تقل طموحا وتكلفة وارهاقا . إنه الظاهرة الثقافية الوحيدة تقريبا بين تنظيم الضباط الاحرار القائم بالثورة ، وكان جادا بالفعل فى التأسيس الثقافى لوزارة تنشأ لأول مرة فى تاريخ البلاد، فوضع مؤسسات للمسرح والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية، والثقافة الجماهيرية والمعاهد العلمية المتخصصة .

لم تكن فكرة إنشاء فرقة غنائية تختص بتقديم التراث الغنائى العربى فى صورة عصرية اوركسترالية مجرد فكرة عبرت رأسه ثم طواها الزحام فى النسيان ، إنما اختفت فى ذهنه مؤقتا ربما لكى تختمر على مهلها. وفيما هو فى مكتبه ذات يوم إذ دخل عليه احد وكلاء الوزارة وهو من فريق الضباط ايضا إلا انه موسيقى، لعله كان فى موسيقات الجيش، إلا أنه يفهم جيدا فى علم الموسيقى،

كما يجيد العزف على بعض الالات الوترية ويغرم بكتابة المقالات والأبحاث فى تاريخ الموسيقى وربطها بنهضة الشعوب. لم تكن كتابة جيدة بالطبع لكن استمرارها فى الصحف جعل من أسم انور خليل ابو ضيف علما من الأعلام، فأصبح يدعى لكل ندوة ولكل برنامج اذاعى، ولكل حفل فى جميع مجالات الفن عامة، وأصبح لا يتورع عن الإدلاء برأيه - العلمى - فى كل هاتيك المجالات الفنية بلا استثناء ، دون أى قدر من الحياء . كان طويل القامة ممشوق القوام تنتهى قامته العملاقة برأس صغير مستدير كالقلقاسة يظللها شعر خفيف ناعم يميل علي الفودين. وجهه مكتنز الملامح ضيق الخدين دائرى الصدغين مستقيم الأنف على عتبة مكونه من شارب ثقيل مضموم تحت طاقتى الأنف ، كالخنفساء الكبيرة ، ضيق العينين، حاد البصر فى انتهازية متألقة ، مع ذلك يتدلى علي صدره منظار للقراءة بسلسلة ذهبية حول رقبة طويلة ممتلئة ، شكله بوجه عام يأخذ سمت المثقفين الاجانب .

هو الى ذلك رقيق الحاشية هادىء الطبع بارد الاعصاب نادر الانفعال فى ركاته وسكناته وكلماته ثقة زائدة عن الحد هى بالطبع موروثة عن الضابط الذى نه ذات يوم قريب . الواقع ان التراث العسكرى بقى ماثلا فى سلوكه العام، لا تمل مناقشة رأيه ، او التلكؤ فى تنفيذ اوامره ، يكاد يأمر زملاءه وموظفيه ان يلوا انفسهم الى التحقيق اذا ظهر منهم أى تراخ فى فهم وجهات نظره او بهه عدم الاقتناع بها ، إلا أنه سريع التدارك ، فالحق - يشهد زملاؤه - أنه نوى الجوانح على قلب طيب محب للجد والعمل والاجتهاد كما أنه مولع بأمور لثقافة يعشق التحدث فى قضاياها المختلفة .

أقبل على الوزير بوجه باش :

- « صباح الخير سيادة الوزير جاءتنى فكرة أكثر من عبقرية ! عكفت عليها فى الحال درستها من جميع جوانبها وإنى لفخور بتوصلى إلى هذه الفكر ة!!» .

وقدم له ملفا انيقا - ما أن صافحت عين الوزير غلافه وقرأت العبارات المدونة عليه بالخط العريض حتى أشرق وجهه واتسعت الابتسامة على وجهه المقنع الملامح

ذى اللون النحاسى القريب الشبه بتمثال شيخ البلد الفرعونى. قرأ العبارة ثانية فى شغف : مشروع انشاء فرقة لتقديم التراث الغنائى العربى فى ثوب عصرى. صار الوزير ينقل البصر بين هذه العبارات ووجه وكيل الوزارة الذى وقف يبتسم فى سعادة من شعر ان اقتراحه صادف هوى فى نفس الوزير . قال الوزير فى ابتسامة دبلوماسية تفيض خبثا عميقا :

– هذه الفكرة من بنات افكارك يا أستاذ أنور؟، صاح وكيل الوزارة كمن يرد اتهاما عن نفسه :

– « لم اسمع مخلوقا يتكلم عنها من قبل !! إنها لم تخطر ببال احد على الاطلاق غيرى !! إقرأ سيادتك لتعرف انها مدروسة ولا يتفتق عنها إلا عقل دارس فاهم !!! » .

زام الوزير بنبرة ذات معنى وقد اتسعت ابتسامته وكثفت ظلالها . اشار له أن يجلس مرددا بصوت عال :

– « ما أعجب توارد الخواطر » .

ثم شرع يقرأ المذكرة التفصيلية التى حددت كل شىء حتى اعداد العازفين وأفراد الكورال ومرتباتهم ، ثم اشارت ضمن كلامها عن المصادر التى ستستقى منها الفرقة الالحان التراثية القديمة – إلى رجل يدعى محمد عبد السلام، من قدامى الموسيقيين ، عاصر الشيخ على محمود وزكريا احمد وداوود حسنى وكامل الخلعى، ويعتبر من الحفظة النادرين فى مصر، كما أن لديه مكتبة موسيقية عامرة بالاسطوانات والشرائط والنوتات يضعها كلها فى خدمة هذا المشروع القومى. قرأ الوزير المذكرة باستمتاع كبير ، صار يضع خطوطا بالقلم الرصاص تحت كثير من السطور . فما أن اتم قراءة المذكرة وملحقاتها عن الميزانية المالية حتى تناول ورقة بيضاء ، وسحب من جيب سترته الداخلى قلمه الباركر ذا الغطاء الذهبى ، وكتب كلاما كثيرا، ثم وضع الورقة مرفقة بالملف ، وهز رأسه ناظراً إلى وكيل الوزارة فى امتنان بما يعنى أن المشروع قد وجد قبولا حسنا، وما عليه الا الشروع فى التنفيذ بدون ابطاء .

إن هى الا شهور قليلة حتى نجح الوزير فى تجميع كافة الامكانيات المطلوبة وفى استصدار قرار جمهورى بانشاء الفرقة ، (فرقة التراث العربى)، على أن تستعين بعناصر من فرقة المسرح الغنائى ، وأن تتخذ من معهد الموسيقى العربية فى شارع رمسيس مقرا مؤقتا لها إلى أن يتم بناء قاعة خاصة بها يطلق عليها اسم سيد درويش فى منطقة الهرم، وأن يعين أنور خليل أبو ضيف مديرا عاماً لها.

(٥٧)

لم يكن عبد البصير واعيا بحقيقة ان فكرته تم الوثوب عليها، فسجلت فى التاريخ باسم وكيل الوزارة . لكنه شعر بفرح عظيم لمجرد ان فكرته لقيت قبولا حسنا، وإذ وقع عليه الاختيار ليكون من بين عازفيها، وإذ علم أن قاعة قيمة يتم بناءوها للفرقة، تذكر حلما رآه منذ أعوام طويلة آيام كان يعيش فى مدينة طنطا، إذ رأى نفسه يعزف بين فرقة مهيبة على مسرح فى قاعة فخيمة حديثة البناء ، زاهية الألوان ، وقيل له إن هذه القاعة اسمها قاعة سيد درويش ، وكان لحظتها يشارك فى عزف دور انا هويت لسيد درويش ، فلما رأى أن القاعة المزمع إنشاؤها ستسمى بهذا الاسم شعر برعدة هزته من قمة رأسه الى أخمص قدميه .

فى اجتماع للفرقة الموسيقية بوكيل الوازرة المختص لمناقشة تصورهم عن عمل الفرقة وهدفها ونظام العمل فيها كان صوت عبد البصير اكثر الاصوات وضوحا وفهما وجذبا لكل انتباه، كما أن وكيل الوزارة - لأمر ما كان اكثر ميلا للاخذ بارائه ووضعها فى ا لأعتبار ، سيما وأنها كانت تنم عن فهم دقيق جدا لرسالة الفرقة ، ووعى عميق لدورها ، ولدهشة الجميع أملى على وكيل الوزارة حوالى عشرين اسما من اسماء الحفظة العتاة من طائفة المشايخ والموالدية وقدامى المطربين ، يثق جيدا فى المامهم الكافى بأكبر قدر فى الالحان القديمة بل إن ذاكرة بعضهم تستوعب تراثا يرجع الى اكثر من قرن من الزمان .

طرحت الأسماء المرشحة لقيادة الفرقة موسيقيا. كلها أسماء لها وزنها الثقيل، لكن عبد البصير اصر علي اقتراحه بأن يكون المايسترو عبد الصبور ابو عميره هو القائد لا أحد غير ، لأنه يعتبر خبيرا فى الموسيقى الشرقية، أما المايسترو عبد الحليم على المرشح أو الكفة الراجحة فإنه متخصص فى الغربيات وهو استاذا كبير فيها .

ما أدهشه أن بعض زملائه الذين لم يعجبهم تألقه فى هذه المناسبة وتوجسوا من احتمال لمعانه ومن ان يتبوأ فى هذا المشروع مركزا مرموقا ، راحوا يدسون الاسافين فى طريقه لدى المسئولين ، حتى اوهموا وكيل الوزارة انور خليل ابو ضيف ان عبد البصير يسعى لأن يكون المدير خاصة انه يزعم فى كل مكان انه صاحب الفكرة . ذعر وكيل الوزارة طبعا لأنه فى حقيقة الامر اخذ الفكرة منه اثناء حديثه عنها فى التليفزيون ، خشى أن يتطاول عليه فى الصحف لينازعه فى شرف انتماء الفكرة اليه ، فراح هو الآخر يدق الاسافين بهدف تحجيمه وايقافه عند حده ، بات لا يعطيه اذنا صاغية ، بل ويسفه من افكاره ويذكره فى كل لحظة انه رجل أمى غير دارس وأن عليه ان يترك الكلام والآراء لاصحاب العلم، مما اثار غيظ عبد البصير واستفز لسانه المفلوت ، فأصبح يرد الصاع صاعين، يعلن احتقاره علنا ، وفى تطجين خشن - لكل اصحاب الياقات المنشاة والشهادات العالية، فاضطر وكيل الوزارة الى تلاشيه والاكتفاء بالكيد له فى الخفاء وانتظار الفرصة السانحة للإيقاع به فى شر أعماله .

لم يكن هناك عدد كاف من المغنين المطلوب تعيينهم ، حتى بعد نشر اعلانات فى الصحف تقدم كثيرون لكنهم عند الاختبار لم يصلحوا كمطربين محترفين. إلا أن لجنة الاختبار تخيرت مجموعة من الاصوات النسائية والرجالية ككورال تتوقف قدراتهم عند الاداء فحسب .

فيما كان المايسترو عبد الصبور ابو عميرة يوجه العازفين فى اول اجتماع تدريبى - لضبط آلاتهم على الطبقة الكبيرة ، رفع عبد البصير يده طالبا الكلمة . قوبل من زملائه بكثير من الاستنكار والاحتجاج الصامتين . حاول المايسترو

تجاهله عن عمد، إذ هو فى نظره مجرد عازف عليه أن يؤدى ما يؤمر به دون مناقشة . فلما الح عبد البصير على طلب الكلمة نظر المايسترو اليه فى اشمئناط هاتفا بكثير من السأم .

- «نعم ؟ قل ! » .

وقف عبد البصير فى تواضع شديد قال للمايسترو إن الطبقة الصغيرة - بعد إذنه - هى الانسب لمصاحبة غناء المجاميع الكبيرة، خاصة أن هناك ميكرفونات ، فى حين ان الطبقة الكبيرة سوف تشوشر على الغناء ، كما أن غناء المجاميع الكبيرة من الطبقة الكبيرة سيجعل الصوت الجماعى مدغما غير واضح الكلمات.

احمر وجه المايسترو من شدة الغيظ والكمد، بكل استهانة اشار له ان يجلس، ثم لقنه درسا فى الادب، بصوت عال فى خطبة زاعقة تضمنت عبارات قاسية من قبيل : من أنت؟ ومن أدراك؟ وكيف تجرؤ؟ وأنت هنا مجرد آلة .. الخ .. الخ .. غرق عبد البصير فى عرقه الغزير وسط موجات حارة من التشفى ، صار يتمنى ان تنشق الارض وتبلعه من شدة الشعور بالحرج والإهانة ، صار يردد :

- «خلاص يا افندم ! اللى تشوفه انا غلطان » ..

ثم جلس ، لكنه - على سبيل المقاومة ورد العدوان - رفض ان يضبط كمانه على الطبقة الكبيرة . تعمد ان يراه المايسترو متراخيا غير متحمس للعمل . اعطى المايسترو اشارة بالتوقف، بعث اليه نظرة اهتمام ..

- «إيه !! مش عايز تشتغل معانا واللا ايه ؟!

ببساطة اذهلت الجميع هز عبدالبصير رأسه :

- «لا ! وإنى احتج على كل لفظ من الألفاظ التى قلتها حضرتك الآن فى ردك على اقتراحى !! وإذا انت لم تعتذر عنها امام الجميع فإنى لست فى هذه الفرقة!!».

حسد نفسه على هذه الطلاقة فلم يكن فى الواقع قد فكر فى قول شىء من هذا ولو فكر ما فعل . اما وقد فعل بكل هذه الجرأة فقد رأى من الافضل ان يستمر وإلا ضاعت كرامته تماما بين زملائه الذين يستعلون عليه لمجرد انهم يحملون ورقة

مختومة من احد المعاهد . كان سعيدا حقا وهو يرى مسحة من الخجل الرقيق تتمشى فى وجه المايسترو والذى وضح انه قد استاء من نفسه لخروجه عن حدود اللياقة فى رده . إلا انه لم يشأ أن يعتذر هكذا بالأمر ، فتش بآخر ما في طوقه من رقة ، وبابتسامة مهذبة جدا قال :

- « وإذا لم اعتذر » .. !

لكنه قالها بلهجة مازحة . فقال عبدالبصير :

- «اذن فأنا لست فى الفرقة ! » .

فى الحال سحب صندوق الكمان ، فتحه ، وضع الكمان فيه اغلقه بثبات وهدوء وثقة ثم نهض واقفا :

- « هل تعطينى الاذن بالانصراف لو سمحت »

تسمر المايسترو فى مكانه وقد اسقط فى يده فلم يدر بماذا يجيب . كانت الابتسامة الخجلة قد ماتت على شفتيه . أخيرا قال بأريحيه :

- استاذ عبده ! تفضل واجلس ! افتح الكمان واشتغل !! » .

تحرك عبد البصير ببطء حتى تخلص من صف المقاعد التى رحب الجالسون عليها بفكرة انصرافه فتزحزحوا موسعين له طريقا سهلا . انطلق فى مشيته السريعة المتطوحة الشبيهة بمشية الدهماء .

جن جنون المايسترو ، صرخ .

- « تعـــال هنا يا أســتـــاذ أنت !! ارجع مكانك !! أنا لم أعطك الإذن بالانصراف!! » .

شوح عبدالبصير بيديه فى صراخ اعلى :

- « تسمح لنفسك تهزىء الخلق فحسب ؟! أنت هزأتنى بغير موجب لمجرد اننى اقترحت عليك الفكرة الاصح !!

لكنك بدلا من مناقشتى حتى تقنعنى او اقنعك هزأتنى !!

فهل تظننى عبدا فى ضيعتك ؟!

من حقى أن احتج ، ! وانصرافى الآن بغير إذنك هو الاحتجاج الذى لا أملك

غيره!» .

شحب وجه المايسترو شحوبا واضحا. اشفق عليه البعض من المطيباتية الانتهازيين، تواتر التعليقات تصافح وجهه تملس على ملامحه بملق سمج :

– « لا تحرق دمك يا مايسترو فلا شيء يستأهل !! » .

– « خلنا فى بروفتنا يا مايسترو فهى الأهم »

– « دعه فكل واحد ادرى بمصلحته !! » .

النبرة الخفية وراء هذه التعليقات بدت كأنها تقول للمايسترو : احرق دمك اكثر !! لا تترك هذا الشخص إلا مدمراً تماما علي يديك !! .

وقف سالم ابو شفة ثم ذهب الى عبد البصير :

– « لا تركب دماغك يا عبده ! عد الى البروفة ! لاتكن مجنونا !! إنه المايسترو ! أم تراك نسيت نفسك ؟! » .

شاطت اعصاب عبد البصير ، ارتفع غضبه فى زعيقه الى أعلى ذروته ، صار يشوح بيديه وقد عميت عينه عن كل شيء حوله ، كما عمى صوته فصار لا يدرى ما يقول . بكل عنف وقوة راح يدفع من حاول لمسه ، فيلقى بهذا على الارض وبذاك على الكرسى ، غير مدرك أن هذا الذى دفعه هو مدير الغرفة انور خليل ابو ضيف الذى جاء يجرى من مكتبه ليستطيع الامر .

كان قد خيل اليه أن الجميع تكاثروا عليه لقهره ارضاءً للمايسترو وللمدير وأن جميع حاسديه قد انتهز الفرصة النادرة لسحقه وإخماد انفاسه حتى لا تقوم له قائمة ، الدنيا كلها صارت فى نظره صفراء مزرقة كلون سم الافاعى ، فاستحال هو الى شعلة من اللهب بعشرات الالسنه تصب النار فى كل اتجاه ، لم يبق على ظهر الارض مسئول لم ينل حظا من الشتائم والسباب الفاحش المتدفق بغير حساب، حتى إذا تعب من الزعيق وانهد من الفلفصة والبهدلة حاول أن يلم نفسه المبعثرة ، فصار يتخبط يتعثر فى مشيته يلهث بعمق صار من الواضح انه عمى عن الطريق ، فارتمى متهالكا على أقرب كرسى يمسح عرقه يلتقط انفاسه المبعثرة.

رغم أن الخبطة التى نالها مدير الفرقة المتغطرس كانت قوية ، اذ أن الدفعة طوحته فى الهواء فارتطم رأسه بحافة الكرسى ، فإنه مع ذلك كان سعيدا، تتصاعد من ملامح وجهه المكلبظ ومضات شريره تصب فى ابتسامة صفراء عريضة ، اخيرا جاءته الفرصة على الطبطاب ، فهذا الولد كان له كالشوكة فى الجنب، لم يكن يستريح لوجوده فى الفرقة مطلقا اذ هو الصوت الوحيد الذى يشذ عن الجميع لايعرف اللباقة ولا المجاملة ولاكيفية مخاطبة الرؤساء ثم إنه يعتبر نفسه مسئولا عن الفرقة كأنه صاحبها، كان أنور خليل ابو ضيف على يقين بأن بقاء هذا الولد فى الفرقة سيفسد عليه كل خططه، سيكون قدوة للفساد اليوم يتبجح مع المايسترو ويدفع المدير ليبطحه وغدا يجلس على كرسى المدير ..

– «تعال ورائى !! » .

هكذا اشار اليه وهو يمضى نحو مكتبه ، بلهجة آمرة صارمة .

وكأن عبد البصير قد وجد اخيرا شيئا يفعله ، اذ نهض قائما فى الحال بحماسة ، فمضى وراء المدير فى خطوات صلفة متحدية ، خطوات من استعد نفسيا لكل النتائج بكل ترحيب ، ففى تلك اللحظة كان قد وصل الى يقين قاطع بأنه لا بقاء له بعد اليوم فى هذا الوسط الموبوء المنحل، بل صار مستعدا لتطليق الكمان نفسها رغم عشقه للأسرة الكمانية : الفيولين والفيولا والتشيللو والكونترباس .

لقد كان يتعشم ان تقوده الفيولين .. الكمان .. الى الحرية والكرامة فإذا هى تقوده الى أن يكون مطية لكل منعجرف متكبر . اذا كان آلاتيه العوالم قد ابتذلوا الآلات بجهلهم وسوقيتهم ونقص مواهبهم فإن المحترفين الدارسين فيهم كمية شر تكفى لتدمير المواهب وكسر الانوف ، فأى فن ينتظرون من عازف مكسور الأنف خافض الجبين لا صوت له ؟! ..

بلهجة ضابط عسكرى عريق، سمجة كلهجة ضباط الشرطة – نقر أنور خليل ابو ضيف علي سطح المكتب :

– « عامل لى فتوة فيها يا باشا ؟! »

التهديد السمج ينضح صفراوية بشعة فى فحيح صوته المستشفى. بعصبية حادة رافضة للهجة ولصاحبها وللفرقة والوطن نفسه، شوح عبد البصير بيديه في ضيق بلغ حد الاختناق ، وقد تدفق اللعاب من شفتيه .

- «نعم أنا فتوة !!! » .

وكانت - دون قصد - قد اطاحت بكل ما على المكتب من أكواب ودواة جبر ونشافة ومقلمة واوراق . تناثر كل ذلك طائرا فى الهواء وفى وجه سيادة المدير ، الذى تسمر فى وقفته مبهوتا - أخيرا خرج صوته كفحيح الافعى ! ..

- «أنت مرفوت»! .

- «مرفوت !! يا دار ما دخلك شر !! » .

ونهض واقفا يبحث عن كمانه لينصرف . صرخ فيه انور خليل ابو ضيف بحنق شديد : .

- «أنتظر لابد أن تأخذ قرار فصلك معك حتى قبل ان يوقع عليه الوزير» .

وانحنى يكتب قرار الفصل . شوح عبد البصير فيما يتجه الى الباب:

- «عنوانى عندكم !! » .

- « قف مكانك !! سأطلب لك رجال الأمن » !!

وضغط على زر . رن الجرس . دخل الساعى ، كان يتعثر فى كثير من الخجل والحرج والتوجس من أن يكلف بعمل غليظ ضد هذا الفنان الجميل السكرة، الذى يعطف عليه باستمرار ويغدق عليه . اعطاه المدير قرار الفصل :

- يكتب على المكنة فورا ويسجل فى الدفتر ويجىء مع الدفتر ليوقع فيه بالاستلام !! اقفل الباب وراءك بالمفتاح !! » ..

أحني الساعى رأسه فى امتثال صامت ، ، وخرج وسمعت تكات المفتاح من الخارج . استدار عبد البصير قد بردت اعصابه فجأة كأنه غرق فى بحر من الجليد جلس على الكرسى مبتسما فبدت اسنانه الكبيرة كأنه يكشر عن أنيابه ، مما ادخل الرعب فى قلب المدير فأدار وجهه بعيدا عن نظرات عينيه ذات الحول الخفيف الذى اضفى على وجهه مسحة من شقاوة وغلظة شرير السيما المصرية

صار المدير يعبث بالاوراق يحاول اعادة الاشياء الى اماكنها السابقة : ادرك عبد البصير مدى الرعب الذى سببه له، فاطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه . من تحت لتحت جعل المدير يسرب اليه النظرات المحمومة وقد بدأ يوقن انه أمام مجنون رسمى لن يتورع عن فعل اى شيء راحت ضحكة عبد البصير تعلو ساخرة من كل ما حدث: أخيرا وضع ساقا علي ساق ، اشعل سيجارة فى بطء الخرمان الذى يريد الاستمتاع بكل حركة فى التدخين .

ما كادت السيجارة تنتهى حتى سمعت تكه المفتاح فى الباب. هبت لفحة ريح، على أثرها تقدم الساعى بالدفتر مفتوحا وفوقه نص القرار على ورق فلوسكاب أبيض كان الساعى خافض الرأس مطبق الشفتين يتجنب النظر لعبد البصير حتى لا ينفجر فى البكاء من فرط التأثر. استدار وخرج .أمسك المدير بنص القرار فراجعه بنظرة سريعة ثم وقع على الصورتين ، رمى من بواحدة منهما فى اتجاه عبد البصير .. تفضل ، واشار له بإصبعه على الموضع الذى سيوقع فيه فى الدفتر . بكل هدوء وثقة نهض عبد البصير فتناول الورقة ، طواها اربع طيات، دسها فى جيبه ثم وقع في الدفتر ، ثم حمل كمانه على صورة وغادر الحجرة مهرولا لا يلوى على شيء .

خرج من مبنى معهد الموسيقى الى شارع رمسيس ، القى بنفسه فى واحدة من سيارات الاجرة هاتفا فى عصبية متعاظمة :

- « حدائق القبة يا أسطى ! » .

توجست منال من منظره المتجهم ، سألته عن سر عودته مبكرا لكنه لم يرد، اسند صندوق الكمان فى ركن من حجرة الصالون تعود أن يضعه فيه، ثم جلس واضعا رأسه بين يديه . استعاد ما حدث محاولا تغليط نفسه بأى وضع ، لكنه تأكد من سلامة موقفه . خشى ان تمعن منال فى الاسئلة فنهض متجها الى حجرة النوم ، خلع ملابسه القى بها على السرير، شعر أنه ربما يخلد إلى رقاد طويل ، فزحف عليه الاكتئاب قويا داهما . اسلم نفسه لطائف النوم، ثم ما لبث أن تعالى شخيره .

أول شيء فعله في صباح اليوم التالي أن خرج يبحث عن دكان او مخزن للإيجار يقيم فيه ورشة لصناعة آلتي العود والقانون . وقد دفعه الى البحث بجدية شعوره بأن العثور علي دكان للإيجار في هذه المنطقة الآهلة أمر أقرب إلى المستحيل .

العجيب ان البحث لم يطل، الفأل الحسن وضع فى طريقه شقة من حجرة وصالة فى الطابق تحت الارضى فى منزل عتيق متهالك على بعد ثلاثة شوارع فقط من مسكنه، أغلب الظن انها كانت معدة لتربية الدواجن.

دفع فيها خلوا بسيطا ، مما اضطر منال الى ان تخلع الكثير من أساورها الذهبية . ثم شرع فى الحال فِي تجهيز الورشة مفعما بتفاؤل كبير لأن ورشة أبيه فى طنطا كانت هي الأخرى فى شقه مشابهة فى بيت مماثل. ارسل فى طلب احد إخوته من طنطا ليعمل معه صنايعيا يؤسس للعمل فى الورشة بخبرة ابيه الموروثة. ما لبث اخوه حتى جاء على الفور ومعه قائمة بقطع العدة التى سيشتريانها معا، وقائمة أخرى بعناوين المتخصصين فى تصنيع أخشاب الآلات الموسيقية . فلما فوجيء عبد البصير ان العملية تجرى فى طرق سالكة ايقن ان هذه الورشة هى مستقبل أولاده ، فاقسم ليستوردن جميع الأخشاب والأدوات والمعدات من الخارج، وقد فعل كل ذلك فيما لا يزيد على شهر واحد فبدا الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام الطيبة ، إذ أنه ذات صباح جميل مشرق فوجيء بنفسه يرتدى ثيابه الأنيقة ويمضى الى الورشة لافتتاح اول يوم عمل فيها كان يتنفس بقوة وشعور بالحرية والسيادة والتطهر ، فإذا به وجها لوجه أمام اعرابى يسوق امامه قطيعا من الخرفان ، فتذكر ان عيد الاضحى على الأبواب ، فامتلأ بفرحة غد منشود ذى تباشير الهية .. استوقف الاعرابى ، انتقى خروفين ، لم يفاصل كثيرا ، سحبهما إلى الورشة ، ربط واحدا منهما فى مدخل الورشة، وصمم ليذبحن الاخر على عتبتها قبل ان يخطو بداخلها. وكانت اصابعه الطويلة باعثة النغم العبقرى قد راحت تسلخ جلد الخروف ، فيما ينشغل ذهنه فى البحث عمن يستحقون ان يوزع عليهم لحم هذا الخروف بالمجان .

(٥٨)

أجرى المايسترور وتدريبات لا حصر لها على الطبقة الكبيرة، ولكنها كلها باءت بفشل ذريع، لم ينضبط الصوت الجماعى أبدا، عدل وضع الميكرفونات على جميع الاوجه ، أعاد التسجيل التجريبى مرات ومرات، استمع بدقة وتركيز شديدين، وفى كل مرة يتأكد له أن الصوت الجماعى - فى العزف وأداء الكورال معا - مندغم تماما، فضلا عن عدم صفائه ، وتشوشه واستحالة وصول معانى الكلمات الى الاذن فى صحة وسلامة . حينئذ أيقن أنه ظلم عبد البصير بقدر ما تسرع فى الهجوم عليه وتسفيه شخصه وأفكاره . نعم، ما كان يصح .. وهو الأكاديمى العقلانى الحقانى - أن يرد على عازفه ردود العاجزين الرافضين لأى مناقشة قد تكشف عمق خوائهم وادعائهم . إنه بهذا الرد المتسرع قد وضع نفسه فى هذه المرتبة دون أن يدرى، وكان الأحرى به أن يستمع جيدا الى وجهه نظر عازفه ويناقشها بهدوء وروية وتواضع كما يفعل العلماء المحترمون ، فالعلم قرين التواضع ، والعالم لا يضيره مطلقا ان يتعلم ممن هم اقل منه تحصيلا وكفاءة ..

أشعل المايسترو سيجارة نفث فى دخانها غضبة من نفسه على نفسه . كان جالسا واضعا ساقا على ساق، مرتديا معطفه الجبردين الكحلى، والكوفية الحريرية تحيط عنقه تحت ياقه المعطف وتنسدل علي جانبى الصدر صانعة لرباط العنق الثمين اطارا بديع المنظر . اعتدل فجأة بعد شرود طويل ، صاح فيمن حوله بلهجة أمر ضجرة :

- « أحدكم يأتنى بعنوان زميلكم عبد البصير!!» ...

طأطأ الجميع رءوسهم؛ أحمرت وجوه كثيرة بحلقت بعض العيون تعتقل الدهشة فى مهدها . قال المايسترو وقد بدا عليه التأثر :

- «زميلكم عبد البصير كان على حق فى وجهة نظره!

الرجوع الى الحق فضيلة وأنا يجب ان اعتذر عن تسرعى فى إهانته !! لسوف ننفذ فكرته ! علينا أن نضبط انفسنا من الآن على الطبقة الصغيرة !! قلت هل

يعرف احدكم عنوانه السكنى ؟! » .

قال أحدهم بغير حماس :

- «تجده فى الادارة ! » .

وقال سالم أبو شفة :

- «أنا أعرفه !! » .

فقال له :

- « إذن فخذنى إليه الآن! يجب أن أعتذر له مادمت اقتنعت بتنفيذ فكرته !!أشهد الآن أنه ولد يستاهل السلامة !! فعلا إن الطبقه الكبيرة تكون أصلح فى حال الموسيقى الصرفة ! وحينما يكون الكورال من ذوى الأصوات القوية القادرة الجميلة أما عندنا فليس سوى الكورس البسيط وقدراته لا تتجاوز الأداء السلبى العريان ! هم بلا أصوات فى حين أنهم كانوا يجب أن يختاروا من المغنين !! لكن!! ماباليد حيلة ! ليس عندنا غيرهم ! ومع ذلك فتجريبهم على الطبقة الصغيرة أتوا بنتيجة ممتازة ! نعم ! أداؤهم من الطبقة الصغيرة يسترهم ويسترنا أيضا!!».

تشجع سالم أبو شفة، قال بحماسة عاطفية متهدجة :

- «على فكرة يا مايسترو! عبد البصير هو الذى أوصى باختيار حضرتك لقيادة الفرقة ! قال إنك الوحيد فى مصر لديك حساسية عالية للموسيقى الشرقية!!».

«يا سلام!!»

هكذا صاح المايسترو، رافعا حاجبيه فى دهشة. حلا للبعض أن يركب الموجة فى الحال مذ رآها تتجه لصالح عبد البصير، طمعا فى وده برد غيبته، وتحسبا لما قد تسفر عنه هذه الظروف الطارئة . تطوع أكثر من واحد وحكى للمايسترو قصة اقتراح عبد البصير وإصراره على أن يكون المايسترو بالذات هو قائد الفرقة دون غيره، وكيف أن الخبر وصل إلى «الغير» الذى كان مقترحا فاستدعاه وعاتبه..

إلخ.

بغض النظر عما أحدثه هذا الخبر فى نفس المايسترو ومن شعور بالارتياح داعب غروره وترك فيها أثرا حميدا فإن ذهنه كان مشغولا بأشياء كثيرة تتعلق بهذا العازف، فكأن ستارا من الضباب قد انزاح عن عينيه فصارت شخصية هذا العازف العجيب تتكشف تحت ناظريه فيراه على حقيقته لأول مرة. ومضت فى رأسه لمحات كثيرة تثبت باليقين القاطع أن هذا العازف يتميز عن كل العازفين الذين تعامل معهم طوال حياته حتى ذوى الأسماء البراقة، فالقوس غير القوس والوتر غير الوتر، صوت الكمان يتفرد عنده، فرغم أنه لم يستمع إليه إلا قليلا فإنه يشعر أن الفرقة من غيرة تبدو فى سمعه خالية من الدسم، ثمة شىء ثمين - قبل الخلاف حول الطبقة فى التدريبات المبدئية الأولى - كان يسرى فى صلب العزف ثم اختفى فهزل قوام المعزوف صار رخوا مائعا دلعا كالعسل المخفف بالماء، مجرد عزف دقيق حريف ملتزم بحرفية النوتة على الشعرة لكنه بلا إحساس متوهج ومن ثم بلا إبداع بلا جوهر ثمين، فالإحساس هو القيمة الحقيقية الوحيدة التى تميز عزف الإنسان عن عزف الماكينة الحديثة المسماه بالكمبيوتر، إنه شخصيا لا يطيق العزف الآلى لأنه ضغط على الأعصاب يورثها الضيق والملل فضلا عن أنه قتل لملكة الإبداع التى لا تنمو إلا فى استمرار الممارسة ومكابدة التعبير فى ظروف نفسية متعددة متغيرة متفاوتة، فالموسيقى فن زمنى كل برهة فيه لابد أن تمتلىء بالنغم ولابد أن يمتلىء النغم بالاحساس حتى يكون للصمت خلل النغم مدلولا كالمنطوق سواء بسواء، بدون الإحساس يصبح النغم طنينا وإن انتظمه سلم الموسيقى، هذا العازف الغائب كما يتأكد له الآن كتلة من الإحساس تكمن قوتها فى أصابعه المكتنزة الممتلئة .

حين تأهب المايسترو إلى الانصراف أومأ لسالم أبى شفة أن ينتظره، ثم جمع أوراقه فى حقيبته الجلدية السوداء وتوجه إلى حجرة المدير . جلس، كالعادة أشعل سيجارة ، ثم دخل الموضوع مباشرة:

ـ «شف ياسيدى! لقد أخطأنا في حق عبدالبصير الصوفانى ولابد من إصلاح خطئنا!!».

مأخوذا شاحبا مدّ المدير رقبته إلى الأمام فاتحا فاه في حركة احتجاج مذهولة، أتبعها بقوله:

ـ «يعنى إيه؟!».

ـ «يعنى بالمفتشر! عبدالبصير الصوفانى لابد من إعادته للفرقة!!. هو بصراحة عصب الفرقة! بل يمنعنى الحياء من القول بأنه هو الفرقة!!».

هكذا قال المايسترو بلهجة من يقول: اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد، ثم غضّ بصره عن نوبة الأرتيكاريا التى ألمت بسيادة المدير فأحالته إلى مارد أهوج يضرب المكتب بقبضته يشوح يخطب يردح:

ـ «لايمكن!! كله إلا هذا!! هذا الولد لايعتبها مرة أخرى!! أنا ما صدقت أن خلصت ـ أقصد خلصنا ـ منه!! أرجوك! أنت تغامر بنجاح الفرقة! هذا الولد سينشر نوعا من التسيب في الفرقة! لن نستطيع أن نعدل عليه الخط بعد الذى فعله إن تسامحنا معه!! لن......».

ـ «من فضلك! فلنتكلم بهدوء لنتفاهم! أولا هو اسمه العازف وليس هذا الولد!! فأنا لست أقود ولدانا وإلا فأنا في نظرك ولد مثله!! إن سمحت لى فإن أى عازف في هذه الفرقة من الآن اسمه الأستاذ فلان مهما كان رأيك فيه!! هذا هو الخطاب الذى يجب أن يقوم بيننا!! ثانيا ـ لاتؤاخذنى ـ نحن هنا لسنا في كتيبة عسكرية إنما نحن فرقة فنية!! ثالثا إن الفرقة لم تنجح بعد لأنها لم تبدأ عروضها!! رابعا إن غياب هذا العازف عنها يجعل الشك في نجاحها قائما لسبب بسيط هو أننى ليس عندى صوليست في مستواه يمكن الاعتماد عليه!! ثم إن غيابه عن الفرقة يخسس العزف وأنا لا أحب التخسيس في العمل مادمت قادرا على الامتلاء!! ما الذى يرغمنى على قبول الخسة وعندى الأصيل؟! إن وجوده عامل ربط وتحميس وتنشيط وتأصيل للجميع!! خامسا وهو مايجب ألا تنساه إنه الوحيد الذى يحفظ

التـراث كله عن ظهـر قلب من الموالدية إلى مطربى الملوك حـفظا واسـتـيـعـابا وإحساسا ذكيا وأمينا! هو خبير بمواطن الجمال فى التراث فكيف أفرط فيه نتيجة موقف غبى منه ومنى أيضا؟! اسـمح لى! لقد تربيت على أخلاق علمية وفنية لا أملك لها دفعا أو خيانة!! ولقد قبلت مسئولية إنجاح هذا المشروع الذى شرفت بقيادته فإما أن تطلق يدى فيه أو فالانسحاب أكرم لى ولتاريخى الذى بنيته بالجهد والعرق ولست مستعدا لوضعه فى امتحان أحمق!!».

سحق عقب السيجارة فى المنفضة، رفع جبهته، ثقب وجه المدير المستدير المكلبظ بنظرة جامدة، كان المدير يبحث فى ذهنه عن مبرر لتأجيل البت فى هذا الأمر حتى يميته أو يجد منه مخرجا، فلما ثقبته النظرة الحادة على غير توقع اضطر إلى المراوغة العسكرية، فعلى الرغم من أنه لايدخن ولا يشرب أى مكيفات فإنه يحتفظ على مكتبه بعلبة خشبية مصدفة تمتلىء بالسجائر إذ يفتحها للضيف تنبعث منها الموسيقى، قدمها للمايسترو باسما، فنحاها جانبا بحركة لطيفة قائلا إنه لايغير سجائره المحلية، واتخذ هيئة من ينتظر النطق بالحكم النهائى لصالحه فى قضية طال الفصل فيها بغير موجب، قال المدير:

ـ «على كل حال دعنى أخاطب السيد الوزير بمذكرة مكتوبة! هذا أمر ينبغى عرضه عليه بمذكرة وافية نذكر فيها كل التفاصيل والملابسات!! وإلا فما معنى أن أفصل موظفا ثم أعود فأعينه بعد شهر واحد؟!».

المايسترو كان يتوقع ردا كهذا، إذ هو يعرف مع من يتعامل، يعرف أيضا أن التذرع بالناس اللى فوق، وانتظار الأوامر الشريفة، ودس أنف القوى الفوقية فى كل كبيرة وصغيرة، كل تلك أوضاع لم يعد يطيقها ولايقبل تداولها فى العمل الفنى، فعليه إذن ـ وليكن هذا الموقف هو المحك الأول ـ أن يرفض هذا الأسلوب، فإذا كان وزير الثقافة نفسه عسكريا فإن محصوله الثقافى الكبير شفيع له لأن المثقف فيه طمس العسكرى تماما، أما هذا المدير العسكرى هو الآخر فلا شفيع له ويجب أن ينسى أمور العسكرية.

ثم نهض المايسترو واقفا، بقوامه الفارع النحيل، مد يده بحركة محايدة ليسلم على المدير دون أدنى حماسة، بملامح جامدة ونبرة واثقة قالها:

- «كلم وزيرك على مهلك! أما أنا فمعتكف فى منزلى حتى تنتهى من مخاطبة الوزير! وحين يوافق على مطلبى بتعيين العازف المفصول عبدالبصير الصوفانى وبالشروط التى ترضيه فحينئذ سأحضر لاستئناف التدريبات!!».

وسحب يده برفق من يد المدير، خرج متجنبا رؤية وجهه، تاركا إياه يتخبط فى ذهوله كأسد جريح فوجىء بالشراك منصوبة حواليه.



أصبح يرتع فى الفرقة طولا وعرضا، الشورى شورته والكلمة كلمته، المايسترو لايرد له طلبا، لقد اكتشف المايسترو أن الله ساق إليه رجلا يحمل المسئولية الفرعية نيابة عنه لكى يتفرغ هو للابتكار والتحفيظ والتخطيط فى حين يقوم عبدالبصير بمهمة التدريب وتسجيل النصوص القديمة، كلاما ولحنا، على شرائط يقدمها للمايسترو بأصوات الحفظة العجائز الذين يعرفهم.

يوم الافتتاح كان منظر الفرقة مفرحا، إضافة إلى الكمنجات السبع حضرت أسرة الكمان كلها: الڤيولين، الڤيولا، التشيللو، الكونترباس، مع آلات الإيقاع الشرقية الحراقة، الرق والطبلة والدف والمزهر، بجوار العود والقانون والناى، وأوبوا ومندولين وبزق وجيتار وأورج وأوكورديون، الفرقة موحدة الزى، لها على خشبة المسرح مشهد مهيب: فى أعلى الخلفية صف طويل من كورال نسائى كسور حديقة مزدانة بأشجار الورد البلدى، تحتهن بدرجة صف من كورال رجالى، فى المستوى الثالث ترتص على شكل قوس عناصر الفرقة الموسيقية كغابة جميلة من الأقواس والآلات، أمامهم صف من حوامل النوت الموسيقية، فى مواجهتهم - على مبعدة قليلة - منصة المايسترو، معطيا ظهره للجمهور وقد اندمج فيما يشبه الذكر ينتفض جسده كالمجذوب ممسكا بعصاه يمتط ينكمش يترنح يتلوى كأنه ينتزع هذه الألحان البديعة من تحت أقدام الفريق لينشرها فى الهواء حواليه كفلاح

فرعونى قديم ينثر الحب فى الأرض، فتغمر الجمهور كوابل من المطر ينزل بردا وسلاما على نفوس شرقانة أضرمها القيظ فاشتاقت لهذا الغيث.

دوى التصفيق هز القاعة كانفجار البركان، طال انحناء المايسترو فى شكر وتبجيل، كلما رفع المايسترو قامته انهال فوقها دوى الهتاف العنيف يطلب الإعادة، لكنه أبدا لايستجيب لهذا المطلب، بل يعطى الجمهور ظهره، مشيرا للفرقة بطرف العصاء فينساب لحن جديد أكثر حرارة واستحواذا على الأفئدة، فتنقطع أنفاس الصالة كلها فى صمت جليل مهيب تصير الأنفاس المتقطعة كالسجاجيد الحريرية تخطر فوقها الأنغام الصادحة الحريفة اللاذعة وقد أبرز التوزيع الموسيقى الجديد جمالها وثراءها الشعورى الحار، أصوات الكورال تعلو وتعلو ثم تهبط فجأة من علياء الجوابات إلى عمق وكياسة القرارات، ومابين القرار والجواب تتراقص الأنغام رشيقة متأودة متوجعة متصببة كأنها ترسم على خد الأثير لوحات تصور ما فى جنة الخلد من حور عين وفاكهة وشراب مختلف ألوانه، البهجة مسكرة، مفرحة إلى حد الحزن، محزنة إلى حد الفرح.

حفل وراء حفل، أسبوع وراء أسبوع، شهر تلو شهر، تأصلت فى الجمهور قيم للاستماع شديدة الاحترام، فلا شوشرة ولا قزقزة لب ولا همس فى الأركان، كف الجمهور عن طلب الإعادة، عرف أن الفرقة ملتزمة ببرنامج فنى وزمنى لاتحيد عنه، فى الليالى الأولى كانت وزارة الثقافة ترسل مجموعة من الباصات تقف فى ميدان التحرير مكتوب عليها اسم فرقة الموسيقى العربية، لتسهل على الناس مهمة الانتقال إلى قاعة سيد درويش التى لم تكن معروفة بعد، وتنقلهم بعد نهاية الحفل إلى ميدان التحرير باعتباره ملتقى حركة المواصلات، وكانت الوزارة تظن أن مهمة الباصات ستمكث طويلا بل ربما أصبحت حقا مكتسبا للجمهور يتمسك به كشرط لمشاهدة الفرقة، لكنها فى الأسبوع الثانى فوجئت بأرجل الجمهور تقودهم إلى القاعة، وأمست لافتة كامل العدد تجابه الكثيرين على شباك التذاكر باستمرار، أصبحت فرقة الموسيقى العربية ملمحا بارزا ورئيسيا فى وجه الثقافة المصرية،

التف الجمهور حولها بغزارة وشغف، وضح أنه تعرف فيها على نفسه، على شخصيته الغنائية الأصيلة ، شهرة الفرقة طبقت الآفاق، أصبحت قبلة يحج إليها كل عشاق النغم الشرقى الأصيل من جميع أنحاء العالم.

تلقت الفرقة عروضا كثيرة من دول عديدة لإقامة حفلات فيها: سوريا والعراق ولبنان والأردن والسعودية واليمن وتونس والمغرب وأسبانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا، فأصبحت تحصل على إجازات كثيرة من جمهورها المصرى لتعود إليه بعد أيام مشتاقة فيتلقاها أكثر اشتياقا، المايسترو كان على درجة عظيمة من الكفاءة والجدية والإصرار على صعود النجاح، مثل مدرب الكرة يتسلم الفريق كل يوم دون هوادة فيقيم له مايشبه المعسكر للتدريب على ألحان جديدة من التراث المعاصر من عبدالوهاب والقصبجي والسنباطى وزكريا أحمد وفريد الأطرش.

جاءت بعثة من التليفزيون الألمانى لعمل فيلم تسجيلى عن الفرقة بكافة عناصرها الفنية، بعد أن أنهى المخرج عمله رأى أنه اكتشف كنزا ثمينا يصلح أن يكون مادة لفيلم آخر قائم بذاته، ذلك هو العازف الأول للكمان فى الفرقة، كان المايسترو أثناء التجهيز للتصوير يرجع إليه فى كل صغيرة وكبيرة يأخذ مشورته يلمس لديه تصحيح المعلومات عن بعض أصحاب الألحان القديمة وطريقة أدائها فى السابق على التخت الشرقى، لما لفت عبدالبصير الصوفانى نظر البعثة الألمانية بمهارته الفائقة بل غير الطبيعية فى العزف على الكمان بصورة تذكرهم ببجانينى، إضافة إلى معلوماته الغزيرة عن تراث الغناء العربى، تساءلوا عن كنة دراساته ومؤهلاته الأكاديمية، أومأ لهم المايسترو مبتسما بأنه قد علم نفسه بنفسه، أكمل عبدالبصير ـ عبر مترجم محترف ـ فأعطاهم طرفا من قصة حياته، فتكاملت فى ذهن المخرج التليفزيونى الألمانى عناصر فيلم تسجيلى كامل يعتبر فى نظره أهم من الفيلم الخاص بالفرقة ككل، فشرع فى تصويره على الفور، أخذ من عبدالبصير كمية هائلة من الكلام والعزف، على أن يقوم بتنسيقها حينما يعود إلى بلاده.

ولم يكن عبدالبصير يدرى آنئذ أن ذلك الفيلم التسجيلى الألمانى سيكون بعد بضعة أعوام نافذة له على العالمية، وأن ألحانه التى أذاعها الفيلم سرحت فى ملاهى ألمانيا وكونت له فى أوروبا اسما مدويا، وأن وفودا من المتعهدين والدارسين والصحفيين والإعلاميين الأجانب ستأتى من بلادها خصيصا لتتعرف عليه وتتعاقد على حفلات وتكتب وتذيع أسطورة حياته كإحدى أعاجيب الدنيا .. لم يكن يدرى ذلك، بل ولايكاد يصدقه، حتى وهو يلتقى هذه الوفود ويطير معها إلى كل بلاد الدنيا الواسعة .

تمت

روايات الهلال تقدم

حلم ليلة أفريقية

تأليف

سبريان إكوينسى

ترجمة

د . صبرى محمد حسن

تصدر : ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢

أحـــــدث إصـــــدارات روايـات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٣٣	جبل الروح	جاوزينج جيان	سبتمبر ٢٠٠١	٨,٠٠
٦٣٤	منعطف النهر	ف . س نايبول	أكتوبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٥	ليالى غربال	مصطفى نصر	نوفمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٦	جنرال الجيش الميت	إسماعيل قدرى	ديسمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٧	أيام وردية	علاء الديب	يناير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٨	صمت الرمل	محمد عبدالسلام العمرى	فبراير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٩	قبض الريح	على الشوباشى	مارس ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٠	نخلة على الحافة	جميل عطية ابراهيم	أبريل ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤١	المعبر	زياد عبدالفتاح	مايو ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٢	أسرار حميمة	نوريا أمات	يونيه ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٣	أوان القطاف	محمود الوردانى	يوليو ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٤	حالة مستعصية	سعيد سالم	أغسطس ٢٠٠٢	٥,٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٥١٦٦
I.S.B.N
977- O7- 0965 - 4

هـــذه الـروايـــة

بطل هذه الرواية عـــازف على آلة الكمان، نبغ نبوغا فطريا حيث ارتبط بالآلة - كتصنيع وترميم فى ورشة أبيه - وكحقول من الأنغام علمته التجارب كيف يحصدها. لقد توحد بآلة الكمان فقام بتمصيرها فأحدث دويا فى جميع أنحاء العالم بمعزوفاته التى ألفها للكمان فإذا بها روح مصر فى نغم ينبض بالهوية المصرية ، والعجيب أن هذا الفنان النجم الذى شنف آذان العالم وخلب لبه لم يكن نجما فى بلاده بل لا يكاد يعرفه أحد خارج دائرة المحترفين . والرواية تثبت أن القيمة الفنية إذا كانت صادقة وحقيقية فإنها لا تموت مطلقا ، ومن هنا فإن الصدق مع النفس يظل حقيقيا لا زيف فيه، صدقا وراءه مكايدات قاسية وصراعات مع النفس ، مع المجتمع مع الابتذال السائد ، إلا أن هذه المكابدات هى التى تصهر الفنان وتبرز أبدع ما فيه .

وهذة الرواية تتماهى فى شكلها الفنى، وفى سياقها الدرامى مع نوعية الحياة التى يعيشها البطل .. تكاد هى الأخرى تكون سيمفونية . إن المضمون الموسيقى للدراما الإنسانية هو جوهر البناء ، كما أن النوتة الموسيقية للمقطوعات التى ألفها البطل هى فى الواقع مفردات لدراما حياته الصعبة الفريدة فرادة «كمانه» وأوتاره وأنامله.



خيرى شلبى

- سبعون كتابا
- رئيس تحرير مجلة الشعر
- رئيس تحرير مكتبة الدراسات الشعبية
- كاتب متفرغ حاليا
- جائزة الدولة عام ١٩٨٠ - ١٩٨١
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ٨٠ - ١٩٨١
- من رواياته : (السنيورة) ، (الأوباش) ، (الشطار) ، (الوتد)، (العراوى) ، (فرعان من الصبار)، (وكالة عطية) ، (موال البيات والنوم)، (لحس العتب) ، (موت عباءة) ، (بغلة العرش) ، (بطن البقرة) ، (رحلات الطرشجى الحلوجى)، (صالح هيصة) ، ثلاثية : (أولنا ولد) + (وثانينا الكومى) + (وثالثنا الورق) ، وغير ذلك .

من مجموعاته القصصية: (صاحب السعادة اللص) ، (المنحنى الخطر) ، (أسباب للكى بالنار)، (سارق الفرح)، (الدساس)، (أشياء تخصنا)، وغيرها .

من مسرحيلته: (صياد اللولى)، (سوناتا الأمل)، (المخربشين) ، (الخلاص) ، وغيرها .

ترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والالمانية والأردية والكورية والصينية .